190 001

السيف والنار

في السودان

تأليف

سلاطين باشا

وتعريب جريدة البلاغ

(مطبعة البلاغ)

تمهيد

وعدنا فى التمهيد الذى وضعناه لكتاب « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » لمستر ويلفرد سكاون بلنت ان نصدر من بعده كتاب « السيف والنار فى السودان » لسلاطين باشا . وهذان الكتابان يعدان من المستندات التاريخية التى لا بد من الاطلاع عليها لمعرفة الحوادث التى تقلبت على مصر والسودان من خمسين سنة وهى الحوادث التى ما زلنا نعاني نتائجها الى الآن

فاليوم ها نحن نبرز كتاب « السيف والنار فى السودان » وفاءاً بذلك الوعد ورغبة فى أن تكون له الفائدة المرجوة فى خدمة تاريخ مصر الحديث

وسلاطين باشا ، مؤلف هذا الكتاب ، هو ضابط نمساوي ولد سنة ١٨٥٧ فى فينا وجاء الى مصر سنة ١٨٧٨ ودخل فى خدمتها فعينه غوردون باشا حاكما لدارفور سنة ١٨٨٤ ولكن لم يمض عليه فى منصبه هذا قليل حتى اعتقلته جيوش المهدي فبقى أسيراً يدعى الاسلام والايمان بالمهدوية الى سنة ١٨٩٥ وحينئذ فر الى الجيش المصري واشترك معه فى استرداد دنقلة وأم درمان

وبقى سلاطين باشا بعد ذلك موظفاً في حكومة السودان بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٤ ثم أعلنت الحرب العالمية فترك الخدمة فى السودان وعاد الى النمسا ودخل في خدمة الصليب الاحمر . ولما عقدت الهدنة سنة ١٩١٨ انتدب عضواً فى بعثة الصلح فى باريس

وقد نقل هذا الكتاب الى اللغة الانجليزية السر ونجت باشا الذى كان حاكما للسودان ثم معتمداً لانجلترا فى مصر . وهذه الترجمة الانجليزية هى التي اعتمدنا عليها في التعريب

٢٦ يوليه سنة ١٩٣٠ — البلاغ

*

الفصل الاول

تمهيد

في يوليه سنة ١٨٧٨ عند ما كنت ملازماً في آلاى ولى العهد روداف عند حدود البوسنه تسلمت خطابا من الجنرال غوردون يدعونى فيه ان أذهب الى السودان واشتغل فى خدمة الحكومة المصرية تحت إدارته

وكنت في سنة ١٨٧٤ قد سحت في السودان عن طريق اسوان فذهبت الى كورسكو وبربر ووصلت الى الخرطوم فى شهر اكتوبر من تلك السنة وعرجت على جبال النوبة وبقيت مدة قصيرة فى دلين حيث كان مركز الرسالة الكاثوليكية النمسوية . ومن هنا خرجت فى اكتشاف جبال جوامان ناعة وجبال كاديرو وكنت أود ان أطيل بقائى فى هذه الاصقاع ولكن حال دون ذلك قيام عرب الحوازمة . ولما لم تكن لى مهمة سوى السياحة فان الحكومة طلبت عودتي الى الابيض عاصمة كردوفان . وكان قيام هؤلاء العرب ناتجاً عن جباية الضرائب الفادحة التى فرضتها عليهم الحكومة . وقد أخمدت الحكومة هذه الحركة بسرعة ولكني لهذه الظروف لم أر من الصواب الرجوع الى النوبة وعلى ذلك قررت السفر الى دارفور

وفى ذلك الوقت كان حاكم السودان العام اسماعيل باشا أيوب مقيما فى الفاشر عاصمة دارفور وعند ما بلغت الكاجه والقاطول وجدت ما خيب رجائي فان الحكومة نشرت منشوراً منعت فيه دخول الاجانب فى هذا القسم من السودان لانه كان حديث العهد بالخضوع للحكومة وكان يخشى على حياة الاجانب فيه . فرجعت بلا توان الى الخرطوم حيث عرفت أمين باشا (وكان فى ذلك الوقت الدكتور امين) وكان قد أتى من مصر حديثاً في صحبة من يدعى كارل فون جرم

وكان الجنرال غوردون حاكما عاما لمديريات خط الاستواء وكان مقيما فى لادو فكتبنا اليه نطلب منه أن يشير علينا بما يراه . وبعد شهرين جاءنا جوابه يدعونا الى زيارته ولكن فى هذا الوقت وافانى خطاب من أسرتى فى فينا وهم يحثوننى على

الرجوع الى أوروبا . وكنت أعانى مرض الحمى وكان لا يزال باقيا علي سنة في الخدمة العسكرية فقررت الرجوع والنزول على رأى أفراد أسرتى

اما الدكتور امين فقد قبل دعوة غوردون وشرع فى السفر الى الجنوب كما شرعت أنا فى السفر نحو الشمال . وقبل الافتراق رجوت امين ان يذكرنى بالخير امام غوردون وقد فعل. وكان ايصاؤه بى لديه سبباً فى ذلك الخطاب الذى ذكرت أنى تسلمته وأنا بالبوسنه بعد ذلك بثلاث سنوات

وبعيد وصول أمين منحه غوردون رتبة بك وعينه حاكما لمدينة لادو . وعند سفر غوردون تعين حاكما عاماً لمديريات خط الاستواء وبقى فى هذا المنصب الى سنة ١٨٨٩ حيث عين مستر ستانلى مكانه

وعدت أنا الى مصر عن طريق صحراء بيوضه ثم دنقله ووادى حلفا وبلغت النمسا حوالى أواخر سنة ١٨٧٥

وقد فرحت عند ما تسلمت خطاب غوردون الذى وصل الىّ ونحن فى حرب البوسنه واشتقت الى ان أعود الى السودان معيناً فى منصب ما . ولكن لم يؤذن لى بالسفر الا فى ديسمبر سنة ١٨٧٨ عند ما انتهت الحرب وعادت فرقتى الى برسبرج فأخذت فى التهيؤ مرة أخرى للسفر الى افريقا

وكان أخى هنرى فى الهرسك فقضيت ثمانية أيام في فينا أودع أفراد أسرتى ثم ذهبت الى تريستا فى ٢١ دسمبر سنة ١٨٧٨ وأنا أجهل تماما انه سيمضي على ١٧ سنة أرى فيها الاهوال والغرائب قبل أن أرى بلادى ثانيا . وكان عمرى اذ ذاك ٢٢ سنة .

ولما بلغت القاهرة تسلمت تلغرافا من جيجلر باشا بالسويس وكان قد عين مديراً لمصلحة التلغرافات بالسودان وكان على وشك ان يسافر الى مصوع لكي يفتش على الخط بين هذه البلدة وبين الخرطوم. وقد دعاني الى السفر معه الى سواكن فقبلت بكل سرور الانتفاع بهذه الفرصة التى تكرم فأتاحها لى . وافترقنا فى سواكن فذهب هو على ظهر الباخرة الى مصوع وشرعت أنا أهيء نفسى للسفر الى بربر على الجمال . وقد عاونني علاء الدين باشا الذى كان حاكما فى ذلك الوقت والذى كان بعد ذلك

في صحبة هكس باشا الذى قتل مع الجيش المصري بأجمعه عندما اصطدم به جيش المهدى فى شيكان في نوفمبر سنة ١٨٨٣

ولما بلغت بربر وجدت في انتظارى ذهبية بأمر الجنرال غوردون فنزلت اليها ووصلنا الى الخرطوم فى ١٥ يناير سنة ١٨٧٩ . وقد لقيت هنا احتراما ورعاية اذ قد خصني غوردون بدار ليست بعيدة عن القصر وانفذ الىّ من يدعى علي افندي لكي يقوم بقضاء ما احتاج اليه . وكنت في اجتماعي بالجنرال غوردون اسمعه يتحدث عن الضباط النمسويين الذين عرفهم فى طولطشة عندما كان فى بعثة الدانوب وكان يحفظ لهم فى قلبه أجمل ذكرى . وأتذكر قوله لى انه من الخطأ ان نغير ملابسنا البيضاء السابقة بملابسنا الزرقاء الراهنة .

وعينني غوردون مفتشا ماليًا وطلب اليّ ان أقوم بالتفتيش فى البلاد وافحص شكايات السودانيين الذين كانوا يعارضون فى دفع الضرائب التى لم تكن تعتبر فادحة . واطاعة لهذه الاوامر قمت الى سنار وفازوغلى عن طريق المسلمية وعرجت على جبال قوقيلى ورجرج وكاشانكيرو القريبة من بنى شنغول ثم رفعت تقريرى الى الجنرال غوردون وأوضحت في هذا التقرير ان الضرائب غير عادلة وان معظمها يقع على عاتق أصحاب الاملاك الصغيرة من الارض . اما كبار الملاك فكان من السهل عليهم ان يرشوا الجباة بمبالغ صغيرة فينجوا من الضرائب الا ما قل منها . وعلى هذا كان مقدار كبير من الارض لا تؤخذ عليه الضريبة بينما يقوم الفقراء بسد العجز ودفع ضرائب ثقيلة عن أملاكهم . وأبنت فضلا عن هذا النظام السيء ان الاهالي مستاءون من الطرق الجائرة التى يتبعها جباة الضرائب وجلهم من الجنود والباشبوزق والشايجية ولم يكن هم هؤلاء الموظفين سوى الحصول على الثروة باسرع ما يمكنهم على حساب السكان التعساء الذين كانوا يخضعون لسلطتهم الوحشية القاسية .

وكنت كثيرا ما أجد خلال أسفارى ان الاراضي التى يملكها الموظفون ومعظمهم من الاتراك والشايجية لا تجبى عليها ضرائب ما وعندما كنت أسأل عن علة ذلك كان يقال ان هذا امتياز للموظفين لما يقومون به من الخدمة للحكومة . وقد كانوا يستاءون أشد الاستياء عندما كنت أقول لهم انهم يتناولون أجرا على هذه الخدمة.

ولكني عندما قبضت على البعض منهم أقروا جميعا بانهم متأخرون فى دفع الضرائب . ووجدت في المسلمية وهي بلدة تجارية كبيرة تقع بين النيلين الابيض والازرق جماعة من النساء فى سن الشباب وكان يملكهن أغنى التجار واكثرهم اعتبارا ويؤجرونهن للاغراض السافلة باجور عالية . وكان هذا العمل من التجارات الرابحة ووقعت في حيرة لا أدرى كيف أفرض الضرائب على هذه المنازل ولا أية خطة يجب اقرارها . وانى أعترف بان تجاربي الماضية ومعارفى قد خذلتني فى هذا الموضوع . وشعرت عندئذ بعجزى التام عن القيام باى اصلاح ولم يكن لى من الخبرة بالشئون المالية سوى القليل او العدم فلذلك وجدت من العبث ان استمر في عملى وقدمت استقالتى

وكان غردون قد سافر فى هذه الاثناء الى دارفور بخصوص البحث عن الحملة التى أرسلت لمقاتلة سليمان بن الزبير باشا . ولكنه كان قبل ان يسافر قد رقي جيجلر الى رتبة باشا وعينه حاكما عاما مدة غيابه . فانتهزت الفرصة وارسلت اليه مع البريد تقريرى واستقالتى وتسلمت بعد مدة قليلة تلغرافا منه يوافق فيه على استقالتى من منصب المفتش المالى

وقد ارتحت كثيرا الى تخلصي من هذا الواجب الكريه ولم أشعر بوخز الضمير لتركي هذا المنصب لانى شعرت بعجزى التام عن معالجته اذ كان فاسدا من الرأس الى العقب

وبعد ذلك بايام تسلمت من غردون تلغرافا عينني فيه مديرا لداره وهي تحتوى على الجزء الجنوبي الغربى لدارفور وأمرنى بان أقوم اليها في الحال لانه كان عليّ ان أقود حملة عسكرية لمقاتلة السلطان هرون ابن السلطان السابق وكان يسعى للاستقلال ببلاده والخروج على الحكومة المصرية . وطلب منى غردون أيضا أن اوافيه حين رجوعه من سفره الى مكان بين الابيض وطرة الخضرة على النيل الابيض . فارسلت جمالى الى هذا المكان حيث كانت باخرة غردون فى انتظاره ونزلت أنا الى الباخرة التي سارت بنا الى طرة الخضرة حيث خرجت وركبت مدة ساعتين حتى بلغت محطة ابى جراد التلغرافية وعلمت من هناك ان غردون لايبعد عنا سوى أربع ساعات أو خمس وانه كان فى طريقه قاصداً بلوغ النيل . فركبت ثانيا وسرت ولم يمض

علي بضع ساعات حتى لقيته قاعداً فى ظل شجرة كبيرة وكان يبدو عليـه التعب والاعياء ويشكو من تورم قدميه . وكان معي لحسن الحظ قليل من الكونياك أحضرته معي من الباخرة فانتعش منه واستعد لاستئناف السفر . وطلب منى ان ارجع معه الى الحضرة لكي نتباحث معا فى مسألة دارفور ولكي يعطينى التعليمات الضرورية. وقد عرفني الي شخصين من حاشيته وهما حسن باشا حلمي الجويزر الحاكم العام السابق لكردوفان ودارفور ويوسف باشا الشلالى وكان هذا آخر من انضم الى جيشي فى حملته لمقاتلة سليمان زبير والنخاسين . وامتطينا الدواب ولكن غوردون حث دابته حتى ما استطعنا أن ندركه . وبلغنا طرة الحضرة ووجدنا جمالنا التى تحمل أمتعتنـا والتى كنا قد أرسلناها قبل قيامنا قد وصلت قبلنا . وأرست الباخرة في وسط النهر وعبرنا نحن الى البر فى قوارب . وكنت أنا فى مؤخرة القـارب ويليني يوسف باشا الشلالي ولما كنت انا عطشان وكان بجانبه كوز رجوته أن يملأه من النهر ويناولنيه حتى أشرب . ورأى غوردون ذاك فابتسم والتفت الىّ وقال لي بالفرنسية : ألا تعرف أن يوسف باشا على الرغم من وجهه الاسود فى مركز أعلى من مركزك ؟ كان يجب ألا يطلب منه أن يسقيك » فاعتذرت بالعربية الي يوسف باشا وقلت له انى طلبت منه الماء وانا غائب الذهن فأجابنى بأنه مسرور لان يخدمنى

ولما وصلنا نزلت انا وغوردون فى الاسماعيلية ونزل يوسف باشا وحسن باشا فى الباخرة الثانية بردين . وأخذ غوردون يشرح لى حالة دارفور شرحاً وافياً وقال لى انه يرجو ان توفق الحملة فى الانتصار علي السلطان هرون لان البلاد مضي عليها مدة طويلة من الزمن وهي فى حروب وسفك دماء وانها لذلك فى أشد الحاجة الى السلام والراحة . وأخبرنى أيضاً أن حملة جسي الموجهة ضـد سليمان زبير ستنتهي قريباً وانه لن يمضي عليه زمن طويل حتى يقتل أو يهزم لانه قد فقد معظم من عنده من البازنجر او حملة الاقواس وانه من المحال أن يصمد امام الخسائر التى أوقعهـا به جسي . وكانت الساعة فوق العاشرة عند ما ودعنى غوردون . وكان قد أمر باشعال النار لانه كان ينوى السفر الى الخرطوم وعندما سلمت وتنحيت قال لى :

« فلترافقك السـلامة يا عزيزي سلاطين وليباركك الله . انى واثق بانك

ستعمل جهدك مهما كانت الظروف . وربما عدت انا الى انجلترا و لعلنا نتلاقى بعد »

وكانت هذه الكلمات آخر ماسمعت منه ولكن من كان يمكنه ان يتصور ذلك القدر الذي كان مدخراً لكل منا ؟ وشكرته أنا لتلطفه ومعاونته وعندما بلغنا الشط انتظرت هناك حتى تقوم الباخرة ثم ماهى الا دقائق حتى سمعت ذلك الصفير الحاد ورفعت المرساة وتحركت الباخرة وولت ومعها غوردون وقد ذهب بعيداً عنى الى الابد

وفى صباح اليوم التالى ركبت الجواد الذى أعطانيه غوردون وقد حملني أربع سنوات بعد ذلك فذهبت الى ابوجراد ومنها سافرت الى ابو شوقه وخوصي ثم الى الابيض حيث وجد الدكتور زوربخين المفتش الصحي وكان على وشك أن يسافر الى دارفور فاتفقنا على السفر معاً الى داره ثم استأجرنا الجمال بمساعدة علي بك شريف حاكم كوردفان وبينما نحن على وشك الرحيل اذا به يناولنى رسالة تلغرافية تنبيء بسقوط سليمان زبير في داره فى ١٥ يوليه سنة ١٨٧٩ كما كان قد تنبأ غوردون عند ماقال لى انه لابد خاضع أو مهزوم

وهنا يجب ان أذكر انه عند ما فتح زبير باشا دارفور تركها لعناية ابنه سليمان وسافر هو الى القاهرة . وفى سنة ١٨٧٧ عين غوردون سليمان هذا حاكما على بحر الغزال ولكن فشا خلاف بينه وبين من يدعى إدريس ابتر أحد أهالى دنقلة وكان زبير باشا قد وكل اليه العناية ببعض المسائل . ولكن أسرة زبير تنتمي الى قبيلة الجعالين الذين كان بينهم وبين الدناقلة تحاسد وتباغض . واني اعتقد ان كثيراً من القلق فى السودان يرجع الى هذه الحقيقة

فان سكان مديرية بحر الغزال خليط من قبائل الزنوج التى كانت مستقلة كل منها عن الاخرى حتى جاءهم عرب الدناقلة وعرب الجعالين فاتحين بغية الاتجار بالعبيد . وينسب عرب الجعالين أنفسهم الى عباس عم النبي وهم يفخرون بهذا النسب ويباهون الدناقلة به . والدناقلة ينتمون فى زعمهم الى العبد دنقل . والمأثور ان هذا الرجل على الرغم من انه كان عبداً قد ارتفع الى ان صار حاكم النوبة وان كان مع ذلك يدفع خراجا لهنسة الاسقف القبطي للبلاد الواقعة بين سراس ودبا .

وقد أسس دنقل هذا بلدة سماها دنقلة وصار سكان هـذا القسم بعد ذلك يدعون دناقلة . وغالبيتهم من أصل عربي ولكنهم لاختلاطهم بالسكان قد فقدوا مرتبتهم. وهم بالطبع يؤكدون انتسابهـم للعرب ولكن الجعالين لا ينفكون يذكرون ان أصلهم من العبـد دنقل ويعاملونهـم بالاحتقار والازدراء . ويجب على القارئ ان يذكر هـذه العلاقة بين الجعالين والدناقلة لانه يتوقف على فهمها فهم كثير من حوادث السودان التي وقعت بعد ذلك .

وانتهى الخلاف بين سليمان زبير وادريس الى شجار . فشكا ادريس سليمان في الخرطوم وطلب معاونة الحكومة وحصل على جيش بقيادة جسي باشا ثم تلا ذلك تلك الحملات التي انتهت بسقوط سليمان في بحر الغزال . وكان جسي قد وعده بالابقاء على حياته ولكن الدناقلة دسوا له فأعـدم . وكان له شريك يدعي رابح لم يسلم معه خوفاً من انتقام الدناقلة . فأخذ كوكبة من الجنود وسار بهم في الشمال الغربي فأخذ يجازف ويقتحم الاهوال حتى بلغ قطراً قريباً من بحيرة تشاد فاستولى عليـه وصار ذا خطر عظيم في حظوظ القارة السوداء .

وهناك مسألة أخري يجب عليَّ ذكرها بخصوص الخلافات بين القبائل لما لها من الأثر في حوادث السودان التي وقعت بعد ذلك والتي يحسن لذلك شرحها مع بعض التفصيل

لما زار غوردون دارفور زيارته الثانية عرف وتحقق من ان تجار الابيض السودانيين يبيعون الاسلحة والبارود للثائر سليمان وكانوا بالطبع يعطفون عليه لما ينالون منه من الربح . وكانت هذه الذخائر الحربية ترسل بواسطة الجلابة او صغار التجار بين الابيض وبين بحر الغزال وكان هؤلاء يربحون منها ربحا عظيما . مثال ذلك ان ثمن البندقية ذات الانبوبتين كان من ستة عبيد الى ثمانية . وكان ثمن صندوق الخراطيش عبداً او عبدين . وقد حاول الموظفون في الابيض وقف هذه التجارة ولكن الصعوبات كانت عظيمة . وكانت قبائل العرب الرحـل تسكن المراكز الواقعة بين كردوفان وبحر الغزال . وكان بين هؤلاء العرب قبائل الرزيقات والحوازمة والحمر والمصيرية . وكان من السهل على التجار الجلابة ان يخرجوا قوافل

صغيرة وان يجتازوا ويختبئوا فى الغابات الكثيرة التي لم يكن يسكنها أحد . واذا اتفق ان موظفا مصريا التقى بهم فانه كان يمكن التغلب عليه برشوة صغيرة .

وكان غوردون يعرف كل هذا ولذلك أمر بوقف التجارة بكل أنواعها بين بحر الغزال والابيض. وأمر كذلك التجار بترك المراكز الواقعة جنوب الابيض والطويشة وطريق داره وحصر تجارتهم فى الجزء الشمالى والغربي مادامت الحرب دائرة فى بحر الغزال . ولكن على الرغم من الدقة التى اتبعت فى تنفيذ هذه الاوامر كان الربح الناتج عن التجارة مع سليمان أكبر وأقوى اغواء من أن تقفه هذه الاوامر حتى كان التجار لا يعبأون باكتشاف أمرهم . ولم يكن في يد الحكومة مايمكنها من أن تقف هذه التجارة التى زادت بدلا من أن تنقص بعد ذيوع هذه الاوامر . فعمد غردون لهذا السبب الى وسائل حاسمة وأمر المشايخ والعرب بان يقبضوا على التجار الجلابة . ويرسلوهم بالقوة الى داره وطويشة وأم شنجه والابيض وألقى عليهم تبعة وجود الجلابة فى بلادهم بعد تاريخ معين

وانتهز العرب الحريصون هذه الفرصة وأخذوا ينهبون الجلابة بل التجار الوادعين الذين عاشوا بينهم زمناً طويلا والذين لم يكن لهم أقل دخل فى تجارة المهربات الحربية. فجمعوا القمح والزوان بلا تمييز وربحوا بذلك ربحاً عظيما . فما هو ان ذاعت أوامر غوردون حتى حمل العرب على التجار حملة عامة فلم يأخذوا منهم تجارتهم فقط بل اخذوا كل ما يملكونه حتى جردوهم من كل شيء وساقوهم كالبهائم وهم تقريباً عراة يعدون بالمئات الى طويشة وداره وأم شنجه . وكان هذا عقاباً عظيما لهم على مساعدتهم أعداء الحكومة

وكان كثير من هؤلاء التجار قد أقاموا بين العرب سنوات وكان لهم زوجات وأولاد وسريات وأملاك كبيرة وقعت كلها فى أيدى العرب . والحق ان هذا الانتقام من هؤلاء التجار الذين كانوا يتجرون بالمهربات الحربية وبالعبيد كان هائلا وان كانوا هم يستحقونه علي مبدأ السن بالسن والعين بالعين . وكانت نتائج هذه العمل بعيدة المدى . وذلك لان معظم هؤلاء الجلابة كانوا من الجعالين الذين ذكرناهم

فانغرست بينهم من ذلك الوقت وبين العرب الذين أذلوهم وأباحوا تجاراتهم عداوة لاتزال مستمرة للآن والدلائل تدل على أنها فى ازدياد لا فى تناقص

ولو اعتبرنا المروءة والانسانيـة لقلنا ان هذا الاعتـداء على الجلابة يستحق المناقشة من حيث عدالته . ولكن عند تدقيق الفحص نجد ان الظروف لم تكن تسمح بمعالجة هذا الظرف الاستثنائى بالوسائل السياسية أو بروح العطف الانساني فانه لم يجد فى الحالة وقتئذ سوى اتخاذ اجراءات شديدة فعالة . والعرب أنفسهم يقولون : « نار الغابة تلزمه الحريقة » يعنون بذلك انه اذا شبت النار فى الغابة لم يكن سبيل النجاة منها إلا باحراق جزء من الغابة بحيث اذا وصلت النار الكبرى لا تجـد ما تأكله فينجو الانسان منها بوقوفه فى المكان الذى احرقه هو نفسه . وهذا المثل يقبل التطبيق على الحالة التى ذكرناها

ولما كان لهؤلاء التجار الجلابة (وجلهـم من الجعالين والشايجيـة والدناقلة) أقارب فى وادى النيل وكان لهم أصدقاء يشتركون معهم في النخاسة وسائر التجارة أوجدت أوامر غوردون سخطاً بينهم إذ لم يكادوا يفهمون العلة فى ضرورة اتخـاذ هذه الاجراءات الشديدة

الفصل الثانى

اقامتي في دارفور وتاريخها السابق

غادرنا الابيض أنا والدكتور زربوخين المفتش الصحي الذى كنت قد قابلتـه فى القاهرة وكانت مغادرتنا للابيض فى يوليو سنة ١٨٧٩ فأخذنا طريقنا الى الفوجة آخر محطة تلغرافية وهنا تسلمت رسالة تلغرافية من غوردون يقول لى فيها انه مسافر الى الحبشة في مهمة مع الملك يوحنا .

ولما بلغنا ام شنجه وجدناها مزدحمة بالجلابة الذين طردوا من الجنوب وكانت حالتهم تبعث على الشفقة . ومن الغريب انه شاعت عنى اشاعة مقتضاها ان غوردون خالى ولعل سبب ذلك زرقة عينى وانى كنت حليقاً وكان الجلابة ينظرون إليّ بعين

الخوف لهذا السبب وكانوا يعدون غوردون أصل بلائهم الحاضر . وأخذوا يغمرونني بالعرائض لمعاونتهم فأخبرتهم بأن أم شنجه ليست داخلة ضمن نطاق أعمالي ولذلك لا يمكنني مساعدتهم . وقلت أيضاً انه لو كان في مقدوري مساعدتهم من مالي الخاص لما فعلت

وقد خالفت هذه القاعدة في حالة واحدة ولكن قبل أن أقص هذه الحادثة يجب أن أقول إنه لا ينبغي الحكم على عملي من وجهة الآداب المسيحية فقط بل أنا أقر بأني خرجت عن حدود الشريعة الاسلامية ولكن عندما يقرأ القارىء القصة بأجمعها سيوافقني على جميع ما عملته ويشترك معي في العواطف التي بعثتني على هذا العمل

فقد زارني في أحد الايام طائفة من التجار وطلبوا مني ان أتوسط في مسألة شاب عمره ١٩ سنة وأصله من الخرطوم . وقصوا عليّ أن هذا الشاب قبل مغادرته الخرطوم كان قد خطب ابنة عم له جميلة ولكنها فقيرة وتواعدا على الزواج بعد أن يسافر الشاب في تجارة ويجمع بعض المال . فلما وصل الى ام شنجه عرف عجوزاً غنية افتتنت به أشد الافتتان . ولم يخبرني هؤلاء التجار عن الشاب هل هو طمع في أموالها او لا . ولكن المسألة انتهت بأن تزوجته هذه العجوز ووجد هو نفسه أنه أصبح ثريا فلم يكن له رغبة في الرجوع الى الخرطوم وتطليق امرأته . وبلغت أخباره ابنة عمه في الخرطوم فاستولى عليها ذهول . وطلب إليّ أن أحل هذه المسألة . فماذا أفعل

فاستدعيت الشاب وكان جميلا وجماله فوق المألوف فتنحيت به في ناحية وأخذت أكلمه بكل جد ووقار وأظهرت له سوء عمله في التزوج بعجوز أجنبية عنه وكيف ان خطيبته تبكي حتى كاد يذهب بصرها وهي وان كانت فقيرة ولكنه يجب شرفاً أن يرعى مودتها ووعده لها . فتردد مدة طويلة ولكنه أخيراً رضي بأن يذهب الى القاضي ويطلق هذه العجوز . وكنت قد استدعيت القاضي وأخبرته أنه اذا طلق الشاب زوجته يجب عليه أن يخبر المرأة بهذا الطلاق بكل رفق ولطف لاني لا أرغب في ضوضاء ، واستوثقت من أقارب الشاب بانه بعد طلاقه يجب ان يسافر

الى الخرطوم ثم أوصيت موظف الحكومة في ام شنجه بان ينفي هذا الشاب بعد يومين من طلاقه ويأمر بعدم بقائه في البلدة بعد هذين اليومين . وأوعزت له بان يقول ماشاء أمام العجوز ويلقي عليّ تبعة الخلاف بشرط أن يجتهد فى أن تعطي الشاب مبلغاً من المال يقوم بحاجته مدة سفره الى الخرطوم . ولم أكن أتصور وأنا أعمل هذا العمل الزوبعة الهائلة التي أثرتها على رأسى . ففي الساعة الرابعة بعد الظهر وانامنسطح على العنجريب فى عشتى سمعت صوت امرأة غاضبة ترغب فى ان تراني فحدست من تكون هذه المرأة واستعددت للقائها وأمرت بدخولها . وما هو أن صارت فى العشة حتي رأت الدكتور زربوخين الذى كان معى وقتئذ فصاحت فيه وهي هائجة مجنونة : « لن أقبل الطلاق . هو زوجى وانا زوجته . تزوجني على اصول الشريعة وأنا أرفض الطلاق »

فدهش الدكتور زربوخين وغمغم كلمات مكسورة باللغة العربية وأخبرها بانه لا يعرف شيئا عن هذه المسألة وان التبعة تقع عليّ انا وحدى . ولم اتمالك من النظر والتأمل فى هذه المرأة الغريبة . فقد كانت ضخمة قوية عنيدة وكانت من الغضب بحيث لم تراع أدب اللياقة الذى تراعيه الشرقيات فى مخاطبة الرجال . فقد انفتل برقعها لشدة هياجها وبدا رأسها مغطى بمنديل حريرى عديد الالوان وقع بعضه على كتفيها . وكان وجهها يضرب الى الصفرة وقد كسته الاسارير وفى كل من خديها ثلاثة خطوط من الوشم بين الواحد والآخر نحو نصف بوصة . وكان معلقا بأنفها قطعة من المرجان الاحمر ويتدلى من أذنيها قرطان كبيران من الذهب أما شعرها فكان حلقات صغيرة عديدة قد شمطت لتقدمها فى السن . وظننت وانا انظر اليها انى لم أر قط امرأة أكثر دمامة منها . وانا فى هذه التأملات واذا بنعيها الذى تحول اليّ تسألني السؤال نفسه الذى سألته للدكتور المرعوب . فتركتها حتي هدأت قليلا ثم قلت :

« اني أدرك تماما ماتقولين ولكن لابد من الخضوع لما لا مفر منه فان زوجك سيتركك وأنت لايمكنك أن تتركى البلدة معه . وتقولين انك لاترغبين فى الطلاق ولكن تذكرى ان الشريعة تحل للرجل الطلاق »

فصاحت بي : « لو لم تتوسط لما طلقني . لعنة الله على يوم جئتنا فيه »

فقلت : « أرجوك ان لاتقولى ذلك فأنت امرأة غنية وأظن انك لن تجـدى صعوبة في الحصول على زوج أكبر سنا من زوجك الذى طلقك »

فصرخت : « لااريد احداً غيره »

فقلت بحدة : « اسكتى . أقارب زوجك السابق يريدون أن يتركك ويسافر . وقالوا انه لا يربطه بك الا أموالك . والآن مهما قلت فانه سيغادرك غداً . ألست تخجلين من التزوج بشاب صغير قد كان يمكن أن يكون أحد أحفادك وأنت عجوز »

فجنت جنونها عند ما فهمت بهذه العبارة ولم تستطع ضبط نفسها فمزقت برقعها ورفعت يديها لا أدرى ما ذا كانت تريد أن تفعله لو لم يدخل القواص ويجليها عن الغرفة بالقوة وهو يحذرها من الفضيحة التى تجلبها على نفسها بأعمالها هـذه . وفى اليوم التالى سافر الزوج وهي فى غم شديد .

وبعد سنوات لقيت هذا الزوج وكان قد تزوج ابنة عمه فشكر لى صنيعي وتخليصى له من مخالب تلك العجوز . وكان فى ذلك الوقت أبا سعيداً له أولاد عدة . وليس لى حاجة بأن أقول بأنى نمت تلك الليلة مرتاحاً لهذا الصنيع الذى لم يكافئنى شيئاً

وبعد ذلك بيومين برحنا أم شنحه وبتنا فى جبل الحلة فاستقبلنا هناك حسن بك أم كادوك شيخ قبيلة برنى وكان علي ولاء كبير للحكومة وقد منحه غودرون رتبة بك . وكان رجلا كهلا سميناً جـداً عريض المنكبين ووجهه مسـتدير دائم الابتسام وقد يمكن ان نسميـه « فولسطاف السودان » جريا على شكسبير الذى سمى أكبر شخص مضحك في دراماته « فولسطاف » فاننا بعـد سنوات عنـد ما انقلبت الاحوال وصار السادة عبيداً صرنا أنا وهو ياورين عند الخليفة وكان مزاجه البهيج هـذا كثيراً ما يخفف عنا أعباء حياتنا التى كنا لا نتحملها أحياناً . وكان أخوه اسماعيل على النقيض منـه رجلا طويلا نحيفاً يميل الى الجد . ولم يكن يتفق هـذان الاخوان فى شيء الا فى مسألة واحدة هي حب المريسة (الجعة السودانية) والتهالك على شربها . وكان لكل منهما اناء يدعي انه بليل نوضع فيه هذه المريسة فيتسابقان أيهما يفرغ اناءه قبل الآخر

وقد دعوانا الى العشاء معهما وشوى لنا خروف كامل على فحم الخشب يصحبه عدة من الدجاج المشوي وطبق من العصيدة التي تؤكل فى كل وجبة فى السودان . وكان أيضاً على المائدة عدة آنية من المريسة . وقد طاب لنا الطعام فأكلنا وتركنا المريسة لهما وشربنا نحن شيئاً مما عندنا من النبيذ الاحمر . وقد شرب حسن واسماعيل كلاهما من النبيذ والمريسة ما شاءا وكان أثر الخمر في الاول عند ما صدمته حمياها أن جعلته يتدفق في الحديث أما الثاني فقد انعقد لسانه وصمت. وكان حسن يروي لنا بعض ما يعرفه عن غوردون وقد اكتأب وحزن عند ما عرف بسفره للحبشة

وقال لى بلهجة الحزن : « قد لايرجع غوردون من الحبشة وقد يسافر الى بلاده فلا نراه ثانياً» ومن الغريب أن قولته هذه كان فيها شيء من الصحة . ثم ترك الغرفة وعاد بعد برهة ومعه سرج وسيف وهو يقول : « انظر . هذا هو آخر ما أعطانيه غوردون لما رافقته الى الفاشر . ما أكرمه وأرأفه » وعرض علينا اسماعيل سترة مطرزة بالذهب أهداها اليه غوردون . وقال حسن : « كان غوردون لا يعرف الكبر . فى أحد الايام ونحن في الطريق الى الفاشر . صاد أحد الخدم طائراً فلما حططنا رحالنا فى الظهر وضع الطباخ قليلا من الماء على النار حتى اذا غلي غمس فيه الطائر لكي ينزع ريشه. ورآه غوردون يفعل ذلك فذهب اليه وأخذ يساعده فى نزع الريش فاندفعت أنا اليه ورجوته ان يكف عن ذلك وأنا أقوم بدلا منه بهذا العمل ولكنه قال لى : « وهل تظنني أخجل من العمل ؟ اني قادر على أن أخدم نفسي ولست فى حاجة لأن يقوم بخدمتي فى المطبخ رجل حائز لرتبة بك مثلك »

ولم يكف حسن عن مسامرتنا حتى ساعة متأخرة من الليل وقد حكي لنا عن تجاريبه لما فتح الزبير دارفور ثم ما تلا ذلك من الثورة الى حالتها الحاضرة وكان كثيرا ما يعود الى ذكر غوردون. ومما قاله : « كنت مرة مسافراً مع غوردون فمرضت وجاء غوردون يعودني فى خيمتي . وبينما هو يحدثني قلت له انى كنت منغمساً في الشراب وان وعكتي الحاضرة لم تحدث لي إلا لانقطاعي عنه منذ أيام . وكان قولى هذا هو الصيغة الغير المباشرة التي أردت منها أن يعطيني غوردون شيئاً من الشراب. ولكن ساء فألى فان غوردون وبخني وعنفني وقال لي : « أنت مسلم وديانتك تحرم

تناول الخمر . اني فى غاية الدهشة . أقلع عن هـذه العادة فكل منا يجب ان يطيع أوامر دينه» فقلت له : « لقد اعتدت الشرب طول حياتي فاذا انقطعت عنه الآن فاني أمرض ولكني سأعتدل في المستقبل» فبانت أمارات الرضى على وجه غوردون وهز يدى مسلماً وودعنى وخرج وفي صباح اليوم التالى أرسل لى ثلاث زجاجات من الكونياك وأوصاني بالاعتدال فى شربه

وكان أخو حسن صامتا لا ينبس بكلمة وكان مرتفقا علأ كوبا وراء آخر من المريسة ويشربه بجد ووقار ونظام كأنه نظام بساعة ولما انتهي من الشراب وقف فى روية وتؤدة ومسح شاربيه وقال بلهجة الحزن : « نعم . نعم . الكونياك شراب طيب وهو ليس خمرا بل دواء وغوردون رجل عظيم بار ولن نراه ثانيا »

وذهبنا الى الفراش فى ساعة متأخرة وأمرنا قبل نومنا ان تعد الدواب للقيام في الفجر فلم ننم الا وقتا قصيرا. ولما استيقظنا وأردنا الركوب انا والدكتور زربوخين نظرنا حوالينا نبحث عن أهل البيت لكي نودعهم قبل سيرنا . ونحن فى ذلك واذا باسماعيل يعدو الينا ورأسه يميل من أثر الشراب السابق وقال لنا : « أيها السادة اننا سمعنا على الدوام بان فى بلادكم عدلا وانا واثق بان الضيف هناك لا يسيء الى رب البيت . وأمس عند ما أمرتم الدواب التى تحمل أمتعتكم بالسفر سرق رجالكم السجادة التى وضعتها لكم لتقعدوا عليها »

فبحثت وتأكدت بان احد رجالى قد سرق هذه السجادة الثمينة وأرسلت وراء الجمال قواصا لكي يدرك هذا اللص ويحضره وقعدت انتظر . وبعد مدة جاء القواص ومعه السجادة ووراءه عسكرى زنجى من الحرس الثمانية الذين كانوا فى صحبتنا . ولما استجوبنا هذا العسكرى قال انه حملها خطأ ولكني لتأكدى من جريمته أمرت بجلده وارساله سجينا الى ام شنجه . وقد تعكر مزاجي لهذه الحادثة لانى كنت أعرف ان الناس هنا يحكمون على الاسياد بما يرون من الخدم وكنت واثقا بانى اذا لم أعاقب هذا الخائن فان مثل هذه السرقات ستتكرر فى المستقبل

واعتذرنا الى حسن وأخيه ثم شرعنا فى السفر الى الفاشر التى بلغناها بعد خمسة أيام ومررنا في طريقنا على بروش وارجود

وقد كانت الفاشر طول مدة القرن الماضى عاصمة دارفور وهى مبنية على قارتين أو رابيتين واحدة في الشمال وأخرى في الجنوب يفصلهما واد عرضه نحو ٤٠٠ ياردة يدعي وادى تندلتى . وفي الغرب قلعة علي تل حولها حائط من الطوب النيء عرضه ثلاثة أقدام وحول الحائط خندق عمقه ١٥ قدما . وكان في الاركان أربعة أبراج وبها مدافع تطلق قنابلها من فتحات صغيرة

وكان هذا الحائط يحتوى على مبانى الحكومة ومساكن الضباط وثكنة الجنود وكان الخيالة غير النظاميين يسكنون خارجا . وكان سكان القلعة يستقون الماء من آبار في الوادى تبعد عنهم بنحو خمسين ياردة

وكان مسدجاليه بك وهو رجل ايطالى حاكما على الفاشر وقد تلقانا بالبشر وخصص لنا أمكنة فى مباني الحكومة وكنا قد أصبنا بحمى من مسيرنا في الامطار فقر رأينا على ان نرتاح بضعة أيام

وبعد ان استرحنا استأنفنا السفر أنا والدكتور زربوخين الى داره ورافقنا على سبيل التشييع مسدجاليه بك وأخبرنا ان زوجته ستحضر الى الخرطوم وانه قد طلب أجازة لكي يسافر ويستقبلها فيها ثم يحضر واياها الى الفاشر فاقترحت عليه أن ينتظر حتى تنتهى مسألة السلطان هرون ثم يحضر وزوجته بعد ذلك ولكنه أجابنى بانه ليس هناك أقل خوف وان في البلاد جيوشاً كافية لقمع أي حركة . ولكني كنت سمعت بان نفوذ هرون عظيم وان هناك خوفا على جنود الحكومة من ضغطه عليهم . ولما كنت حديث العهد بالمجيء الى السودان وقليل الخبرة باحواله لم أقدر على أن أعطي رأيا باتاً فى الموضوع فودعته هو وسعيد بك جمعه الحكمدار وسرنا الى داره عن طريق كربوت ورأس الفيل وشعبرية

وكان لزربوخين هيئة تدل على انه اكبر مني سنا وكانت له لحية طويلة سوداء وكان يضع على عينيه نظارة سوداء اما أنا فكانت هيئتى تدل على اني أقل عمرا من الحقيقة فلم يكن شاربى قد نبت الا قليلا وكانت لى سحنة الصبيان فكنا لا نسير فى أى مكان حتى يظنه الناس انه هو الحاكم والطبيب أو الصيدلى . ولما قاربنا غاية سفرنا كان الدكتور زربوخين مريضا بالحمي ولذلك تأخر بدابته عنى ومشي وئيداً حتى وصلت

الى شعيرية قبله . وشعيرية هذه على سفر يوم من داره . وكان أهل القرية يستعدون لاستقبالنا فكنسوا المنازل ووضعوا الحصير ووضع القاضي والشيخ سجاداً لكي يستريح الحاكم القادم . وبرك جملي ونزلت عنه ولما سألوني عن شخصي قلت انني أحد حرس الحاكم وأخبرت من معي من الحرس بألا يقولوا شيئاً . وأخذ القرويون يسألونني عن الحاكم الجديد فقلت لهم : « أظنه سيجتهد بان يعمل ما في جهده وانه يميل للعدل والتسامح »

فقال واحد منهم : « ولكن هل هو شجاع طيب القلب » وكان هذا السؤال تصعب الاجابة عليه . فقلت : « يبدو عليه كأنه لايخاف ولكنني لم أسمع شيئاً عن شجاعته وله هيئة الرجال وأظن انه طيب القلب ولكنه بطبيعة الحال لا يمكنه أن يرضي كل أحد »

فقال آخر . « لو كان لنا حاكم مثل غوردون باشا لرضي كل واحد وأمنت البلاد بانه لم يتوقف قط عن الانعام على الناس والطافهم وما جاءه فقير قط وعاد خائباً ولم أسمعه يتكلم بقسوة الا مرة واحدة وذلك حين كان سليمان زبير في داره فانه التفت الى القاضي وقال ان بين السودانيين من لايستحق أن يعامل بالرأفة به فقال القاضي . « أجل سمعته يقول ذلك ولكنه كان يشير بقوله هذا الى الجلابة وتجار النيل الذين كانوا يشتركون مع الزبير وابنه في جميع التجارات غير الشرعية التي كانوا يتكسبون منها »

وقال شيخ القرية واسمه مسلم ولد كباشي . « غوردون بطل . فقد كنت انا اشتغل معه في القتال مع عرب ميمه والخوابير في سهل فافه في يوم شديد الحر . وتقدم العدو وأجلانا عن الخط الاول وكانت الحراب تقع علينا كثيفة من كل جانب ورأيت حربة تقع على قيد شعرة من غوردون فما بالى ولم ننل النصر الا بثباته هو واحتياطيه المؤلف من مائة رجل . ولما كانت المعمعة على أشدها أخرج سجارة وأشعلها . انى مارأيت شيئاً قط في حياتي مثل هذا . وفي اليوم التالي عند ماشرع في توزيع الغنائم لم يغب عن ذهنه احد ولم يحفظ لنفسه شيئاً وكان رفيقاً بالنساء والاطفال ولم يأذن بسبيهم كما هي عادتنا في الحرب بل كان يطعمهم ويكسوهم على

نفقته أو كان يردهم الى منازلهم عند انتهاء الحرب . وفى أحد الايام سبينا عدة نساء بدون علمه وحجزناهن ولو علم بفعلتنا لرأينا منه الويل »

وبعد سكوت سألت عن الاحوال فى داره وصفات الموظفين لاني كنت سمعت أنهم لايوثق بهم وانهم لاينظرون بعين الرضا الى مجيىء.

وهنا وصل الدكتور زربوخين وسائر القافلة فوقف الشيخ والقاضى واعيان القرية فى نصف دائرة لاستقباله . اما انا فقد تنحيت جانبا واختفيت . واخذت انصت لما يقول مسلم ولد كباشى الذى بدأ يحيي الوالى الجديد ويصف له فرحه بقدومه وكان زربوخين لايعرف من العربية الا القليل فارتبك أشد الارتباك لهذه التحية

وقال لهم : « الحقيقة انني لست الحاكم . انامفتش الصحة ولا بد ان الحاكم قد وصل قبلي ولكن بالنسبة لان الرجال الذين معه قليلون ربما لم يحسبه احد لذلك انه هو الحاكم » فتقدمت انا عندئذ وشكرت للقرويين وانا اضحك لطفهم وحسن استقبالهم وا كدت لهم باني سأعمل جهدى لكى ارضيهم واني منتظر منهم ان يعاونوني على انفاذ الاوامر . واخذوا بالطبع يعتذرون الىّ عن خطئهم ولكني وضحت لهم انه ليس هناك مايدعو الي هذا الاعتذار وقلت لهم اني ارغب فى ان تكون علاقتى بهم متينة حميمة واني ارجو ان تكون هذه رغبتهم ايضا . ومن هذا الوقت صار مسلم ولد كباشي من اعز اصدقائى وبقى كذلك في اوقات الفرح والحزن على السواء حتى برحت البلاد

وقد هاجت هذه الحادثة الصغيرة شهوتنا للطعام وقعدنا وتناولنا طعاما فاخراً من الضأن المشوى ولما انتهينا امتطينا الدواب واسترحنا في الليل تحت شجرة على مسير ساعتين من داره . وعند شروق الشمس ارسلت رسولا لكي يخبر بقدومنا ولما صرنا فى ارباض المدينة خرجت الحامية واصطفت واستقبلتنا استقبالا عسكريا واطلقت سبع قنابل اكراما لنا وكان معها حسن حلمي الحكمدار وزوجال بك نائب الحاكم والقاضى وبعض اعيان التجار وذهبنا جميعا الى القلعة حيث دار الحكومة وقضينا نصف ساعة فى التفتيش ثم ذهبت الى مسكني وامرت بتهيئة بعض الغرف للدكتور زربوخين في مسكني لاني اردت ان ينزل عندى ضيفا بضعة ايام

وما كدنا ننتهي من العشاء حتى سمعت ضوضاء بين الخدم الذين كانوا يدافعون رجلين من الدخول الينا . وكان هذان الرجلان رسولين يحملان خطابا من احمد قاطنج وجبر الله وهما الرئيسان للحامية غير النظامية في بير جوى وهي على مسيرة ثلاثة ايام فى الجنوب الغربي من داره . وقد قالا في الخطاب انهما علما ان السلطان هرون سيغير عليهما وانهما بالنسبة لقلة عدد الحامية قد قررا اخلاء مكانهما مالم تأتهم امداد من الحكومة وقالا ايضا انهما اذا تركا مركزهما فان جميع القرى ستنهب

ولم يكن ثم متسع من الوقت لتأجيل فامرت حسن افندى رفقى بان يعد مائتى جندى نظامي وعشرين فارسا للقيام في الحال معي الي جوى

وما انتصف الليل حتى كان قد اعد كل شيء وودعت الدكتور زر بوخين وقلت له انى اؤمل ان اراه بعد اربعة ايام او خمسة وخرجت متوجها نحو الجنوب الغربي

وكنت شابا قويا فى اشتياق الى الحرب واني اذكر الآن مقدار فرحي الشديد للقاء السلطان هرون ومناجزته . ولم يخطر ببالي شيء عن المشاق وانما كل ما كنت مشتاقا اليه انى كنت ارغب فى ان ابين لجنودى اني قادر على قيادتهم . وفى الصباح حططنا رحالنا وكان جميع الجنود زنوجا حتى ضباطهم . أما الجنود الراكبة فكانوا من الاتراك والمصريين وخطبتهم جميعا وقلت لهم اني الآن غريب عنهم ولكن عليهم ان يعرفوا انى مستعد لان اشاركهم مشاقهم فى كل وقت واني ارجوان يكونوا ممتلئين حماسة وان نسرع للقاء العدو . وكانت خطبتي بسيطة ولكن كان لها وقع في نفوس الجند وعند ما انتهيت منها رفعوا اسلحتهم فى الهواء فوق رؤوسهم على الطريقة السودانية وصاحوا بانهم لن ينثنوا عن الظفر او الموت

وفى الظهر حططنا قرب قرية فاخذت أراقب رحالى وأفحصهم وكانوا كلهم على أهبة ومعهم ذخيرة كافية . وكان مع كل جندى زمزمية من جلد المعز او الغزال واسمها سن (وجمعها سنين) ولكن لم يكن معهم طعام . ولما سألت عن سبب ذلك قيل لى : « أينما ذهبت في دارفور تجد الطعام » فذهبت الى شيخ القرية وطلبت منه تقديم كمية من الدخن . وكانوا ينقعون الدخن فى الماء ثم يعصرونه ويمزجونه بالتمر الهندى ثم يأكلونه . أما العصارة فكانوا يشربونها وكانت لمزازتها تطفيء الظمأ . والغالب

ان الاوربيين لا يستطيعون هضم هذا الطعام ولكنه مغذ جدا والجنود السودانيون لا يأكلون تقريبا شيئا غيره وهم سائرون الى القتال . وقد اعتدت تناوله بالتدريج ولكني وجدت انه اذا لم يكن الانسان فى صحة تامة فانه يعقبه سوء هضم شديد. واحضر لنا شيخ القرية الدخن ومعه عصيدة وزعت على الرجال . وبينما هم يأكلون دعوت الضباط لان يأخذوا شطرا من اللحم المحفوظ بالعلب الذي كان معي فاخذوه واستطابوه قائلين انه افضل من الدخن والعصيدة وبعد ذلك طلبت من الكاتب ان يكتب لشيخ القرية صكا بمقدار ما تسلمناه منه من الدخن لكي يحط ثمنه من مقدار ما يدفعه لجابي الضرائب . ولكن هذا الرجل رفض قائلا ان اطعام الجنود ليس فقط من واجباته بل ان أصول الضيافة والكرم تقتضيه . فقلت له انى أعرف ان أهالى دارفور أسخياء ولكني أجد ان طعام ٢٠٠ نفس يعدو حدود السخاء وانه لذلك يجب عليه ان يتسلم ثمن طعامه .فرضى أخيرا واطمأن الي حديثي وقال انه لو سار الجنود على هذا المبدأ لسر السكان ولكن لسوء الحظ قد اعتاد الجنود اقتحام المنازل وأخذ ما فيها حتى ان الاهالى صاروا يخشونهم وعند ما ينزلون قراهم يجتهدون في اخفاء ما عندهم . فشكرت للشيخ قوله هـذا ووعدته باني ساصلح هذه الحالة

وعند غروب الشمس وصلنا الى بير جوى وكان بها حامية غير نظامية عددها ١٢٠ رجلا يقودهم احمد قاطنج وجبرالله . وقد اخبراني بأنهما بعثا جواسيسهما لكي يعرفوا حركات السلطان هرون وانهما لا يظنان انه قد نزل بعد من جبل مرة الى الوادى . وكنت في غاية الاعياء وقد تملكني النعاس فذهبت الى فراشي لأنام ولكن اطراد قرع الطبول اكراما لى وضربان رأسي منعاني من النوم وفى الصباح شعرت اني مريض . ولما جاءني احمد ورأى ما انا فيه قال لى : « يمكننا معالجة هذا بأيسر سبيل . عندى رجل يقف ضربان الرأس فى الحال وهو افضل من الدكتور الذى في داره والحقيقة انه ليس فى داره دكتور وانما هو صيدلى يقال له دكتور على سبيل التأدب والتجمل »

فقلت « ولكن كيف يمكنه ان يعالجني »

فقال : « هذا شيء بسيط . يضع يديه على رأسك ثم يقول شيئا فتبرأ بل تعود أحسن مما كنت قبل ان تمرض »

فقلت : « اذن ادعه الآن »

وكنت شابا وجاهلا في تلك الايام وخطر ببالى ان احد هؤلاء العرب ربما قد زار اوروبا وعرف شيئا عن العلاج المغنطيسى وانه قد أرصد حياته لفائدة الناس وشفائهم . وانى اعترف باني شعرت بشيء من القلق لما قاله احمد لى . وبعد دقائق قليلة ادخل احمد الى غرفتى رجلا طويلا اسود له لحية بيضاء يظهر عليه انه من سكان بورنو وقال لى : « هذا هو الطبيب الذى سيشفيك من ضربات الرأس »

ولم يتردد الطبيب لحظة بل وضع يده على رأسي وضغط صدغي بابهامه وسبابته ثم تمتم جملة كلمات لم افهمها وبصق فى وجهي . فهببت واقفا لهذه الفظاعة وضربته ضربة القته على الارض . وكان احمد واقفا بجانبي متكئا على عكازته فرجاني الا انظر المسألة هذه النظرة وقال لى : « ليس بصقه قلة أدب . بل هو جزء من العلاج وستستفيد منه » ولكن الطبيب المسكين الذى زايلته ثقته بنفسه وقف بعيداً عني وقال « وجع الرأس من الشيطان ويلزمنى ان أطرده . وفي القرآن آيات تدل على امكان طرده بالنفث وبذلك يقف عمله السيء فى رأسك »

ولم اتمالك من الضحك على الرغم من مضايقتى وقلت : « وانا اذن على عفريت وعلى كل حال أرجو ان يكون عفريتا صغيرا وان تكون قد نجحت فى طرده » ولم اسمح له باعادة الرقية وأعطيته ريالا وامرته بالخروج . فخرج وهو يدعو لرأسي بالشفاء ولكن بقى على الرغم من هذا الدعاء يؤلمنى

ولم تأتنى الى هذا الوقت اخبار عن هرون فبقيت طول اليوم فى فراشي وزارنى صديقاى قاطنج وجبر الله عدة مرات . وقد عرض على اولهما جواده فرفضت قبوله . اما الثاني فقد عرض علىّ احدى خدمه وقال لى : «انها صغيرة جميلة وقد تربت تربية حسنة فى منزلى . وهى تعرف الطبخ واعمال البيت وتفهم فى الامراض » فرفضت ايضا قبولها وتركنى جبر الله وهو مكسور الخاطر لانى لم اقبل هديته .

والكني كنت مضطراً الى هذا الرفض لاني بعد ان جربت رقية الطبيب لم اكن شديد الرغبة فى ان أسلم نفسى لمراحم آنسة سودانية مهما كانت براعتها

وفى صباح اليوم التالى استيقظت وقد عادت الىّ عافيتي ولما لقينى احمد وأخبرته بانى تعافيت قال لى فورا : « انا كنت متحققا من انك ستشفي لان عيسى (الطبيب) لم يضع يده على احد الا شفاه »

ومضى يوم آخر بدون ان يأتينا خبر عن هرون . وفى اليوم التالى رجع الينا حوالى الظهر أحد رسل جبرالله وقال لنا ان هرون قد جمع رجاله ولكنه لم ينزل بعد من التلال التى اتخذها مقراً له وقت الصيف . وفى اليوم الرابع (من وصولنا لبيرجوى) جاءنا رسول آخر وقال ان هرون لما بلغه انى تركت داره وجئت الى بيرجوى لمقاتلته سرح رجاله الذين ذهبوا الى جبل مرة

فلما سقط فى يدى وذهب أملى فى القتال عدت الى داره وكان الدكتور زربوخين قد برحها وترك لى خطابا يقول لى فيه انه يرجو لى النجاح . ووجدت أيضاً الكاتب الذي صحبنى منذ ان كنت مفتشاً ماليًا وجاء معي الى داره قد جنّ مدة غيابه ووضعوه فى منزل بجوار منزلى فلما ذهبت اليه لكي أراه وقف وعانقنى وهو يصيح : « الحمد لله . لم يفعل السلطان هرون شيئا لك . زوجل بك رجل خائن احترس منه . لقد أمرت بايقاد النار فى القاطرة لكي يحملك القطار الى اوروبا حيث تتمكن من رؤية أهلك وسأذهب معك . ولكن يجب الحذر من زوجل بك فانه وغد سافل »

وكان ظاهراً انه قد فقد عقله ولكن المجانين احيانًا يقولون الحق . فأخذت فى تهدئته حتى رقد وسمع صفير القاطرة وأوهمته انى معه فى القطار ثم تركته لعناية الخدم وخرجت . وبعد خمسة ايام مات هذا المسكين وأظن ان سبب موته انفجار عرق في دماغه

وشرعت أنا فى تدبير امور مديرية داره وبعد شهر تسلمت خطابا من مسدجاليه بك يقول لى فيه (وكان مكتوبا بالفرنسية) انه قد عزم على أن ينتهي من هرون ولذلك هو يأمرني بان أخرج سراً عن طريق منواشي وقبة بقسم من الجنود

النظامية واتجه نحو جبل مرة واغير على نيورنه حيث مقام السلطان هرون . وقال لى انه قد أرسل قوة من الفاشر عن طريق طرة وقوة اخرى من قلقل عن طريق ابي حرز وسيلتقى الجميع فى مكان واحد ويعملون معاً فى مقاتلة هرون

فاذعنت للامر وغادرت داره ومعى ٢٢٠ جنديا نظاميا و ٦٠ من البازنجر وسرنا حتى بلغنا نيورنه حيث السلطان هرون فى جبل مرة فوجدناه قد جلا عنها وفي صباح اليوم التالى خرجت بفصيلة من الجنود أبحث عن هرون ولكننا لم نذهب بعيداً حتى سمعنا عيارات نارية تطلق بسرعة من ناحية نيورنه فركضت جوادى راجعاً فوجدت الجنود الذين تركتهم قد اشتبكوا في قتال مع قوة اخرى معادية فأدركت حالا انها احدى القوات التى أرسلت لمساعدتى من الفاشر ولكنها لم تصل في الوقت المعين لها . فلما وصلت الى نيورنه ووجدت قوة مرابطة تحتلها اطلقت عليها النار وهي تحسبها انها تابعة لجيش السلطان هرون . وقد تكلفت مشقة كبيرة في وقف اطلاق النيران التى قتل بسببها سبعة وجرح أحد عشر ومر عيار في ملابسي وأصيب جوادى بعيارين

وبقينا فى نيورنه عشرة ايام ولما لم يكن فى مقدورنا ان نحصل على اخبار صحيحة عن هرون قررت العودة . وكنا نحن في عودتنا نمر على عدة قرى فنفاجئها لان أهلها لم يكونوا ينتظرون مجيئنا من الغرب . وكان السلطان هرون قد جند معظم الرجال . اما الباقون فقد فروا الى التلال . ولكن رجالى تمكنوا من القبض على نحو ثلاثين امرأة سرن معنا مدة قصيرة . وقد فوجيء اهالى احدى القرى بنا فلم يتمكنوا من الهرب ولما رأيت ان جميعهم من النساء امرت الجنود بالوقوف حتي أتيح لهن الفرصة للفرار ثم أمرت الجنود ايضا بان يسيروا صفا واحداً حتى لا يتفرقوا في القرى ويعيثوا فيها .

ومما حدث ان اما مسكينة كانت تحاول الهرب فباغتناها ففرت تاركة وراءها طفلين على صخرة وأخذت هي تعدو كالغزال على سند الجبل . فذهبت الى حيث الطفلين فوجدتهما عاريين ليس عليهما شيء سوى عقد من المرجان حول عنقيهما وحزام من المرجان أيضاً حول وسطيهما . وكان كلاهما أسود كالغراب والارجح

أنهما كانا توأمين يبلغ عمر كل منهما ١٨ شهراً . فنزلت عن الجواد وذهبت اليهما فأخذا في الصراخ وكل منهما يمسك بالآخر فحملتهما وأمرت خادمي بأن يحضر قليلا من السكر . فسكتا في الحال وصارا يبتسمان خلال الدموع ويقرضان السكر الذي كان في الارجح أحلى ما ذاقاه مدة حياتهما الصغيرة الماضية . وكان عندى مناديل حمر أحملها على الدوام معى لكي أقدمها هدايا فلففت كلا منهما في منديل ووضعتهما على الصخرة كما كانا وسرت بعيداً عنهما . ونظرت اليهما بعد مدة فرأيت انساناً هو أمهما يزحف على الصخر اليهما . فلما بلغتهما عانقتهما ودهدهتهما بعد ان كانت قد يئست من حياتهما . وأخذت هذين الولدين في لباسهما الجديد وعلى شفتيهما أثر السكر الحلو

وبعد أيام ونحن لم نبلغ بعد داره جاءتني الاخبار بانه في مدة غيابي عن هذه البلدة أغار عليها هرون وانتهبها وفر ثانيا الى التلال ومعه الغنائم والسبايا العديدة. فأخذت أدلاء من القرى المجاورة وخرجت أتعقبه ولما ان صرنا على مسافة سفر يومين في الجنوب الشرقي من الفاشر لقيت جنوده الذين لم يتوقعوا مجيئنا

وقد وقفت للاقتراب منهم بدون ان يرونى ثم حملنا عليهم حتى مزقناهم شر ممزق واستولينا على مقادير كبيرة من الاسلحة وأفرجنا عن السبايا اللواتي كن في حوزتهم . وقتل جواد هرون ولكن هرون نفسه مع بضعة من اتباعه تمكنوا من الهرب وبعد أيام قليلة انهزموا امام جيوش قلفل التى كان يقودها نور انجره وقتل هرون وبقتله عاد السلام الى البلاد وانتهت الثورة

ولما عدت الى داره وافانى خطاب من جسي باشا من بحر الغزال يقول فيه ان الدكتور فلكن والقسيس واسون مبعوث الرسالة الكنسية الانجليزية في طريقهما من أوغندا الى الخرطوم عن طريق داره ومعهما وفد من الملك متيسا الى جلالة ملكة انجلترا . ورجانى جسي ان أقدم لهما جميع المساعدات التى في مقدورى وقال انهما قد شرعا في السفر الى داره في اليوم الذى كتب فيه هذا الخطاب . وقد وصلا الى داره بعد ذلك بأيام قليلة وتمتعت بصحبتهما مدة وجودهما عندى

وقد أخبراني عن أشياء مهمة اما أنا فقد حكيت لهما عن آخر الانباء الاوربية وهي وان كانت قد مضى عليها أشهر قد كانت مع ذلك جديدة عندهما

وفى الصباح سمعت ان رجال وفد الملك متيسا لما رأوا الجمال أول مرة خافوا منها وفروا . فقلت للدكتور فلنكن : « بما انك ستضطر الى اتمام سفرك على ظهر الجمال فمن الصواب ان تعتاد ركوب الجمال أنت ومن معك . فاحضر رجال الوفد حتى ندربهم على ركوبها »

فذهب وأرسلت أنا فى احضار جمل من أحد التجار . وكان جملا سمينا ضخما وحضر رجال الوفد وآخرون غيرهم فما رأوا الجمل حتى طار صوابهم وفروا هائمين . ولم يقفهم عن الاستمرار فى العدو سوى ثباتنا أنا والدكتور فلنكن وأوضح لهم الدكتور فلنكن ان الجمل حيوان وديع صبور وانهم سيستأنفون السفر الى مصر عليه وليس فيه ما يدعو الى الخوف ولكنهم مع ذلك لم يتقدموا إلا على حذر ووقفوا على مسافة منه لا يجسرون على لمسه وكان تعجبهم عظيما عند ما رأوا القواص يمتطيه ويسير به وينيخه . وأخيراً تطوع أشجعهم لان يركبه وساعدناه على تسنمه وقام به الجمل وهو خائف ولكنه أخذ ينظر الى رفقائه من مكانه العالى ويوضح لهم سهولة ركوب الجمال وملاذه . والظاهر انه دعاهم الى ركوبه فقد برك الجمل وتكأكأوا عليه جملة وأرادوا جميعاً الركوب وحاول بعضهم ان يركب عنقه وتعلق آخرون بذنبه وتعلق نحو ستة منهم برجله ودهش الجمل لاول وهلة لهذا الازدحام حوله ثم تنبه وأخذ يضرب برأسه يمينا وشمالا حتى نفض جميع هؤلاء « الوجنديين » عنه وهب واقفاً وهم مبعثرون حوله . واظننى لم أضحك في حياتي قدر ماضحكت فى هذه الفرصة . فقد ظن رعايا الملك متيسا (الوجنديون) ان الجمل جبل يتحمل أي عبء ويقوي علي النهوض به ولبثوا مدة ذاهلين خائفين لا يقوون على الاقتراب منه ثانيا . ولكن أخذوا بالتدريج يتعلمون ركوبه فبدأ واحد ثم آخر يقترب منه ويركبه حتى انه عند ماجاء ميعاد سفرهم كانوا جميعا يعرفون كيفية قيادته

وكان فى منزلى عدة أولاد من الذين استخلصناهم من أيدى النخاسين ولما لم يكن للدكتور فلنكن خادم يخدمه فقد اقترحت عليه أن يأخذ معه أحد هؤلاء الاولاد

فقبل ذلك مسروراً وأعطيته صبياً من الغرتيت يدعى كبسون وكان ذكيا فعزم الدكتور على أن يربيه فيأوروبا . وبعد سنتين ونصف سنة وأنا بالفاشر جاءني خطاب مكتوب بالانجليزية من كبسون هذا يشكرني فيه لاني اذنت له بالسفر مع الدكتور فلنكن الى « بلاد كل من فيها طيب القلب رؤوف » ويقول انه قد تنصر وانه أسعد الاولاد وأرسل مع الخطاب صورته فى ملابس افرنجية .

وجاء ميعاد سفر صديقي وكانا فى اشتياق اليه فركب الجميع جمالهم وقاموا الى الخرطوم عن طريق طويشة

وبعد مدة جاءني خطاب من مسدجاليه بك يقول فيه انه مسافر الى الخرطوم لكي يحضر زوجته ولكنه ما كاد يصل الى الخرطوم حتى نشب خلاف بينه وبين ولاة الامور هناك فاستقال وعين بدلا منه مديراً على دارفور على بك شريف الذى كان قبلا مديراً على كردفان

وقريبا من ختام سنة ١٨٧٩ أو فى أوائل سنة ١٨٨٠ تسلمت خطابا مكتوبا بالفرنسية من غوردون كتبه منذ شهرين قبل وصوله الى ضبره طابور فى الحبشة . وقد مزق الخطاب منذ سنين ولكنى أتذكر كلماته بالحرف تقريبا وهي :

عزيزى سلاطين

لما انتهت مهمتى مع الملك يوحنا عزمت على أن ارجع فى الطريق التى جئت منها. ولكنى وانا بالجلابات أدركنى رجال تابعون للرأس عدل وأجبروني على الرجوع وسيأخذونني محروسا الى كسلة ومنها الى مصوع . وقد أحرقت جميع الاوراق التى يخشي منها . وسيسقط في يد الملك يوحنا عند مايعرف انه ليس رئيس بيته

صديقك — غوردون

الفصل الثالث

حكومة دارفور

كانت سنة ١٨٨٠ سنة سلام وهدوء نسبيين فى داره . وكانت أهم أعمالى ادارية فقد زرت تقريبا جميع القرى بنفسى وعرفت جميع القبائل العربية القوية التي كانت على الدوام مشتبكة بعضها مع البعض فى قتال متواصل أو موشكة على القتـال وقد قمت بينها عدة مرار بالصلح

ووجدت فى ختام سنة ١٨٨٠ ان لديّ عدة أشياء تستحق مراجعة الحاكم العام فطلبت الاذن بالذهاب الى الخرطوم لكي أقابل رؤوف باشا الذى صار حاكما عاما بعد سفر غوردون وقد أجيب طلبي فبرحت داره في سـنة ١٨٨١ وبلغت الخرطوم بعد أسبوعين

هناك وجدت زربوخين الذى رحب بي وأنزلنى بمنزله القريب من مكان الرسالة الكاثوليكية الرومانية و كان ملكا للمرحوم لطيف دويونو وهو رجل ملطى كان نخاسا شهيرا

وفي مدة اقامتى فى الخرطوم كنت احادث رؤوف باشا كثيرا عن أحوال دارفور واقترحت أنه يحسن عدلا وانصافا أن تخفض الضرائب فى الفـاشر وفى كبكبيه . وطلبت منه أيضا ان يأذن لى بأن اجبر العرب على أن يعطوني كل عام عددا من العبيد لكي أملأ بهم الفراغ الذى يقع فى الجيش بالامراض والوفيات والحوادث . وطلبت أيضا منه أن يأذن للعرب بان يدفعوا الضرائب عبيداً بدلا من المواشى لأني أؤمل بهذه الطريقة أن استرجع الى جيشنا جنود (البازنجر) الذين كانوا ملتحقين بجيش سليمان زبير وصاروا الآن متفرقين فى القبائل وقلت ان معرفتهم بالاسلحة من أسباب الخطر الدائمة للحكومة • فوافق رؤوف على جميع طلباتي وأعطـاني صكا مكتوبا بذلك

ولما كنت فى الخرطوم جاءني فى يوم ما من يدعى حسن ولد سعد النور وهو

دارفورى وكان أبوه قد قتل مع وزير احمد شحاته فى شقة فرجاني أن أتشفع له لكي يعود الى دارفور فقابلت رؤوف باشا وطلبت ذلك منه فرضى . ولكنه بعد أيام أرسل لي وقال انه عاد فأنبي أمره وانه لايسمح بعودة هذا الرجل الى دارفور . فقلت ان كل جنايته انه اشترك في الثورة وقد فعل غيره ذلك وانه لاسبيل له الآن الى ايصال الاذى بالحكومة. ولكن رؤوف باشا أبى ان يوافقني على رجوعه وشعرت أنا بالاهانة لاني كنت وعدت هذا الرجل بأنه سيرجع فقلت لرؤوف باشا انه بين اثنتين . إما رجوع الرجل واما قبول استقالتي وخرجت مغضباً فاستدعاني بعد ذلك بيومين وقال لى اني كنت مخطئاً في وعد هذاالرجل بالرجوع فأقررت بذنبي فقال لي انه سمح برجوعه وانه يعتقد اني موظف عنيد ولكنى ذو كفاية ولذلك طلب من الخديو توفيق باشا ان يعينني حاكما لدارفور وان يمنحني لقب بك.فشكرته وأكدت له اني سأعمل جهدى لكي أحقق ثقته فيّ

ثم طلب مني رؤوف باشا ان أكتب له ضماناً أتحمل فيه تبعة مسلك نور فى المستقبل . فكتبت هذا الضمان وأنا مسرور لأني شعرت انه بعد كل ما تحملت من المشاق لاجل رجوعه الى وطنه سيحسن سلوكه ويثبت ولاءه وامانته . ولما عدت الى منزلى أرسلت فى حضور نور وكان قد مضى عليه يومان وهو لايدرى ما تنتهى اليه مسألته فلما أخبرته بأنه قد أذن له بالرجوع الى وطنه انكب على قدمى وأخذ يشكرني ويكثر من الدعاء لى . وشعرت بأنه رجل شريف يمكن الاعتماد عليه ولكني كنت وقتئذ أجهل اني قد ضممت الى صدرى ثعبانا

وانتهت اجازتي بالخرطوم بسرعة بين الاصدقاء الكثيرين . وقد وصل الينا فى أواخر يناير سنة ١٨٨١ الاسقف كومبوني والاب أوهرولدر والاب دختل وكانوا قد جاؤا من القاهرة . ووصل الينا أيضاً حسن باشا رئيس المالية وبوساني وهانسل القنصل وقد نزل أوهرولدر ودختل فى منزلى وكم كان لنا من حديث معاً عن وطننا المحبوب

وفى ٢٥ يناير سنة١٨٨١ وصل جسي باشا الى الخرطوم وصحته فى غاية السوء. قد برح مشرى الرق وركب النيل قاصداً الى الخرطوم فحجز السد سفينته . والسد

هو تلك النباتات التى تنمو فى النيل بكثرة بحيث يحتاج أحياناً الى قطعها بالفؤوس لـكي يشق طريقا للسفينة وبقى ثلاثة أشهر وهو يعالج اجتياز السد ولقى الامرين من جوع وامراض بين رجاله . ومات أكثر رجاله وصار بعضهم يأكل بعضاً للجوع ثم انجده أخيراً ملترو في الباخرة بردين وحمله عليها الى الخرطوم حيث عنيت به الراهبات . ولكن الصدمة التى نالت جسمه كانت قد هدته فلم ينجح الدكتور زربوخين مع كل ما بذله فى رد عافيته اليه. ثم قررنا جميعا ان يرسل الى مصر وبذلنا كل مجهود لـكي يشعر بالراحة والرفاهية في سفره . وكان يرغب فى أن يأخذ معه خادمه الملاظ وكان خصيا. ولكن رؤوف باشا خشي أن تتقول الاقاويل عن ادارته في السودان بوجود هذا الخصى مع جسى باشا فرفض أن يأذن له بمرافقته . ولكن الحاحى والحاح زربوخين عليه جعلاه يلين فى النهاية ويسمح له بالسفر معه . وفى يوم ١١ مارس حملنا جسي الى ذهبية الحاكم العام حيث سارت به الى بربر . ومن هناك حمل الى سواكن ونزل فى الباخرة التى نقلته الى السويس وكان قد تغلب عليه الضعف حتى لم يكن يقوى على الحركة . ووصل الى السويس فى ٢٨ مارس ونقل الى المستشفى الفرنسي ولكنه مات بعد وصوله بيومين

ولم تكن الحال في هذه الاثناء على ما يرام فى دارفور فقد كتب الىّ زوجال بك يقول ان عمر واد دارهو قد سار سيرة سيئة فى شقة وقدمت خطابه هذا الى رؤوف باشا فأرسل اليه فى الحال تلغرافا يامره فيه بان يسافر الى الفاشر

ولم يعد لى فى الخرطوم ما يؤخرني عن السفر فعزمت على ان أقوم بأسرع ما يمكن لكي أتسلم أعمالي . ووضع رؤوف باشا باخرة تحت تصرفي فتركت الخرطوم في ٢٩ مارس ورافقنى الاسقف كومبوني والاب اوهرولدر الذى وعدته بان أحمله على جمالي الى الابيض . وقد شيعنا هانسل القنصل وماركو بولى بك وزربوخين وماركيه الى طرة الحضرة حيث ودعناهم . ولم أفكر وأنا أودعهم انني لن ألاقي منهم بعد ذلك سوى واحد وان تقدر لى العودة الى عاصمة السودان فى ظروف غريبة . وكنت شابا يملأ ني احساسي بالمركز الجديد الذى شغلته والتبعات العظيمة التي تحملتها بحماسة وأمل فى المستقبل . ولكن الاقدار كانت تخفى عنا حظا آخر .

وبعد مسيرة خمسة ايام بلغنا الابيض فبرحها الاسقف وقام بسياحة فى جبل نوبة اما الأب اوهرولدر فقد بقى فيها مدة ثم سافر في أعمال الرسالة الى دلين فى جنوبي كردفان . ومكثت فى الابيض بضعة أيام ثم تسلمت تلغرافا لكي أقوم الى فوجه فودعت صديقى وسافرت اليها . وكان مقدرا لى الا أرى صديقى الاسقف فانه مات فى الخرطوم فى سنة ١٨٨١

أما الثاني أوهر ولدرفقد حكم علينا القدر بان يعنى كل منا بمحن عديدة قبل ان نتلاقى أسيرين عند المهدي الذى كان يوشك ان يقلب وقتئذ كل نظام او حكومة فى السودان

ولما برحنا الابيض أغذذنا السير حتى وصلنا داره ومنها الى الفاشر حيث بلغتها فى ٢٠ ابريل . ووجدت الاحوال الادارية قد بلغت درجة عظيمة من الارتباك والفوضى ففضيت بضعة اشهر وانا أجتهد فى ايجاد شبه نظام فيها ونجحت فى ذلك بعد أن جلت فى انحاء المديرية وباشرت عدة أعمال بنفسى وكبر رجائي فى الاصلاح

ولم أكن قد رأيت بعد الجزء الشمالى الغربي من المديرية فتعللت باخبار القتال بين عرب البادية وعرب المهرية وعولت على زيارة هذا الجزء . وفى منتصف شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ برحت الفاشر ومعى ٢٠٠ من الجنود المشاة وبعض الخيالة غير النظاميين وكان يقودها عمر واد درهو

وبعد مغادرتنا الفاشر حططنا رحالنا للمبيت قرب ابار مدجوب وهي تقع فى منتصف الطريق الى قبة فلما خيم الظلام خرجت أتمشي نحو الآبار وكانت ملابسى تشبه ملابس الجنود فلم يكن من السهل معرفة شخصي وقعدت قريبا من الآبار انظر الى النساء وهن يستقين . وجاء بعض الخيالة لكي يسقوا خيولهم وطلبوا من النساء أن يعطينهم دلاءهن . فرفضت النساء وقلن لهم : « سنملأ جرارنا أولا ثم نعطيكم الدلاء »

فقال أحد الجنود : « لكانكن تحكمن علينا بالعقاب من الله . وهذا جزاء

منح الحرية للبلاد . والله لو لم يكن سلاطين معنا لاخذنا كنّ أنتنّ وجراركنّ ملكا لنا » فأجبنه قائلات « الله يطول عمره »

فرجعت وانا في غاية السرور لأني سمعت باذني شهادة السودانيين بارتياحهم الى الاوربيين الذين نجوهم من المظالم التي كانت تتسم بها حكومة البلاد السابقة

ولما برحنا كبكبيه وصرنا على مسيرة نصف يوم منها أدركتنا رسل ارسلها الينا آدم عمر برسالة مكتوبة بالشفرة الفرنسية بعثها الىّ مركو بولى بك باسم الحاكم العام . وكانت قد أرسلت ليلا الى فوجه ثم الى كبكبيه عن طريق الفاشر وهذا نصها :

« أغار درويش يدعى محمد احمد بدون مسوغ على راشد بك وجنوده قريبا من عذير . وأباده هو والجنود . الثورة خطرة جداً . اعمل اللازم في مديريتك حتى لا ينضم الى هذا الدرويش اى واحد من الساخطين »

فكتبت الرد في الحال وهو : « وصلت الىّ الرسالة . وسأتخذ الاجراءات اللازمة لانفاذ أوامرك »

وقد كنت سمعت قبل وصول هذه الرسالة الىّ بمدة ان شيخا من مشايخ الدين قد ظهر وأخذ يناوىء الحكومة ويحث الناس على العصيان . ولكنى لما لم أسمع شيئا عنه من الحكومة بصفة رسمية استنتجت ان مسألته قد سويت ولكن ابادة المدير راشد بك وجنوده صارت تبدو لى الآن في غاية الخطر . والظاهر ان الحركة قد امتدت فجأة ولكن من كان يمكنه وقتئذ التنبؤ بالنتائج الهائلة التي بلغتها فيما بعد هذه الحركة

ولم يكن من الممكن الآن ان ارجع بعد ان شرعت في السير نحو عرب البادية وعرب المهرية بدون ان أثير القلق في النفوس عن علة رجوعى في نصف الطريق . فعولت على ان اتم هذه المهمة قبل رجوعى

ومن الغريب ان عرب البادية هؤلاء مع أنهم محاطون من كل جانب بالمسلمين يكادون يؤلفون القبيلة الوحيدة التي لا تزال متعلقة بعادات الوثنية القديمة في وسط افريقا . فاذا سئل احد رؤسائهم ان يصرح بدينه قال : (لا إله إلا الله محمد

رسول الله) ولكنه لا يعرف شيئا غير هذه العبارة فهو يجهل القرآن ولا يصلي مع المسلمين

وكانت عرب البادية يجتمع رجالها تحت شجرة كبيرة جداً من شجر الهجلك وقد فرشت ارضها بالرمل فيتمنون على إله مجهول ما يريدون ويدعونه الى حمايتهم

ولهم أعياد دينية تقع فى أوقات غير معينة فيصعدون الى التلال ويقفون على القمة التي يطلونها بالجير ثم يذبحون أضحياتهم . وهم طوال الاجسام لهم هيئة شريفة ولونهم اسود شديد السواد ولكن انوفهم دقيقة وافواههم صغيرة وهم لذلك أشبه بالعرب منهم بالزنوج . ونساؤهم مشهورات بشعرهن الطويل السبط وبينهن جميلات يشبهن جميلات العرب . وهم يلبسون وزرة من جلود الحيوان . ولكن النساء والطبقة العالية من الرجال يلبسون ملابس طويلة مصنوعة من قطن دارفور . وطعامهم غاية فى البساطة

فهم لا يعرفون القمح ولا يزرعونه وانما يأخذون اب القرع الذى ينمو عندهم بكثرة وينقعونه فى آنية مصنوعة من لحاء الشجر . ثم يقشرونه ويتركون اللب في الماء حتي تذهب عنه مرارته ثم يصفونه ويمزجونه بالملح ثم يجففونه ويطحنونه دقيقا يخبز مع اللحم فيكون طعاما

ولهم عادات غريبة في الميراث . فاذا مات أحدهم اجتمع أقاربه وحملوه الى قبره في الجبانة التى تقع عادة خارج الحلة أو القرية التى يعيشون فيها . فاذا دفن وقفوا مستعدين فتشار لهم اشارة خاصة فيعدون الى بيت الميت متسابقين فمن بلغه قبل غيره غرز رمحه أو قوسه فيصير بذلك الوارث الوحيد لما ترك الرجل من مال ونساء ما عدا ام المتوفى وله الحق عندئذ فى أن يتزوج النساء أو يسرحهن حسب حالته المالية فان عدد النساء يتوقف على غنى الرجل أو فقره

ووصلنا أخيرا الى كامو حيث أخبرني الزغاوة الكبير الشيخ صالح دنقوسة بان رؤساء عرب البادية سيحضرون في الغد . واتفقت معه على أن تكون شجرة الهجلك مكان اللقاء والمفاوضة وان يكون ميعاد المفاوضة بعد ساعة من شروق الشمس ويكون هو ترجمانا بيني وبينهم . وأمرت رجالي بنصب خيامهم على بعد نصف ميل من شجرة

المجلك ثم صففتهم فى صباح اليوم التالى استعدادا للقاء رؤساء البادية الذين أخبرنا صالح المذكور بقدومهم ، ووقفت مع ضباطى ومع السنجق عمر واد دارهو متقدمين على الجنود بنحو مائة ياردة ومعنا الخدم وقوفا الى جانب الخيول . ثم ظهر لنا رؤساء البادية قادمين الينا ومعهم صالح وايديهم مكتوفة الى صدورهم ورؤوسهم منكسة . وقد أحضروا معهم ترجمانا فتبادلنا التحية بواسطته ثم أمرت يبسط السجاد على الارض ودعوتهم الى الجلوس عليه. أما أنا وضباطى فقد جلسنا على الكراسى ثم تناولنا شيئا من السكر والماء والملح وشرعنا فى المفاوضة

وكان رجال البادية أربعة كلهم طويل شريف الهيئة ذوملامح حسنة في سن الكهولة وكانت ملابسهم جلابيب بيضاء أحضرها لهم صالح وكانوا يحملون السيوف العربية المستقيمة وكانت أسماؤهم . جار النبي وبوش وعمر وكركره ولكنى لست متأكدا بأنهم لم يتخذوا هذه الاسماء العربية المطنطنة وقتيا للظرف الحاضر فقط . وكان اتباعهم يبلغون من ستين الى سبعين رجلا يلبسون القمصان والجلود وقد وقفوا وراءهم على بعد منهم . وقعد صالح دنقوسة قريبا من الشيوخ ومن المترجم

وتكلم جار النبي مخاطبا المترجم قائلا « كرسي سلم » فقال المترجم سلم يعني انه مستعد للترجمة ثم شرع في المفاوضة قائلا .

« نحن من قبيلة البادية وقد كان آباؤنا وأجدادنا يدفعون الخراج لسلطان دارفور كل سنتين أو ثلاث عند ما كان يرسل جباته لجمعه . وانتم الاتراك قد تغلبتم الآن على دارفور ولم تسألونا قط أن ندفع لكم خراجا . وأنت (اسلاطين) قد صرت حاكما للبلاد كما أخبرنا بذلك صديقنا وأخونا دنقوسة ونحن نقر بطاعتنا لك وقد أحضرنا معنا رمزاً لهذه الطاعة عشر خيول وعشر جمال واربعين بقرة . فهل لك الآن أن تقرر قيمة الخراج المطلوب منا ؟ »

وصارت النوبة الىَّ فى الكلام فبعد ان قلت « كرسي سلم » قلت انا أشكركم على خضوعكم وسأطلب خراجا صغيرا ولكنى جئت هنا لكي أطلب منكم أن تردوا الى المهرية جمالهم التى سرقتموها وتردوا اليهم أسراهم الذين تحبسونهم الآن »

فتريث جار النبي هنيهة ثم قال . « منذ عهد آبائنا ونحن في ثارات مع العرب

المحيطين بنا فاذا قاتلناهم وأسرنا منهم أسرى فمن حقنا أن نطلب فداءهم وكثيرا ماقبلنا قبلا فكاك اسرى المهدية »

فسألت الشيخ حسب الله عن صحة هذه الدعوى فاجاب بالايجاب فسألته ثانيا هل كانت هذه العادة تجرى مدة سلاطين دارفور فقط او انها جرت ايضا بعد دخول دارفور فى حكم الحكومة المصرية »

فاجاب : « قبل أن تفتحوا البلاد ومنذ سنتين غزت المهرية بلادنا فصددناهم فارتدوا عنا »

فنظرت الى حسب الله ووجدت من عينيه ان الرجل يقول الحق فقلت « قد يكون ذلك ولكنى فى ذلك الوقت لم احكم هذه البلاد . وانا أعرف انكم فى تلك الايام كنتم تعملون ما كنتم تظنونه صوابا ولست ألومكم على ما فات ولكني انا الآن الحاكم وأطلب منكم السير على رغبتي . فيجب اذن ان تردوا الاسرى ولكن بما ان المهرية قد بدأوكم بالهجوم فانا أسمح لكم بان تحتفظوا بنصف الجمال برهانا على شجاعتكم فى رد غارتهم »

فخيم سكوت طويل ثم أخذ الاربعة يتفاوضون معا . وأخيراً أجاب جار النبى بقوله : « سنطيع أمرك . ولكن بما ان جمع الجمال يحتاج الى مدة طويلة لتفرقها فى أنحاء البلاد فانه من الاسهل علينا ان نرد الاسرى »

فقلت : « اذن التفتوا لما أقول ونفذوا هذه الاوامر باسرع ما يمكنكم . ردوا الجمال وأنا اعفيكم من خراج هذا العام لاني أعرف ان من الصعب ان تدفعوا الخراج وتردوا الجمال في وقت واحد . »

ورأينا ان هذه التسوية قد وافقتهم حتى صاروا يكثرون من الشكر والدعاء فطلبت منهم البقاء لصباح اليوم التالى وقلت ان صالح سيعني بكل حاجاتكم . ثم امتطينا خيولنا وأمرت الجنود بان يطلقوا ثلاث طلقات . وقد ذعروا عند ما صكت آذانهم لانهم لم يسمعوا اطلاق العيارات النارية قبلا . ثم أمرت صالحا بان يحضرهم لى في صباح اليوم الثاني وركضت جوادى الى مضرب خيامنا

وقضيت طول النهار وانا مشغول البال بشأن رجوعي الى الفاشر بدون ان

يؤثر رجوعي في نجاح بعثتي. ولم يكن من المتيسر لى ان أبقى حتى أرى رد الاسري وكنت أيضاً قلقا بشأن قرب الماء الذى أعطاه لنا المهرية وقد وبخت حسب الله لعدم اتقانه هذه المهمة

ولما جاءوا فى صباح اليوم التالى سألتهم هل أرسلوا الرسل لجمع الاسرى والجمال فاجابوني بالنفى فقلت لهم فى لهجة التغيظ اني ان أقدر علي الانتظار لكي أرى تنفيذ أوامرى بنفسي . فقال جار النبي : «نحن هنا يا مولاى لكي تنفذ أوامرك فيمكنك ان تسافر حين تشاء ونحن نسلم الاسرى والجمال الى دنفوسه وحسب الله »

فقلت : « عندى اقتراح آخر . فانى لاأشك فى اخلاصكم وولائكم ولكنى أحب ان أزيد معرفتى بكم ولذلك أري ان تصحبوني أنتم ومن تريدون ان يرافقكم الى الفاشر وفى اثناء غيابكم تنتدبون من ترغبون في ندبه لكي يسلم الرجال والجمال لحسب الله الذى سيبقى هنا مع دنقوسه . وعندما تبلغنى الاخبار وانا بالفاشر بان مندوبيكم قد فعلوا ذلك أردكم انا الى بلادكم مثقلين بالهدايا . انكم لم تزوروا الفاشر قبلا ويلذ لكم رؤية عاصمة المديرية وقوة الحكومة وانى واثق بانكم ستوافقون على اقتراحى هذا . وستسرون لما تشاهدونه هنالك حتى انكم ستوافقون بعدذلك دائما على كل ما أطلبه منكم فى المستقبل »

فقال صالح ان الاقتراح حسن ولكنه قد سبق ان رأى الفاشر ولذلك هو لا يرغب فى زيارتها ثانيا . ورأيت من وجوه الآخرين انهم يستحسنون الفكرة وبعد محادثات طويلة وافقوني على السفر معى. وكانوا لعلمهم بان سفرنا يتوقف على انتداب من يثقون به لتسليم الاسرى والجمال اخذوا يتشاورون بسرعة في انتداب عدد منهم لكي يقوموا بهذا العمل ولما انتهوا من ذلك زودوهم بستة رجال لخدمتهم وأخبرونى باستعدادهم للسفر . ولكنهم قبل ان يسافروا طلبوا مني ان يقسموا يمين الولاء فوافقتهم على ذلك . وكان لأخذ هذه اليمين حفلة نظامها كما يلى :

أحضروا سرج جواد ووضعوه على الارض ثم وضعوا فوقه قدرا تحتوى على فحم خشبي متقد وغرزوا فى السرج رمحاً . ثم تقدم شيخ بعد شيخ منهم وصار يتلو كل منهم كلمات ثم يقسم فى نهايتها اليمين التالية :

(لا تمس ساقي هذا السرج وليطعنى هذا الرمح ولتأكلني هذه النار اذا انا نكثت بهذا العهد الذى أتعهد به أمامه)

وبعد هذه اليمين المحرجة لم يكن ثم ما يريبني فى ولاء هؤلاء الناس اوفى شرفهم وأمرت بالشروع فى السفر بعد الظهر وبرحنا كاموا برفقة رؤساء البادية وحاشيتهم وأمرت صالحا وحسب الله بان يخبراني عن تنفيذ الاتفاق وتسليم الرجال والجمال . وكنت راغبا في الوصول الى الفاشر باسرع ما يمكنني ولذلك تركت رؤساء البادية مع فرقة المشاة وأوصيت الضباط بالعناية بهم طول مدة سفرهم ثم اصطحبت عمر واد درهو وحرس الشايجيه واسرعنا فى السفر الى الفاشر

وكان اول ما سمعته من الاخبار عند وصولى وفاة اميلياني دانزنجر الذى كان فى شقة . وقد كان قبلا مأمور القبة ولكنى كنت أرسلت اليه لكي يمثل الحكومة في جنوبى دارفور وكان يشكو من مرض القلب منذ سنوات ثم قضى عليه أخيرا . ولم يفهم الموظفون الذين حوله سبب موته هذا الفجائى ولذلك اشتبهوا فى انه قد مات مسموما فحملوه على جمل وأرسلوه الى داره ففحص الجثة الصيدلى المقيم هنالك وقال ان الموت طبيعى ودفنت الجثة في داره وأقمت انا نصبا من الحجر عليه تذكارا لهذا المواطن المسكين الذى لقي حتفه فى هذه البلاد النائية

ثم بلغني ان فى شقة قلاقل قد جرت حديثا واني محتاج لذلك للسفر الى داره والاقامة بها جملة أيام . وجاءتنا ايضا أخبار مزعجة عن الحالة فى كردوفان والخرطوم ولكن كان المظنون فى دوائر الحكومة انالثورة ستقمع بالحملة العسكرية التى ارسلت لهذا الغرض وبعد أيام وصل رؤساء البادية وقد أمرت بغية التأثير فيهم جميع جنود الحامية بالخروج والعرض أمامهم وفي الليل أطلقنا جملة اسهم نارية اكراما لهم. وقد انتدبت المدير لكي يقوم بحراستهم وراحتهم ولكنى لسوء الحظ لم اتمكن من البقاء معهم طويلا . فما كادت الخيول تستريح حتى شرعت فى السفر الى داره يصحبني عمر واد دارهو ومائتان من الشايجيه وانتدبت السيد بك جمعة لكي يمثل الحكومة مدة غيابي

الفصل الرابع

رواية الخليفة عن المهدي

ظهر لنا ان حركة الدراويش كانت خطيرة جدا . ولقد ولد هذا الرجل محمد احمد قريبا من جزيرة ارغوا من عائلة فقيرة خاملة ولكن أفرادها كانوا يدعون انهم من نسل النبي . ولكن هذه الدعوى لم يكن احد يأبه لها وكان يعرف محمد احمد هذا باسم الدنقلاوى وكان أبوه فقيها عاديا وقد علمه القراءة والكتابة وهو صبي وأخذه الى الخرطوم ولكنه مات في الطريق فى كررى حيث بنى ابنه له بعد ذلك ضريحا سماه « قبة سيدى عبدالله »

ولم يجد محمد احمد من يعتمد عليه بعد وفاة أبيه فأخذ يدرس ويثابر على القراءة وكانت نفسه تنزع الى التفقه في الدين فأحبه استاذه وأوصاه بحفظ القرآن عن ظهر قلبه . ثم سافر الى بربر وتتلمذ لمحمد الخير فأتم عليه تعليمه الديني وبقى جملة سنوات فى بربر يدرس ويقرأ وكان لتواضعه وذكائه محبوباً وفى حظوة من جميع المعلمين . ولما بلغ سن الرجولة غادر بربر الى الخرطوم فصار تلميذاً للشيخ محمد الشريف وكان رجلا وقوراً مشهوراً وكان أبوه نور الدائم صاحب الطريقة السمانية المعروفة

وواجب شيخ الطريقة ان يكتب فقرات من الادعية والحديث فيحفظها تلاميذه عن ظهر قلب ويكررون تلاوتها حتى يتمهد بذلك لهم الطريق الى قصور الجنة التى هي غاية كل مؤمن . ولكل شيخ مذهبه وهو يحمل اسم مؤسس الطريقة مثل طريقة الختمية والخضرية والتغانية والسمانية الخ. وتلاميذ أصحاب الطرق هؤلاء يطيعونهم ويلزمونهم

وأظهر محمد احمد تعلقه بالطريقة السمانية وتعلق بصاحبها الشيخ محمد شريف . ثم رحل الى جزيرة أبه فى النيل الابيض قريباً من كاوه وحوله جماعة من تلاميذه المخلصين المتعلقين به . وكانوا يرتزقون بزرع الارض كما كانت تأتيهم هدايا عديدة من المؤمنين الذين كانوا يمرون عليهم فى النيل صعودا أو هبوطا وكان ثم محمد احمد

مقيما فى الجزيرة منذ سنوات فتزوج ابنته محمد احمد . وكان أخواه محمد وحامد يعيشان هناك وكانا يشتغلان بصنع القوارب ويعاونان أخاهما على العيش . وحفر محمد احمد لنفسه شبه صومعة فى شاطئ النيل وكان يعيش هناك بعيداً عن الناس وكان يصوم عدة أيام ولا يزور رئيس الطريقة الا من وقت لآخر لكي يثبت له اخلاصه

وحدث فى أحد الايام أن محمد شريف جمع لمناسبة ختان ابنائه مشايخ الطريقة والتلاميذ واذن لهم فى الغناء والرقص لان الله يغفر فى مثل هذه الظروف الخاصة فى الافراح ما يحدث من الخطايا والذنوب المخالفة ولكن محمد احمد لما انطبع عليه من التقى والصلاح استنكر الغناء والرقص وضروب الطرب الاخرى . وأوضح لاصدقائه مخالفتها كلها للدين وانه لا يمكن أى انسان مهما كان قدره ولو كان شيخ طريقة أن يترخص فيها . وبلغت هذه الاقوال محمد شريف فاكبر من محمد احمد وعظ تلاميذه واستنكر الحجج التى أدلى بها وطلب منه أن يبرر أقواله . وكانت نتيجة ذلك أن تقدم محمد احمد بالاعتذار وهو يتذلل امام التلاميذ والاتباع ويطلب الصفح . ولكن محمد شريف أخذ يلعنه وينسب اليه الخيانة والخروج على شيخه بعد أن أقسم يمين الولاء له ثم محا اسمه من قائمة الاتباع المذكورين فى الطريقة السمانية

فذل محمد احمد وصغر وذهب الى أحد أقاربه وطلب منه أن يصنع له « شعبة » والشعبة عبارة عن خشبة مشقوقة يوضع العنق في شقها فتنضم عليه وتؤلم الانسان بذلك ألما شديداً . ثم ذر على وجهه رماداً وعاد الى محمد شريف فى هذه الهيئة يرجو الصفح ويقر بالتوبة والندم ولكن شيخ الطريقة رفض أن يخاطبه فعاد محمد احمد خائبا الى أهله فى أبه وكان يحترم مؤسسى الطريقة السمانية الشيخين نور الدائم والطيب احتراما عظيما ولذلك كان لطرده من طريقتهما وقع عظيم فى نفسه لا يكاد يحتمله

وحدث بعد ذلك أن سافر محمد شريف الى بلدة قريبة من أبه فذهب اليه محمد احمد فى الشعبة ووجهه ملطخ بالرماد يستغفر ويتوب ولكن الشيخ طرده أفظع الطرد وقال له : « اخسأ عني ياخائن . اخسأ أيها الدنقلاوى الشقى الذي لا يخاف الله

والذى يخرج على معلمه ومولاه . لقد حققت قول من قال : الدنقلاوى شيطان مجلد بجلد انسان . انك تثير الشقاق بين الناس فاخسأ عنى فانى لن أغفر لك »

وكان راكعاً يسمع هذا الكلام الجارح ثم انتصب وخرج والدموع تنهمل من عينيه ولكن هذه الدموع لم تكن دموع الندم بل دموع الغيظ والحقد اللذين كان يتلظى بهما قلبه وكان مما يزيده غيظاً قلة حيلته في غسل هذه الفضيحة عن نفسه . فعاد الى أهله وأخبرهم أن محمد شريف قد طرده وان يقبله في الطريقة ثانيا وانه قد عزم على أن يطلب من الشيخ القريشى أن يقبله في طريقته وكان هذا الشيخ قد خلف الشيخ الطيب جد محمد شريف وقد أذن له فى تعليم الطريقة السمانية وإعطاء العهد عنها وكان بينه وبين محمد شريف لهذا السبب غيرة شديدة

وجاء جواب الشيخ القريشى يقول فيه انه مستعد لقبوله . وتهيأ محمد احمد هو وتلاميذه للذهاب الى مسلمية حيث الشيخ القريشى وأخذ العهد منه . وبينما هو في ذلك واذا برسالة من محمد شريف قد وصلته يقول له فيها انه يأمره بالقدوم وانه قد عزم على الصفح عنه وعلى الاذن له بان يعود الى ممارسة الطريقة . فرد عليه محمد احمد رداً أبياً قال فيه انه لا يطلب الصفح لانه لم يذنب وانه لا يحب أيضا ان ينقص مكانة الشيخ بان يجتمع به علناً أمام الناس وهو « دنقلاوى شقى »

واستقبله الشيخ القريشى مرحباً وانتشرت حكاية رفض محمد احمد قبول الصفح من شيخه فى جميع انحاء السودان . ولم يكن الناس قد سمعوا بمثل هذا العمل من قبل وأخذ محمد احمد يصرح بأنه ترك مولاه القديم لانه قد خالف الدين جهرة . فعطف عليه الناس عطفاً كبيراً لهذا السبب وجعلوا يتحدثون به وكبر مقامه فى عيونهم وقد بلغت هذه الحادثة أهل درافور وصارت حديثهم وصار هو بطلا يعجب به لرفضه الطاعة لمولاه

وحصل على اذن من الشيخ القريشى بأن يعود الى أبيه حيث كان يزوره الناس من جميع البلاد يتبركون به وصارت العامة تهرع اليه وترى فيه مظلوما

خرج على ظالمه وابي الضيم . وكانت تأتيه الهدايا فيفرقها بين الفقراء ولا يأخذ شيئا منها لنفسه حتى صار يلقبه الناس بلقب « الزاهد »

ثم سافر الى كردفان حيث يكثر الفقهاء . وهم من أجهل الناس وأكثرهم خرافات . فلقي نجاحاً عظيما بينهم . ووضع رسالة وزعها بين اتباعه المخلصين حضهم فيها على تطهير الايمان الذى فسد وانحط بفساد الحكومة وعدم احترام الموظفين أركان الدين

وبعد أشهر مات الشيخ القريشي فذهب محمد احمد واتباعه الى مسلمية حيث بنوا له ضريحاً له قبة تذكاراً له .

وحدث في هذا الوقت ان جاء رجل يدعي عبد الله بن محمد التعايشى من قبيلة البقارة أي الذين يقتنون البقر وطلب من محمد احمد ان يدخل فى الطريقة السمانية فقبله محمد احمد واقسم امامه يمين الولاء . وكان عبد الله هذا أكبر اخوانه الاربعة وكان أبوهم يدعى محمد التقى من قسم الجبيرة من فخذ التعايشي . وكان هذا الفخذ ينتسب الى « أولاد أم صورة » وكان لعبد الله اربعة اخوة ثلاثة ذكور وهم يعقوب ويوسف وسمانى وأخت تدعى فاطمة . وكانت علائق أبيهم باسرته سيئة ولذلك عزم على مهاجرة السودان والحج الى مكة ثم الاقامة في جوار الرسول بالمدينة . وقد وصف أولئك الذين عرفوا محمد التقى هذا بأنه كان رجلا صالحاً متحرجا يؤدى واجباته الدينية بدقة ويشفي الامراض بالتعاويذ والتمائم وكان أيضاً يعلم الناس القرآن .

وكان عبد الله ويوسف أشد أولاده عصياناً وقد لقى منهم الأمرّين فى تعليمهم بعض الآيات الضرورية للصلاة . اما يعقوب وسمانى فكان فيهما شيء من طبع والدهما وهدوئه وقد حفظا آيات القرآن وبعض الشروح وكانا يعاونانه على تأدية واجباته الدينية

وقد اشتركت أسرة التعايشى فى مقاومة الزبير عند فتحه دارفور . وقد حكي الزبير بأنه عندما كان يقاتل فى الشقة وقع عبد الله أسيراً وكان أوشك ان يقتله

لولا ان توسط بعض الفقهاء . وعرف له عبدالله هذه المأثرة فجاءه يوماً يقول له انه رأى في نومه رؤيا تتلخص في ان الزبير هو المهدى المنتظر وانه هو عبد الله احد اتباعه . قال الزبير:

« فقلت له انني لست المهدى ولكني لعلي شراسة العرب وانهـم أقفلوا الطرق قد جئت لفتحها واعادة التجارة الى ما كانت عليه »

ولما انتهى الصلح مع الزبير عاد التقى هو وأولاده عن طريق قلقة وشقة التى بقوا فيها سنتين ثم غادروها الى دار قمر عن طريق دار حمر والابيض . وكانوا قد نزلوا ضيوفا على شيخ دار قمر وبقوا عنده عدة أشهر ومات هناك ابوهم التقى فدفنوه فى شرقلة وقبل موته أوصى أكبر أبنائه عبدالله بان يحتمى ببعض المشايخ ثم يهجر هو وأسرته السودان الى مكة حيث يعيشون بقية حياتهم ولايرجعون الى السودان

وسافر عبدالله وترك اخوته طبقاً لوصية أبيه في عناية الشيخ عساكر ابو كلام وسمع فى طريقه عن الشقاق بين محمد احمد وشيخ طريقة السمانية التابع لها وعزم على أن يذهب الى محمد احمد وأن يطلب منه الاذن بالاندماج فى طريقته

وقد قال لى بعد ذلك الشيخ عبدالله بن السيد محمد خليفة المهـدى : « كان سفرى شاقا جداً . وكان كل ما أملكه فى الدنيا حمار له دبرة فى ظهره فلم أكن أستطيع ركوبه وانما كنت أضع عليه قربتى وغرارة القمح وأبسط فوقهما ثوبى المصنوع من القطن وأسوقه امامي . وكنت في ذلك الوقت ألبس ثوباً فضفاضاً من القطن مثل سائر رحال قبيلتى . أظنك تتذكر هذا الثوب يا عبد القادر »

(وكان يسميني عبد القادر فاذا كان أحد آخر قاعداً وله هذا الاسم فانه كان يدعوني باسم عبد القادر صلاح الدين أي سلاطين)

وكانت ملابسي ولهجة كلامي تدلان على انى غريب وبعد ما عبرت النيل كان كلما قابلنى أحد قال لى : ما ذا ترغب هنا. اذهب الى بلدك . ليس هنا شيء تسرقه وأهل النيل يسيئون الظن بنا لان التجار الذين كانوا يذهبون الى الغرب للزبير كانوا يلاقون عنتاً كبيراً من العرب وكنت عنـد ما أسألهم : أين المهـدى المعروف باسم

محمد احمد وأبن يقطن . كانوا ينظرون الىَّ متعجبين ويقولون : وأنت ما ذا ترغب منه . انه لاينجس شفتيه بذكر اسم قبيلتك

«ولكن لم ألق هذه المعاملة من كل الناس فان بعضهم كان يشفق عليَّ ويدلني على الطريق . وكنت مرة أجتاز قرية فأراد بعض أهلها أن يستلبوا مني حماري متعللين بأنه سرق منهم فى العام الماضى وكادوا ينجحون فى ذلك لولا أن توسط رجل صالح وأجازني القرية بحماري . وكنت طول الطريق عرضة للسخرية والتهزئة ولولا ان البعض كان يشفق عليَّ ويعطيى شيئاً من الطعام لمت جوعاً . وبلغت بعد الجهد مسلمية فوجدت المهدى مشغولا ببناء ضريح للشيخ القريشى . فما هو أن رأيته حتى ذهب عنى كل ما عانيته من المشاق وقعدت راضياً أعاينه وأسمع أقواله وتعاليمه. وبقيت ساعات لا أجسر على فتح في امامه ثم تشجعت وأخبرته بقصتى والحالة السيئة التى صار اليها اخواني وعزمت عليه بالله والرسول إلا ما أدخلنى فى طريقته . ففعل ومد الىَّ يده فقبلتها مشتاقاً وأقسمت له بالطاعة العمياء طول حياتي . وقد حافظت على هذا القسم حتى رفعه ملك الموت وسيرفعنا أيضاً يوماً ما ولذلك يجب أن نستعد للفائه فى كل وقت »

وكان عبد الله التعايشى كثيراً ما يحادثني بمثل هذه الاحاديث يبعث إلىَّ فى الليل لكي أسامره . فاقعد أنا على الارض ويقعد هو على العنجريب الفاخر المفروش بحصير السعف . وكان يثق بي ولا يخفى عنى شيئاً في الاول أما بعد ذلك فصار يتشكك من جهتى

وكان يحب التملق وكنت أغلو أنا فى ذلك فأفوت الحدود ولكنى كنت أرغب فى أن يتم حديثه فقلت له : « أجل يا مولاى لقد حفظت وعدك وكافأك الله فبعد ان كنت محتقراً مهيناً قد صرت الآن رئيس البلاد وملكها . ولقد كان يحق لاولئك الذين سبوك وأهانوك أن يشكروك ويعترفوا بفضلك فانك لم تنتقم منهم بل حلمت وتماسكت فثبت بذلك انك خليفة النبي »

قال عبد الله : « لما أقسمت يمين الولاء للمهدى أحضر أحد تلاميذه ويدعي

علي وقال له ولي : أنتما منذ الآن اخوان فليؤيد كل منكما الآخر وأنت ياعبد الله أطع ما يأمرك به أخوك .

«وكان عليّ يجاملني وكان فقيراً مثلي وكان كلما أرسل اليه المهدى طعاماً يشاركني فيه فأصيب منه . وكنا في النهار نحمل الطوب لبناء الضريح وفي الليل ننام على فراش واحد وتم بناء القبة بعد شهر وكان الزائرون يتوافدون على المهدى بالمئات فلم يكن لديه من الوقت ما يمكنه أن يراني أو يفكر فيّ ولكني كنت أعرف ان لي في قلبه مكانة حتى انه جعلني أحد حملة البيارق ولما غادرنا المسلمية كان الناس يهرعون الينا لكي ينظروا المهدى وكانوا يسمونه في ذلك الوقت باسم محمد احمد فقط وكانوا ينصتون الى أقواله ويرغبون في بركته

« ولازمتنا هذه الحال حتى بلغنا جزيرة ابه . وكان نعلاي قد بليا وكنت قد اضطررت الى اعطاء حماري المقدم (وهو رئيس التلاميذ) لكي يحمل عليه رجلا مريضاً . ولكننا وصلنا في النهاية الى بيت المهدى وهنا أصابتني دوسنطاريا شديدة فأخذني « أخي » علي الى عشته المصنوعة من القش ولم تكن تكاد تسع اثنين وكان يأتيني بطعامي ويحمل اليّ الماء للوضوء

« وذهب في مساء أحد الايام لاحضار الماء ولكنه لم يرجع . وفي صباح اليوم التالي أبلغت انه وهو يستقي من النيل هجم عليه تمساح وافترسه . الله يرحمه . الله يغفر له »

فكررت أنا هاتين العبارتين وقلت : « ما أعظم صبرك يا مولاي . من أجل ذلك قد رفع الله مرتبتك . وهل لي يا مولاي ان أسألك هل أعارك المهدى التفاتة مدة مرضك ؟ »

فقال : « كلا . فقد اراد المهدى ان يبلوني . ولم يخبره احد بمرضي الا بعد وفاة علي وجاءني بعد ذلك في مساء احد الايام وكنت منهوكا لا اقوى على النهوض فقعد بجانبي واعطاني مديدة سخنة من قرعتي وقال لي : اشرب هذا وثق بالله فانك ستشفى

«ثم غادرني وجاء بعض الاخوان فحملوني بأمره الى عشة قريبة من عشته . وكان

هو نفسه يعيش فى عشة بسيطة . ومنذ اعطاني المديدة وانا آخـذ فى التحسن والشفاء على حد وعده لى فانه لا يكذب ولا يقول الا الصدق »

فأقول أنا هنا : « المهدى لايكذب ولا يقول إلا الصـدق وأنت خليفة وقد سرت فى أثره واتبعت أوامره »

ويتم الخليفة حديثه فيقول : « فلما اقتربت منه عادت إلى صحتى بسرعة لانى كنت أراه كل يوم وكنت أرى فيه نور عينى وأسكن الى قربه . وكان يسألني عن عائلتى ويقول انه يحسن بهـم البقاء فى كردوفان فى ذلك الوقت وكان آخر شيء يفوه به لى قوله :

« ثق بالله . ثم أكثر من زيارته لي وكان يأتينى كل يوم مراراً وباح لى يوماً بسره وقال لى ان الله قد بعثه مهديا وان النبي قد أخذه الى حضرة الانبياء والرسل ولكن قبل أن يقول هو ذلك لى كنت أنا أعرف منـذ رأيت وجهه انه هو المهدي المنتظر . أجل ما كان أسـعد أيامنا فى ذلك الوقت . لاهموم ولا متاعب . والآن ياعبد القادر لقد سهرت وتأخرت. قم واذهب الى فراشك »

فأسلم عليه وأقول وأنا خارج « أطال الله عمرك وقواك على هداية المؤمنين فى الطريق السوى » .

ووجد المهدى فى شخص عبـدالله أداة مطاوعة تقوم بما يطلبه منها . ومما يعجب له الانسان انه لولا شجار محمـد احمد مع محمد شريف لما ارتفع شأنه . فانه أصبح ذا شهرة بعيدة فى جميع انحاء الجزيرة (أى القسم الواقع بين النيل الابيض والنيل الازرق) وصار يعني نفســه بالمراكز العليا التى كتبت له فى صحيفة القدر . وجعل يخبر اتباعه في السر ان الوقت قد آن لتطهير الدين وانه سيقوم هو نفسه بهذا العمل فمن يرغب منهم الاشتراك معه فلينضم اليه . وكان يسمي نفسه « عبد الله » ويوهم من يحضره انه يعمل عن وحي من الله وقد أعلمه الخليفة بكل ما تجب معرفته عن قبائل الغرب وأخبره بأن فى هذه القبائل شـجاعة وأيد وانهـا اذا لاحت لهـا الفرصة للدفاع عن دين الله ورسوله فانهـا لن تتأخر عن اغتنامها فتهب للموت أو الظفر

ونصح الخليفة للمهدي بان يقوم بسياحة فى كردوفان لكي يجذب اليه القبائل وقام كلاهما الى دار قمر (جمر) حيث كانت عائلة الخليفة التى انضمت اليهما . وقد أخبر المهدى أعضاء هذه العائلة بان الوقت لم يحن بعد لتركهم بيتهم أما الآن فمن الأنفع أن يحضوا القبائل النازلة حولهم على الانضمام للمهدى

وبرح المهدى دار قمر الى الابيض حيث زار الاعيان والمشايخ وكان يحادثهم ويستطلع آراءهم ويؤسس لترسماته المستقبلة . وكان يسر الى أولئك الذين يثق بهم كل الثقة انه أمين على رسالة تطهير الايمان الذى أفسده الموظفون . وكان السيد المكي رئيس مشايخ الابيض أمينه الذى وثق به وقد نصح له بأن الوقت الحاضر لا يلائم الثورة لان الحكومة قوية والقبائل منشقة بعضها على بعض . ولكن المهدى كان اكثر تفاؤلا واتفق كلاهما على ألا يتحرك الشيخ حتى يشرع المهدي في الحركة التى سيكتم أمرها الى حين اعلانها

ولما غادر المهدى الابيض سار الى تاج الله حيث التقى بعك آدم حاكم المركز الذي استقبله استقبالا حسنا ولكنه لم يعده بالتأييد لان القاضى نصح له بألا يعد هذا الوعد ثم عاد الى ابه عن طريق شرقلة

وكان محمد احمد في اثناء سياحته ينظر فى أحوال البلاد ويتدبرها وقد أدرك أن الطبقات الفقيرة فى الامة تكره الحكومة أشد الكره وذلك لكثرة الضرائب الفادحة المضروبة عليها كما بينت ذلك في أحد فصولى الماضية وكانت هذه الطبقات تعانى ما يوقعه بها الجباة الغلاظ السفلة من ضروب الظلم والعسف . وكان بين هؤلاء الجباة عدد من السودانيين لم يكن تفلت منهم فرصة لاثراء أنفسهم وتوظيف أقاربهم بغية تحقيق هذا الغرض ايضا . وقد عين غوردون التاجر السوداني الثرى الياس ومنحه رتبة باشا فكان لهذا التعيين أثر سيء فى نفوس الاهالى . وهذا القول ينطبق على تعيين قريبه وهو تاجر ثرى ايضا يدعى عبد الرحمن بن نجا . وكان كلاهما على كفاية بعرف حالة البلاد وكيفية حكم الاهالى ولكنهما كانا يشتغلان لمصلحتهما

ونتج عن تعيينهما أن انتشر روح التحاسد بين كبار السودانيين الذين كانوا

يعتبرون أنفسهم أهلا لمثل وظيفة الياس أو قريبه عبد الرحمن . ولما أرسل الياس باشا الى ملك آدم يطلب منه دفع الضرائب رفض ملك ادم هذا الطلب رفضاً باتاً مدعياً بانه من سلالة ملوكية وقال فى رفضه : « اني أدفع للتجار أثمان البضائع التي اشتريها ولكني لا ادفع لاحد خراجا وفى الوقت نفسه ارسل الى الابيض يسأل هل مات الاتراك وسائر البيض حتى صارت الحكومة تعين التجار حكاما بدلا من ان تعين الاشراف وذوى البيوتات . وكان هذا سبب فصل الياس باشا وعبد الرحمن من وظيفتيهما وتعيين الاتراك والمصريين فى مكانهما

أما عن الموظفين الاوربيين فلم يكن فى السودان سوى عدد قليل . وكانوا محبوبين ومحترمين لان الناس كانوا يثقون بهم ولكني لاأشك فى أن بعض الاستياء كان يعزى اليهم . فربما أصدروا أوامر مصدرها حسن النية ولكنها كانت تخالف عادات الاهالى وتقاليدهم . ثم اني لا أشك فى أن موقفنا تجاه مسألة الرقيق قد أحدث استياء عظيما بعيد المدي . فان الدين يأذن بالرقيق وقد كانت الارض منذ عهد بعيد تفلح بالعبيد وكان العبيد يوكلون بالعناية بالماشية . ولست أشك فى أن النخاسة كانت تتطلب ارتكاب فظاعات وسفك دماء ولكن هذه الفظاعات لم يكن يبال بها أو يفكر فيها مشترو العبيد وكانوا على وجه العموم يعاملون عبيدهم معاملة غير سيئة . ولم نقتصر نحن على منع تصدير الرقيق بل كنا أيضا نسمع شكاوى العبيد وكنا على الدوام نحرر العبد الذى يشتكي مولاه

وما نتهز محمد احمد فرصة الاستياء هذه من وجوهها العديدة وكان يعرف ان الدين هو العامل الوحيد فى ربط هذه القبائل المتنازعة . فأعلن انه «المهدى المنتظر» فصارت له بذلك شخصية فوق شخصية أى انسان آخر وكان يأمل بذلك أن يطرد من السودان جميع الاوربيين والمصريين والاتراك . ولكنه لم يكن يعتقد ان الوقت قد حان بعد لان يعلن جهاراً هذه الدعوة . فعمد الى تأييد دعوته بزيادة الانصار واستمر على ذلك حتى صارت دعوته سراً مكشوفا

وكان محمد شريف قد أخبر رؤوف باشا الحاكم العام سراً بنية محمد احمد ولكن نزاعه السابق معه جعل ولاة الامور لايصدقونه واستنتجوا انه يدس لخصمه الذى

ذاعت شهرته لصلاحه وتقواه . ولكن الحكومة علمت بعد ذلك من مصدر آخر ان محمد احمد خطر على الامن العام ونوت نية صادقة على أن تنتهي منه

ولهذا الغرض أرسل رؤوف باشا يطلب محمد بك ابو السعود وأمره بالمسير فى الباخرة الى ابه واحضار محمد احمد الى الخرطوم . ولكن أصدقاء المهدى وأنصار أحاطوه علما بنية الحكومة وأخبروه انه اذا حضر للخرطوم فسيعتقل بها وان اعتقاله ليس الا من دس محمد شريف ، فلما وصل ابو السعود بك الى أبه استقبله عبد الله التعايشى وشقيق لمحمد احمد وقاداه الى حيث مقام الشيخ . فاخبره ابو السعود عن التقارير التى بلغت للحكومة عنه وهي بالطبع كاذبة وعن الاشاعات التى تشاع عنه وطلب منه لذلك أن يسافر الى الخرطوم ويكذب هذه الاشاعات التى أشيعت عنه امام الحاكم العام . فاجاب محمد احمد وقد وقف فجأة وضرب صدره بيده قائلا . « ماذا تريد مني . وحق الله ورسوله ما انا الا سيد هذه البلاد ولن أذهب الى الخرطوم لكي ابرىء نفسي »

فتراجع ابو السعود للوراء مذعورا من هذه اللهجة وأخذ يهدىء روع المهدى بكلمات رقيقة . ولكن المهدى الذى كان قد رتب هذا المنظر التيأتري مع عبد الله ومع شقيقه صار يتكلم بحماسة وحرارة وحض أباالسعودعلىأن يؤمن بمايقوله

أما ابو السعود فكان الآن مهموما بنفسه لايبالى الا بان يرجع الى الخرطوم ورجع بالفعل وأخبر الحاكم العام بحبوط مهمته

وادرك محمد احمد انه ليس هناك مجال لاضاعة الوقت وان مستقبله يتوقف على مجهوده فلم يتوان عن الكتابة الى جميع أنصاره في انحاء السودان يستثيرهم على الحكومة . اما الانصار القريبون منه فقد أمرهم بان يستعدوا للجهاد

وفي هذه الاثناء لم يكن رؤوف باشا مهملا امر المهدى . فقد عرف من حديثه مع ابى السعود ان خطورة المسألة عظيمة جداً فعزم على ارسال فصيلتين للقبض على المهدى ووعد كلا من قائدى الفصيلتين بان يرقيه الى رتبة بكباشي اذا كان هو القابض عليه قبل الآخر وأراد من ذلك ان يحثهما على الاجتهاد والمنافسة . ولكن عواقب هذا العمل كانت وخيمة جداً

فان الجيش الذى كان يقوده ابوالسعود نزل الباخرة «اسماعيلية» وكان بها مدفع فبرحت الخرطوم فى اغسطس سنة ١٨٨١ وسارت الى ابه . وكان هذا الجيش مؤلفا من فصيلتين علي كل منهما قائد . وقد اختلف هـذان القائدان الواحد مع الآخر والاثنان مع ابى السعود وعرف محمد احمد بالحملة الموجهة اليه فاستعان بقبيلتى دغيم وكنانة فاعاناه واستعد هو للمقاومة وأخبر من حوله بان النبي قد ظهر له وقال له ان كل من اشترك معه في هذا الجهاد سيعطى لقب « الشيخ عبد القادر الكيلاني » ولقب « أمير الاولياء » وهما لقبان محترمان عند المسلمين . وعندما تفاقمت الحالة وعظم الخطر لم يتقدم للجهاد سوى عدد قليل سلموا انفسهم واموالهم للمهدى

ووصلت الباخرة الى ابه عند غروب الشمس وعلى الرغم من أوامر ابى السعود نزلت الفصيلتان لان كل ضابط كان يرغب فى الحصول على رتبة بكباشى قبل الآخر. اما ابوالسعود الذى كان قد انغرس الخوف فى قلبه منذ قال محمد احمد انه مولى البلاد فقد وقف بالباخرة فى وسط النهر ومعه مدفعه . وكان الضابطان كلاهما يجهلان المكان وكلاهما يرغب فى الحصول على رتبة بكباشي فسارا فى طريقين مختلفين على الشواطىء المتوحلة قاصدين عشة محمد احمد . ولكن محمد احمد كان قد ترك عشته واخذ انصاره وتسلحوا كلهم بالسيوف والحراب والهراوات واختبأوا فى الديس. والتقت الفصيلتان عند القرية كل منهما قد أتت من جهة مقابلة للجهة التى اتت منها الاخرى واطلقت كلتاهما النار على القرية الخالية من السكان فاصابت كل منهما الاخرى وحدثت خسائر خطيرة من الطرفين . وفى وسط هذا الارتباك هب أتباع المهدى من كمينهم وضربوا الجنود الذين كان قد فقدوا قوتهم المعنوية فتشتتوا فى كل مكان وتمكن بعض الجنود من ان يصل الى الشاطىء وان يسبحوا الى الباخرة ورعب ابو السعود واراد ان يبحر بالباخرة الى الخرطوم فى الحال ولكن الربان أشار عليه بالبقاء للصباح لعل بعض الفارين من الجنود يتمكنون من الوصول الى الباخرة . ولكن لم يأت احد وفى الفجر أقلعت الباخرة تسير باقصي سرعتها حاملة هذه الاخبار المحزنة

ويمكن أن ندرك نتيجة انتصار محمداحمد . فان رجاله خرجوا من المعركة سالمين لم تنلهم خسائر قط او اذا كانوا قد أصيبوا فاصاباتهم كانت طفيفة جدا . وقد جرح

محمد احمد فى ذرعه فضمد جرحه عبدالله التعايشي ونصح له الا يخبر اتباعه به . والى هنا كان عدد أتباعه لا يزال صغيرا لان الناس كانوا يعتقدون انا الحكومة ستتخذ اجراءات فعالة لاخماد حركته .

وأخذ عبدالله واخوته يحضون محمداحمد على ان يجعل المسافة بينه وبين الحكومة بعيدة فعول بناء على حضهم ان يقوم الى جنوبى كردوفان . ولكي لا يفهم اتباعه انه ينوى الفرار من وجه الحكومة أذاع بينهم انه قد أوحى اليه ان يذهب الى جبل ماسة . والمأثور فى السودان ان المهدى يخرج من جبل ماسة . وهذا الجبل في شمالى افريقيا ولكن المهدى تغلب على هذه الصعوبة بان اسم جبل ماسة على جبل غدير الكائن بكردوفان . وقبل ان يغادر ابه عين خلفاءه الاربعة طبقا للوحى . وأولهم الذي كان يمثل ابا بكر الصديق كان عبدالله التعايشى . وثانيهم الذى يمثل عمر بن الخطاب كان على واد حلو من قبيلة دغيم . وثالثهم الذى يمثل عثمان بن عفان لم يعين وقتئذ وقد عرض بعد ذلك هذا المنصب على الشيخ السنوسي فرفضه . اما الرابع فكان على الكرار وكان من أقارب المهدى وكان صبيا

ورفض أصحاب القوارب اولا نقل اتباع المهدى على النيل لانهم كانوا يخشون ان تعدهم الحكومة مشتركين مع محمد احمد واتباعه وكان قد انضم اليهم فريق من قبيلى دغيم وكنانة العربيتين . ولكن محمد احمد تغلب على معارضتهم وجعلهم ينقلونه فى النهاية هو ورجاله الى الشاطىء الآخر . وسار الجميع الى دار قمر وكان محمداحمد يدعو السكان الى الانضمام اليه ويطلب اليهم ان يذهبوا معه الى جبل ماسة. واشتدت الحماسة عندئذ بين رجاله وكانت لا تفوت فرصة يخبرون فيها السكان عن المعجزات التى يأتيها المهدى

وحدث مرة انه وقف برجاله فى احد الامكنة وكان قريبا منه ضابط معه ستون جنديا وكان هذا الضابط المدعو محمد جمعه يجمع الضرائب وخطر فى باله ان يهاجم المهدى ويقبض عليه ولكنه خوفا من تبعة هذا العمل ارسل الى الابيض يستشير ولاة الامر ولكن قبل ان تأتيه التعليمات من الابيض كان المهدى قد جاز المكان برجاله . وبعد سنوات لقيت محمد جمعه وهو فى حالة تعيسة في ام درمان وقال لى.

« لو كنت اعرف بانه سيقضي عليّ بان امشي حافيا وان استجدى من الناس كسرة الخبز لما طلبت تعليمات من الابيض وتركت هذا الدنقلاوى الشقي يفر من يدي . لقد كان افضل لي ان أقتل من ان اعيش هذه المعيشة التعسة »

وأتيحت فرصة أخرى للقبض على المهدى ولكنها فاتت أيضاً. فقد كان جيجلر باشا قد انتدب لمهمة تحقيق اختلاس حدث باتفاق بين موظف في الابيض وبين تاجر سوداني ثرى يدعي عبد الهادى وسمع جيجلر باشا بأن المهدى قريب منه وذلك حوالى آخر سبتمبر فأنفذ اليه محمد سعيد باشا ومعه أربع فصائل من الجنود للقبض عليه واحضاره للابيض . ولكن الحملة ، إما عن قصد أو اهمال ، أخفقت فى مهمتها . فان الجنود على ما يظهر حطوا رحالهم فى المكان الذى نام فيه اتباع المهدى في الليلة السابقة وبعد ان أضاعوا ثلاثة أيام بلا فائدة عادوا الى الابيض وهم موسومون بالخوف من قتال المهدى فزادت بذلك كرامة المهدى ووجاهته.

وكانت نية محمد احمد ان يقضي بعض الوقت فى جبل تاج الله . وسمع ملك آدم بذلك فأرسل اليه أحد أبنائه بهدايا من القمح والغنم ومعه رسالة منه ينصح له فيها بالتوغل بعيداً فى الداخلية . فاستمر فى سيره وبعد مشقات طويلة بلغ جبل غدير حيث كان يوجد قسم من قبيلة كنانة غير السكان الاصليين

وكان راشد بك في ذلك الوقت حاكما على فشوده وكان يعرف حركات المهدى ولذلك عول على الغارة عليه قبل ان يتقوى بمن ينضم اليه . وكان فى فشوده رجل الماني يدعي برجوف وكان في الاصل يشتغل بالفتوغرافية فى الخرطوم فأرسله رؤوف باشا مفتشاً لقمع تجارة الرقيق فى أعالى النيل

وتقدم الآن راشد بك ومعه برجوف وكايكو بك ملك الشلوك قاصدين غدير . وكان راشد يقلل من أهمية المهدى فلم يكن يحفل باتخاذ الحرس والاحتياطات فكمن له المهدى وأوقع به وقتل من رجاله ألف وأربعمائة ألف نفس. وكان هجوم المهدى مفاجئاً وسريعاً حتى لم يستطع راشد ارسال صاروخ فى الهواء . وصمد راشد وقليل ممن معه للقتال ولكن رجال المهدى تكاثروا عليهم وقتلوهم

ووقعت هذه الهزيمة في ٩ ديسمبر ومن ذلك الوقت لم يتردد محمد احمد فى

المجاهرة علنا بأنه المهـدى المنتظر . وكبر مقامه فى أعين العرب ومع ذلك لم تكن علاقته مع أجواره على ما يحب . وقد أشار الخليفة عبد الله التعايشي الى هذه المدة وحكي لي عنها فقال :

« لما بلغنا الغدير كنا في غاية الاعياء بعد هذا السـفر الشاق الطويل . وكان للمهدى فرس واحد من تلك السلالة الحبشية الرديئة أما أنا فقد سرت المسافة كلها تقريباً على قدمى . ولكن الله يهب القوة للمؤمنين الصادقين الذين يسـلمون أنفسهم وما يملـكون لاجل الايمان . وكان اخوتي يعقوب ويوسف وسماني قد انضموا الينا وكذلك زوجة أبى التي كانت ترضع ابني على صدرها . ولم يرض أخي هرون البقاء فأتى معنا أيضا . وكنت على الدوام فى قلق بشأن اخوتي وزوجة ابى وعائلتى وابنى هذا الذي تراه عثمان شـيخ الدين ولم تكن مشاق السـفر تهمنا نحن الرجال فان المصائب والكوارث تأتينا من عنـد الله ونحن نتحملها راضين شاكرين لان الله قد اصطفانا لنعلى كلمته ونرفع دينه الذي ديس مع التراب وكنا نعـلم اخواننا . ولكن (وهنا كان يتبسم) تعليم الدين لم يكن ليأتينا بالطعام لاولادنا ونسائنا وكان الناس يهرعون الينا زرافات ولكن معظمهم كان في فاقة تزيد عن فاقتنا وكانوا يأتون الينا لكي نعولهم . أما المتيسرون فكانوا يتجنبوننا . أجل ان المال لعنة ومن كان غنيـا فى هذه الدنيا فانه لن ينعم بنعيم الفردوس ولم نكن نحصـل على معونة ما من الناس الذين كنا نجوز بلادهم وكان المهـدى مع ذلك يقسم ما يحصـل عليه من القليل الذي لديه بين الحجاج الذين كانوا يقصـدونه . وكان قلبي يتفطر عندما أسمع بكاء الاطفال والنسـاء . ولكنى كنت عندما أنظر الى وجه المهدى تعود إلىّ الطمأنينة وأثق بالله . أجل يا عبـد القادر ان الصبر مفتاح الفرج . كن صبوراً والله يكافئك »

وقد نبهت هزيمة راشد بك الحكومة الى خطورة الحالة وهيئت تجريدة بقيادة يوسف باشا شلالى وكان قد ظهرت مواهبه فى حملة جسي باشا فى بحر الغزال وكان مشهوراً بصدق عزيمته وبسالته . وهيىء أيضاً مدد آخر مؤلف من فرقة من الطوبجية

ومعهم بعض المتطوعين بقيادة عبد الله واد ضيف الله (شقيق احمد واد ضيف الله) وعبد الهادى وسلطان ديمه . وأرسل هذا المدد الى كردوفان

وفى هذه الاثناء أرسل المهدى الرسل الى جميع الجهات تحمل بشائر انتصاراته وهدايته ودعا جميع الاهالى الى الانضمام اليه في الجهاد وأطلق اسم « الانصار » على اتباعه ووعدهم بأربعة أخماس الغنائم التى تغنم فى الحرب.أما من مات منهم فقد ضمن له نعيم الفردوس . وبذلك استثار الصفات الكامنة فى نفس السودانى وأهمها الطمع والتعصب

وكان جيش يوسف باشا شلالى يبلغ أربعة آلاف جندى يقودهم محمد بك عثمان وحسن افندى رفقى الذى كنت قد فصلته أنا من وظيفته قبلا . أما الخيالة غير النظامية فكانت بقيادة طه بن صدر وهو رجل شجاع . وغادرت هذه القوة الخرطوم في ١٥ مارس سنة ١٨٨٢ وعرجت على كوه حيث حطت رحالها تنتظر المدد الآتي من الابيض

وقد وجد عبد الله واد ضيف الله ان جمع المتطوعة ليس من المهمات السهلة . فقد كان الشعور العام انه من الخطأ أن يقاتل رجل صالح مثل المهدى ثم لم يكن هناك مطمع فى الغنائم لان أتباع المهدى لم يكونوا أحسن حالا من الشحاذين . وزيادة على ذلك كان الياس باشا أغنى تجار كردوفان وحاكمها المعزول يكره ضيف الله أشد الكره وقد استعمل سطوته في منع الناس من التطوع . ومع ذلك تمكن ضيف الله من تجنيد بعض المتطوعة باتفاقه مع ولاة الامور وصارت قوته بمن فيها من النظاميين ٢٠٠٠ قبل أن يبرح الابيض والتقى بالجيش فى كوه فصار مجموع الجيش ٦٠٠٠ وذلك حوالى منتصف شهر مايو

واستراح يوسف باشا قليلا ثم تقدم نحو الغرب وضرب خيامه في ٦ يونيو فى مسات القريبة من جبل غدير وهو واثق بالظفر . والحق انه لم يكن هناك حسب ظاهر الاحوال ما يدعو مثل يوسف باشا ومحمد بك وابو صدر الى الخوف من طائفة من العرب قد أضناها المرض والجوع والعري . ألم ينتصروا فى الماضي جملة

انتصارات فى النيل الابيض وفي دوفيله ؟ ألم يفتحوا بحـر الغزال ويخضعوا سلطان دارفور ؟ فماذا يمكن أن يفعل معهم هذا الفقيه الاعزل الجاهل ؟

ولكن عبد الله واد ضيف الله لم يكن مغترا بقوته فقد حذر هؤلاء القواد من تصغير شان المهدى . وقد وقع من ظهر جواده وهو خارج من الابيض وهنا الوقوع يعتبر في السودان شؤما يخشى منه ولكنه كان يصرخ فى الصحراء فلم يسمع له أحد . بل لم يعن أحد منهم ببناء « زريبة » من الاشواك والاغصان حول الجيش وانما اكتفوا بالتقاط قليل من القش وصنعوا منه سياجا واهيا لم تكن منه فائدة قط .وما جاء الفجر حتى جاءت طائفة المهدى التى أضناها الجوع والعرى والمرض وأوقعت بجيش يوسف باشا . وكان ذلك في ٧ يونيو . فقد جازوا السياج الواهى وباغتوا الجنود وهم نيام فاجهزوا عليهم فقتل يوسف باشا وابو صدر وهما في قميص النوم على باب خيمتهما . ولم تمض دقائق حتى أبيدت جميع الجنود تقريبا . وكان لابى صدر امرأة سرية فلما رأت مولاها يقتل هبت الى القتلة وقتلت اثنين منهم بمسدس فى يدها ولكن وقعت فوق مولاها بطعنة حربة بلغت قلبها . وصمد عبد الله واد ضيف الله بعض الوقت ولكنه هو ورفقاؤه قضى عليهم بعد مدة وجيزة من القتال

وفي البلاد غير المتحضرة عند ما يحدث شيء غريب يعزى على الدوام الى قوة الهية وكان هذا تأثير نكبة يوسف باشا في عقول السودانيين المستسلمين للخرافات . فقد مضي ستون سنة كان القطر السودانى محكوما فيها بالمصريين والاتراك

فقد كانت العادة المتبعة أن تعاقب القبائل التى لاتدفع الضرائب المطلوبة منها ولم يكن أحد يجادل فى حق الحكومة فى هذا العمل . اما الآن فهذا الفقيه قد ظهر وجمع حوله شراذم الرعاع الذين لم يتمرنوا على الاعمال الحربية وليس معهم عدة السلاح وأوقع بجيوش الحكومة فلم يكن هناك من يشك اذن فى أنه المهدى المنتظر

وكانت هزيمة يوسف باشا سببا فى خضوع كردوفان كلها للمهدى فصار فى امكانه الآن أن يهيء لنفسه العدة التى كانت تنقصه . فأخذ في جمع الاموال والاسلحة والخيول وسائر الغنائم يوزعها على رؤساء القبائل التى انضمت اليه . وكانت هذه

القبائل تعتقد انه المهدى المنتظر الذي لاتحدثه نفسه الا باقامة الدين ولا قيمة للاموال والامتعة فى نظره

وفشت أخبار المهدى في كل ناحية وكانت هذه الاخبار اذا تنوقلت بين أهالى كردوفان الذين لم يصيبوا الا قليلا من التعليم يبالغ فيها مبالغة عظيمة . وخرج من الاهالى عدد عظيم تركوا بيوتهم يؤمون جبل غدير الذي كان يسمى الآن جبل ماسة وبعض من الاهالى تجمعوا حول رؤسائهم لمقاتلة موظفى الحكومة المشتتين فى انحاء البلاد

وكانت هذه الاحوال توافق اهواء العرب الرحل فكانوا بدعوى الحرب الدينية يقتلون وينهبون الاهالى وكانوا يتهمونهم بالولاء للاتراك وفى الوقت نفسه أيضا وجدوا فى هذه الحالة طمأنينة من حيث عدم دفع الضرائب لتلك الحكومة المكروهة

واتصل المهدى بتجار الابيض الذين كانوا بواسطة ثروتهم ونفوذهم يحكمون البلدة بل جزءاً كبيراً من سائر البلاد . وقد أدركوا هم الحالة تماما وكانوا يعرفون ضعف الحكومة وتوانيها واستعد كثير منهم لمشايعة المهدى . وكان الياس باشا من أعظم المستائين من الحكومة وكان يكره احمد بك ضيف الله صديق محمد باشا سعيد ولذلك جد واجتهد في السر فى جمع الانصار للمهدى . وكان عدد كبير من صغار التجار ينتظرون تحسن الاحوال التجارية اذا سقطت الحكومة وكان هناك قليل من التجار يكرهون المهدى ولكنهم كانوا يترقبون فوزه فلم تكن لهم حيلة سوى الانضمام اليه لئلا تقع زوجاتهم وأملاكهم غنيمة لرجاله عند مايعقد له النصر

أما مشايخ الدين فقد رأوا فى هذه الحركة مايرفع مقامهم وكانوا يفخرون بان واحداً منهم قد تجرأ على أن يعلن عن نفسه انه المهدى وكانوا يترقبون الوقت حين يطرد هذا المهدى جميع الاتراك من البلاد ويبقى هو الحاكم لها . وكان هناك عدد قليل — قليل جداً — من اولئك الذين كانوا يقدرون الخطر الذى تستهدف له البلاد اذا فاز المهدى وقد فعلوا كل ما بمكنتهم لتنبيه الحكومة . ولكن عدد هؤلاء كما قلنا كان قليلا فلم يكن لهم أثر فى الحركة

وأرسل الياس باشا ابنه عمر لكي يقف المهدى على الحالة ويدعوه الى المجيء

الى الابيض . وكان محمد باشا سعيد ينتظر مجيء المهدي للابيض ولذلك حفر خندقا حول المدينة ظنا منه أن السكان سيصمدون للحصار وأشار عليه احمد بك ضيف الله بتحصين مبانى الحكومة ففعل وبنى حولها جداراً بارتفاع الصدر . ولكنه لبخله وقع فى خطأ فاحش اذ بدلا من أن يخزن الحبوب استعداداً للحصار ويشتريها بأثمان عالية رفض أن يشتريها الا بالأثمان التى تباع بها وقت السلم . ولم تمض مدة حتى بيعت الحبوب لاولئك الذين شعروا بالانقلاب في الحالة وعرضوا ثمنا أكبر مما عرضه محمد باشا سعيد

وفى هذه الاثناء كان الاهالى يقتلون فى كل مكان . وكان العرب السفاكون لايلتقون بجباة الضرائب أو شراذم الجنود أو الموظفين المتفرقين حتى يقتلوهم . وأغار عرب البديرة على سكان أبي حرز وكادوا يبيدونهم . وكانت ابو حرز على سفر يوم من الابيض ولم يتمكن من الهرب الى الابيض سوى عدد قليل من الاطفال والنساء والرجال . اما باقي السكان فاما انهم قتلوا او أخذوا أسرى وقت فرارهم فى الصحراء المحرقة . وكان العرب يسقون الفتيات اذا عطشن أما النساء المسنات فكن يلاقين الاهوال. فقد كان هؤلاء العرب لكي يحصلوا على خلاخيلهن وأساورهن يقطعون أيديهن وأرجلهن

وبعد أيام قلائل أغار العرب على بلدة اشاف فى شمال كردوفان فنهبوها وقد دافع عنها نور أنجره الذى كان هناك في ذلك الوقت وساعده سنجق محمد اغا يابو الذى كان قواص غوردون . ولكنهما اضطرا الى التقهقر . وكان يابو هذا كرديا وقد فعل العجائب فى تقهقره فقد جمع النساء والبنات فى الوسط وأمرهن بان يغنين غناء الحرب وكان يقول ان هذا الغناء ينفى الخوف عن القلوب وكان يكر على العرب من وقت لآخر حتى نجح فى استرداد جميع الفارين تقريباً ووصل سالماً الى داره

وأغار العرب على داره هذه ولكنهم ارتدوا عنها أولا . ثم عادوا وجمعوا جموعهم يقودهم الشيخ رحمة الله فطوقوا البلدة ومنعوا عنها المؤن

واجتمع جمع آخر من العرب في كشجيل فارسل اليهم محمد باشا سعيد فصيلة من الجند فرقتهم ولكن الفصيلة فقدت من أفرادها عددا كبيرا حتي ليصح ان يعد

انتصارها هزيمة . واجتمع هؤلاء العرب ثانيا فى بركة وكانت بها حامية مؤلفة من ألفي رجل فقتلوا . وحدثت نكبة أخري مشابهة لهذه فى الشط على النيل الابيض حيث قتل مائتا جندي . واغار العرب أيضا على الدويم فارتدوا عنهـا وخسروا الفي رجل

وفى هذه الاثناء لم تكن رسل المهدى الذين أرسلهم الى الجزيرة وانين . فان عرب جهينه والحوارنة والاجليين ساروا الى سنار يقودهم ابوروف فحصروها ولكن جاء السنجق صالح واد الملك بقوة من الشايجيه فرفع الحصار عنها

وحاصر الشريف احمد طه مدينة أبى حرز الواقعة على النيل الازرق . وكان جيجلر باشا يقوم بوظيفة الحاكم العام رؤوف باشا وقد وصل الى جوار المدينة فارسل مك يوسف من الشايجية لمهاجمة الثوار ولكنه هزم . واستحى مك يوسف من الفرار فنزل من ظهر جواده وبسط فروته على الارض وأمر احد عبيده بان يقتله . وسافر جيجلر فى الحال الى الخرطوم وهيأ مدداً عاد به وأغار على احمد طه وقتله وأرسل رأسه الي الخرطوم . ثم طهر جوار سنار من الثائرين بدون ان يفقد عدداً كبيراً من رجاله ولكن على الرغم من هذا النجاح الوقتي كانت الحكومة تتسلم كل يوم أخباراً مزعجة عن الكوارث التى كانت تقع بجيوشها وبالسكان فى عدة انحاء من السودان

وكانت نتيجة ذلك ارسال عبد القادر باشا حاكما عاما للسودان فوصل الى الخرطوم في ١١ مايو سنة ١٨٨٢ وشرع بهمة فى العمل على تحصين المدينة . وكان لعمله هذا تأثير في الاهالى الذين اتضح لهم ان الحكومة تنوى العمل بهمة . ولكنه فى الوقت نفسه أوضح لهم خطورة الحال . وقد أمنت دور الحكومة مثل مخازن المؤن والذخيرة والدفترخانة من جميع الطوارىء وسحب الحاكم العام الى الخرطوم حاميات القلابات وسنهيت وجره وكان الهدوء التام يشمل هذه المراكز

وفى هذه الاثناء ادرك محمد احمد ان حضوره ضرورى لكي يشعل النار الخامدة ويحيلها لهيبا آكلا . ولذلك قبل دعوة الياس باشا للتوجه الى الابيض وترك عمه

١٠٢٩٧

محود شريف مع بعض الاتباع فى جبل ماسة للعناية بزوجاته واولاده . ثم هبط الى الوادى وجمع جموعه وسار بهم الي عاصمة كردوفان الغنية

الفصل الخامس

الثورة فى جنوبي دارفور

لما غادرت الفاشر قاصدا داره في أوائل سنة ١٨٨٢ كان معي ٣٥٠ جنديا راكبا بقيادة عمرواد دارهو ولم يكن هذا الحرس ضروريا ولكني رأيت ان أؤثر فى العرب وأريهم ان لدى الحكومة قوات كبيرة تخمد بها اية حركة تدفعهم اليها نزعاتهم .

ولما بلغت داره زرت قبر اميلياني ونصبت شاهدا من الحجر عليه للذكرى . وكان زوجال بك يقوم مقامه في ادارة الاعمال وكانت الظواهر تدل على ان الحالة قلقة جداً . فقد خرج عرب الجنوب وهم الرزيقات والحبانية والمعالية على الحكومة فقد عقدوا عدة اجتماعات أعلن فيها ان الدراويش يهرعون للانضواء الى راية المهدي الذى أرسله الله لاعلاء كلمة الدين . فامرت منصور افندى حلمى بان يسافر فى الحال الى شقة لكي يعيد النظام الى نصابه وكان معه ٢٥٠ جنديا نظاميا و٢٥ جنديا راكبا

فسار عن طريق قلقة (كلاكة) وعدت أنا الى الفاشر لكي اجمع فصائل الجنود التى كانت متوزعة فى انحاء البلاد لجمع الضرائب ولكي استعد بهم للطوارى. وقبل ان أغادر داره تحادثت طويلا ومليا مع زوجال . وقد كنت أعرف هذا الرجل معرفة تامة عند ما كنت حاكما هنا وقد علمت انه تحادث مع عمر واد دارهو كثيرا عن أحوال المهدى وأعماله واتفق معه علي انه اذا استمر النصر معقوداً بلوائه فانهما ينضمان اليه . وكان هذان الرجلان أغنى من في المركز وكان لهما نفوذ عظيم بين الاهالي ولذلك كان انشقاقهما علينا خطراً جدا . فرأيت ان أتحبب اليهما وان اعمل كل ما يمكن لمنع هذا الشقاق . فلما حادثت زوجال لم أشر الى مقابلاته العديدة

دارهو ولكنى حصرت كلامى فى الاشارة عليه بانه بالنسبة لقرابته للمهدى وبالنسبه لانه موظف كبير ينبغى له ان يعاون السلطة الشرعية فى البلاد

ولما ودعت الضباط والموظفين شرحت لهم وجوب انتباههم الدقيق لواجباتهم وأخبرتهم بأنى سأعود من الفاشر فى أقرب وقت . ثم تركت الجنود الراكبة فى داره وسرت الى العاصمة التى بلغتها بعد سفر ثلاثة أيام . وهنا علمت ان المحطة التلغرافية في فوجة قد استولى عليها الثائرون ورأيت لذلك ان آمر بارسال المدد الى أم شنجه

وكان نظام البريد قد تعطل تماماً واضطررت لهذا السبب الى أن أرسل خطاباتى الى الابيض والخرطوم فى داخل قوائم الرماح أو بين نعلي الحذاء او أخيطها داخل ملابس حاملها . وكنت قد طلبت من الخرطوم امدادى بالذخيرة ولكنها لم تصل إليّ لاهمال الموظفين فانها أرسلت الى الابيض متأخرة ولانقطاع المواصلات لم يمكن إرسالها إليّ

وعلمت من داره ان مادبو زعيم الرزيقات قد رفض ان يأتى . فلم أشك بعد ذلك فى ان جميع القبائل الجنوبية قد خرجت على الحكومة وانها تنوى كل النية الانضمام للمهدى فقررت أن يكون مقامى في داره فأخذت ٢٠٠ جندى من المشاة و٧٥ من الجنود الراكبة وسرت بهم الى داره

وعند وصولى أبلغت وقوع حادثة كانت فى ذاتها تافهة ولكن نتائجها كانت خطيرة جداً . فقد سبق ان ذكرت باني وأنا مسافر الى الخرطوم التقيت فى الطريق بالشيخ علي واد هجير من قبيلة المعاليــة فرافقنى الى الخرطوم . وقد أثبت ولاءه للحكومة فعينته رئيساً لقبائل المعاليــة الجنوبية . وقد سمع هــذا الشيخ بقرب عقد اجتماع عرب الرزيقات بقيادة الشيخ بلال نجور بغيــة الانضمام الى المهــدى فعول الشيخ علي على ان يحضر هذا الاجتماع ويقبض على الشيخ بلال متهما إياه بالثورة.

فسار الى مكان الاجتماع مع حميه وبعض أصدقائه ورأى بعض الرجال المنتمين الى قبيلته قد حضروا أيضاً فطلب اليهم أن يخرجوا وينحازوا الى جانبه . ولكن لم يبال أحد بطلبه وحدثت فى أثر ذلك مشاغبة عومل فيها هجير واصدقاؤه معاملة

قاسية عنيفة حتى اضطروا الى ان ينجوا بأنفسهم . ولكن حكاية فرارهم انتشرت على غير وجه الحقيقة بحيث انه عند ما وصل هجير الى زوجته ومعه حموه واصدقاؤه تلقتهم بقولها :

« راجلي اضليم وأبويا ربطة . سفر يومين سووهم فى جبطة »

ومعنى ذلك : « زوجي ظليم (ذكر النعام) وأبي انثى نعام حتى انهما قضيا سفر يومين فى لحظة »

واقتفى بلال نجور أثر الهاربين تصحبه المعاليـة فهجم على دار الشيخ هجير . وأخذ الذين حول الشيخ هجير يحثونه على الفرار الى شقة ليدخل فى حماية منصور . ولكنه كان يتضور من آلام الكلمات القاذعة التى عيرته بها زوجتـه فرفض الفرار وقال :

« لن أفر لكى أنجو بنفسي. خير لي ان أقع بالسيف من ان تضحك منى امرأة »

وقد وعد وأوفى وعده فانه قاتل الجموع حوله قتال الابطال حتى شقت حربة رأسه نصفين فوقع وهو يتلو الصلاة حتى مات. وقتل حموه ووقع في جانبه أما زوجته التى كانت سبب كل هذا البلاء فقد وقعت أسيرة واستعبدت ودعاني منصور حلمي لكي أذهب الى شـقة لرغبته في الاتفاق مع القبائل لاني أمثل الحكومة وبهذه الصفة يكون لى تأثير اكبر فيهم . واقترح ان نبنى قلعة حصينة فى شقة ونضع فيها مدفعين . ولما كان الاتفاق مع العرب ضروريا فاني قررت اجابة طلبه وسافرت الى شقة ومعي ١٥٠ من الجنود النظامية و٢٥ جنديا راكبًا ومدفع

وكنت فى اثناء سفرى أسمع من الاخبار مايثبت انتشار الثورة وانتصار المهدى ولما وصلت الى قرية المادبو فى دعين جاءني رسول وأخبرني هذا الخبر الغريب وهو ان منصور قد أغار على هذا الشيخ قريبا من شقة وفقـد معظم من معه وبات في شبه حصار فى مراى فأرسلت فى الحال فى طلب إمداد من داره وبقيت مدة الانتظار فى دعين وأنا لا أشك في ان المادبو ينوى ان يهاجمني . وقد تحقق ظنى . وقد انضم الىّ الشيخ عفيفي من قبيلة الحبانية ومعه ٢٥ من الخيالة والحق ان مآثرهذا الشيخ الموالى لجديرة بان تدون

ففي مساء أحد والشمس توشك أن تغرب خرج رجالى بجمعون الحطب فأغار علينا المادبو بخيوله التى تراءت لنا بأنها تقصـد الى زريبتنا وهى تعدو . فلما رآهم الشيخ عفيفى أسرج فى الحال جواده وامتطاه وأشرع حربته وقال لى :

« عارفنى زين . أنا نور الطقش ابو جلب من آدم . أنا بدور عالموت »

ومعنى هذا « أنت تعرفني جيـداً . أنا الثور الناطح . قلبى من صخر . أنا أبحث عن الموت »

قال ذلك واندفع خارجا من الزريبة ثم اختفى بين الاشجار وبعـد لحظة عاد وحربته تقطر الدم ووراءه جواد قد استلبـه . وخرج شيخان آخران اشتبكا فى قتال خفيف ففقدا جواداً وغنما جواداً آخر . وبعد هنيهـة سمعنا طلقات البنادق فخشيت ان يكون جيش المادبو قد وصل فطلبت الخيالة من العرب وجعلتهم يقفون موقف الدفاع فى الزريبـة . ولكنى عرفت بعد ذلك بقليل ان ما وصل من جيش المادبو قوة صغيرة قد احتمت فى ادغال الاشجار فأرسلت خمسين رجلا لطردهم من مكمنهم فطردوهم وقتلوا منهم ثلاثة

وفى صباح اليوم التالى ظهر العدو وهو يتقـدم نحونا بقوات كبيرة فنفخنا في البوق وذهب كل جندى الى مكانه . وأغاروا علينا من الشمال الغربى وهم يحتمون بدغل من نارنا . وكان فى وسط زريبتنا ربوة فوضعت فوقها ديوانا كنا قد وجدناه في إحدى عشش المادبو فجعله أحد المصريين كرسيا.فقعدت عليه وأخذت أشرف منه على حركات العدو وأراقب أيضا حركات جنودنا فى الزريبة . وتقـدم العدو حتى صار على مدى اطلاق النار وصار البندق يصفر حول آذاننا . وقمت أنا لكي أعطى الاوامر وما كدت أترك الكرسي حتى مزقته رصاصة فرأيت من الانسب ألا أعرض نفسي للرصاص . واقترب العدو منا كثيراً واشتدت ناره ولكن رجالنا كانوا محتمين فلم نصب إلا بأقل خسارة . ولكن اصابات الدواب كانت كثيرة بحيث خفت ان تفني جميعها فأمرت خمسين رجلا بالخروج بها من الجهة الجنوبية وداروا بها الى الغرب واعملوا النار في العدو بينما كنا نحن فى الزريبة نطلق

ار عليهم ايضا فتكلف العدو من ذلك خسارة جسيمة حتى جلامن مكانه.ولكننا
نتل هذا النصر بدون ان ندفع ثمنه فاني اتذكر اننا خسرنا ١٢ رجلا

وفى المساء استولى التعب على الرجال فناموا وكنا ننتظر قضاء الليل في
ـوء ولكن حوالى الساعة الحادية عشرة فوجئنا باطلاق نار حامية . ولكن كان
ظلام شديداً فلم يمكن تسديد الرماية فأمرت رجالى بألا يجيبوا وقتر إطلاق النار
وقف نهائيا

وطلبت الشيخ عفيفي واقترحت عليه أن يرسل بعض رجاله لكي يبحثوا عن
كان المادبو ووعدتهم بالمكافأة الحسنة اذا هم أخبرونا عن مكانهم الحقيقى . فذهبوا
عادوا بعد ساعتين وأخبرونا بان المادبو مع رجاله من البازنجر فى قريته.أما العرب
د خيموا فى جنوب القرية وغربها . وكانت قوتهم كبيرة ولكنهم لم يتخذوا أية
تياطات للدفاع وزحف جواسيسنا الى جوارهم وسمعوا أحاديثهم وضحكهم
ستهزاءهم بنا لاننا لم نجب على اطلاق النار علينا في الليل وقالوا انه لم يمنعنا من
ك الا شدة خوفنا

فاستدعيت سبعين من رجالنا وأخبرتهم أمام الضابط بأني أرغب منهم في
اجأة المادبو في قريته . واننا اذا قاتلنا قوة تزيد على قوتنا فى العراء فاننا فى
رجح نخسر خسارة جسيمة . ولكننا قد تحققنا الآن ان العرب غير
ستعدين فاذا هاجمناهم فى الليل وهم على غرة فانهم يفقدون كل ما عندهم من
ة معنوية وتتاح لنا الفرصة بذلك للعودة الى داره والحصول على مدد جديد .
افق الجميع على هذه الخطة وأراد الضباط أن ينضموا الى رجال هذه الغارة
لكنى رفضت ذلك

وقدتركت خلفي ضابطين واربعين من حملة الابواق وسبعين رجلا وخرجت انا
ن الزريبة ومعى عفيفى الذى رفض ان يفارقنى وخشيت ان يخرج احد من رجال
ي سلامه ويفشي أمرنا فأمرت الضباط وشددت عليهم بألا يأذنوا لاحد بالخروج
ن الزريبة وان يكونوا على يقظة تامة . وصرنا نتقدم بحذر يدلنا الجواسيس على
لطريق . فلم تمض ساعة حتى وجدنا أنفسنا على مقربة من العدو . وقد ثبت لى ان

جواسيسنا قد أبلغونا الصدق وكنت أنا أيضاً أعرف هذه الجهة من قبل . فقسمت قوتى قسمين . احدهما يقوده محمد اغا سليمان أحد اهالى بورنو والآخر أقوده أنا وأخذنا نزحف الى ان صرنا على بعد ٦٠٠ او ٧٠٠ ياردة من العدو وهنا أمرت حامل البوق بعمل اشارة لاطلاق النار على العدو الوادع . وعقب ذلك ارتباك رجال العدو واختلاطهم فترك رجال المادبو (البازنجر) أسلحتهم وفروا . وأجفلت الخيول لهذه الحركة الفجائية فى وسط الليل فجمحت فى كل جهة والعرب فى أثرها وبعد دقائق كانت القرية خالية وكنا نسمع جلبة الفارين الذين هربوا من شرذمة قدرها سبعون رجلا فقط

فقد نجحنا تماماً واحتاج المادبو الى جملة أيام لكي يجمع فيها رجاله الفارين وأحرقت قريته وارتفع لهيبها الى السماء وأنار مكان المعسكر المهجور . وغنمنا عدداً كبيراً من السروج والبنادق القديمة وألقيناها كلها فى النار ولكننا أبقينا بنادق رمنجتون وعدنا الى الزريبة حيث حيانا الجنود هناك أجمل تحية وكانوا فى أشد القلق وهم ينتظرون رجوعنا

ولم تكن قد وافتنى أخبار عن داره فقررت العودة اليها وبعد مسير ثلاثة أيام وصلت الى البلدة حيث وجدت الامداد والذخيرة . ولما كان الرجال الذين رجعوا معى منهوكين فقد قررت ان استبدل بهم رجالا من الامداد الجديدة وأذهب لانجاد منصور حلمى . ولكنى في الصباح دهشت إذ وجدت خطاباً يقول ان منصور فى طريقه الى داره وانه سيبلغها فى اليوم التالى . وكان هذا الخبر من أسوأ ماسمعت لان معناه مضاعفة الصعوبات في استعادة شقة واحتلالها .

ووصل منصور في صباح اليوم التالى ومعه قليل من العبيد الذين كانوا يتهافتون من الاعياء . وعلمت انه قد ترك رجاله لما ألقاه العدو في قلبه من الرعب وعاد وحده الى داره . فلم أتوان فى معاقبة هذا الضابط الجبان وقبضت عليه وأرسلت الجواسيس فى كل ناحية أبحث عن جنوده ولم أعد أفكر فى إعداد حملة لاستنقاذ شقة . وبعد عشرة ايام جاءتنى الاخبار السارة بأن هؤلاء الجنود قريبون من داره . وظهر ان من يدعى على أغا جمعه تراجع بهم لما تركهم منصور الى

داره وحماهم من مناوشات العدو وحمل جرحاهم وجاء معه بعض تجار شقة الذين طلبوا حمايته

وكان سعيد بك جمعه فى هذا الوقت حاكما على الفاشر وكنت قد كتبت اليه مراراً لكي ينجدني بالجنود والذخائر ولكني وجدت أنه لا يود أو لا يقدر على اجابة طلباتي وسافرت الي خشبة حيث كنت قد اتفقت مع القبائل الموالية على لقائي هناك

الفصل السادس

حصار الابيض وسقوطها

كبرت آمال المهدى بانتصاراته العديدة السابقة وكان الياس باشا يحضه على القدوم الى الابيض فترك جبل غدير ومعه آلاف من العرب النخاسين والمتعصبين وانحدر بهم الى كعبة وهى قرية صغيرة في ارباض الابيض

وارسل من هناك الخيالة للاستكشاف ولدعوة الراغبين فى الانضواء للمهدي وأرسل أيضا الى محمد باشا سعيد يأمره بالخضوع وقرىء خطاب المهدى أمام الضباط فاقترح محمد بك اسكندر قتل الرسل حملة هذا الخطاب وكان محمد باشا سعيد غير موافق علي هذا الاقتراح أولا ولكنه وافق فى النهاية وأعدم الرسل فورا

ولم يضن المهدى بأي مجهود لاثارة من حوله فكان يعظ الدهماء الذين حوله ويصف جنات النعيم التى وعد بها المؤمنون الذين يشتركون فى الجهاد . وفى صبيحة يوم الجمعة ٨ سبتمبر سار الناس وهم يغلون حماسة وليس معهم سوى السيوف والحراب وجموعهم تموج نحو المدينة . وكانوا قد تركوا ما غنموه من الاسلحة فى حملة راشد وشلالى . وأخذ المتحصنون فى المدينة يصبون عليهم نار البنادق ولكن هذه الجموع التى لم تكن تطمح الا الى الغنائم والاسلاب لم تكن تبالى بمن يقتل منها فكانوا يتقدمون ويملأون الخنادق ويجوزون الحواجز ودخل بعضهم المدينة · وفى هذه اللحظة أمر الضابط نسيم افندي حامل البوق بان يعطي الاشارة للتقدم وأخذ الاشارة حملة

الابواق فى كل مكان فنادوا بالهجوم فخرجت الجنود الى سطوح المنازل وتعلقوا بالاسوار والحيطان وصبوا النار والرصاص فوق رؤوس رجال المهدى . ورأت هذه الجموع الرصاص ينزل عليها كالبرد فتراجعت ببطء الى الوراء . وحاولوا مرة أخرى أن يتقدموا فردتهم الجنود ثانيا وقتلاهم يعدون بالآلاف وأخيراً خرجوا وتنحوا عن المدينة وانتصرت حامية الابيض انتصارا باهراً

وقد قتل فى هذا الهجوم شقيق المهدى المدعو محمد وشقيق الخليفة عبد الله المدعو يوسف وقتل أيضا القاضى وعدد من الامراء . وكان المهدى مدة الهجوم محتمياً وراء منزل صغير . ولو كان محمد باشا سعيد سمع نصيحة احمد بك ضيف وطارد الدراويش بعد اختلاطهم وتقهقرهم لكان نجح فى القبض على المهدى وتمكن من حقن الدماء الغزيرة التى أريقت بعد ذلك

ولكن سعيد باشا قنع بهذا الانتصار الوقتى واعتقد ان المهدى قد سحق وانه لا يجرؤ على معاودة الهجوم وان هذه الهزيمة ستحبط أغراضه وتزيل سطوته . وقد أدرك أقارب المهدى وأصدقاؤه هذه الحالة أيضا ونصحوا له بان ينتقل الى تل جانزاره الذي يقع فى الشمال الغربي من المدينة ومكث هناك يحاصر المدينة حصارا مكشوفا وينتظر الاسلحة والذخائر التى أرسل فى طلبها من جبل غدير

وفى هذه الاثناء كانت دلين وهي مركز المرسلين المسيحيين فى حالة خطرة وكانت بها حامية مؤلفة من ٨٠ عبداً . وكان المهدى في طريقه الى الابيض وقد أرسل احد أنصاره وهو ملك عمر لكي يأسر أو يقتل من بها . وكان الاب أوهر ولدر والاب بونومي قد اتفقا على الهرب الى فاشودة ولكن تدبيرهما حبط لجبن الضابط الذى كان يقود فصيلة الجنود . فاضطرا الى الاذعان وسرق منهما كل شيء وسيقا اسيرين الى الابيض . وحاول هنا المهدى هو والخليفة عبد الله ان يجعلاهما مسلمين هما وسائر الراهبات ولكنهم رفضوا جميعاً

وفى اليوم التالى أخذهم الجنود وحولهم الدراويش يزعقون ويزيطون الى ساحة فسيحة حيث أقيم عرض كبير . ثم أوهموا جميعا بالقتل ولكن عفي عنهم فى النهاية

ووكل احد السوريين المدعو جرجى استامبولى بالعناية بهم وكان هذا السورى من أهالى الابيض الذين انضموا الى المهدى

وفي هذا الوقت ظهر نجم مذنب في السماء فاعتبره السودانيون نذيرا بسقوط الحكومة وإن المهدى قد ظهر على الارض

وأرسلت الحكومة تجريدة بقيادة على بك لطفى لرفع الحصار عن بارة والابيض ولكن بينما كان الجنود يسيرون وقد بلغ بهم العطش أغار عليم عرب الجوامة يقودهم فقى رحمة . وكان عدد الجنود الفين ولم ينج منهم سوى مائتين تمكنوا من الوصول الى بارة . وبعد ذلك هوجمت بارة وكانت بها حامية صغيرة فصمدت وقاومت مدة ولكنها اضطرت فى نهاية سبتمبر الى التسليم

وسقطت بارة بعد حصار طويل منظم . وكانت الحامية قد أوقعت بالمحاصرين وكلفتهم خسارة جمة ولكن شبت نار فى مخازن الحبوب ثم فعل الجوع والمرض أفاعيلهما ولم يكن هناك أمل في المعونة فطلبت جنود الحامية من مسرور افندى الحكمدار ونور انجره ومحمد أغا جابو ان يسلموا . فسلموا المدينة فى يناير سنة ١٣٨٨ لعبد الرحمن واد النجومى الذى ساقهم الى جانزاره

واحتفل المهدى بسقوط باره فاطلق مائة مدفع . وسمعت الحامية فى الابيض اطلاق النار فظنت أن الحكومة أرسلت جيشاً لرفع الحصار ولكن عند ما عرف الجنود الحقيقة وان بارة قد سقطت تراخت عزائمهم وفت في أعضادهم . فقد مضت عليهم أشهر وهم يعانون فتك الجوع . فقد ارتفعت أسعار الاقوات بحيث أن ثمن الدخن كان قبل تسليم المدينة بشهر قد بلغ اربعمائة ريال للأردب . وثمن الجمل ١٥٠٠ ريال وثمن الفروج ٣٠ أو ٤٠ ريالا وثمن البيضة ريالا او ريالا ونصفا. ولست احتاج الى وصف هذه الحالة فقد أغناني عن ذلك أخواى فى الاسر الاب أوهر ولدر والاب وسنيولى اللذان وصفا فظائع هذه الايام فلن أعيد ماقالاه . انما يكفي ان اقول انه بعد حصار دام خمسة أشهر ذاق فيه المحصورون أنواع الحرمان ومات فيه عدد عظيم من الاهالى ومن الحامية جوعا اضطر محمد باشا سعيد الي التسليم . وكان يرغب في احراق مخازن البارود ولكن الضباط رجوه الا يفعل ذلك ضنا بحياة

زوجاتهم وأولادهم . فكتب الى المهدى يقول انه مستعد لتسليم المدينـة . فاجاب المهدى بانه لاخوف عليه هو وسائر الضباط وفى صباح اليوم التالى أرسل وفدا مؤلفا من التجار برياسة محمد واد عريف الى سعيد باشا يطلب منه ومن كبار الضباط أن يحضروا لديه

وقد أحضر الوفد معه أكسية من المرقعات وهى لباس الدراويش المؤلف من رقع مختلفة لكي يلبسها سعيد باشا وضباطه . فلبسوها وركبوا جميعهم الخيول وساروا والحزن مخيم على وجوههم وغادروا تلك القلعة التى دافعوا عنها دفاع الابطال.وكان مع سعيد باشا محمد بك اسكندر الحكمدار ونسيم افنـدى واحمد بك ضيف الله ومحمد بك يس وعدة ضباط آخرين

واستقبلهم المهدى وهو قاعد على عنجريب قد فرش بجلد جدى وبسط يده لهم لـكي يقبلوها وعفا عنهم : وقال لهم انه يعرف انهم لم يقـاوموه الا لأنهم كانوا مخدوعين لا يعرفون انه المهدى الذى جاء يؤدى رسالة آلهية . وهو يعفو عنهم الآن ويطلب منهم أن يقسموا له يمين الولاء ويطيعوه فى جهاده . ولمـا انتهي من ذلك أعطاهم ماء وبلحا وحضهم على الزهد في الدنيا والاقبال على الآخرة . ثم التفت الى سعيد باشا وقال : « لست ألومك باعتبارك تركيا لدفاعك عن المدينة ولكنك لم تحسن فى قتل الرسل لان الرسول لايقتل »

وقبل أن يجيب سعيد باشا أسرع اسكندر بك وقال : « مولاى المهدى . ان سعيد لم يأمر بقتل الرسل ولكني انا الذى فعلت ذلك بصفتي حكمدار القلعةوذلك لأني اعتبرتهم ثائرين . وانى أقر بأني لم أحسن فى عملى هذا كما قلت »

فقال المهدى : « لم أقصد بـكلامي الى أن تبرر عملك . فان الرسل قـد نالوا كل ما كانوا يرغبون فيه . فانهم لما أخذوا الخطابات مني كانوا يرغبون فيالاستشهاد وقد تحققت رغبتهم . وقد أنعم الله عليهم بالنعيم . ولعل الله يمنحنا مانالوه »

وفى اثناء هذه الحادثة كان ابو النجا ورجاله قد احتـلوا القلعة بتدبير سابق واحتلوا ايضا مبانى الحكومة ومخزن البارود . اما الامراء فقد احتلوا مساكن الضباط . وامر المهدى واد العريف وكان صديقا سابقا لسعيد باشا بأن يأخذه هو

والضباط الى منازلهم ولكنهم عند مابلغوها علموا ان الامراء قد احتلوها وان املاكهم قد صودرت . وبعد قليل دخل المهدى المدينة وامر بخروج الحامية من الخنادق. اما النساء والاولاد الذين كانوا ينتظرون اسعافهم فقد امروا بان يخرجوا من المدينة ويذهبوا الى معسكر المهدى والا يأخذوا شيئا معهم . وفتشت النساء تفتيشا يثير النفس اذ كن يعرين من ملابسهن وكل ماوجد معهن ارسل الى بيت المال حيث وزعت الاموال بين الامراء وسائر الاعيان . وكانت مناظر التفتيش تؤلم النفس فان جنود المهدى كانوا فى طلب الذهب يجلدون الاهالى لكي يعترفوا بما عندهم

وطلب امير بيت المال احمد واد سليمان سعيد باشا لكي يسلمه ماعنده من الاموال فاجاب سعيد باشا بأنه لا يملك شيئا . وكان المشهور انه رجل غنى ولكنه انكر وكابر وبلغ انكاره المهدى فاستدعي واد سليمان وطلب منه ان يبحث مع خدم سعيد باشا . ثم طلب هو سعيد باشا واخذ يحادثه عن الدين وكان كثيراً ما يسأله امام المجتمعين من الناس لماذا لا يدلهم على خزانتــه التى يحفظ فيها امواله وكان سعيد باشا ينكر ويلح فى الانكار ويقول انه لا يملك شيئا . ومضي وقت ثم جاء واد سليمان الذى كان قد نجح في ان يحمل احدى الخادمات على ان تعترف بالمكان الذى خبأ فيه مولاها امواله واسر الى المهدي حتى لا يسمع الناس بانه وجد الاموال مخبوءة فى حائط .

اما المهدي فاشار عليه بالجلوس ثم اخذ يعظ الجموع امامه عن غرور الدنيا وضرورة الزهد ثم التفت فجأة الى سعيد باشا وقال : « لقد حلفت يمين الولاء. فلم تخفي امر اموالك؟ المال اصل البلاء. فهل تنتظر ان تجمع اكثر مما جمعت ؟ »

فقال سعيد باشا : « ليس عندى مال ربحته ظلماً أو عدلا . فافعل بي ماتشاء »

فقال المهدى : « هل تظنني رجلا مثل سائر الناس . ألا تعرف انني المهدى المنتظر . وان ابي قد كشف لى عن خزانتك التي أخفيتها فى الحائط ؟ اذهب يا احمد واد سليمان الى بيته ثم ادخل الى غرفته فتجد على الحائط الايسر قريبا من الباب مكان الاموال . فجرد الحائط من الجبس تجد أموال التركي فاحضرها الينا »

وكان سعيد باشا مدة غياب واد سليمان قاعدا مقطبا عابسا فى جوار المهدى . وعرف ان مكان أمواله قد أفشي ولكنه كان من الكبرياء والانفة بحيث رفض ان

يصرح بانه قد كذب وسكت عن الكلام . وبعد دقائق عاد سليمان ومعه صندوق من التنك وضعه أمام المهدي فلما فتحه وجده مملوءاً بالذهب المجموع فى أ كياس . وقد عدوا فيه سبعة آلاف جنيه .

ثم قال المهدى : « يامحمد سعيد . لقد كذبت ولكني سأعفو عنك . خذ ياأحمد هذا المال وقسمه بين الفقراء والمحتاجين »

فنهض محمد سعيد باشا وهو يقول : « انك تدعو الى الزهد ثم تأخـذ أموالى فافعل بها ماشئت » ثم سار خارجا

فقطب المهدى وقال بصوت خافت : « د امابنفعنا » وبعد أيام تعلل عليه بعلة وأمر بقتله كما قتل أيضا احمد بك ضيف الله وعلى بك شريف ويس . وهذه كانت نهاية هؤلاء الرجال الاربعة الذين دافعوا عن الابيض . والحق انهم كانوا جديرين بحظ أحسن من هذا

الفصل السابع

المهدية فى دارفور

لما وصلت الى خشبة جهدت جهدى لكي أنظم قوة لمقاتلة المادبو . وكانت القبائل التى طلبتها لمعونة الحكومة قد وصلت وصار جيشى يتألف كما يأتي :

جنود نظامية ببنادق رمنجتون	٥٥٠
جلابة	٢٠٠
بازنجر مسلحون	١٣٠٠
جنود مختلفة	١٠٠
المجموع (ومنه ٦٠٠ يحملون رمنجتون)	٢١٥٠

وكان يقود البازنجر شرف الدين . وكان لدينا مدفع جبلى و١٣ رجلا من الطوبجية

وكانت القبائل الموالية تتألف من البيجو والبركة والزغاوة (فى جنوب دارفور) والمصرية والتاجو والمعالية الذين كانوا يعادون الشيخ ابو سلامه . وكان عددهم كلهم نحو ٧٠٠٠ رجل يحملون الحراب و٤٠٠ حصان

وكانت الحامية التي غادرتها فى داره مؤلفة من ٤٠٠ جندى نظامى و ٧ مدافع والطوبجية اللازمين لها و٣٠ فرساً و٢٥٠ من البازنجر وكانوا كلهم تحت قيادة زوجال بك الذى كان يؤدى وظيفة قائمقام بدلا من اميلياني بك. وقد تركت معه من يدعى جوتفرث روث وهو سويسرى كان قد ارسل الي السودان بشأن وقف النخاسة . وكان عالما في اللغة العربية وقد أسررت اليه اني لا أثق بزوجال بك وطلبت منه ان يعرف كل مايمكن معرفته عنه من قرابته ويقفنى على كل شيء يعرفه عنه

وفى نهاية اكتوبر غادرت خشبة مع جميع الجيش وسرنا فى اقليم الرزيقات وكان مغطى بالديس الكثيف والاحراج . وكنا معرضين بذلك للهجوم فجعلت سير الجيش بحيث لا يمكن ان نباغت بكمين يبعث فينا الارتباك والاختلاط

وكان البازنجر فى جناحي الجيش ومعهم الابواق لتنبيهنا عن أى خطر . وجعلت مؤخرة الجيش أقوى من الجناحين وذلك حتى اذا هوجم جناح يمكننا ان نجد الوقت الكافى لنزيده من قلب الجيش . وكان واجب المؤخرة من أشق الواجبات لانه كان عليهم أن يعنوا بالجمال التي تقع والا يغفلوا عن الفارين او الذين يتخلفون . ولذلك جعلت السير في المؤخرة مناوبة فيمنة الجيش تصير مؤخرة ثم تصير ميسرة ثم تعود يمنة وهلم جرا . وكنت أيضا اخفف الاعمال عن البازنجر والجنود النظاميين بهذه الطريقة .

وكنت أؤمل بهذه الطريقة ان أبلغ شقة بدون أية خسارة جدية وكان قصدى عند وصولى أن ابنى قلعة هناك وأضع عليها المدفع ثم أترك الحامية هناك وأخرج بتجريدات خفيفة الى البلاد المضطربة حيث تتاح الفرصة لحملة الحراب بان يغنموا ما يمكنهم من ماشية الرزيقات

وعند وصولى الى ديين وجدنا كميات من الحبوب التى اختزنها المادبو فى القرية الجديدة التى بناها . فقسمتها بين الجنود واطمأننت بان عندهم من الزاد ما يكفيهم

جملة أيام .واسترحنا ثلاثة أيام وبثثنا طلائعنا لكي يدلونا على أمكنة المياه فيالطريق ثم استأنفنا المسير الى شقة

وكنت محموما فى هذه الايام فسلمت قيادة الجيش لشرف الدين وهو يليني في القيادة وأمرته ألا يبرحني . وفي اليوم التالى عندما غادرنا قرية كندرى وبعد ان استرحنا قليلا تصايح الجنود فى المؤخرة بان بعض الخيالة يتقدمون للهجوم علينا ووقف فى الحال كل رجل فى مكانه وعلى الرغم من الحمى المستولية علىّ ذهبت الى حرس المؤخرة ورأيت بعض الخيالة الذين ربما كانوا يبلغون بعض مئات ولكن الاشجار كانت تخفيهم وكان لذلك من المستحيل تقديرهم تقديراً صحيحاً فأشرت لحرس جناحى الجيش بان ينضموا إلىّ ثم تقدمت ومعى خيالة الجيش وفرسان العرب وحصلت مناوشة بين الاشجار انتهت بتقهقر العدو بعد أن غنمنا منه ستة خيول . وبلغت خسارتنا سبعة خيول قتلت وفقد رجلان وجرح البعض ثم طاردنا العدو مسافة وعدنا واستأنفنا السير حتى الغروب فعسكرنا فى مكان يدعى أم ورقة

وكنت لا أزال أعاني الحمى فأخبرت شرف الدين بأن يتبع التدبيرات التى أنهيها اليه بشأن ترتيب الجيش . وفي الصباح شرعنا فى المسير حتي اذا مضى ساعتان بلغنا أرضاً نزة رأينا فى جنوبها الشرقي بعضا من العشش التى يبنيها عبيد الرزيقات الذين يشتغلون في الحقول . وذهبت بمقدمة الجيش الى هذه العشش لفحصها وكان الجنود تعاونون الخيل على السير فيهذه الحمأة التى كانت تنغرز فيها أرجلها . ونحن في ذلك واذا بنا نسمع من المؤخرة اشارة الخطر تلاها في الحال اطلاق الرصاص فتركت المقدمة فى العشش وركضت جوادى الى الميسرة وأخذت تسعين جنديا نظامياً وذهبت الى المؤخرة ولكن كان مجيئنا متأخراً فقد اطلق البازنجر والجنود النظاميون فى المؤخرة أول طلقة وبينما هم يملأون أنابيب البنادق لاطلاق الثانية هجم عليهم العدو بجموع كثيفة فزحزحهم الى الوراء فى ناحية . ورأى جنودنا فى القلب هذا الاختلاط بين العدو والولى فامتنعوا عن اطلاق النار . فأشرت لحملة الابواق بان يشيروا على جنودنا بالرقاد ثم يسددوا مرماهم الى أفراد العدو الذين

اختلطوا بنا ويصيبوا ايضاً من يأتي بعدهم من الاعداء . وبهذه الطريقة وقفت الهجوم وقسمت العدو قسمين واحداً الى اليمين وآخر الى اليسار . وذهب هذان القسمان الى ميمنتنا وميسرتنا للاشتباك معهما فى القتال

وكان الاختلاط الآن هائلا لا يمكن وصفه . فان الاعداء العرب الذين دخلوا الى قلب جيشنا كانوا لا يزالون فيه وقد أعملوا سيوفهم فى البازنجر ولم يكن مع البازنجر ما يدافعون به لأنهم كانوا لا يحملون سوى البنادق . أما الجنود النظاميون الآخرون فلم يجدوا من الوقت ما يساعدهم على تجريد السيوف وذلك لمفاجأة الغارة . ولكننا تمكنا فى النهاية من قتل جميع العرب الذين جازوا الى قلب جيشنا . أما حرس الميمنة وحرس الميسرة فقد هوجموا من الامام والخلف فلم يستطيعوا تحمل الصدمة وفروا فى كل جهة فتلقاهم فرسان الرزيقات المختبئون في الغابات وقتلوهم

ولم تدم المعركة أكثر من عشرين دقيقة ولكن خسارتنا فيهذا الوقت القليل كانت عظيمة جداً . ومن حسن حظنا أن العدو ألح في مطاردة الفارين من جناحى جيشنا . وتمكنا نحن من تطهير القلب من جنود العدو ولكن ضحايانا كانت كثيرة وكانت الخسارة بين أولئك الذين أطاعوا إشارتنا بأن يرقدوا قليلة ولكن اصابات البازنجر الذين لم يدربوا كانت غير قليلة وقتل ايضاً عدد كبير من جمالنا

وفى وسط الاختلاط رأيت أحد الاعداء يمر بالقرب مني ويحمل معه كيساً أحمر يحتوى على الفتائل التى نطلق بها البنادق . وكان يبدو عليه انه يظن انه غنم شيئاً عظيما . والحق انه كان بالنسبة الينا شيئاً عظيما لانه لا فائدة من البنادق بدون هذه الفتائل . وكان بجانبي خادم اسود لايتركني فقلت له : « هاك يا كبر فرصة تثبت بها شجاعتك التى كثيراً ما وصفتها لى . خذ حصاني واذهب وراء هذا الرجل واحضر منه الكيس الاحمر »

فقفز الى الحصان وفي يده حربة وطار به وبعد دقائق قليلة عاد ومعه الكيس الاحمر ومعه أيضاً حربة حمراء بالدم

واختفى فرسان العدو فعملنا اشارة الاجتماع ولكن لم يلب النداء سوى بضع مئات فقسمتهم قسمين أحدهما للحرس والآخر يشتغل بجمع الذخيرة من أولئك الذين قتلوا . ووضعنا ما جمعناه على الجمال ثم سرنا الى قرية عالية يمكن منها مشارفة السهل حولها . ثم جمعنا مقداراً من الاشواك وصنعنا بها زريبة بأسرع ما يمكننا خوفا من ان يفاجئنا العدو في أي وقت . وبعد ان انتهينا من ذلك فكرنا في الجرحى الذين حملناهم الى داخل القرية وعملنا كل ما في استطاعتنا لتخفيف آلامهم

وكانت الجثث مبعثرة فوق الارض لا يحصيها العد دع عنك من قتلوا في الغابة والعجب انه في هذا المكان نفسه انهزم آدم طربوش وزير السلطان حسين وقتل في المعركة

ثم حان حين نداء الاسماء وهو واجب محزن . ووجدنا انه قتل من ضباط المشاة الاربعة عشر عشرة وجرح واحد . وقتل من رؤساء الجلابة الشيخ خضر ومنجل مداني وحسن واد ستارات وسليمان وادفتح وفقي احمد وحسيب وشكلوب. ومن الطوبجية الثلاثة عشرة لم يبق سوى واحد أما اليوناني اسكندر الذى جرح في ديين ولم يكن جرحه قد برئ بعد فقد قتل أيضا . وجمعنا ونحن في حزننا الموتى لكي نقدم لهم آخر تحياتنا . ووجدنا بين أكداس الجثث جثة شرف الدين مطعونا في قلبه ثم حفرنا في هذه العزة قبوراً وصرنا ندفن اثنين او ثلاثة معا في كل قبر

اما الجرحى المساكين فلم يكن في مقدورنا أن نساعدهم كثيراً فان أولئك الذين كانت جروحهم خفيفة كانوا يشتغلون بتضميدها بأنفسهم.أما الذين كانت جروحهم خطرة فلم يكن عندنا لهم سوى الكلمات الطيبة

وكانت رؤية هؤلاء الجرحى مما يؤلم النفس ويجعل الانسان يشعر بعجزه التام عن تخفيف ما بهم.ورأيت أحد الخدم ومعه حقيبتي وكان بها بعض الاقمشة للتضميد فأخذتها وجعلت أضمد بعض الجراحات . وانا في ذلك خطر ببالى اني لم أر خادمي مرجان حسن وكان معه أحد جيادى.وكان صبيا سريا ذكيا لم يكمل بعد السادسة عشرة من عمره وكان هادئا شجاعا شريف النفس . فقلت للصبي الذى يحمل حقيبتى : « قل لى يا عيسى أين مرجان الذى كان يسوق جوادي مبروك (وكنت قد وضعت

فى جيوب سرجه مذكراتي وخرائطي) قل لى أين هو . انه صبي نشيط ولا بد انه قد ركب الجواد وتمكن من الفرار

ولكن عيسى بدت عليه أمارات الحزن والوهن عند سؤالى هذا فهز رأسه وشرقت عيناه بالدموع ثم سلمنى قطعة من لجام الجواد فقلت له : « ما هذا »

فقال : « مولاى . لم أحب ان أزيد حزنك . لقد وجدت مرجان قريبا من هنا راقداً على الارض وبصدره طعنة الرمح . ولما رآني تبسم وقال: لقد عرفت انك ستأتي لكي تراني . ودع مولاى وقل له اني لم أجبن ولم أسلم الجواد الا بعد ان وقعت مطعونا فى صدري وقطعوا اللجام من يدى وجروا به. قل لمولاى ان مرجان كان أمينا . خذ السكين من جيبي فانها لمولاى . اعطها له ثم سلم عليه كثيراً »

ثم غص عيسى بريقه وسلمنى السكين وهو ينشج فآلمنى هذا الخبر المأ شديدا ووهنت قواى عند سماعه . أجل يامرجان . ما أصغر سنك وما أشرف نفسك . وما أفدح مصيبتى في فقدان هذا الخادم الامين بل الصديق المخلص

وقلت لعيسي : « قل لى . كيف كانت النهاية »

فقال عيسي : « كان عطشان فحملت رأسه بين يدىّ ولم تمض بضع دقائق حتى مات فنهضت وتركته فقد كان علىّ أن أؤدى أعمالى ولم يكن ثم وقت للبكاء .

ثم قوينا سياج الزريبة وحفرنا الخنادق وراءه ثم أمرت بدق الطبول ونفخ الابواق وأطلقنا بضع عيارات وذلك لكي يعرف الفارون او الجرحى الذين ارتطموا في الوحل أننا قد وجدنا ملجأ قريباً منهم . وجاءنا عدد كبير من هؤلاء فى النهار وفى آخر النهار نادينا الاسماء فوجدت ان عندنا ٩٠٠ رجل هم البقية المهزومة الحزينة لجيش كان يبلغ ٨٥٠٠ رجل ولكننا مع ذلك رضينا بالنتيجة . ولم يبق من فرساننا وخيالتنا سوى ثلاثين ولا بد ان العدو قد غنم عدداً كبيراً من الخيول وان بعضها قد فر ورجع الى داره كل الى مسكنه ولكن الذخائر كانت كثيرة لدينا لانها تخلفت عمن قتلوا

وعند الغروب عاد رجال الزريفات فدهشوا اذ رأونا متحصنين مستعدين

لمقابلتهم وأرسل المادبو رجاله من البازنجر لمقاتلتنا ولكن بعد مناوشة قصيرة رددناهم ثم خيم الظلام وقف القتال

وبينما أنا قاعد وأتكلم مع الضباط اقترب منا الشيخ عبد الرسول ومسلم واد كباشي وسلطان بيجو واقترحوا علينا التقهقر من مركزنا الحاضر ونحن فى جنح الظلام لانه لم يبق لنا أمل فى الانتصار على العدو بعد خسارتنا الفادحة . فقلت لهم: « ترغبون فى التقهقر الآن ولكن ما ذا نصنع بجرحانا . هل نتركهم لرحمة العدو »

فخجلوا وصمتوا . فقلت لهم : « ليس اقتراحكم حسناً . لقد كنت أنا أحادث الضباط في هذا الشأن الآن ورأينا ان نبقى هنا عدة أيام وليس امامنا ما نخشاه سوى الجوع ويمكننا أن نذبح الجمال المجروحة والضعيفة ونقوت بها الجنود ثم لا بد أن نجد ما نقتات به أيضاً هنا والمؤكد ان العدو سيهاجمنا ولكننا سنرده بسهولة وبهذه الطريقة تعود الثقة الى رجالنا بعد ما فقدوها للخسارة الفادحة التى وقعت بنا . اني أعرف الرزيقات فهم لن يقعدوا هادئين يترقبوننا . وانا واثق بأنه لا بد من الاصطدام مع المادبو والشيخ جانكو وسائر رجاله من البازنجر الذين سبق ان طردناهم الى بحر الغزال . وسيستريح الجرحى ويتعافون قليلا فأولئك الذين ليس بهم سوى جراح طفيفة سيمشون على أقدامهم . أما من جراحهم بليغة فاننا نحملهم على خيولنا . وأظن ان اقتراحى هذا أفضل من اقتراحكم »

وفى اثناء كلامي سمعت سلطاناً يوافق على رأيي ولم انته من كلامي حتى أمن الجميع عليه واتفق رأينا على البقاء

ثم تكلمت موجهاً كلامي الى جميع الحاضرين وقلت : « هل تعرفون سبب هزيمتنا اليوم »

فأجابوا بالنفى جميعاً فقلت : « اليكم السبب . فى هذا المساء وجدت بين الجرحى قائد المؤخرة حسن واد ستار وقد قال لى ان شرف الدين لم ينفذ تعليماتي بشأن تبديل المؤخرة كما فعلنا فى الايام السابقة فاغتاظ الجنود النظاميون لهذا السبب وتركوا مكانهم وانضم كل منهم الى فرقته بدون اذن ولم يرسل مكانهم رجال جدد . وفى الوقت نفسه ترك العرب الموالون المؤخرة وانضموا الى الجناحين وعند ماهوجم

حسن واد ستارات لم يكن معه من الرجال سوى ٢٥٠ من البازنجر لايحملون سوى البنادق القديمة . وقد دفع شرف الدين ثمن اهماله حياته ووقعت بنا الخسارة جميعا. وليس هـذا وقت التلاوم فلنفكر في شيء آخر . اذهبوا الى رجالكم وشجعوهم ثم ناموا حتى تصبحوا مستعدين لما يأتى به الغد . ولكن أنت ياسيد أغا فوله لايمكنك ان تنام للجرح الذى بك ولذلك سنضع لك عنجريبا قريبا من باب الزريبة واذا حاول أحد أن يخرج بدون اذنى فاضربه بالرصاص »

فانفضوا من حولى وصرت وحدى فطفقت أفكر فى موقفنا وأتدبر . ورأيت ان من المرجح ان تتمكن من التقهقر الى داره وكان لدينا أكثر من ٨٠٠ بندقية . ولكن شعرت بمرارة الخسارة الماضية فقد قتل أحسن ضباطنا وخشيت ان يبلغ نبأ هزيمتنا داره فيكون له أسوأ أثر فى رجال الحكومة والاهالي معا . فأيقظت الكاتب وأمرته بان يكتب خطابين قصيرين أحدهما لزوجال والآخر للحكمدار محمد فرج وأخبرتهما بانه على الرغم من خسارتنا الكبيرة فان حالتنا حسنة واننا نرجو ان نرجع الى داره بعد أسبوعين

ولكن اذا وصل الى داره بعض الفارين وأخذوا يشيعون الاشاعات المقلقة عن حالتنا فيجب اعتقالهم حتى أعود . ثم كتبت أنا بضعة أسطر لجوتفريد روث أصف له الحالة وأخبره باني سأرجع الى داره قريبا مع الباقي من جيشنا وانه يجب أن يتشجع ويبعث الرجاء في نفوس من حوله . وكتبت أيضا بضعة أسطر لامي واخوتى أودعهم لانه لم يكن من الممكن أن نتنبأ عما تنتهى اليه هذه القلاقل ورجوت جوتفريد روث أن يوصل هذه السطور فى حالة قتلى الى أهلى فى وطنى

وتناولت الخطابات الثلاثة وقمت الى عبد الله ام درامة شيخ العرب المصرية الذين يقطنون قريبا من داره فايقظته وقلت له : « أين اخوك سلامة »

فقال وهو يشير الى رجل نائم فى جانبه : « هاكه » ثم أيقظه

فقلت : « يمكنك ياسلامة أن تخدمني الآن اجل خدمة وهي خدمة تفيدك أنت أيضا . اني أريد منك أن تأخذ هذه الخطابات التى تراها وتذهب بها الى داره وتسلمها للرجل الاوروبي المسمى روث وقد رأيته معي مرارا . واركب جوادى

الذى كثيراً ما مدحته فى هذه المهمة . وعايك أن تسافر الآن وعند ماتبلـغ خط العدو المحيط بنا الآن أركض جوادك فانهم كلهم نيام فيمكنك أن تختفى فى الظلام قبل أن يعدوا خيولهم للعدو وراءك . ومتى جزت خطوطهم فأنت آمن وعند ئذ تبلغ داره في بحر يومين وسأ كافئك باعطائك فرسي السوداء التى فى الاصطبل فى داره »

وبينما أنا أتكلم كان سلامة يشد حزامه على وسطه وكل ما قاله لى : « أين الخطابات »

فناولتها له فاخذها وقال : « ان شا الله وبعونة الله سأوصل هذه الخطابات الى اصحابها . ولكنى أفضل ان اركب فرسى فانه وان لم يكن يجري بسرعة فرسك الا انه يقوى على حملى . فهو يعرفنى وانا أعرفه . وفى مثل هذه المهمة يكون التعارف مفيداً »

وأخذ يسرج فرسه وكتبت انا رقعة الى روث وطلبت منه أن يسلم الفرس السوداء لحامل الخطابات وناولتها لسلامة بعد ما أخبرته بمضمونها . ثم قاد فرسه الى الباب وكان هناك سيد أغا فوله يتململ على فراشــه اذ كان مجروحا فى ساقه اليمنى وذراعه اليسري . فاخبرته بمهمة سلامة فامر له بفتح الباب . وامتطى سـلامة فرسه وحمل فى يده اليمنى رمحه وفى اليسرى جملة مطارد صغيرة يزرق بها العدو على بعد وشرع في السير

فقلت له . « مع سلامة الله » فقال . « انا واثق بالله » واتأد فى سيره أولا حتى اقترب من خطوط العدو وهو يسير على حذر . ثم سمعت دبدبةسريعة ثم عياراً أو عيارين ثم خيم السكوت كأنه الموت . فقلنا جميعا . « ليكن الله معه » وعدنا الى الزريبة وقد بلغ منا الاعياء وما هو ان انطرحنا حتى نمنا

ولما استيقظت في الفجر وجدت الرجال يشتغلون فى التحصين وكان كماتنبأت فان العدو عاود الهجوم . ونشط إطلاق النار من الجانبين مدة ولكن بالنسبة لمكاننا المشرف اضطر العدو الى التقهقر بعد أن اوقعنا به وكبدناه خسارة جسيمة . وقد قتل وجرح منا عدد قليل وكان من القتلى على واد حجاز وهو جعالى شجاع . ولما

كانت نيتنا البقاء هنا بضعة أيام فان رجالنا جدوا فى تحصين الزريبة وأخذنا ندفن من ماتوا منا وكان الفساد قد انتشر فى أجسامهم وامتلأ الهواء برائحتهم

وقضينا فى الزريبة خمسة ايام كان العدو يهاجمنا فيها مرة أو مرتين كل يوم . وقد حدث فى اليوم الثالث ان كريمه نور قائد مدفعية المادبو قتل فثبطت عزائم العدو وفتروا فى هجومهم عن ذى قبل

ولكن نهض لنا عدو آخر وهو القحط . فقد أكلنا كل شيء يؤكل فانتهت لحوم الجمال ولم يكن لدينا حبة ذرة . وقد اقتتنا أنا والضباط فى المدة الاخيرة بكسرات من خبز الذرة كنا نطبخها مع ورق نبات يدعى كوال ونضرب هذا الخليط حتى يصير شبه عصيدة لاطعم لها . ولم يكن ثم مايرجينا بتخفيف وطأة العدو أو بمجيء جيش لانقاذنا فلم يكن من الممكن ان نبقى اكثر مما بقينا وكان الجوع قد أثر فينا وأضعفنا

وعلى ذلك جمعت جميع رجالنا وكان عددهم نحو ٩٠٠ رجل كلهم ماعدا قليلا من العرب مسلح بالبنادق . أما العرب فكانوا لجهلهم بالبندقية يؤثرون عليها حرابهم ثم خطبتهم خطبة قصيرة قلت فيها ان دماء ضباطهم ورؤسائهم تهتف بهم ان اثأروا لنا وان نساءهم وأولادهم ينتظرونهم مشتاقين لرؤيتهم ولكن من المحال ان يصلوا اليهم مالم يتحملوا الآلام بالصبر ويواجهوا المشاق بالجلد والشجاعة ثم ختمت خطبتى بقولى ان اولئك الذين قد سكن الخوف قلوبهم قد فروا يوم المعركة واما الذين يقفون امامي الآن فقد صمدوا وعانوا المشقات وان الله سيكافئهم على جهودهم بالنصر

فاجابوا بالهتاف وبرفع البنادق فوق رؤوسهم وهذه اشارة للطاعة ثم صرفتهم وأمرتهم بالاستعداد للرحيل فى اليوم التالى . ثم نزعت من البندقيات القديمة التى تخلفت عن القتلى زنودها وجمعتها ثم ألقيتها في بركة اما البندقيات فقد أحرقتها . وألقينا كل مالا حاجة لنا به فى الماء وقسمنا الباقي بين الجنود . فخص كل رجل ما بين ١٦ الى ١٨ دستجة من الخراطيش ولكننا أتلفنا البارود الذى يستعمل فى البنادق القديمة لئلا يستفيد منه العدو . اما رصاص الخراطيش فقد وضعناه تحت رؤوس من ماتوا حديثا

فلما كان السبت وهو اليوم السابع لنكبتنا بعيد طلوع الشمس خرجنا من الزريبة والفنا القلب وحوله المقدمة والمؤخرة والميمنة والميسرة وشرعنا في التقهقر . وكان عندنا جملان فقط فجعلناهما يجران المدفع فى القلب وأرسلت انا فى كل جانب فارسين للاستكشاف . وكان فى القلب ١٦٠ جريحا فكان القادر يمشي على أقدامه ومن لم يقدر حملناه على خيولنا القليلة ، كل فرس يحمل رجلين أو ثلاثة وكنت انا راضيا بالسير على قدمي ولكن ألح عليّ الضباط فى الركوب فركبت لكي اشرف على الفلاة حول الجيش وكنا جميعا نعرف بان العدو سيهاجمنا بعد خروجنا من الزريبة فلأننا المدفع وعولنا على ألا نبيع حياتنا رخيصة وكنا واثقين باننا اذا نجحنا فى رده مرتين او ثلاثة فانه لن يعاود الغارة علينا وقررنا ان نسير في الجهة الشمالية الغربية لان الارض هناك مكشوفة ولكننا كنا نجهل مكان مياه الامطار لان ادلتنا قد فروا أو قتلوا

وقبل ان يمضي على مسيرنا ساعة هوجمت مؤخرتنا فأدركت ان الساعة الحاسمة قد أزفت . فأمرت بالوقوف في الحال وضممت الجناحين الى القلب . ثم اصطحبت حرساً مؤلفا من خمسين رجلا وسرت نحو المؤخرة وكانت تبعد عنا نحو مائتى ياردة. ونقلنا المدفع الى آخر القلب من جهة المؤخرة وكلفنا الجرحى بملء البنادق حتى لا يضيع وقت الجنود المقاتلة

وقبيل أن يظهر مشاة العدو كنا نسمع وقع أقدامهم فاستعددنا لهم بحيث أنهم عند ماظهروا سددنا اليهم النار من حرس المؤخرة . فتوقفوا قليلا ولكنهم كانوا يستندون الى كثرة عظيمة وراءهم فتشجعوا بها وهجموا وكل منهم قد شرع حربته في يده اليمنى وحمل تحت ذراعه اليسرى عدة مطارد . وتمكنوا من الاقتراب منا حتى أصاب بعضهم بعض رجالنا بالمطارد التى تزرق على بعد . ولكننا أعملنا فيهم النار وكان مدفعنا يرميهم من القلب . فتقهقر رجالهم من حملة الحراب وصرنا وجهاً لوجه مع البازنجر وأصبح القتال بالنار من الجانبين ولكن جاءتنا أمداد من القلب فاستطعنا بهم ان نرد العدو بعد قتال عنيف دام عشرين دقيقة

وكنت عند اطلاق أول عيار قد نزلت من ظهر جوادى وهذامعناه فى السودان

عدم الامل فى الفرار والاصرار على واحـدة من اثنتين ، الظفر او الموت . ولما انتهى القتـال تحلق الجنود حولى وأخـذوا يهزون يدى بالنصر الاول الذى انتصرناه على العدو

وبينما نحن نشـتغل بالقتال من المؤخرة كانت ميسرتنا قد اشتبكت أيضاً وانتصرت فى النهاية ولكن خسارتها كانت جسيمة وجرح أحسن قائد باق لديّ وهو زيدان أغا جرحا بليغاً . وكان نوبى المولد وظهرت كفايته فى حمـلة دارفور اذ قاد فصيلة مؤلفة من ١٢ رجلا واستخلص بها مدفعاً من العدو وكان قد غنمه منا . ولهذا العمل كوفيء بترقيته الى رتبة ضابط والآن أراه مصابا بعيار فى رئته اليمنى . فسألته عن صحته فقال لى بعد ان مد يده اليّ : « أما وقد انتصرنا فمابىمن بأس » ثم ضغط يدى وبعد دقائق مات

وقتل أيضاً من جانبنا ٢٠ وجرح عـدد كبير . فدفنا القتلى بعجلة اذ لم يكن لدينا من الوقت ما يسـمح بالحفر العميق ولكننا غطيناهم حتى لا نعير باننا تركنا قتلانا بلا دفن ثم استأنفنا مسـيرنا بحيطة وحذر ولكن ثقتنا في أنفسـنا زادت عن ذي قبل

وفي الساعة الثالثـة عاود العدو الغارة على المؤخرة ولكن الغارة كانت خفيفة فطردنا المغيرين بدون ان نخسر أحدا . ثم وقفنا وأحطنا الجيش بزريبـة منتظرين من العدو غارة أخرى . ولكننا دهشنا إذ لم نتلق هجمة واحـدة من العدو طول الليل وفى الصباح بعد ان نفد ماؤنا اسـتأنفنا السير . ونحن فى مسيرنا عاود العدو الغارة ولكن هجومه هـذه المرة كان أضعف من هجومه فى الامس فطردناه بأقل عناء . واستمر سيرنا حتي الظهر بدون ان نجد ماء . فتفيأنا فى ظل بعض الاشجار وأخذ رجالنا يبحثون عن نوع من الفجل يدعى « فايو » وهو كثير العصـارة وله ثلاث ورقات صغيرة تدل عليه فكان رجالنا يقلعونه من الارض ويمصونه فيطفيء عطشهم بعض الشيء ولكن كنا مع ذلك في حاجة لازمة للماء . وبعد ان استرحنا استأنفنا المسير ثانياً فالتقينا مصادفة براع من الزريقات يسوق غنما . فتسابق الرجال الى الغنم واحتازوها من راعيها الذى وقف مبهوتاً مروعا لا يحاول الفرار وكان

رجالنا ينوون قتله لولا وساطتي. فأمرت بوضع الغنم في القلب وأحضر الراعي الى ويداه موثقتان الى ظهره وقبل ان أستجوبه أمرت بتوزيع الغنم كل رأس لخمسة رجال وما يتبقى لنا . وكان عدد الخراف يبلغ نحو مائتين . ما أجل هذه النعمة التى أنعم الله بها علينا ونحن في جوعنا هذا !

ثم التفت الى الرجل وقلت له اني لن أقتله اذا هو هدانا الى غدير ماء واذا أثبت أمانته فاني أكافئه وأسمح له بالذهاب الى أهله فرضي وقال ان الغدران التى حولنا صغيرة ولكن اذا تكلفنا المسير مسافة فانه يضمن لنا بلوغ « الفولةالبيضاء » وهي غدير كبير نجد فيه ماء يكفينا أشهراً . وكنت غير واثق به فأمرت صف ضابط وثمانية رجال بمراقبته والا يجعلوه يبعد عني. ثم استأنفنا المسير وفي المساء وقفنا وصنعنا زريبة بتنافيها كالعادة ومررنا ببضعة غدران ولكن ماءها لم يكن يكفينا وكنا نقاسي الشدائد من العطش فما جاء الفجر حتى قمنا واستأنفنا للسير بعد ليلة قضيناها في الارق من شدة العطش

وعند الظهر أشار الدليل الى بضعة أشجار قال ان الغدير تحتها . فوقفنا في الحال وملأنا المدفع والبندقيات واستعددنا للمقاومة . فقد ترجح لدي ان العدو سيقدر عطشنا فينتظرنا تحت الاشجار ويفاجئنا بالنار . فامرت الرجال بأن يراعوا النظام بكل دقة أو لا يستسلموا للفوضى . ولكن ما كاد يظهر الماء حتى هرع اليه الرجال يترامون عليه بلا نظام

وكانت قبيلة المبا ثائرة الآن فارسلت التعليمات الى عمر واد دارهو لكي يقوم بمائتي جندى نظامي ومائتين من الخيالة الى بلاد المبا . وقررت في الوقت نفسه ان أقاتل الخوابير الذين كانوا قد اتحدوا مع المبا . وذهب دارهو اليهم وأدى مهمته بنجاح اذ هزم المبا في فاقة وفي وودة. وقمت انا بمائة وخمسين جندى نظامى وخمسين من الفرسان وسرت في طريق شعيرية وبير ام الوادى حيث كان الخوابير ينتظرونني للهجوم عليّ . ولكن بعد قتال قصير هزموا وتشتتوا وغنمنا منهم عدداً كبيرا من الخراف والثيران

ولما انتهيت من القتال بعثت الى دارهو لكي ينضم الي في بيرام الوادى بمن تبقى

من رجاله . وبعد أيام قلائل أدركنا وأخبرنا بكل أعماله وانتصارات المهـدى فى كردوفان التى أقلقتني قلقاً عظيما

وكنت فى الليلة التى ارسلت فيها الى دارهو التعليمات لكي ينضم اليَّ قد جاءني رجل يدعي عبد الرحمن واد شريف وألح في مقابلتى وكان هذا الرجل تاجراً معروفا فى داره وقد سبق أن زار الخرطوم وبدأ كلامه معى بقوله انه بالنسبة لمعاملتي الحسـنة له فانه رأى من واجبه أن يخبرني عن تسليم الابيض وذلك حتى أتمكن من اتخاذ الاحتياطات اللازمة في مثل هذا الحادث . وكان هذا الخبر صدمة قوية فشكرته وطفق هو يصف لى كيفية سقوط البلدة . فقد كان حاضرا فيهـا وقت التسليم ثم سافر الى أهله فى داره وسمع وهو فى طويشة عن وجودى فى بيرام الوادى فاسرع في ادرا كي حتى يبلغنى أمر هذا السقوط

ورأيت انه من غير المفيد أن تبقى المسألة سراً فاستدعيت دارهو وسليمان بسيوني وأخذنا نتحدث معاً فى هذا الموضوع . وكان واضحا لكل منا أن هذا الخبر سيكون مشجعاً لاولئك الذين يكرهون الحكومة وصار من الضرورى لذلك أن أذهب الى داره

ولما كنا قد عاقبنا الميا والخوابير فقد رأينا أن نرسل حملة الى طويشة وكنت فى اليوم التالى الى سعيد بك جمعة بان يجلو عن أم شنجه ويأخذ معه الحامية وجميع الاهالى الذين يرغبون في تركها ويأخذهم جميعاً الى الفاشر . وكنت كتبت له أنه بالنسبة لسقوط الابيض فان العرب الآن سيوجهون نظرهم الى أم شنجه وهم اذا حاصروها صار من المحال تخليصها منهم وانه يجب بالنسبة للظروف الراهنة ان يجمع الجيوش فى الفاشر . وأمرته باقامة حرس فى فيفا وووده حتى تبقى الطريق مأمونة بين الفاشر وبين داره . ثم أمرت عمر واد دارهو بان يقوم هو وجيشه فى الحال الى الفاشر وان يوزع الغنائم التى غنمها من الميا بين جنوده وحامية الفاشر . أما ما غنمه من من الخوابير فيعطي للجيوش المقيمة فى داره . وفى نفس اليوم انفصلنا فذهبت انا الى داره وذهب دارهو الى الفاشر

وانتشر خبر سقوط الابيض في كل مكان وظهر أثر ذلك فى القبائل العربية فصاروا يجتمعون ويقررون الثورة على الحكومة

ولما وصلت الى داره أمرت بشراء كل ما يمكن من الذرة وكان مدخراً لدينا كمية كبيرة منها ولكني رأيت من الانفع ادخاراً كثر مما عندنا . وأرسل الىّ الشيخ عفيفي يقول ان قبيلته قد ثارت وانضمت الى الرزيقات ولكنه هو لا يريد ان ينكث بعهده ولذلك قد ترك أسرته وعشيرته وقصد الىّ عن طريق حلبة وانه أرسل أخاه على برسالة الى بشارى بك واد بكير رئيس قبيلة بنى حلبة حيث أقسم له بان يمر فى بلاده آمنا وانه لذلك يأمل الوصول الىّ فى بضعة أيام

وبينما انا في انتظاره واذا باخبار سيئة تقول انه قتل . وقد فقدت فيه اكثر العرب ولاءلى . وتبين بعد ذلك ان بنى حلبة الذين أمرهم رئيس قبيلتهم بان يجيزوه أرادوا أن يأخذوا منه أغنامه وثيرانه فرفض فقاتلوه فاظهر بأساً عظيما ولكن كمن له بعض العرب وراء الاشجار واغتالوه بحرابهم بينما كان يطارد العرب الذين هزمهم مرتين .

ورجع الىّ محمد واد عاصي الذي كنت أرسلته مع خالد واد امام الى كردوفان واخبرني بالحالة هنالك . وقد بشرني بان الحكومة فى الخرطوم تهيء جيشا للاستيلاء ثانية على كردوفان ولكن لا بد من مضي وقت طويل قبل ان تهيأ التجريدة وتشرع فى السفر

فأخبرته باذاعة هذه الاخبار فى كل مكان ثم سألته عن علاقة زوجال بالمهدى . فأجابنى بأنه على الرغم من ابحاثه لم يتحقق على وجه التأكيد هل تجرى بينهما مكاتبات ولكنه لا يشك فى أن المهدى يرسل رسله الى زوجال فيخبرونه شفوياً بما يرغب . وهؤلاء الرسل هم التجار الجائلون . وقد وافقنى على رأيي من بأن زوجال لمركزه وتربيته يعرف بواعث هذه الثورة ولذلك ليس من المرجح أن يشترك مع الثائرين

ولا شك فى أن تسليم الابيض قد أضعف مركزنا وكان علينا أن نعمل بحذر وحيطة مادامت مديرية كردوفان كلها قد صارت فى يد المهدى . وكنت

أرجح ان أخبار واد عاصى عن استعداد الحكومة فى الخرطوم لارسال حملة للمهدى سيجعل المهدى يحتفظ بقواته ويجمع جيشه فى مكان واحد للمقاومة وعلى ذلك ليس من المحتمل أن يوجه جيشه الينا . ورأيت أن أرصد كل وقتى للقبائل العربية التى هيجها سقوط الابيض ومنشورات التعصب وكان يخشي منها أن تتمادى فى هياجها وترتكب أى شطط . ولم يكن من المنتظر أن يتم تهيئة التجريدة الخاصة بكردوفان قبل الشتاء فكان علينا أن نثبت ونقاوم بأية وسيلة حتى هذا الفصل

وعلى الرغم من اقامة مراكز حربية فى فافا وفى وده فان عرب الحوابير تجمعوا في أم الاوادى وانضم اليهم بعض رجال الميا الذين غاظهم انقطاع المواصلات الى بلادهم وحمسهم سقوط الابيض وكانوا يثيرون الهياج والفتن فى جميع البلاد بين داره والفاشر ولم تقو حامية فافا على مهاجمتهم . فعزمت لذلك على غزوهم لكي أريهم أن سقوط الابيض لم يثبطنا وانتقيت ٢٥٠ جنديا قديما مدربا علي الحروب ثم دربتهم بضعة أيام على قتال السنجة وأخفيت يوم شروعى فى السفر عن كل أحد

ثم أخذت جميع الخيول وكانت تبلغ نحو السبعين وأشرت على واد عاصى بأن يقفنا على اخبار داره ثم خرجنا وأسرعنا فى المسير فلم يمض يومان حتى بلغنا جوار بير أم الوادى حيث قد اجتمع عرب الميا والحوابير . ولم يكن معنا سوى أسلحتنا وذخيرتنا ولم نحمل ميرة لان نيتنا كانت الهجوم ثم الرجوع . وفي اللحظة التى ظهر فيها العدو أمرت رجالى بتثبيت السنجة . وقاتلنا البازنجر وبعد عشرين دقيقة نجحنا فى تفريقهم ودخل بعض عرب الميا فى صفوفنا فقتلوا كلهم بحراب البنادق (السنجة) ثم امرت الفرسان بان يطاردوهم وأمرت الجنود النظاميين بان يسيروا وراء الفرسان ليبحثوا عن مكان البطيخ لان الفارين سيقصدونه بالطبع لكي يقصعوا عطشهم وقد نفذت هذه الاوامر وقطعنا البطيخ وقبضنا على عدد من النساء والاطفال . وتفرق الرجال في كل مكان يبحثون عن الماء ومات كثير منهم عطشا . وفى اليوم التالى أحرقنا خيام العدو وأخذنا النساء والاطفال الى بير أم الوادى التي اعتزمنا الهجوم عليها الآن . فدافع العدو دفاع اليأس عنها وخسرنا ١٦ رجلا قتلوا و ٢٠

جرحوا . وادركت من هذه الخسارة ان الجنود النظاميين عندي قد قلوا جداً في حين ان العدو يزداد حتى بعد هزيمته

ولما كنت الاوربي الوحيد في بلاد غريبة وكان السكان حولي يدسون لي ويكرهونني فاني كنت ألجأ الى وسائل عديدة لكي أعرف المؤامرات والترسيمات التي تدبر حولي . وكنت احياناً بواسطة النقود او الهدايا التي أرسلها سراً أعرف ما سيحدث لي قبل حدوثه واحتاط له

وكنت بواسطة الخدم استغل البغايا اللواتي كن يصنعن المريسة أي الجعة الوطنية وكان يشربها عندهن رجال الطبقات الدنيا . وكان الخدم يخبرونني بان رجالنا وهم يتعببون هذه الخمر ويسكرون يتكلمون عن ثورة المهدي الذي لم يكونوا يعطفون عليه . ولكنهم كانوا يقولون ان الحكومة قد عينت في المراكز العليا ناساً من النصارى لمحاربة المهدي ولذلك فالنتيجة يجب ان تكون سيئة . ومما قالوه انهم وان كانوا يحبونني الا انهم يعزون ما أصابنا من الخسارة وما قاسيناه من الآلام الى اني مسيحي . وكنت متحققاً بان هذه الآراء ليست من ثمار ذهن الزنوج الذين لايبالون بالدين وانما هي من ذهن أولئك الجنود الذين يكرهونني ويشتهون إزالة سلطتي وبث روح العصيان بين رجالي

وعند قيامي من بير أم الوادي جاءتني أخبار سيئة أيضا . فقد أخبرني الخدم بان بعض الجنود الذين يذهبون الى حانة البغي التي كنت ارشوها لكي تخبرنا بكل ما يدور في حانتها قد ائتمروا على ترك الجيش . وعلمت بعد البحث ان الداعين الى ترك الجيش هم بعض من رجال قبيلة الفور وصفوف ضباطهم فانهم على قولهم قد سئموا هذا القتال وقد تحققوا أن أيام الاتراك قد باتت معدودة في السودان وانهم ينوون ترك جيشنا والذهاب الى جبل مرة للانضمام الى سلطان دودبنجه خليفة سلطان هرون . ولما كان أكثر رجالي من قبيلة الفور فاني شعرت بخطورة الحالة وأرسلت في الحال الى البكباشي محمد افندي فرج وأخبرته بما سمعت . فدهش وأكد لي أنه لم يسمع شيئاً قط عن هذا الموضوع وانه لن يهمل في الاستقصاء ومعرفة الجناة ومعاقبتهم . فأمرته بان يلتزم التكتم وألا يفعل شيئاً يلقي بينهم الشك والتوجس .

وأرسلت وهو معي الى خادمي وأعطيت له صرة بها نقود وأمرته بان يذهب بها الى البغي ويعطيها لها ويطلب منها ان تدعو هؤلاء الرجال الى منزلها وتسقيهم على حسابها ما شاءوا . وفي الوقت نفسه طلبت منها ان تخفي الخادم بحيث يسمع ما يدور من الحديث بين الجنود وأخبرتها بانها اذا نفذت هذه الاوامر فاني أكافئها مكافأة سنية . وعاد خادمي بعد قليل وأخبرني بان كل شيء قد رتب على ما نهوى

وفي اليوم التالي أرسلت للبكباشي وأعطيته أسماء ستة من الزعماء وأمرته بالقبض عليهم وزيادة على ذلك أعطيته أيضاً التفاصيل الخاصة بفرارهم من الجيش وتاريخ ذلك

وبعد نصف ساعة عاد ومعه الستة المقبوض عليهم وهم مقيدون من خلف وكانوا كلهم من الفور . وكان وراءهم عدد من القواصين والنظارة فطردتهم ثم سألت هؤلاء الستة امام ضابطهم عن سبب خروجهم على الحكومة . فأنكروا انكاراً باتا وجود هذه النية عندهم وانهم براء من كل ما نسب اليهم . فقلت لهم : « ولكني أعرف انكم عقدتم جملة اجتماعات في منزل خديجة . وقد أبحت لكم كل فرصة لكي تتعقلوا ولكنكم أبيتم الا الطغيان فأمس كنتم عندها تشربون المريسة واتفقتم على ان تنفذوا تدبيركم اليوم . وكان غرضكم ان تضموا اليكم الجنود وتخرجوا باسلحتكم من الباب الغربي للقلعة وبعد ذلك تذهبون الى السلطان عبدالله وكنتم تنوون انفاذ خطتكم بالقوة . ألم تقل أنت يامحمد انه لديك منا رجل يطيعونك ويعملون ماتشير به عليهم ؟ ألاترون اني أعرف كل شيء ؟ فما فائدة الانكار ؟ »

وسمعوا كلامي وهم سكوت وعرفوا انهم قد أفشي تدبيرهم فاعترفوا بكل صراحة وطلبوا الصفح والمغفرة . فقلت لهم : « ليس هذا في يدي الآن . اذهبوا الى ضابطكم واعترفوا له بكل شيء امام سائر الضباط والفصل بعد ذلك للقانون »

ثم أمرت الضابط بتأليف محكمة عسكرية وأن يجعل جميع صفوف الضباط يشهدون المحاكمة ولكني أفهمته بأن يجعل المحاكمة مقصورة على المقبوض عليهم وذلك حتى لا يفر سائر الجنود المشتركين في المؤامرة . وفي عصر اليوم نفسه تسلمت محضر التحقيق والاعترافات ولكن لم يكن قد حكم بعد عليهم . فرددت الاوراق وطلبت النطق بالحكم فجاءني ضابطهم وأخبرني بأن المحكمة حكمت بضربهم بالرصاص

ولكنها تطلب تخفيف الحكم ولكني شعرت بضرورة التنكيل بهم حتى يتعظ بهم غيرهم فأيدت الحكم وأنا في أشد الالم والجزع وطلبت تنفيذه فى الحال

ثم أخرجنا المحكوم عليهم وحفرنا ست حفر ووقفنا كلا منهم على حفرة خارج الزريبة وركع كل منهم ركعتين ثم ضربوا بالرصاص ولم يبدوا أقل خوف . وخطبت الجنود الحاضرين عن خطر المؤامرات وان كل من يحدث نفسه بالثورة والفتنة سيعاقب مثل هذاالعقاب وقلت لهم اني أؤمل ان تكون هذهالمأساة الاولى والاخيرة من نوعها وأن تكون علاقتنا في المستقبل علاقة الصداقة

وكنت حزينا مغيظا لهذا الحادث فقد تذكرت العدد الكبير الذي فقدناه فى المعارك الماضية والآن اضطر أنا الى اتخاذ أقسي الاحتياطات لحفظ النظام . وكان الدساسون حولى يعملون جهدهم لاضعاف سلطتى وهم يجهلون انهم لو نجحوا في ذلك لما تحسنت حالهم والحقيقة انه جاءهم زمن بعد ذلك كانوا يتحسرون فيه على عصيانهم أوامر ذلك الاوروبى الذي يكرهونه الآن

وأرسلت فى ذلك المساء فى طلب محمد افندى فرج وسألته عن ما جريات النهار وماذا كان وقع ضرب الجنود بالرصاص فى سائر الجيش . وأضفت الى ذلك انه يجب ان يعرف الجنود عدالة الحكم وان الجانين يستحقونه واننا استعملنا الرأفة مع سائر من اشتركوا فى المؤامرة ثم قلت : والآن يا فرج افندى انى أرغب فى ان تكون صريحا مخلصاً لى . وأنا أعرف انك تميل الىّ وتطيعنى ولولا ذلك لما طلبت ان أخاطبك وحدك هنا . فاخبرني الآن كيف ينظر الىّ الجنود والضباط؟ وهل يحبوننى أو يكرهوننى ؟ ولست بالطبع أقصد اولئك الذين يبحثون عن مصالحهم الشخصية»

فقال فرج افندى: « ان رجالنا لم يتعودوا هذه الصرامة فى الاحكام ولكنهم مع ذلك متعلقون بك لانك مواظب على دفع المرتبات فى مواعيدها وهذا شيء لم يألفوه قبل . ثم هم يعرفون لك صنيعك في توزيع الغنائم بينهم . ولكننا خسرنا هذا العام خسارات فادحة ولذلك سئم رجالنا القتال »

فقلت : « ولكننا مضطرون الى القتال . فنحن لا نخرج للفتح او للمجد الحربي وأنا شخصيا أوثر الراحة والدعة »

فقال فرج افندى : « اني أفهم هذا بالطبع ولكن هذه الخسائر التى كان يمكن تجنبها قد أثرت فى الجنود . فقد فقد أحدهم أبا وآخر أخاه وآخرون فقدوا بعض قرابتهم او بعض أصدقائهم . واذا استمر هذا فان القتال يشق عليهم »

فقلت : « وأنا أيضا أدرك ذلك وان كنت لم أفقد أبا او أخا فاني فقدت أصدقاء . ثم اني أخاطر بحياتي العزيزة كما يخاطر الجنود بحياتهم . فانا على الدوام معهم وجسمي عرضة للرصاص او للحراب مثل أجسامهم »

فقال : « انهم يعرفون ذلك تمام المعرفة و يجب عليك ان تشكرهم لاطاعتهم رجلا أجنبيا يخاطرون بحياتهم معه »

فقلت : « حقا اني أجنبي أوربي . وليس هذا سراً مكتوماً ولا أنا أتعير منه فهل رجالنا مستاؤن من ذلك ؟ أصدقني »

وكان محمد فرج من أحسن الضباط تربية . وقد درس فى عدة مدارس فى القاهرة ولكنه دخل الجيش جنديا بسيطا . وكان يعرف في غيره الميزات التى يمتاز بها وكان على الدوام مستعداً لان يتعلم من أولئك الذين حصلوا على تربية أعلى من تربيته . ولم يكن متعصبا او متدينا ولكنه كان حاد المزاج كثير التذمر . وكان تذمره وحدته جماع ما عنده من الصفات السيئة وقد قادته الى ارتكاب بعض الجرائم فنفى من أجلها الى السودان

فلما طلبت منه ان يصدقني رفع رأسه ونظر اليّ وقال : « ترغب منى فى ان أخبرك الحقيقة . فها كها . انهم لايعترضون عليك لانك أوربي بل لانك غير مسلم »

والآن عرفت منه ما أردت معرفته . فقلت له : « ولم يعترضون على ديانتى ؟ لقد مضيت السنين الطوال فى دارفور وهم يعرفون اني مسيحى فما اعترض أحد عليَّ »

فقال : « تلك أيام أخرى تختلف عن أيامنا الآن . فان هذا الوغد المدعو المهدى قد تستر بالدين وله أنصار يحضون الناس على اتباعه لكي يبلغوا أغراضهم السافلة وقد انتشر بين جنودنا رأي لا أعرف من أول من أذاعه مقتضاه ان هذه الحرب دينية وانك لن تربح معركة فيها وان الهزائم ستتوالى عليك حتى تقتل في النهاية . وانت تعرف ان الجنود الجهلة يصدقون هذه الاقوال وهم يعللون هزائمهم

بانك مسيحي . ورجالنا لايدركون ان خسائرنا ناشئة عن تفوق العدو علينا في عدد الرجال وانا ما دمنا لا نؤمل في مجيء امداد فاننا سنستمر على الهزيمة »

فقلت له : « هبني صرت مسلما فهل رجالنا يصدقون اسلامي ويؤملون في النصر وهل هذا يزيد ثقتهم في ؟؟ »

فقال لي : « يصدقونك بلا شك او على الاقل كثرتهم تصدقك. ألم تتحين كل فرصة لاظهار احترامك لديانتنا وأجبرت غيرك على احترامها ؟ تأكد انهم سيثقون بك . ولكن هل تغير دينك عن عقيدة ؟ » قال هذا وهو يبتسم

فقلت له : « اسمع يامحمد افندي . انت رجل ذكي قد حصلت على تربية وتعرف ان العقيدة لا شأن لها فيما نحن فيه الآن . وفي هذه الدنيا يحتاج الانسان الى أن يعمل أعمالا تخالف عقيدته اما اضطراراً واما لسبب آخر . وحسبي ان يصدقني الجنود ويثقوا بي ويقلعوا عن خرافاتهم السخيفة . ولست أبالي بتصديق سائر الناس وأنا أشكرك الآن شكرا جزيلا وأطلب منك الا تجعل هذا الحديث يخرج من فيك لاحد »

وتركني محمد افندي فرج فتأملت وترويت قليلا في الموضوع ثم استقر رأيي على ان أظهر في اليوم التالي أمام الجيش كأني مسلم . وكنت على تمام المعرفة بأني في اتخاذي هذا الموقف سيلومني البعض . ومع ذلك قد عزمت على امضاء نيتي لكي أقطع على الدساسين حبل دسائسهم وتتاح لي الفرصة لان احتفظ بالمديرية التي عهدتها الي الحكومة المصرية . وكنت في شبابي لا أبالي كثيراً بالدين ولكني كنت أعتقد اني بالتربية والعقيدة مسيحي مؤمن بالمسيحية وان كنت أميل الى التسامح والي ان يختار كل انسان طريقة الصلاح التي يشتهيها . ولم يكن ذهابي الي السودان بصفتي مرسلا مسيحياً وانما كانت المهمة التي أعرفها ومن أجلها ذهبت اني موظف في خدمة الحكومة المصرية

وعند طلوع الشمس أمرت بعرض الجيش وانتظاري ثم ارسلت الى زوجال لكي يبعث الى القاضي احمد واد بشير وأيضاً التاجر المعروف محمد احمد . فلما حضرا حادثتهما في الشئون العامة ثم طلبت منهما ان يحضرا العرض معي داخل القلعة . ثم

اتخذت القيادة فى العرض وأمرت الجنود بان يصطفوا فى هيئة مربع ثم امتطيت جوادى ودخلت داخل المربع ومعي الضباط والموظفون ثم قلت :

« أيها الجنود . لقد كابدنا المشاق العديدة معا ونزلت بنا الكوارث الفادحة . وما الكوارث الامحك الرجال . ولقد جاهدتم وقاتلتم ببسالة الابطال وليس عندى شك في انكم ستداومون على ذلك . فاننا نقاتل من أجل مولانا الخديو حاكم البلاد ومن أجل أنفسنا أيضا . ولقد اشتركت معكم في الافراح والاتراح . وعند ما كان يلوح الخطر كنت على الدوام معكم لا أخيم فى اللقاء . وإني وان كنت رئيساً فحياتي ليست أغلى من حياتكم »

فصاح معظمهم : « الله يخليك »

فاستأنفت قولى « وقد سمعت ان البعض يعدني أجنبياً غير مؤمن بالاسلام . ولكنى اقول لكم إنى مؤمن كما انتم مؤمنون . اشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله »

وعندما نطقت بهذه الشهادة رفع الجنود بنادقهم ثم هزوا رماحهم وصاحوا بالتهنئة وتقدم الضباط والموظفون لتهنئتى بالاسلام . ولما عاد النظام قلت اني سأصلي معهم ثم أمرت فرج افندى باعادة الصفوف ثم صرف الجنود

ولما انتهي كل شيء دعوت زوجال بك والضباط لكي يشربوا القهوة ويتناولوا الغذاء معى . وودعنى الجميع وهم يؤكدون لى فرحهم وطاعتهم وأمانتهم . ولما غادروني أمرت فرج افندى بان يشترى عشرين ثورا وان يوزعها بين رجالنا « كرامة » وان يعطي لكل ضابط ثوراً ودفعت أنا ثمن هذه الثيران

وكان الاثر الذى أحدثه عملى في رجالنا أكبر مما انتظرت فلم أعد أرى منهم ذلك الاكراه الذى كنت أراه منهم عندما أطلب منهم الخروج في التجريدات وان كان عدونا يزداد كل يوم فى العدد والقوة

وكان التجار الذين كنت أدفع لهم نقودا لكي يرسلوا الىّ الاخبار قد أخبرونى بان الجيوش ترسل من القاهرة الى الخرطوم وان الحكومة تتهيأ بسرعة لارسال

تجريدة بقيادة ضباط أوربيين لاسترجاع كردوفان . اما الاهالى فقد انضموا جميعا بلا استثناء الى المهدى وكانوا مصممين على المقاومة

وكانت جميع القبائل فى جنوبي دارفور قد ثارت ولكن الجزء الشمالى بالنسبة لمراكزنا الحربية وبالنسبة لاتصال قبائله بمصر واستفادتهم من القوافل الصادرة عن مصر اليهم لم تكن قد بدت فيه بعد أمارة للثورة . ولم نجمع بالطبع أية ضرائب منذ وقت طويل ولذلك كنا ندفع مرتبات جنودنا من المال الاحتياطى

وبدأت انتصارات المهدى المتوالية تظهر آثرها فى زوجال بك ولاحظت تغيرا فى سلوكه وان كان على الدوام يراعى اظهار الولاء والطاعة . وقد وضح لى انه فى قلبه يحب الفوز للمهدي ابن عمه لانه كان يعرف انه فى مثل هذه الحالة سيعود فوز المهدى عليه با كبر المنافع . وكان محبوبا لدي مرءوسيه وكان بالنسبة الى أهالى السودان يعتبر حاصلا علي قسط من التربية والتعليم وكان يخدم الناس ما دامت هذه الخدمة لا تمس جيبه وكان يشاع عنه انه سخي وكان ثريا له منزل كبير ومائدة مبسوطة وأظن ان سبب حب مرؤوسيه له انه كان يغتفر لهم ذنوبهم ويسمح لهم بملء جيوبهم بطرق خفية غير مشروعة . وقد توصل أ كثر قرابته بواسطة نفوذه الى الحصول على مناصب حسنة وصاروا بذلك أثرياء . وعلى ذلك رأيتني مضطراً الى ان احتاط له . فان حب الجمهور له وموافقته على آرائي واطاعته أوامري جعلتني ا كره وجود شقاق صريح بيني وبينه . ومثل هذا الشقاق لو حدث كان يؤدى الى نقض سلطتى . وعلى ذلك اضطررت وقتيا الى ان أتركه وشأنه . والمثل السوداني يقول : « ابعد النار عن القطن وانت ترتاح » وكان هذا المثل ينطبق على حالتنا ولذلك لزمته

ثم طلبت فرج افندى وواد عاصى وقاضي البشير وكانوا كلهم يوالون الحكومة ويرجون بقلوبهم نجاحها فافضيت اليهم بالخطة التى انتويتها فاجمعوا على الموافقة . ولما خرجوا استدعيت زوجال بك وقلت له :

« اسمع يازوجال · انت معى هنا ولا يشهدنا نحن الاثنين الا الله . فابن عمك المهدى قد فتح كردوفان وقد سقطت الابيض وانضم اليه جميع الاهالى . والبلاد التى بيننا وبين حكومتنا واقعة تحت يديه . وقد مال قلبك اليه عند مارأيت نجاحه

فهل نسيت كل ماصنعته لك الحكومة ؟ وهل نسيت الوسام والرتبة اللذين منحكهما الخديو بوساطة حكومة السودان وهل يمكنك أن تنسي واجباتك المكلف بها بحكم منصبك »

فقال زوجال : « ان المهدي ابن عمي ولا يمكنني ان انكر ان قرابته لي تجعلني أميل اليه . ولكني مع ذلك قد قمت في الماضي بجميع واجباتي واؤمل ان أقوم بها أيضا في المستقبل »

فقلت : « لقد قمت بواجباتك على وجه العموم ولكنك علي اتصال مع المهدي فلمَ تنكر ذلك عني ؟ »

فاجابني زوجال بسرعة : « اني غير متصل به مباشرة ولكن التجار الذين يفدون علينا من كردوفان ينقلون اليّ رسائل شفوية منه وقد اقسمت لحملة هذه الرسائل الا اخبرك وهذا هو السبب في كتماني أمر هذه الرسائل ولكني أؤكد لك انه ليس فيها سوي اخبار عن كردوفان وانه لم يحاول ان يجعلني انضوي الى لوائه »

فقلت له : « ليكن الامر كما قلت . فاني لا اطلب منك ان تبرر نفسك ولكن أخبرني ماذا سمعت عن تلك التجريدة التي تهيؤها الحكومة لاسترجاع كردوفان ؟ »

فقال : « سمعت أن جيشا عظيما وصل الى الخرطوم وانهم سيحاولون به فتح كردوفان »

فقلت له : « لن يحاولوا ذلك فقط بل هم سينجحون في فتح كردوفان . وانت يازوجال رجل تفهم وتعرف اني اذا اضطررت بالظروف فانه يمكنني ان أمنع أذاك ولكني لا أظن انه من الحكمة ان افعل ذلك الآن . دع عنك انه مما يؤلمني ان اتخذ اجراءات ضدك فقد خدمت الحكومة بولاء مدة طويلة كما انك صادقتني مدة طويلة ولذلك فانا مستغن عنك الآن ويمكنك أن تذهب الى كردوفان . فان الحركات الدينية يكون لها لمعة ورونق على بعد فيعطف عليها الانسان ولكن عند الاحتكاك بها تظهر حقيقتها فتذهب عنها جاذبيتها وتزول منها روعتها . وسأكلفك بحمل رسائل الى الخرطوم سراً وسيكون مضمون هذه الرسائل شرح المهمة التي أرسلك في شأنها .

وبما أن التجريدة ستشرع فى السفر الى كردوفان فى الشهر الآتى فانا اطلب منك ان تجهد جهدك فى منع المهدى من إرسال تجريدة الى دارفور أو تحريض الناس على الثورة . فاذا فعلت ذلك فان الفائدة تعود عليك وعليه . واذا نجحت التجريدة فانا أتحمل كل التبعات التى تقع عليك فليس هناك ما تخشاه . ولكن اذا نجح المهدى — لا قدر الله — فهناك يقطع ما بيننا وبين الحكومة فلا يمكن تخليصنا والمرجح وقتئذ اننا نخضع للمهدى وفى هذه الحالة يتسلم البلاد وهي فى حال حسنة . ولكي اضمن ولاءك وقيامك بهذه المهمة خير قيام سأحتفظ بزوجاتك وأولادك هنا فى القلعة وسيحسب المهدى حسابا لهذا العمل ولا يعرض اهلك للخطر »

فقال زوجال : « سأنفذ تعليماتك واثبت لك اخلاصى . وهل تريدان تكتب خطابا للمهدي ؟ »

فقلت : « كلا لا أريد ان يكون بينى وبينه أية معاملة . وأنا عارف تماما بانك ستتلو عليه حديثنا هذا . وابن عمك رجل ماكر وسيستغل ذهابك اليه بقدر امكانه ولكن مادمت تفي بوعدك لى فانى أعني كل العناية بأسرتك . ومع اننا قد استغنينا عنك اسمياً فاننا سنستمر على دفع مرتبك بالكامل . اما اذا لم تف بوعدك فان ضماننا لا يستمر واود منك ان تشرع فى السفر باسرع ما يمكنك ويكفيك ثلاثة ايام تستعد فيها »

فقال زوجال : « اني أوثر البقاء مع أهلي ولكن بما انك تريد مني تأدية هذه المهمة كي تمتحن اخلاصي فانا أقوم بها وملء قلبي الحزن »

ثم أرسلت فى طلب فرج افندى وواد عاصى والقاضى وأخبرتهم بحضور زوجال بالمهمة التي كلفته بها . فبدا عليهم شيء كثير من الانفعال والدهشة وطلبوا من زوجال ان يقسم يمينا بالولاء فاقسم بالقرآن وبالطلاق بان يلزم الاتفاق الذى بيننا

فكتبت الخطابات الى الحكومة ووصفت الحالة فى دارفور وبعد ثلاثة أيام خرج زوجال فى رحلته ومعه ثلاثة من الخدم قاصدا الابيض عن طريق طويشه . وكان معروفا في كل مكان انه من قرابة المهدى فلم يكن لذلك يخشي أحداً وعلمت بعد ذلك انه قوبل في كل مكان بحفاوة واكرام

وأخذت على عاتقي الآن أن أركز مدافع جديدة في زوايا القلعة وجمعت كل ما أمكنني جمعه من القمح . ولكن هذه المدة القصيرة من السكينة لم تدم طويلا فقد حرض الشيخ الطاهر الدجوى زوج ابنته بشارى بك واد بكير على الغارة على داره. وكان بشاري بك رئيس قبيلة بني حلبة فارسلت له خطابا أهدده فيه ولكنه أغار على عرب المصرية وقتل منهم عدداً وأسر نساء وأطفالا . فعبأت ٢٥٠ من الجنود النظاميين و١٠٠ من البازنجر وسلمت قيادتهم الى مطر أحد قرابة زوجال ولم استطع أن اجمع من الخيول سوى ٢٥ فرساً لان مرضاً غريباً انتشر بينها وبهذه القوة خرجت قاصداً داره

وبعد مسير ثلاثة أيام بلغنا أمكة حيث أغار علينا بنو حلبة بقيادة بشير بك وكان معهم صديقي القديم جبر الله . ولكن لم يكن معهم من الآلات النارية الا عدد قليل ولذلك فرقناهم بسهولة . وفي اليوم التالي عاودوا الغارة في كامباسى وهي على مسيرة يوم ونصف من أمكة وهنا أيضاً اضطررناهم الى الفرار بسهولة ؟ »

وقد عزا رجالنا قلة خسائرنا الى صلاتي يوم الجمعة معهم لا الى قلة البنادق عند العدو ثم سرنا الى خشبة واخرجنا شيخها وعرضنا عليه صلحا ولكنه رفض . ثم سرنا الى جورو على مسيرة نصف يوم . وبينما نحن في الطريق كانت تتقدمنا طليعة مؤلفة من ١٢ فارسا . فاغار عليهم بشارى بك وحده واخترق صفهم وجرح أحدهم جرحا بسيطا ثم ثني جواده هو بين الطليعة وبيننا على حدود الغابة وعلى بعد ٨٠٠ ياردة تقريباً منا

ثم تقدمت نحوه ثلثمائة خطوة فعرفته ولكني لم أرمه وأرسلت اليه خادما أعزل لكي يقول له : « ان الحاكم يقدم لك تحيته ويخبرك بانك اذا كنت ترغب في ان تظهر بسالتك لزوجتك فليست هذه هي الطريقة لاظهار ذلك . وانك اذا عدت الى مثل مافعلت فانك لابد مقتول »

وكانت الطريق بيننا وبينه خالية إلا من بعض الاشجار هنا وهناك ورأيت الخادم يذهب اليه ويقف أمامه بضع ثوان ثم عاد الينا مسرعا وقال : « ان بشارى بك يقدم لك تحيته وهو يقول انه لا يرغب في الحياة بل يشتهي الموت »

يا لغفلة الرجل . لقد وجد ما اشتهاه

ولما بلغنا جورو صنعنا زريبة وكنت متأكداً بأن بشارى بك سيتهور ويغير علينا ولذلك أمرت الجنود بأن يخرجوا من الزريبة نحو ثلثمائة خطوة ووضعت الخيالة على الجانبين وأرسلت عشرين فارساً الى الغابة لكي يفتر العرب بهم ويخرجوا اليهم وما كاد هؤلاء العشرون يخرجون في مهمتهم هذه حتى رأينا عربيين راكبين قد ركضا فرسيهما اليهم وفي يد كل منهما حربة قد أشرعها . وكان هذان الرجلان بشارى بك وخادمه . وقبل ان يبلغ رجالنا عثر فرسه ووقع وبينما كان خادمه يساعده على النهوض والركوب أغار عليه رجالنا ورموه بمطرد فى وجهه نفذ فى عينه فكبه . أما خادمه فقد أصيب بحربة نفذت في ظهره وقناته . وركضت فرسي انا اليه فوجدته فى النزع فان رجالنا طعنوه بعد وقوعه مرتين بالحراب . وهجم علينا ابنه لكي يخلصه فجرح ولكنه نجا بنفسه وقد كان معه شيخان وهما شرطيه حبيب الله والتوم قتلا كلاهما . فقبضنا على خيولهم جميعاً ثم هتفت بالجنود فحضروا الينا فأركبت وراء كل خيال واحداً من المشاة وطلبت منهم ان يطاردوا العدو لاعتقادى انهم لن يثبتوا للقتال بعد موت قادتهم

وركضنا خيولنا نحو ميلين فوجدنا العرب وهم في فرارهم فأمرت الجنود بالنزول عن الخيول واطلاق النار عليهم ثم حولت الخيالة الى بنى حلبة . ولم نشفق على أحد فى هذا القتال لان رجالنا كانوا مصرين على الانتقام للشيخ عفيفي الذى قتل قريبا من هذا المكان

وبعد ساعات قليلة تم تشتيت العدو فعدنا الى الزريبة . ونحن فى طريقنا وجدنا جثة بشارى بك فطلب منى الضباط أن يقطعوا رأسه لكي يرسلوه الى داره ولكنى احتراما لابن أخته الذى طلب الصلح بالامس كففتهم عن هذا العمل وأعطيته الجثة فى كفن من القماش وحضرت انا بنفسى حفلة دفن هذا الصديق القديم الذى صار عدونا على الرغم منه واشتهي الموت فوجده

وفى هذا القتال قتل منا رجلان وجرح عدد آخر وكان بين هؤلاء سلامة الذى حمل خطابى وأنا فى أم ورقه الى داره وكان على الدوام فى مقدمة المغيرين

ثم عـدنا الى جورو . وكنت قد أصبت بدودة غينيا فى كلتا سـاقي فلم أكن أستطيع البقاء على السرج لشدة ما كان بي من الالم . ولم تكن ثم فائدة من البقاء بعد أن سحقنا بنى حلبة فعدنا الي داره

الفصل الثامن

حملة هكس باشا

بعد أن سقطت الابيض في يد المهدي أخذ يلتفت الى زيادة قوته . وكان أنصاره على ضفتي النيل يوافونه بكل ما يجد من الاخبار فكان يعرف أن عبد القادر قد طلب امداداً من القاهرة . وكان يعرف أن هذه الامداد قد وصلت وان الحكومة عازمة على استرجاع المديريات التى خرجت من يدها . وكان هذا هو سبب الحاحه فى الدعوة الى الجهاد وكان يذكر أتباعه بأن الحرب توشك أن تشب وانهم منصورون فيها

وكان جيجلر باشا قد نجح فى دويم في نوفمبر سنة ١٨٨٢ كما نجح أيضا عبد القادر باشا فى معتوق فى يناير سنة ١٨٨٣ وأحرز كلاهما النصر . ولكن المهدى لم يكن يبالى بهذه الهزائم وانما كان همه منصرفا الى تلك التجريدة التى كانت تهيئها الحكومة في الخرطوم بقيادة ضباط اوربيين الكي ترسل الى كردوفان . ولذلك سارع الى نشر المنشورات يدعو فيها القبائل الى ترك بلادهم والانضمام اليه . وعند ما كانت تجتمع هذه الجموع العديدة عنده كان يعظهم بحماسة ويحضهم على الزهد فى هذه الدنيا والاهتمام بالآخرة وكان يقول : « أنا أخرب الدنيا وأعمر الآخرة »

وكان يعد الانصار والمطيعين له بملذات النعيم التى لا يمكن عقلا ان يصفها وينذر المخالفين بعقاب الجحيم . وكانت تذاع المنشورات فى هـذا المعنى فى كل مكان وكان يبعث للامراء يطلب منهم ألا يبقوا احداً في خدمتهـم سوي اولئك الذين يحتاجون اليهم فى الزراعة . وأما من كانوا فى غني عنهم فعليهم ان يرسلوهم اليه لينضموا الى لوائه

وكان الاولاد والنساء والرجال يهرعون الي الابيض لكي يروا هذا الولىّ ويسمعوا ولو كلمة واحدة من وعظه . وكان الجهلة يرون فى وجهه مايدل على الوحي وانه الرسول الحق من عند الله

وكان يلبس الجبة والسروالين ويتحزم عليهما بحزام من قش ويضع على رأسه طاقية يتعمم عليها ثم يقف خاشعا أمام أنصاره ويحضهم على حب الله والزهد فى هذه الدنيا . فاذا دخل بيته تغير كل هـذا اذ كان يعيش فى ترف ونعيم بحيث تسترقه شهوة الطعام والنساء فينغمس فيهما انغماس سائر السودانيين . وكانت النساء أو الفتيات اللواتي يؤسرن يحضرن أمامه فيختار أجملهن ويضمهن الى حريمه . أما اللواتى كن يجدن الطهي فكن يرسلن الى مطبخه

وبعد سقوط الابيض أخذ يفكر فى تعيين الخليفة الرابع وقر رأيه على أن يعين محمد السنوسي وهو أكبر شيخ دينى فى شمالى أفريقا لهذا المنصب . فأرسل طاهر واد اسحق برسالة الى السنوسى لهذا الغرض . ولكن السنوسى نظر بازدراء الى الرسول ولم يكلف نفسه مشقة الاجابة

وشرع المهدى في تنظيم حكومته . وكانت ادارته غاية فى البساطة . فأسس أولا بيت المال ووضع فى رياسته صديقه الامين احمد واد سليمان وكان يجبي الى بيت المال هذا جميع العشور والفطرة والزكاة المأخوذة على جميع الغنائم أو الاملاك التى استصفيت من أصحابها والغرامات التى تفرض فى السرقات وشرب الخمور والتدخين . ولم يكن هناك نظام لايرادات الحكومة ومصروفاتها . ولذلك كان احمد واد سليمان حراً في الاعطاء والمنع لمن يشاء

وكان القضاء فى يد القاضى الذى أطلق عليه المهدى اسم « قاضى الاسلام » وكان له مساعدون . وكان أول من حصل على هذا المركز احمد واد على الذى كان قاضياً تحت إدارتى في شقة وكان بعد الثورة فى مقدمة المغيرين على الابيض . وكان المهدى وخلفاؤه يحفظون لانفسهم حق معاقبة أى مجرم وخاصـة ذلك الذى يشك فى مهدوية المهـدي . وكان الموت عقاب المجـرم فى هذه الحالة . ولما كانت هذه العقوبات تخالف الشريعة فان المهـدى منع درس الفقه وأمر بتحريق جميع هـذه

الكتب ولم يكن يسمح بقراءة شيء غير القرآن . ولكنه مع ذلك لم يكن يأذن لاحد بشرحه علنا

وكانت المواصلات بين المهدى وسكان الجزيرة الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أنصاره الخاصين لا تنقطع . وعرف منهم أخباراً عن سفر عبد القادر الى كاوه وسنار ومعه قوة كبيرة وكانت هذه المدينة قد حاصرها احمد الكاشف ولكن عبد القادر باشا هزمه فى مشرع الوادى ورفع الحصار . وطارد صالح بك الثائرين حتى جبل سخيدى والجأهم الى صحراء بين هذا الجبل وبين كاره ولم يكن بها ماء فمات كثير منهم بالعطش . وهذا المكان لا يزال يدعي عند السودانيين « تبكي وتسقط » لذكرى الذين ماتوا عطشاً فيه

ولكن هذه الهزائم لم تضعف حب الجمهور المهدى . وليس شك فى أنها كانت تخفف عبء الموظفين وقتياً ولكنها لم تكن تمنع مجيء اليوم المتوقع من الجميع . ولو كانت نصائح عبد القادر باشا قد سمعت لتغير حال السودان . فقد كان لا يوافق على ارسال تجريدة كبرى لتخليص كردوفان ولكنه كان ينصح بتوزيع الامداد التى تأتي من القاهرة على مراكز على النيل بحيث تكون هناك حاميات ثم يترك الثوار وشأنهم موقتاً . وكان عنده ما يكفي لقمع الثورة فى الجزيرة بين النيلين الابيض والازرق وايضا لمنع تقدم المهديين من الغرب

ولو اتبعت هذه النصائح لكان الارجح ان سوء ادارة المهدى تؤدى الى الخلل والشقاق فيمكن الحكومة استرجاع مافقدته بعد مدة قليلة . ولم يكن فى مقدورى الاحتفاظ بدارفور اكثر مما احتفظت به وحتى لو فرضنا انه وقع فى يد المهدى لكان هذا أيسر الشرين . ولكن ولاة الامور فى القاهرة لم يكونوا من رأى عبد القادر باشا وكانوا يرون انه يجب ان تعاد للحكومة كرامتها وسلطتها مهما كلفها ذلك ودبروا لذلك تجريدة يقودها هكس باشا الانجليزى ومعه ضباط اوربيون فاستدعى عبد القادر باشا الى القاهرة وقام مقامه علاء الدين باشا الحاكم العام للسودان الشرقي سابقا . وعرف المهدي كل ذلك واستفاد منه

وفى هذه الاثناء وصل زوجال الى الابيض حيث احتفل باستقباله فأطلق مائة مدفع تكريماً له وأشيع فى كل مكان ان دارفور قد سلمت نفسها للمهـدي الظافر . واعتبر ايضا رجوع زوجال الى دارفور ضماناً قويا على دخول دارفور فى طاعة المهدى وانها لذلك ليست فى حاجـة الي ارسال قوة من الجيش ووجه المهدى الآن كل عنايته الى درس الحالة فى النيل

وبعد وصول هكس باشـا قام فى الحال الى كاوه وهزم الثائرين فى مرابية فى ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٢ وقتل احمد المكاشف

وكان عثمان دجنة أحد النخاسين فى سواكن قد بعثه المهدى لكي ينشر الدعوة الى الجهاد فى بلاد مختلفة وقد اثبت المهدى بعد نظره في اختيار هذا الرجل الذى ذاع اسمه بعد ذلك وكان يقدر انه اذا ثار السودان الشرقي فان الحكومة ترتبك وتؤخر تجريدة كردوفان أو لا ترسلها مطلقا

ولست أدخل فى تفاصيل الوقائع التى دارت بين هذا الامير الجسور وبين الحكومة فانها معروفة مشهورة ولا تحتاج الا للاشارة اليها هنا فقط . ويكفى ان أقول ان المهدويين نجحوا فى شرقي السودان ولـكن نجاحهم لم يؤثر فى الحـكومة كما رغب المهدى بل بقيت على عزمها من تهيئة التجريدة لـكردوفان وفي أوائل سبتمبر سنة ١٨٨٣ غادر هكس باشا الخرطوم الى الدويم علي النيل الابيض حيث انضم اليه علاء الدين باشـا الذى طلب اليه ان يصحب التجريدة

واني لا أشك فى أن ولاة الامور في القاهرة كانوا يجهلون الحالة فى كردوفان اذ كانوا يتصورون ان ارسال مثل هذه التجريدة لـكردوفان يقضي على المهدى الذى صـار الآن الحاكم المطلق في المديريات الغربية وليس فيها احد سوى انصاره . فهل نسوا ان المهدى أباد القوى التى كان يقودها راشد وشلالى ولطفي وان باره والابيض وغيرهما من البلاد قد خضعت له وانه اصبح يملك من البنادق اكثر مما يملـكه هكس فى تجريدته ؟

وهل غاب عنهم ان هذه البنادق قد صارت الى ايدى رجال ماهرين يعرفون كيفية استعمالها . وان من هؤلاء الرجال من كان يستخدم البازنجر ويصيد الفيلة والنعام

وانه قد تألفت تحت ايديهم فرق حربيـة ماهرة ؟ ثم ألم ينضو إلى راية المهدى آلاف من الجنود النظاميين وغير النظاميين الذين كانوا فى خدمة الحكومة قبلا؟ وهل خطر لهم ان هؤلاء الرجال كانوا ينوون ترك الانضمام الى هكس باشا عند رؤية جيشه؟

لقد جهلت الحكومة فى القاهرة كل ذلك وخاطرت بحياة الالوف لجهلها هذا .
واظن انه كان بين اعضاء الحكومة من كان يعرف السودان ويعرف المثل القائل : «اللى بياخد امي هو ابويا» والمهدى قد استولى على البلاد ويمكن ان نقول مجازاً انه تزوجها . لذلك نظر اليـه السكان كما ينظرون الى مولاهم وحاكمهم ولم يكونوا يبالون وقتئذ بما نالوه من رعاية فى الحـكم السابق . ولا انكر ان هناك شواذ ولكن ملاحظاتى هنا تنطبق على الكثرة

وكانت تجريدة هكس مؤلفة من عشرة آلاف رجل تسير فى هيئة مربع فى وسطه ستة آلاف جمل وكان سيرها فى اعشاب ونبات يزيد طولها عن قامة الانسان فلم يكن في مقدور الجنود ان يروا الى ابعد من مائتى ياردة الى ثلاثمائة وذلك فى الجهات المزروعة المكشوفة حيث يقطن بعض الناس ويكشفون بعض الارض للزراعة وكان عليهم ان يكونوا مستعدين على الدوام لملاقاة عدو اكثر منهم عدداً وعدة وتجربة بالحروب وقد اشتهر رجاله بالفوز والشجاعة والاندفاع ولم يكن فى طريقهم سوى آبار قليلة وان كان بها مستنقعات عديدة

ولو انهم كانوا اخذوا الطريق الشمالى ، طريق جبروه وباره لوجدوا الارض مكشوفة امامهم والماء وفيرا فى عدة اماكن . وهذا الماء اذا لم يكن يكفى الجيش فانه باستعمال الوسائل الحديثة فى الاستقاء واستنباط الماء كان يكفيه . وفي هذه الحالة كان يمكن الاستعانة بقبائل الكبابيشى فى مقاتلة المهدى وكان يمكن عندئذ الاستغناء عن عدد كبير من الرجال والحيوانات التى استعملت فى النقل

وكانت الجمال فى وسط الجيش تؤلف غابة كثيفة من الاعناق والرؤوس . وكان من المستحيل ان يطلق العدو عيارا واحدا دون ان يصيب أحد هذه الجمال فانه اذا اخطأ احدا من الامام لم يخطيء الاصابة في الوسط او المؤخرة

وكان يمكن ترك هذه الجمال مع الحرس في دويم او فى الشط ثم ارسال فصائل

من الجيش لاعداد الطريق فى الشمال او الغرب او الجنوب وانشاء مراكز حربية فى البلاد التي تخضع . وبدهى ان هذا العمل كان يحتاج الى عام ولم يكن فى ذلك من بأس اذ لم يكن ثم داع للعجلة . ثم يجب ان نذكر ان الخلاف بين هكس والضباط الاوروبيين كان عظيما كما كان هناك ايضا خلاف بين علاء الدين باشا وبين الضباط المصريين

ثم كان هذا الجيش مؤلفا في الاغلب من جيش عرابى المنحل الذى انهزم امام الانجليز ولا شك في ان الجنرال هكس كان يعرف هذه الاشياء وقد سئل مرة فى الدويم عن الموقف فقال : « انا مثل المسيح بين اليهود » ومع ذلك سار فى طريقه وربما كان يعتقد انه اذا رفض السير فان شرفه يجرح

واخذت هذه الكتلة المؤلفة من البشر والحيوان تسير سيراً بطيئاً وكان السكان الذين يقطنون فى طريق الجيش قد فروا . وكان العرب يظهرون فجأة ثم يختفون من وقت لآخر . وكان هكس ينظر خلال نظارته فى إحدى المرات فراى فرسانا مختبئين بين الاشجار فأمر بالوقوف وانفذ قسما من الخيالة لكي يتقدم . وبعد دقائق عاد الخيالة وهم في ارتباك شديد بعد أن فقدوا عددا من رجالهم وجرح عدد آخر ورووا انهم رأوا قوة كبيرة . فأنفذ هكس الجنرال فاركار ومعه نصف اورطة لكي يذهب الى مكان المناوشة ويعاين الحالة هناك . فعاد وقال انه راى ستة مقتولين وقد جردوا من كل شيء ولكنه لم ير احدا من العدو وكان هناك آثار عشرة من حوافر الخيل فكأن قسم الخيالة قد انهزم امام هؤلاء العشرة

وفى اليوم التالى ظهر ثلاثة من الفرسان فهجم عليهم فاركار وليس معه سوى خادمه فقتل اثنين وقاد الثالث أسيراً . وقد أخبرنى عن هاتين الحادثتين بعض من بقي من التجريدة وكانوا يصفون سير الجيش وهو فى هيئة المربع كأنه سلحفاة تزحف . ولم يكن من الممكن وهو فى هيئته هذه ان تسرح الجمال للرعي فلم تأكل هذه الجمال سوى ما وجدته وهى محصورة فى هذا المربع وكان ما وجدته قليلا فكان ينفق منها كل يوم مئات . وكانت تأكل بطانة الرحال المحشوة بالتبن . ولما خلت الرحال من

التبن لصق الخشب بلحمها فآذاها أذى كبيرا ومع ذلك كانت هذه الجمال تجر سيقانها وتسير حاملة أثقالها وأثقال من يقع من اخواتها

ولا شك فى ان فاركار والبارون شكيندورف والماجور هيرلت وغيرهم من الضباط الاوروبيين وبعض كبار الضباط المصريين كانوا يجهدون جهدهم لكي يساعدوا هكس باشا فى هذه الظروف الحرجة ولكن معظم الجيش كان يجهل تماما الاخطار الموشكة ان تقع به . وكان فيزتلى المسكين يرسم صوره وكان دونوفان يكتب مذكراته ولكن اين ذلك الذى يمكنه ارسالها الى بلادهما ؟

وما هو ان عرف المهدى ان الجيش قد شرع فى السير حتى اذاع المنشورات بين القبائل يدعوهم فيها الي الجهاد ويعد فيها المطيع بالمكافأة والعاصي بالعقاب . وغادر هو الابيض وضرب خيمته تحت شجرة كبيرة ينتظر قدوم الجيش المصرى واقتدى به خلفاؤه وأمراؤه فتكون من ذلك معسكر ضخم . وكانت جيوش المهدى تعرض كل يوم وتقرع الطبول وتطلق المدافع وتدرب الجنود والخيول وكلهم يستعد المعركة الكبري . وكان المهدى قد أرسل الامراء الحاج محمد ابو جوجه وعمر واد الياس باشا وعبد الحليم مسعد الى الدويم لكي يراقبوا تقدم الجيش ويقطعوا مواصلاته ولكنهم أمروا بالا يهاجموا الجيش بالذات . وقد علموا قبل سفرهم مقدار القوة المصرية ورجوا المهدى في ان يسمح لهم بمهاجمتها ولكنه رفض .

وقبل ان تصل القوة الى رهاد رأى جوستاف كلوتز (وهو صف ضابط المانى وكان قبلا خادم البارون سكندروف ثم صار خادما عند مستر اودنفان) ان المهدي سيقضي عليها اذا التقى بها ففر من الجيش بنية أن يذهب الى المهدى لكي ينضم اليه . وكان يجهل البلاد فاخذ يجول فى صباح اليوم التالى وعثر عليه المهديون وكانوا يوشكون أن يقتلوه ولكنه صار يجاهد بالقليل الذي يعرفه من العربية لكي يفهمهم انه يرغب فى مقابلة المهدى فارسل مع الحرس الى الابيض . وكان لابساً ملابس الخدم ومع ذلك توافد عليه الناس زرافات لكي يروا هذا الانجليزي الذى جاء للمهدى يرجوه في طلب الصلح . ولما أحضر الى المهدي صار هذا يسأله عن التجريدة أمام الاوربيين الحاضرين . ولم يتردد جوستاف فى وصف الجيش أسوأ وصف وان صفوفه خلو من

الشجاعة والوفاق . وارتاح المهدى الى هذه الاخبار ولكن جوستاف أخبره أيضا ان الجيش لن يسلم وانه لا بد من معركة يباد فيها عن آخره ودعا المهدى جوستاف الى الاسلام فاجاب وأسلم ثم وكل المهدى به عثمان واد الحاج خالد

ووثق المهدى من الظفر الى حد انه وضع المنشورات العديدة في طريق الجيش يدعو هكس باشا الى التسليم . وبديهى ان هكس باشا وضباطه لم يجيبوه ولكن كان لهذه المنشورات بعض التأثير فى أولئك الذين كانوا يخافون على حياتهم . واستعمل بعضهم هذه المنشورات لاغراض وبطريقة اغتاظ منها المهدى أشد الغيظ وكان بعد ذلك يعاقب الذين نجوا من القتل بأشد العقوبات اذا علم انهم دنسوا هذه المنشورات الملهمة باية طريقة ! !

وقبل أن يبرح هكس باشا الدويم كانت الحكومة قد أبلغته انه سينضم اليه ستة آلاف رجل من جبل تاج الله وبضع مئات من عرب الحبانية وكان كل يوم يتشوف لرؤية هذه القوة لكي ينشط بها جنوده الذين خارت قواهم وضعفت آمالهم. ولكن هذه القوة لم تصل اليه بل لم يصل اليه أى خبر عنها

وعند ما غادر هكس رهاد قصد الى علوبة في دار غدايات أملا فى ان يجد هناك ماء يستقى منه الجيش . وفي ٣ نوفمبر وصل الى كشجيل التى تقع على بعد ٣٠ ميلا فى جنوبي الابيض.

وكان المهدى فى هذه الاثناء قد حمس جنوده وأخبرهم ان النبى قد أوحى اليه ان عشرين ألفا من الملائكة سيقاتلون الكفار مع جنوده يوم المعركة . وفي اول نوفمبر برح الابيض قاصداً الى بركة فانضمت قواته الى جيش الامراء الذى كان قد أرسله قبلا وأخذ الجميع فى مناوشة المصريين والتضييق عليهم وكان العطش والاعياء قد فعلا فيهم فعلهما. وفى ٣ نوفمبر كان ابو انجه والجهادية السود مختبئين في غابة كثيفة فصبوا نارهم على قلب المصريين حتى اضطر الجيش الى الوقوف واقامة زريبة حوله وكانت الدواب والرجال هدفاً ظاهراً لا يخطئه أى رام . فكان فى كل لحظة يقع جمل او بغل او انسان قد أعياه السير . واستمر هذا التقتيل ساعات وكل فرد من الجيش يعاني الآلام من العطش ولا يستطيع السير الى أى جهة. ولم يغادر العدو

مكانه حتى الاصيل وبقى بعـد ذلك يراقب الجيش كما تراقب القطة الفار . وكانت خسائر العدو قليلة فلم يقتل منهم سوى أمير او اثنين وكان أحدهما ابن الياس باشا ولا غرابة فى قتله فقد تحمس وتهور حتى صار على قيد ذراع من الزريبة . وما أشد ما كان يعانيه هكس فى هـذا الوقت . إذ بدلا من ان يجد رجاله الماء كان العـدو يمطرهم رصاصا ومع ذلك كان الماء قريبا منهـم لا يبعد ميلا واحداً . ولكن لم يكن معهم أحد يعرف هذه الجهات وهم لو كانوا يعرفونها لما انتفعوا بهـذه المعرفة الآن لفوات الفرصة

وفي الليل زحف ابوانجه ورجاله ثانياً وصبوا النار طول الليل على هذه الكتلة المؤلفة من الناس والدواب.وخارت قوى المصريين فكانوا يندبون حظهم قائلين : « مصر فين ياستى زينب دلوقت وقتك » أما السود فكانوا منبطحين على بطونهم فلا ينالهم رصاص المصريين الذى كان يذهب فى الهواء فوقهـم وكانوا يردون على المصريين بقولهم : « دى المهدى المنتظر »

وفي صباح اليوم التالى تقدم هكس وقد خلف وراءه اكواماً من القتلى وبعض المدافع التى قتل رجالها . ولكنه قبل ان يقطع ميلا هجم عليـه نحو مائة الف من المتحمسين المتوحشين الذين خرقوا الجيش ودخلوا الى القلب وحدثت عندئذ مقتلة هائلة . ولم يحاول الثبات للعـدو سوى بعض الضباط الاوربيـين والخيالة الاتراك ولكنهم هوجموا من كل جانب فقتـلوا تقريبا عن آخرهم . ثم قطع رأس البارون سكندورف ورأس الجنرال هكس وحملا الى المهـدى فطلب فى الحال كلوتز الذى صار اسمه الآن مصطفى وطلب اليه ان يعرفه صاحبي هذين الرأسين ولكن المهدي لم يكن فى حاجة الى التعريف فان كل أحد قد عرف انهـما قتلا وبعد هـذا النصر المبين عاد المهدى وخلفاؤه الى بركة وقد أسكرهم هذا الفوز

وكان فى ميدان القتال عدد كبير من الامراء واتباعهم قد تخلفوا لجمع الغنائم وارسالها الىّ بيت المال . وقد جردت الآلاف من القتلى من جميع ملابسهم . وأرسلت الي بعـد ذلك عدة مذكرات فاركار وأيضا مذكرات أودنفان فقرأت كل ما كتباه وما أعظم مقدار ما قاسيته من الحزن من هذه القراءة.فقد كتب كلاهما

شيئا كثيراً عن الخلاف والشقاق في الجيش وعن الشجار بين الجنرال هكس وبين علاء الدين باشا . وقد حمل فاركار على رئيسه حملة قاسية لاغلاطه الحربية. فقد أحس كلاهما بالنكبة قبل وقوعها ولذلك كان فاركار يلوم رئيسه لانه مع معرفته بالحالة المعنوية السيئة للجيش خرج به للقتال. ولم يحصل الضباط الاوروبيون على أية معونة ولكن يظهر ان أحد الضباط المصريين المدعو عباس بك عاونهم بعض المعاونة . واذكر اني قرأت العبارة التالية بقلم فاركار «سألت أودنفان اليوم عن المكان الذى سنكون به بعد ثمانية أيام فأجابني بقوله : فى العالم الآخر » .

وكانت مذكرات أودنفان مكتوبة بهذه اللهجة أيضا . وكان قلقا بشأن فرار كاوتز وذكر هذا الفرار كمثال على شعور سائر الجنود واذكر قوله: « كيف تكون حالة جيش اذا كان خادم أوربي يهجره وينضم الى العدو » ويقول فى مكان آخر: «هاءنذا أكتب مذكراتى وتقاريرى ولكن من هو ذاك الذي سيحملها الى وطنى »

وبعد خمسة عشر يوماً عاد المهدي الى الابيض ومعه الغنائم التى أودعها بيت المال . وكانت هذه الغنائم تحتوى مبلغا كبيراً من النقود غير المدافع والبنادق ومع ذلك قد نهب العرب شيئا كبيرا من هذه الغنائم على الرغم من العقوبات الوحشية التي كان يعاقبهم بها احمد واد سليمان . وقد كان من المألوف أن تقطع يد السارق اليمنى وساقه اليسرى. أما الذنوج المكرة فقد سرقوا كمية وفرة من الذخائر خبأوها فى الغابات وفى معسكرهم وأفادتهم بعد ذلك فوائد عظيمة

وكان دخول المهدى الى الابيض دخول الظافر الذى يستقبل بضروب الحفاوة الوحشية . فقد كان الناس يترامون أمامه ويكادون يعبدونه . وليس شك فى أن انتصاره فى شيكان قد جعل السودان باجمعه طوع أمره . فكان الاهالى من النيل الى البحر الاحمر ومن وادای الى كردوفان ينظرون الى هذا الولىّ ويترقبون حركاته . وكان اولئك الذين آمنوا قبلا بهدايته يستمسكون بايمانهم وينشرون نفوذه أكثر من ذى قبل . أما اولئك الذين استرابوا أولا فى دعوته فقد ثابوا إلى اليقين بعد هذه الانتصارات العظيمة المتوالية . واولئك الذين كانوا يعرفون فى قلوبهم ان

هذه المدية غش ومكر رأوا انه يجب عليهم أن ينضموا الى المهدى مادامت الحكومة غير قادرة على تثبيت سلطتها حتى فى مديريات النيل

وقد عرف في هذا الوقت عدد كبير من الاوروبيين وبعض المصريين المقيمين في المدن خطورة الموقف ولم يتوانوا فى الخروج من القطر السودانى أو على الاقل فى ارسال مايخشون عليه من أمتعتهم ومنقولاتهم الى الشمال وقد أيقنوا انه لا بقاء لهم بعد الآن في السودان الذى بسط عليه المهدى نفوذه

الفصل التاسع

سقوط دارفور

فى ذلك الوقت كنت قد شفيت من مرضي (الدودة السودانية) وشعرت باني أقوى على الخروج فى تجريدة أخرى . ولكن عدد أتباعى المخاصين كان قد نقص نقصاً سيئا وأيضا قلت ذخيرتنا . وكان سيد بك جمعه يرسل إليّ بانه غير قادر على ان يسعفنى بما أطلب من الذخائر واحتج في ذلك بان عرب الزبدية والمهرية قد بدا منهم شيء من العصيان حتى انهم استولوا على مواشى بعض الناس المقيمين فى جوار الفاشر وعند ما طلب منهم ردها رفضوا .

وكانت كل آمالى معلقة الآن بنجاح جيش هكس باشا . وكان من حسن حظى اني كنت أجهل الطريق الذى اتخذه كما كنت أجهل ايضا الحالة المعنوية السيئة التى كان فيها الجيش . وكان قد مضى عليّ الآن نحو عام لم أتسلم فيه أية رسالة من الخرطوم وكنت قد لجأت الى الحيلة لكي أحتفظ بحماسة رجالنا فادعيت بانه جاءتنى أخبار عن انتصارات الحكومة . وقد أذعت هذه الاخبار فى شكل رسائل ملفقة قرئت علنا على الجيش وقوبلت باطلاق المدافع وهتاف الجنود . والحقيقة اني انا الذى لفقت هذه الاخبار . ومن الحق أن أقول انى تسلمت فى هذا الوقت رسالة صغيرة من علاء الدين باشا يقول فيها ان الخديو قد عينني قائداً عاما لجيوش دارفور وأن الحكومة قد عزمت على ارسال قوة لمعاقبة الثائرين . وأرسلت نسخا عديدة من هذه

الرسالة الى الفاشر وكبكبيه وأمرت باذاعتها بين الجمهور واطلاق النار عند قراءتها . واحتفلت بمقدم حامل هذه الرسالة احتفالا كبيراً وأثقلته بالهدايا . وأعلن امامنا انه عند ماغادر الخرطوم كانت الحكومة تهيء التجريدة التى قال عنها انها لابد منصورة وكان الواقفون على الحالة مترددين فى تصديق هذه الاقوال ولكنهم سروا مع ذلك لهذه الاخبار

وبعد أيام قليلة عاد الي خالد واد امام الذى كنت أرسلته الى كردوفان ليأتينى بصحيح الاخبار وأفضى برسالة شفوية من زوجال يقول فيها ان الحكومة تهيء تجريدة لمقاتلة المهدى . ولكن بعد أيام قبض على رجل قريبا من شقه ومعه خطاب من خالد للمادبو يطلب منه أن يستعد للقائه قريبا لكي يساعده فى اتمام مشروع . فلم يبق عندى شك فى أن خالدا قد انضم الى زوجال وصار خادمه المخلص

وللحال أمرت بالقبض على خالد واحضاره الي فاعترف بان زوجال قد أمره بان يأخذ زوجاته الى مكان مأمون خارج عن منطقتي وان يحضر زوجتين منهن اليه فى كردوفان وهذا هو سبب كتابته تلك الرسالة للمادبو

فأمرت بالقبض على أسرة زوجال وتقييد خالد ثم استصفيت أملاكهما وضممتها الى بيت المال واقمت حراساً على أملاك المقبوض عليهم الآخرين

وصارت الصعوبات تتكاثر علي يوما بعد يوم بل ساعة بعد ساعة . ولم أكن لأبالى كثيراً بخيانة زوجال فقد كنت دائم التوجس منه قليلا ولكنى قلقت قلقاً شديداً للاخبار السيئة التى جاءتنى عن تجريدة هكس

وكان وقتي مقسما بين ذهابي وإيابي من القتال فى قمع الفتن التى أخذت فى الانتشار بسرعة مدهشة . ففي احد الايام أخرج لمنازلة الماديو وبعد يوم أخرج لقمع فتنة قام بها رئيس آخر ثم جاءتنى في احد الايام أخبار هزيمة دارهو أمام الميا . فاقترحت على الضباط اخلاء داره وحصر قوانا للدفاع عن الفاشر ولكنهم رفضوا

أضف الى كل هذا ذلك الخلاف الذى فشا بين أولئك الذين كنت أحسبهم من أخلص المخلصين لى . فان حسن واد سعد النور الذى حصلت له على العفو في الخرطوم كما يذكر القارىء والذى ضمنت ولاءه للحكومة وأذنت له بالاقامة فى داره

والذى أعطيته منزلا بجانب القلعة وحين مات جواده أعطيته جواداً آخر والذى استخلصته لجلب الاخبار واثقا من ولائه وطاعته قد خانتى وتناسى كل هذه المروءات والافضال التى تكرمت بها عليه وركب الجواد الذى أعطيته له وذهب الى المهدى وصار من أخلص أتباعه

وكانت المواصلات بينى وبين الخرطوم قد انقطعت منذ مدة بعيدة فان المهديين كانوا يقظين وكانوا يقبضون على أى انسان أرسله بخطاب الى الخرطوم . وتمكنت فى إحدى المرات وأنا أقاتل بنى حلبة من ارسال خطاب للقاهرة بواسطة قافلة كانت سائرة الى أسيوط فى طريق الاربعين .

ولكن طرق تخبئة الرسائل التى اتبعتها الى الآن كانت قد عرفت فلم يعد فى الامكان استعمالها . ومن هذه الطرق وضع الرسالة بين نعلى الحذاء او بين أديمى المزادة أو في قصبة الرمح

وكنت فى أحد الايام أنظر في شئون القلعة فرأيت الجنود يعالجون حماراً به عرج في ساقه الامامية . فألقوه على الارض ثم فتحوا فى جلده على الكتف فتحة أدخلوا فيها خشبة صغيرة ثم حزروه بحزيزات وذروا النطرون على الجروح وأخرجوا الخشبة . فخطر فى بالى أن أرسل رسالة تحت جلد حمار بهذه الطريقة الي الخرطوم وانتخبت حماراً طيب الجرم ثم أدخلته منزلى حيث لايرانا أحد وكررت هذه العملية ووضعت فى الفتحة التي فتحتها مذكرة صغيرة لففتها فى مثانة جدي ولم يكن حجم هذه الرسالة يزيد عن طابع بريد ثم خطت الجرح بخيط من الحرير ونهض الحمار بعد ذلك كأن لم يكن به شيء . وأخبرني الرجل الذى ندبته لارسال هذه الرسالة بانه سلمها لعلاء الدين باشا فى الشط قبل ان تقوم التجريدة بيوم أو يومين الى الابيض. وانه أخبر الرسول بان الردغير ضرورى وانه سيصحبه الى الابيض حيث يرسله من هناك الى بخطاب

وكانت حالتنا من حيث المدخر من الذخائر سيئة جداً فان مجموع ما كان لدينا من الخراطيش لم يكن يزيد عن ١٢ علبة لكل بندقية فاذاً غامرنا بقتال فان نصف هذه الكمية يذهب فى أول معركة . ولم يكن هناك أمل بالاسعاف فأخذت أفكر فى

أحسن طريقة للثبات بدون ان نفقد ذخيرتنا القليلة . واضطررت لذلك الى ان الجأ الى الحيلة كسباً للوقت

فوسطت بعض العرب الموالين لنا لكي يفاوضوا الثائرين ويقولوا لهم اننا مستعدون للتسليم ولكن لا يمكننا ان نسلم لهم إذ لا ثقة لنا فيهم بعد قتالنا المتواصل مدة طويلة ولذلك إذا أرسل المهدى رسوله فاننا نسلم له البلدة وحكومة المديرية

وكنت فى هـذا الانتظار أتسقط الاخبار عن حملة هكس وأحسب المدة التى يجب ان تصل فى نهايتها الى الابيض حيث يقاتل الفريقان وتقع الوقعـة الحاسمة . وكنت أختلف الى السوق وأتحادث مع الاهالى عن الاحوال وكان كل أحد يعرف ان جيشاً عظيماً قد أنفذ الى الابيض ولكن لم يكن أحد على يقين من النتيجة

وأخيراً حوالى آخر نوفمبر شاعت الاشاعات عن هزيمة الجيش وكان على هذه الاشاعات مسحة الصدق ولكننا مع ذلك تعلقنا بالشك ولكن بعد يوم او يومين جاءنا الخبر الاكيد بان الجيش المصرى قد اصطلم . فانسدل علينا الغم جميعاً لهـذا الخبر . وهكذا قضى علينا بعد هـذه الشدائد والخطوب ان نقع فى يد العـدو وقد سدت دوننا أبواب النجاة . ولكن هل بقى بصيص من أمل بان الاخبار قد بولغ في رواياتها؟

لقد كان عندنا هذا البصيص ولكنه انطفأ فجأة إذ علمنا ان زوجال قد وصل الى أم شنجه وان المهدى قد عينه « مدير عموم الغرب »

وفى ٢٠ ديسمبر سـنة ١٨٨٣ جاءنى الرسول الذى كنت أرسلته الى المهدى وكان لابساً جبة فروى لى خبر الهزيمة المنكرة التى نالت الجيش وناولنى خطابا من زوجال يطلب مني فيـه التسليم ويخبرني عن هزيمة المصريين ولكي يثبت لى هـذه الهزيمة أرسل اليّ بعض تقارير الضباط ومذكرات فاركار وأيضا مذكرات أودنفان

وفى المساء جاءني فرج افندي وعلى افندى الطوبجى ضابط المدفعية وأخبراني بان الضباط قد قرروا التسليم للمهدى لا لزوجال بك . وقد أوضحوا الاسباب التى ألجأتهم الى هذا القرار فان كل واحد منهم قد اقتنع تمام الاقتناع بانه لا سبيل الآن للحكومة ان تنقذهم وان الجيش فى داره لا يزيد عن خمسمائة وعشرة رجال ومنهـم

عدد كبير لا يصلح للقتال . وان الحالة المعنوية للجيش منحطة ولا أمل في الحصول على أى انتصار وان الذخائر لاتكفى معركة واحدة سواء كنا مدافعين او مهاجمين. وقالا لى أيضاً انه لا يمكننى ان أسوم الجيش على القتال لان الجميع قد عزموا على التسليم . فأخبرتهما باني سأفكر فى هـذا الموضوع وأخبرهما فى صـباح اليوم التالى عن رأيي الاخير

وفى تلك الليلة لم تغمض عيناى. فجعلت أتحسر واندب هذا الحظ الذى يقضي علينا بعد معاناة الشـدائد والاهوال بان نسلم ونخضع . ثم بعد الخضوع ماذا خبأه القدر لنا ؟

وعرضت الحالة من البداية الى النهاية وأنا في هذا السهاد . لقد مضى عليّ أربع سنوات وأنا أجاهد لتثبيت الحكومة ومقاومة الفتن الداخلية التى قمعتها ثم مقاومة حركة المهدى التى دخلت الى أصول الادارة وفشت فيها كالسوس وأخذت تتأكلها وتسرى فيها من الغصون الى الاوراق حتى ذبلت وجفت

والخلاصة ان هذه الدعوة المهدية قد تغلغلت الى قلوب الضباط والجنود فقـد كانوا قبلا ينصبون لها العداء ويكافحونها لانى كنت ألوح امامهم بقوة الحكومة وعودة سلطتها بنجاح حملة عكس وبالفوائد التى تعود عليهـم اذا ثبتوا على الولاء الى حين يهزم الجيش المهـدي . وكنت أجهد جهدى لكي أثبت للجنود والضباط ضرورة فوز الحكومة فى النهاية ولكن جاءت هذه الهزيمة المنكرة فانقطع كل أمل . وقد كافحت الدسائس من الداخـل والخارج . والقارئ يعرف مبلغ النجاح الذي نجحته في ذلك . وكان يمكننى بواسطة الكمية القليلة من الذخائر التى لديّ ان أقاتل بضع ساعات ولكن هل كان من المتيسر ان يخضع لي الضباط والجنود فى مثل هذا القتال ؟ فقد ذهبت رغبتهـم فى القتال ولم يعد لى حق فى أن أجبرهم على ان يضحوا بأنفسهم فى قضية لم يعودوا يبالون بكسبها

وبعد ان عرضت الموقف من جميع جوانبه تبـين لي ان التسليم ليس فقط أسلم السبل بل هو السبيل الذي لا مفر منه . وبعد ان قررت فى ذهنى هذا القرار عدت الى الوجه الشخصي للمسألة . فاني باعتبارى ضابطا كنت أمقت هـذا التسليم . ولم

أكن أخشى شيئاً أو أخاف على حياتي . وكنت واثقا بانى اذا سئلت عن مسلكي في المستقبل يمكنني أن أبرر كل ما عملته

ولكن لفظة التسليم نفسها كانت كريهة وكان يكرهها أكثر فى نظري اني اوربي مسيحي واني سأكون بين آلاف من السودانيين كل منهم ينظر الىّ كأنى دونه في المقام . صحيح انى أسلمت وتركت ديني ولكنى لم أفعل ذلك الا لكي أهدىء ثائرة الضباط والجنود عليّ وقد نجحت فى غايتى أكثر مما توقعت ولكن هذا العمل لم يكن وفق مزاجي . ولم أكن أدعى فهم الآراء الدينية بدقة تخولنى الحكم على صلاح عملي أو فساده ولكنى كنت في قرارة قلبي مسيحياً مثل جميع المسيحيين الذين أعرفهم . وعلى ذلك لم اكن أستمرىء الظهور بمظهر ادعاء الاسلام . دع عنك انى كنت أعرف ان تسليمى سيضعنى فى يد هذا المصلح الدينى السخيف (المهدى) وانى سأضطر لذلك الا اظهر فقط بمظهر المسلم العادى بل بمظهر المؤمن بالمهدى المتحمس لدعوته

فهل يمكن أحداً أن يعتقد انى كنت انظر للمستقبل بعين السرور ؟ ومع ذلك يجب أن أعترف بان هذه الاعتبارات الدينية لم يكن لها فى نظري وزن يعادل تلك الاعتبارات الاخرى عن تأدية واجبي . وعلى وجه العموم أقول انى شعرت بانه قد يحتم عليّ الآن أن أسلم وأن أحقن الدماء التى لن تجدى إراقتها شيئا . ولم يكن هناك سبب يدعونى الى الخضوع للذل والهوان وما يشبه الرق بعد التسليم . فقد خطر لى ان أنتحر ولكن نفسى ثارت على هذا الخاطر فقد كنت فى شبابي وقد مضى عليّ أربع سنوات كلها تبعات ومجازفات ولم أكن أشتهي أن تختم حياتي وأنا في هذا العمر حتى مع انتظار تلك الايام السود القادمة وقد منّ الله عليّ برحمته وأبقاني فى تلك الحروب المتوالية وهو لا بد يبقينى حتى أعود فأخدم تلك الحكومة التى حاولت ان أخدمها في الماضي بولاء وأمانة

هذه هى الخواطر التى كانت تساورني عندما بدأ شعاع الفجر يقشع الظلام في تلك اللحظات التي لن أنساها فى حياتي . وانتهيت بعد التفكير الطويل الى انه لم يبق لى سوى التسليم وان أرضى بان أكون محكوماً لاولئك الذين كنت أحكمهم وان

أخضع لاولئك الذين كانوا يخضعون لى . ويجب فوق كل هذا وذاك ان اكون صبوراً . واذا مارست هذه الخلائق فى نفسى وروضتها عليها وحقنت دمي بها ونلت بعد ذلك حريتي فان هذه التجارب ستفيد بلا شك الحكومة التى أخدمها . ونهضت من فراشي وأنا على هذا العزم ولبست ملابسى الرسمية لآخر مرة اذ استبدلت بها بعد ذلك جبة المهديين التى مثلت فيها دورا جديدا فى حياتي . ومع ذلك فقد كان يخفق تحت الجبة قلب كله ولاء للحكومة وكله عزم علي الاستفادة من هذه التجاريب اذا اذن الله بالعودة . ورأيت ان المسألة ستتلخص بينى وبين هؤلاء الاسياد الجدد فى أينا يتغلب ذكاؤه على الآخر . ولم أجبن عن هذا الكفاح المنتظر مع انيلم أكن فى حاجة الى الاعتذار والتبرير لو اني جبنت اذا اعتبرت السنين الطوال التى قضيتها فى الاسر وفى الحياة المزدوجة التى اضطررت الى الظهور بها

وفي صباح اليوم التالى حضر الىّ الضابطان فعرضت عليهما خطاب زوجال الذى يطلب فيه منى التسليم وان أقابله فى ٢٣ ديسمبر فى حلة الشعيرية حيث يسلمنى بيده خطاب المهدى الىّ . ومما كتبه الىّ زوجال أيضا انه يضمن حياتي وحياة جميع من معي من الرجال والنساء والاولاد

ثم طلبت الكاتب وأمليت عليه خطابا لزوجال أعلنت فيه خضوعى وخضوع الحامية واتفقت على مقابلته فى ٢٣ دسمبر عند حلة الشعيرية وسلمت هذا الخطاب لرسول يقوم به لايصاله الى زوجال الذى صار اسمه الآن سيد محمد بن خالد

وفى أصيل الغد جمعت الضباط وأخبرتهم بانه لما كانت المقاومة غير مجدية فقد قبلت اقتراحهم عن التسليم . ولكني سأغادر داره فى هذا المساء لكي أقابل زوجال في حلة الشعيرية واني سآخذ القاضي معى أما الضباط فسأتركهم مع الحامية . ثم شكرتهم بكلمات قليلة كانت شجى في حلقى لولائهم واستعدادهم للتضحية بانفسهم فى سبيل خدمة الحكومة وطاعتهم لى ثم ودعت كلا منهم باليد واحداً بعد آخر وودعت الموظفين المدنيين جملة وشرعت فى السفر

وكنا فى منتصف الليل حين خرجت مع القواصين من داره . وقد لاقيت المشاق فى سفراتي الماضية وانا بدارفور ولكن هذا السفر كان أشق ما احتملته .

فقد كنا جميعاً غارقين فى تأملاتنا المحزنة حتي لم ينطق أحدنا بكلمة . وعندالغروب استرحنا قليلا ووضع الخدم الطعام أمامنا ولكننا لم نمسه اذ لم تكن لنا شهوة للطعام ثم استأنفنا السير ولما اقتربنا من حلة الشعيرية بعثت ياورى لكي يتقدمنا ويرى هل حضر زوجال أم لا . وعاد الينا فى الحال وأخبرنا بانه هناك ينتظرنا منـذ الامس وبعد مدة قليلة بلغنا المكان فوجدناه واقفا وترجلت وتقدمت اليه لكي أحييه فضمنى الى صدره وأكد لى صداقته ورجاني أن أقعد ثم سلمني خطاب المهدي . ولم يكن في هذا الخطاب سوى تعيين زوجال أى سيد محمد بن خالد حاكما على الغرب وان المهدى قد عفا عنى وأوصي بمعاملتى بالاكرام الذى يليق بمنصبي وان يعامل سـائر موظفى الحكومة السابقة باللطف والكرم . وبعـد أن انتهيت من قراءة الخطاب قال لى زوجال ان المهـدى انما عفا عنى للشهادة الطيبة التى شـهدها فى حق عنده وانه سيقدم لى كل معونة . فشكرت له عطفه . ثم قدم الى الامراء والطيب وحسن نجومي وقد كنت قابلتهـم سابقا . ثم تناولنا الطعام وأخـبرني زوجال انه ينوى السفر الى داره

وبينما كنا نتحادث وصل الينا أحد ضباطى محمد اغا سليمان فلما رآني لم يكترث لى أقل اكتراث بل ذهب الى زوجال وحياه تحية الحفاوة المبالغ فيها . فتذكرت انه كان قد اتهم مع اثنين آخرين بانه جاسوس زوجال

وأخذنى محمد (زوجال) وتنحى بى قليلا وخاطبنى فى شأن أقاربه وأسرته . فأخـبرته بان الجميع فى صحة جيـدة وان أقاربه لا يزالون معتقلين . ووافقنى على الاجراءات التى اتخـذتها وقال انها أفادتنا نحن الاثنين . ثم قمـنا وسرنا الى داره وقضينا الليلة فى الخيام قريبا منها ووافانا هناك عدد كبير من الاهالى والموظفين وكلهم قد لبسوا ملابس الدراويش وحيوا الوالى الجديد

ولم تغمض عيناى فى تلك الليلة وكانت ليلة عيد الميلاد فتذكرت اهلى وأعيـاد الكنائس البهيجة التى يحتفل بها في وطنى في ذلك الوقت فى حين أجدني هنا وحيداً مهزوما مضطراً الى تسليم رجالي وذخائرى الى العدو . وفى تلك الساعات الهـادئة التى كانت أحفل ساعات حياتى حزنا وغما أخذت أعرض أمام ذهني كل ما جرى

لى فتحققت عنـدئذ ان اولئك الذين قتلوا فى ميدان الشرف كانوا أحسن حظاً مني

وفي الغد استقبل زوجال جميع الذين جاءوا اليه لكي يقدموا اليه طاعتهم وولاءهم ثم احتل الدراويش القلعة فتم له بذلك احتلال المديرية وتوافد عليه الاهالى لكي يقسموا له يمين الولاء للمهدى وفى النهاية عرض الجيش وأدى هذه المهمة نفسها

والتقيت هنا المادبو الذى كان قد لحق بعبد الصمد فى برنجل فشيعني الى المنزل وطلبت منه أن يقعد فقال :

« يبدو عليك كأنك مغتاظ منى وكأنك تعتقد اني خنتك ولكن أصغ الىَّ . لقد فصلنى ميلياني من وظيفتى باعتباري رئيس المشايخ . فذهبت الى بحر العرب حيث طلبنى المهدى ولما كنت مؤمنا مسلماً اتبعته فسمعت عظاته وتحققت من قداسة رسالته وحضرت هزيمة يوسف شلالى وانتصار رجال المهدى عليه انتصاراً مدهشاً فآمنت بدعوته وما زلت كذلك للآن . وقد وثقت انت بالطبع بقوتك وأبيت أن تسلم بلا قتال . وعلى ذلك تحاربنا ولكنى لم أكن أقاتلك انت شخصيا وانما كنت أقاتل الحكومة والله يعلم انى ما نسيت قط انك كنت تنظر الىَّ نظرة الصداقة فدعك من الغضب وكن أخا لى »

فقلت « لم أغضب لما فعلت فانك واحد من آلاف ولو كان فى قلبي غيظ فان كلماتك قد ازالته »

فقال المادبو « اشكرك وادعو الله أن يقويك وأن يرعاك فى المستقبل كما رعاك في الماضى »

فقلت له : « اني اضع ثقتى في الله . ولكنى أجد من المشقات ان اتحمل ما انا فيه . وان كان لابد من تحمله »

فقال : « كلا . كلا . انا عربي ولكن اسمع ما اقوله لك . كن مطيعا صبورا . عليك بالصبر فقد قيل ان الله مع الصابرين »

والآن اخبرك انى جئت اليك لكي اطلب منك شيئاً وهو أن تقبل منى جوادى عربونا للصداقة بينى وبينك . وأنت تعرفه وهو « صقر الدجاج »

وقبل ان اجد الوقت للاجابة غادرني و بعد دقائق قليلة عاد ومعه جواده وكان من أجمل وا كرم خيول القبيلة ثم سلمنى رسنه . فقلت له « لست اقصد اهانتك برفض هديتك ولكنى اخبرك انه لم تعد لى به حاجة واني لن اركب كثيرا فى المستقبل

فقال : « ومن يدرى . اللى عمره طويل بيشوف كتير . فانت ما زلت شابا وستركب كثيرا ان لم يكن هذا الجواد فجوادا آخر »

فقلت . « قد يكون ما تقول هو الصواب ولكن هل تقبل مني أنت ايضا هذه الهدية ؟ »

قلت ذلك واشرت الى طبول الحرب التى كنا غنمناها منه . واخذها خادمي وسلمها له ووضعت على الطبول سيفا آخر قدمته ايضا هدية مني وقلت : « لا تزال هذه الاشياء ملكي اليوم ولذلك يمكننى أن اهديها اليك . اما في الغد فلا أعرف من يملكها »

فقال : « انى اشكرك وانا اتقبلها بكل سرور . لقد غنمها رجالك منا ولكن العرب تقول : الرجال ستراده وراده . وهـذا حق . فكم من مرة قاتلت وفررت ولكني كنت اعود فاكر وانجح »

وامر المادبو رجاله بحمل الطبول وخرج وهو مسرور وقد أثر حديثه فيّ وتذكرت كلامه عن الصبر وان « اللى عمره طويل بيشوف كتير »

وفى صباح الغد أمر الحاكم الجديد الاهالى بالخروج من منازلهم ثم فتش هذه المنازل وأرسل ما بها الى بيت المـال . وكل من اشتبه فى حيازته ما لا كان يجلد بلا رحمة او تقيد قدماه ويربط الى حائط ورأسه مدلى حتى يغمي عليه . وكنت أناقش واحاج ولكن خالد لم يكن ليثنيه كلامى

ثم أخذ خدم الموظفين من رجال ونساء وقدموا للمهديين ولكن الفتيات الوسيمات احتفظ بهن للمهدى

وبعد سـبعة أيام من تسليمنا أخبرني خالد ان سـيد بك جمعه قد أرسل كبار الموظفين مع عمر واد دارهو لكي يعرضوا تسليم المدينـة ولذلك قر رأيه على ان يسافر بنفسه الى الفاشر ولكنه عنـد ما اقترب من المدينة كان الاهالى قد سمعوا

بسوء معاملته لاهالى داره فقرروا عدم التسليم واضطر الدراويش لذلك الى حصار المدينة وفتق المحصورون فتوقا عديدة في القوة المحاصرة ولكن الاهالى بعد ١٥ يوما من الحصار سلموا المدينة فدخلها خالد ومثل هناك الفصول المروعة التي مثلها قبلا فى داره بشكل اقسى وعذب عدداً كبيراً من الناس تعذيبا وحشيا

وكان بين المعذبين ضابط يدعي حماده افندى وقد طولب بما عنده من المال فأصر على أنه لا يملك شيئا وكانت احدى امائه قد أخبرت عن وجود مقدار من الفضة والذهب عنده ولكنها لا تعرف مكانهما فاحضر امام خالد الذى قال له انه كلب كافر . فلم يقدر حماده افندى على ضبط نفسه ورد على خالد قائلا انه دنقلاوى سافل . وهاج خالد لهذه الاهانة وأمر جنوده بجلد حماده افندى حتى يعترف بمكان المال . ومضت ثلاثة أيام وهو يضرب كل يوم الف سوط ولكن بلا أدنى فائدة ولو كان حجراً لما تحمل هذا الضرب كما تحمله . وكان كلما سأله الجلادون عن ماله يجيبهم قائلا : « أجل عندى أموال ولكنها ستدفن معى »

وأمر خالد بوقف الضرب ثم سلم هذا المسكين لعرب الميا لكي يحرسوه. وقد دهش عرب الميا أنفسهم لجلد هذا الرجل الذى لم يلن عوده أمام هذا التعذيب

وخشى ابراهيم نجلاوي الجلد فسمع احد الامراء يدعونه بالعبد فقتل فى الحال زوجته ثم أخاه ثم انتحر . وانتحر أيضاً أغا فولا مؤثراً الموت على التعذيب . فلما رأى خالد ذلك أمر بوقف الجلد واكتفى بنفى المصريين فى أماكن متفرقة قريبة من المدينة

وبعد سقوط الفاشر طلبنى خالد لكي الحقه فبلغتها فى أوائل فبراير فاعطانى منزل سيد بك جمعة لكي أقيم فيه واذن لى فى طلب خيولى وخدمى من داره . اما أمتعة البيت فيجب تسليمها لبيت المال على سبيل الزهد في الدنيا

فنفذت كل هذه الاوامر وسلمت جميع أثاث المنزل لبيت المال ليد جابر واد الطيب ولم أحتفظ الا بالاشياء الضرورية للحاجات اليومية

وكنت قد سمعت عند وصولى عن شجاعة حماده وجلده فبحثت عنه ووجدته في حالة مروعة.فقد كانت جروحه من كتفيه الى ركبه واسعة متهرئة وكان الموكلون

بتعذيبه يدرون عليها الملح والفلفل لكي يستخرجوا منه وهو فى هذه الآلام اعترافا بمكان أمواله

ولكن كل هذا التعذيب لم يكن ليحدوه الى الاعتراف . فذهبت وأنا يائس الى خالد وأخبرته بحالة هذا المسكين ورجوته ان يسمح لى بنقله الى منزلى لكي أعالجه . فقال خالد لى « انه رجل ماكر اخفى أمواله وأهانني علناً ولهذا يستحق ان يموت موتة شنيعة »

فقلت له « أرجوك بحق الصداقة القديمة أن تعفو عنه وتسلمه لى »

فقال « حسنا . أفعل ذلك إذا ركعت أمامي » . والركوع في السودان علامة الهوان العظيم فشعرت بالدم يصبغ وجهى ولو انى دعيت الى هـذا العمل لكي أنجى حياتي لما قبلت ولكنى رضيت بهذه الفضيحة لكي أنجي هذا الرجل التعس من آلامه المروعة . وترددت لحظة ثم ضبطت نفسى وركعت ووضعت يدىّ على قدميه العاريتين فرفعهما وكأنه خجل مما طلب منى وانهضني وقال : « سأعفو عن حماده لاجلك ولكن عدني بانه اذا أخبرك عن أمواله ان تبلغنى »

فوعدته بذلك وأرسل معى رجلا الى حماده فهتفت بالخدم وحملناه على عنجريب ونحن نرفق به كل الرفق الى منزلى ثم غسلنا جروحه ونضحناها بالزبدة لكي تخفف آلامه ولم يكن من الممكن ان يعيش كثيراً وقدمت له حساء فطفق يلعق أعـداءه بصوت خافت . وبقى فى منزلى اربعة أيام ثم طلب منى أن أقعد بجانب فراشه وأشار الى الخدم بالخروج . ثم همس الىَّ كلمات لا أكاد أسمعها وقال : « لقد حان حيني . والله يجازيك الجزاء الحسن على ما أسـديته الىَّ من رأفة وشفقة . ولست أستطيع مكافأتك ولكني أريد ان أظهر لك اعترافى بجميلك . اقد خبأت اموالى »

فصحت به : « قف هنا . هل تريد أن تخبرني عن مكان اموالك ؟ »

فقال نعم « لعلك تستفيد منها »

فقلت : كلا . لن أستفيد منها . فقـد جئت بك هنا على شرط ان أخبر خالد بالمكان الذي أخفيت فيه أموالك اذا علمت ذلك . وأنت قد تألمت وقاسيت كثيراً

وتوشك ان تفقد حياتك لاصرارك على اخفاء أموالك ومنعها من ان تقع فى يد اعدائك . فدعها اذن فى الارض حيث هى فستبقى صامتة »

وكنت وأنا أتكلم قد اخذ حماده يدى فى يده فقال :

« شكراً لك . الله يغنيك عن اموالى . الله كريم » ثم مد ساقيه وذراعيه ورفع سبابته قليلا وقال :

« لا اله الا الله محمد رسول الله » وأغمض عينيه وأسلم روحه

وتأملت فى هذه الجثة الممزقة فامتلأت عيناى بالدموع وتساءلت : كم بقي لي من السنين أتحمل فيها الآلام حتى أرتاح هذه الراحة الاخيرة . ثم ناديت الخدم وأمرتهم باحضار رجلين صالحين لغسل الجثة ولفها فى قماش وذهبت انا الى خالد لكي أخبره بموته . فقال لى

« ألم يخبرك عن مكان امواله »

قلت : « كلا . فان الرجل قد تصلب فلم يفش سره » فقال : « لعنة الله عليه . ولكن بما انه مات فى بيتك فادفنه وان لم يكن ليستحق الدفن وكان اجدر بنا ان نلقيه كالكلب على التل »

فتركته وذهبت الى منزلي حيث دفنا حماده امام المنزل بعد الصلاة المعتادة

وكان خالد غاية فى الخبث والدهاء يقسو على موظفي الحكومة السابقين ويساهل الاهالى بلا داع . وكان يضع قرابته في الوظائف وكان مع اجتهاده فى أخذ أموال الاهالى يتجنب كل ما من شأنه أن يحدث استياء عاما . وكان يحتفظ لنفسه بمعظم الايرادات ويرسل من وقت لآخر هدايا للمهدى والخلفاء وكانت هداياه عدة فتيات وسيمات أو بعض خيول عتيقة أو بعض الجمال وذلك لكي يبقى محمود الذكر عند مولاه وولىّ نعمته

وكان منزله حافلا بالضيوف والولائم . وقد تزوج مريم عيسى باصي اخت سلطان دارفور مع أن عمرها كان فوق الخمسين . وكان لهذه السيدة حاشية مؤلفة من المئات من العبيد والاماء على الطريقة السودانية ولم يخطر ببال خالد انه يجب عليه أن يمارس فضيلة انكار النفس بعض الشيء كما يأمر المهدى . وكان يأمر كل

مساء أن تصف مئات الاطباق والقفع المحملة بمختلف الاطعمة لاتباعه الذين كانوا يقعدون تحت النخيل فيذكرون مدائح المهدى ولا ينسون ذكر الامير خالد من وقت لآخر .

وحوالى هذا الوقت جاءني خطاب مطول من القاهرة بواسطة مدير دنقلة حمله الينا عربي موثوق به . وفي الخطاب أمرني بحصر قوات فىالفاشر وان اسلم المديرية لعبد الشكور بن عبد الرحمن شطوط وهو من سلالة سلاطين دارفور ثم علىّ بعد ذلك أن اخرج بالجيوش والذخائر الى دنقلة . ولكن هذا الامير الذى ذكرلى فىالخطاب كان لا يزال فى دنقلة غير قادر على المجيء الى الفاشر وانا أشك فيما اذا كان وصوله يغير أو يبدل فى الحالة ولم يكن من الممكن حصر قوات الفاشر بالنسبة لروح التمرد الذى فشا بين الجنود ولو كان فى قدرتي أن اجمع الجنود واذهب بهـا الى الفاشر لما كان حينئذ ثم حاجة الى هذا الامير.فان الحكومة كانت تجد فىّ الامانة والكفاية أكثر مما تجد فيه . واطلعت خالد على هذا الخطاب واذن لى ان اكتب خطابا لاحد الاهالى يحمله هذا العربي الذى جاء من دنقلة فكتبته ولكنى لا أظن انه وصل الى من ارسلته اليه

وجاءتنا اخبار فى هذا الوقت تنبيء بسقوط بحر الغزال الذى كان يتولاه لبتون بك وانفذ المهدى اليه الامير كرم الله لكي يتولى حكومتـه . وكان ليتون بك قد اضطر الى التسليم لان جميع اخوانه تركوه فسلم المديرية بلاقتال فى٢٨ابريل سنة ١٨٨٤ ولو لم يهجره اعوانه لتمكن لبتون بك بواسطة قبائل الزنوج من الاحتفاظ بالمديرية ورد غارات المهدى عنها جملة سنوات

ورغب خالد فى ان يرافقني سيد بك جمعه الذى كان لا يزال مقيما فى القبة وقد قبلت مرافقته على الرغم من دسائسه السابقة . وايضا طلب احد التجار اليونانيين مرافقتى فلم يعارض خالد وكان اسم هذا اليوناني ديمتري زيجاده

وحوالىمنتصف شهر يونيو غادرنا الفاشر انا وزيجاده وكانمعناحرس مؤلف من عشرة رجال وبلغنا الابيض بعد سفر شاق فتلقانا السيد محمود حاكم المهدي بلا حفاوة وامرنا بان نسافر في اليوم التالى الى رهاد حيث يقيم المهدى

الفصل العاشر

حصار الخرطوم وسقوطها

لما هزم المهدى هكس باشا وأباد تجريدته تحقق ان السودان كله قد صار عند قدميه. ولم تكن مسألة الاستيلاء على الخرطوم سوى مسألة وقت . وكان أول أعماله عندئذ ان أرسل قريبه خالد الى دارفور حيث كان يعرف انه لن يجد أية مقاومة . وبواسطة كرم الله استولى على بحر الغزال وكل ما حدث ان حول الموظفون ولاءهم للخديو اليه . وكان ملك آدم قد خضع وجاء هو وأسرته وسكن الابيض . ورسخت المهدية فى شرقي السودان ووجدت وطنا معداً لها بين العرب الشجعان النازلين هناك . وأبيدت الجيوش المصرية فى سنكات وطانيب وكانت نكبة الجنرال بيكر قد زادت ثقة العرب بأنفسهم وكان مصطفى حوال يحاصر كسله

اما في الجزيرة بين النيل الابيض والنيل الازرق فان صهر المهدى واد البصير هزم الحكومة عدت مرات . وقد كانت هذه حالة البلاد عند ما وصل غوردون الى بربر فى ١١ فبراير سنة ١٨٨٤

وكانت الحكومة المصرية باتفاقها مع الحكومة الانجليزية قد قر رأيهما على ارسال غوردون للسودان اعتقاداً بان معرفته البلاد تسكن الفتنة . ولكن الحقيقة ان هاتين الحكومتين وغوردون نفسه كانوا يجهلون خطورة الحالة فى السودان . فهل كانت الحكومتان تظنان ان غوردون لشجاعته الشخصية واشتهاره بالرفق بالفقراء فى دارفور يستطيع ان يقف تيار التعصب ؟ وهل كان نفوذ غوردون يمكنه من تهدئة عرب الجعاليين النازلين بين بربر والخرطوم وفى الجزيرة ؟

لقد كان عكس ذلك هو المنتظر فان الحاكم الذى أمر بطرد الجلابة من الجنوب فى حرب الزبير كان خليقا بان يكرهه عرب الجعاليين لا ان يحبوه . فان أمر غوردون بطرد الجلابة فقد أفقد عدداً كبيراً من الجعاليين من آبائهم او اخوتهم او اقاربهم ولم يكونوا ينسون ان غوردون هو السبب فى كل ذلك

وفى ١٨ فبراير وصل غوردون الى الخرطوم فتلقاه الناس والموظفون بالبشر والحماسة وكان المتصلون به والمنتفعون منه يعرفون ان الحكومة لن تترك مثل هذا الرجل وحيداً بلا معونة . وكان اول ما عمله انه اذاع منشوراً بتعيين المهدى حاكما على كردوفان والاذن بالنخاسة والرق واقتراح الدخول في مفاوضات مع المهدى وطلب منه الافراج عن الاسرى وأرسل اليه هدايا من الملابس الثمينة . ولو ان غوردون اذاع هذا المنشور ومعه قوة فى الخرطوم يستطيع ان يسير بها الى كردوفان لتم له ما أراد ولكن الاخبار بلغت المهدى بأنه جاء الخرطوم وليس معه سوى عدد قليل من الحرس. ولا شك فى ان المهدى تعجب من غوردون كيف يمنحه بالكلام ما حصل عليه هو بالسيف وما لا يمكن غوردون ان يسترده منه . وقد رد عليه المهدى بخطاب طلب فيه منه ان يسلم المدينة ويحقن بذلك دمه

وكان الخليفة عبد الله يد المهدى اليمنى . وكانت قرابة المهدى يكرهونه لهذا السبب ويكيدون له. ولكنه كان يعرف تماما ان المهدي لا يستطيع ان يدبر الامور بدونه . فشكا الى المهدى دسائس هؤلاء الناس وطلب منه ان يعترف فى وعظه بما قام به من الخدم المهدية . فاذاع المهدى منشوراً لا يزال يشار اليه الآن كلما احتاج الخليفة عبد الله الى تغيير فى الحكومة او سن قانون من جديد. وهذا المنشور يقضي على جميع اتباع المهدى بالطاعة للخليفة وان ينظروا اليه كأنه نائب المهدى الذى يقوم بتنفيذ مشيئته

ولما قل الماء عزم المهدي كما سبق ان ذكرنا على الرحيل بمعسكره الى رهاد وهى على مسيرة يوم من الابيض. وحوالى منتصف ابريل تم انتقال هذه الكتلة العظيمة المؤلفة من رجال ونساء وصبيان

وكان المعسكر فى رهاد عبارة عن بحر طام من العشش المصنوعة من القش يمتد الى أبعد ما يصل اليه النظر وكان المهدى يقضي نهاره فى الصلاة والوعظ وسائر واجباته الدينية . وكان قد عين محمد ابو جرجه واليا على الجزيرة وانفذه اليها مع عدد كبير من الاتباع وأمره بأن يرأس الثورة على الحكومة ويحاصر الخرطوم

وهذا هو وصف الحالة كما وجدناها عند وصولنا انا واليوناني زيجاده وسيدبك

جمعه الى رهاد . ولما اقتربنا أرسلت أحد خدمي الى الخليفـة لكي يعلمه بقدومنا . ولكنه تأخر فعزمنا على الركوب اليه بانفسنا

واتخذنا الطريق المؤدى الى سوق وسمعنا صوت الاومبية (الطبل) التى تؤذن عقدم الخليفة . واتفق اني وجدت أحـد اهالى دارفور فسألته عن معنى دق الطبل فقال لى « الارجح ان الخليفة عبد الله قد امر بقتل احد الناس وهذا امر للناس لكي يشهدوا القتل »

ولو كنت من الذين يؤمنون بالتفاؤل والتشاؤم لتشاءمت من هذه المقابلة حيث يقتل انسان عند اول دخولي المعسكر . ولكننا سرنا حتى بلغنا مكانا رحبا مكشوفا ورأيت خادمي ووراءه رجل آخر وكلاهما يسرع الينا . وصاح بنا هذا الرجل وقال : « قفوا حيث انتم . فان الخليفة وحرسه قد خرجوا لقائكم وكان يظن انكم خارج المعسكر »

« ووقفنا وعاد الرجل يخبر الخليفة بوصولنا . وبعد دقائق رأينا جمعا من الفرسان وحولهم جمع آخر من المشاة المسلمين وهم يسـيرون على ايقاع الطبل . ووراء هذا الجمع رأينا الخليفة نفسه وكان قد وقف والي يمينه ويساره صفان من الفرسان ينتظرون أوامره . وأمرهم الخليفة بان يشرعوا فى رياضة خيولهم . وكانت هذه الرياضة عبارة عن أربعة من الفرسان يخرجون بخيولهم صفا واحداً ويجرون شوطا ثم يعودون أدراجهم ويكررون هذا الجري عدة مرات حتى يضطرهم الاعياء الى الراحة و كانوا يركضون خيولهم الى مكاننا ورماحهم مشرعة حتى اذا بلغونا هزوا الرماح قريبا من وجوهنا وقالوا : « فى شأن الله ورسوله » ثم ركضوا خيولهم ثانيا الى مكان الخليفة

وبعد ان تكرر هذا الركض نحو نصف ساعة جاءنى احد خدم الخليفة وأخبرني بان الخليفة يرغب فى أن أركض على هذا النحو اليه ففعلت ذلك وهززت في وجهه الرمح وقلت : « فى شأن الله ورسوله » وعدت الى مكاني

فارسل الىّ يطلب منى ان اتبعه وبعد قليل بلغنا منزله . وساعده على النزول عن جواده خادم . اما سائر الفرسان فوقفوا على مسافة منه ثم اختفى وراء السياج . وبعد دقائق ارسل الينا يطلبنا فقادنا الخادم الى مكان فسيح داخله منزل من القش حيطانا وسقفاً . وكان فيه عدد كبير من العنجريبات عليها حصر من ورق النخل .

وامرنا بالقعود على عنجريب ثم قدم لنا مزيج من الماء والعسل في قرعة وبعض البلح فاصبنا منهما وانتظرنا مجيء الخليفة ودخل علينا بعد مدة وجيزة فوقفنا فاخذ يدى وضمها الي صدره وقال . « الحمدلله الذي جمعنا . كيف حالك في هذا السفر الشاق ؟ »

فقلت : « شكراً لله الذى أبقانى حتى أرى هذا اليوم . لقد ذهب عنى تعبي عندما رأيت طلعتك » .

وكنت أعرف أن سبيل الحصول على مكانةما لديه هو تمليقه . ثم أعطى يده لسيد بك ولدبعترى فقبلها كل منهما وسألهما عن حالهما . وصرت أتفرس فيه فرأيت أن لون وجهه هو السمرة الخفيفة ووجهه عربي عليه مسحة من الرقة وكانت لاتزال آثار الجدري بادية فيه وكان انفه منقاريا وفمه حسن عليه شاربان صغيران وعلى خده شعر خفيف يتكاثف حول الذقن . وكان ربعة بين القصير والطويل وسطاً بين السمن والنحافة وكان لابساً جبة مرقعة مؤلفة من رقع مربعة كل رقعة تختلف فى اللون عن الاخرى وعلى رأسه طاقية قد تعمم عليها بعمامة من القطن وكان اذا تكلم تبسم فتبدو أسنانه البيضاء

ولما حيانا رغب الينا في الجلوس فجلسنا على الحصير فوق الارض وجلس هو على عنجريب . ثم أعاد السؤال عن صحتنا وأبدى ارتياحه لبلوغنا مقام المهدي . وأشار لاحد الخدم فأحضر لنا طبقاً من العصيدة وآخر من اللحم ووضعهما أمامنا ثم نزل الينا وطلب منا ان نأكل وكان يأكل بشهوة قوية كأنه يستمرىء طعامه كل الاستمراء وكان يسألنا بعض الاسئلة ونحن نأكل . وقال : « لمَ انتظرتم خارج المعسكر ولم تدخلوا بلا اذن وهل يحتاج الناس للاذن لكي يدخلوا بيوت أصدقائهم »

فقلت : « نحن نرجو عفوك . غاب عنا خادمنا مدة طويلة ولم يخطر ببال أحدنا أنك تخرج للقائنا . ولما اقتربنا من المعسكر سمعنا دق الطبل فسألنا عن معناه فقيل لنا ان أحد المجرمين يقتل وكنا ننوى أن نسير وراء الطبل ولكن رسولك جاءنا عندئذ »

فقال : « وهل بلغ من ظلمى انه عند ما تقرع طبولى يظن الناس ان مجرما سيقتل ؟ »

فقلت : « كلا . يامولاى . انت مشهور بالصرامة مع العدل »

فأجاب : « أجل اني صارم . وهذا ما يجب عليّ وستعرف السبب فى ذلك عندما تطول مدة اقامتك معنا »

وكان بعض من يعرفوننى قبلا قد استأذنوا الخليفة لكي يدخلوا ويسلموا عليّ . فأذن لهم الخليفة ودخلوا ولكنهم لم تتح لهم الفرصة للكلام معي سوى عبد الرحمن بن نجا الذى كان فى تجريدة هكس فقد قال لى بلهجة سريعة خافتة :

« خذ حذرك والزم الصمت ولا تثق باحد » فأثر كلامه فيّ ونقشته فى قلبي

ثم غادرنا الخليفة وحوالى الساعة الثانية بعد الظهر أرسل الينا لكي نتوضأ ونذهب الى المسجد وبعد دقائق جاءنا هو وأخبرنا بان نسير وراءه . وكان يسير على قدميه لان المسجد الذى كان قريباً من عشة المهدى لم يكن يبعد عن منزل الخليفة سوي نحو ٣٠٠ ياردة ولما دخلنا وجدناه مزدحما بالمصلين الذين اصطفوا صفاً بعد صف ولما دخل الخليفة تنحوا له باحترام . وفرش على الارض لنا جلدة شاة وأشار هو علينا بان نقعد خلفه . وكان مقام المهدى مؤلفاً من عدة عشش كبيرة محاطة بسياج من الشوك فى الجنوب الغربي للمسجد . وكان فى المسجد شجرة تظل عدداً كبيراً ولكن سائر المصلين كانوا يصطلون الشمس المحرقة . وكان فى المسجد فى أقصي طرفه الامامي الى اليمين عشة صغيرة كان يقعد فيها المهدي بعد الصلاة لمحادثة من يرغب فى رؤيتهم على حدة . وبعد الصلاة دخل الخليفة الى هذه العشة وظننا انه يريد ان يخبر المهدى بمجيئنا . وعاد الينا وقعد معنا وفى الحال خرج المهدى ويمم نحونا . فوقف الخليفة ووقفنا جميعاً وراءه . اما الباقون فقد لزموا مكانهم ولم ينهضوا . وتقدمت انا قليلا فحياني المهدى بقوله : « السلام عليكم » فرددنا عليه بقولنا : « عليكم السلام » ثم مد يده فقبلتها عدة مرات وفعل كل من سيد بك جمعه وديمترى مثلى . ثم أشار علينا بالجلوس ثم وجه الخطاب الىّ قائلا : « هل انت مسرور ؟ »

فقلت : « اجل يامولاى . لقد سررت ونلت السعادة بقربي منك »

فقال : « بارك الله فيك انت وأخويك (يريد ديمترى وسيد جمعه) لقد كانت تبلغنى أخبار المعارك بينك وبين اتباعي فكنت ادعو الله لهدايتك . وقد سمع الله ونبيه لدعائي . وكما خدمت مولاك السابق لاجل المال الزائل يجب ان تخدمنى الآن لان من يخدمنى يخدم الله والاسلام وينال السعادة فى هذا العالم والفرح فى العالم الثاني »

فأبدي كل منا ولاءه وكنت قد أوصيت قبلا بان أطلب مبايعته فانتهزت هذه الفرصة وطلبت ذلك . فدعانا الى ان نركع على طرف جلد الشاة ثم وضع كل منا يديه فى يديه وأقسمنا هذه اليمين :

« بسم الله الرحمن الرحيم . بايعنا الله ورسوله . وبايعناك على توحيد الله ولا نشرك بالله شيئا . لا نسرق ولا نزني ولا نأتى البهتان ولا نعصيك فى المعروف . بايعناك على ترك الدنيا والآخرة (كذا . . .) ولا نفر فى الجهاد »

ولما انتهينا من البيعة قبلنا يديه وصرنا معدودين من انصاره المخلصين ولكننا كنا أيضاً عرضة لان يقع بنا عقاب هؤلاء الانصار . وشرع المؤذن فى الاذان وكان المهدى يؤمنا فيصلى ونحن نكرر ما يقول . ولما انتهت الصلاة رفع الجميع أيديهم يدعون بالنصر للمؤمنين . ثم ابتدأ المهدى فى وعظه

وكان حوله جموع عظيمة من الناس يعظهم عن غرور العالم وزواله ويحضهم على الزهد والا يفكروا الا فى الدين والجهاد وكان يصف لهم ملذات النعيم التى سيلاقيها المؤمنون بمذهبه . الداعون الى دعوته . وكان بعض المتحمسين يقاطعونه بصيحات التواجد والطرب . والحق اني مقتنع بان جميع الحاضرين سوانا كانوا مؤمنين ايماناً حقاً بدعوته . وكان الخليفة قد خرج من المسجد فى مهمة ما ولكنه نبه الملازمين لى ان يطلبوا منا البقاء مع المهدى الى الغروب

وسنحت لي الفرصة عندئذ بان انظر الى المهدى وأتعرف أوصافه . كان طويلا عريض الاكتاف خفيف السمرة متين البنية . وكان رأسه كبيراً وعيناه براقتين وكانت له لحية سوداء وعلى كل من خديه ثلاثة حزوز . وكان أنفه وفمه حسني الوضع

وكانت عادته الابتسام على الدوام واذا ابتسم بدت اسنانه الناصعة وكان أفلج بين ثنيتيه فرجة يتفاءل بها السودانيون ويسمونها فلجة . وكان هذا سبباً فى حب النساء له اذ كانوا يسمونه : « ابو فلجه » وكان يلبس جبة قصيرة قد أجيد غسلها وقد عطرت بالمسك والصندل والورد واشتهرت عنه هذه الرائحة حتى صارت تسمى «ريحة المهدى» وكانوا يقولون انها تماثل رائحة الفردوس ان لم تفقها

وقد قضينا الوقت كله ونحن مكاننا قعود فوق سيقاننا المطوية تحتنا حتى وجبت صلاة المغرب

وفى هذه الاثناء كان يروح ويغدو من المسجد الى البيت عدة مرات . ولما انتهت الصلاة استأذنت فى الخروج لان الخليفة كان قد وعدني بلقائه فى ذلك الوقت. فأذن لي ونصح لى بان الزم الخليفة وأرصد نفسى لخدمته . فوعدته بالطاعة وبلزوم أمره بالحرف ثم قبلنا يده انا وديمترى وسيد بك وخرجنا

وكانت ساقاى قد تخدرتا من القعدة الطويلة حتى ما كدت أقوى على المشي عليهما ولم يبد على سيد بك ألم لأنه معتاد هذه القعدة . اما ديمترى فسار وراءنا وهو يتلفظ ألفاظاً خافتة باللغة الاغريقية يلعن فيها المهدى . ورافقنا ملازم الى منزل الخليفة حيث قعدنا الى وقت العشاء

وأخبرنا الخليفة بأنه بعد ان رآنا في الصباح وفد اليه حسين خليفة مدير بربر فثبت لدينا من ذلك سقوط بربر وكانت الاشاعات قد بلغتنا ونحن على حدود دارفور ولكننا لم نلاق أحداً نتحقق منه هذا الخبر . ويبدو ان المدينة سقطت على يد الجعالين وبذلك انقطعت المواصلات بيننا وبين مصر . وكان هذا الخبر سيئاً للغاية وكنت انتظر لقاء حسين خليفة لكي أتعرف منه صدق هذا الخبر

وغادرنا الخليفة لكي ينام فمد كل منا ساقيه على عنجريبه واستسلم للاقدار

وفي الصباح بعد فطور العصيدة واللبن سمعنا قرع الطبول تؤذن بخروج الخليفة. وأسرجت الخيول فى الحال . وأشرت على الخدم بان يعدوا لنا أنا والسيد بك جمعه جوادين امتطيناهما وأدركنا بهما الخليفة الذى كان قد سبقنا . وكان راكباً جواده بقصد النزهة فقط وكان معه عشرون من المشاة وكان على يمينه رجل اسود ضخم

من قبائل الدنكا وعلى يساره عربي طويل جـداً يدعى ابا نشيكه كان يعاونه في الركوب والنزول . ولما بلغ الرحبة التي كان بها في الامس أمر الفرسان بأن يكرروا الرياضة التي قاموا بها أمس . وبعد مدة سرنا الى نهاية المعسكر حيث أراني الخليفة آثار زريبة وخنادق وأخبرني انها من عمل هكس قبل ان تباد قوته وكان قد مكث هناك ينتظر المدد من تاج الله . وكانت هذه الخنادق مصنوعة لمدافع كروب . وقد أثارهذا المنظر في نفسي ذكرىألمية عن تلك الآلافالتيأبيدت عن آخرها تقريبا وان هذه النكبة هي سبب وجودي في مكاني هذا الآن

وعند رجوعنا عرج بنا الخليفة الى منزل أخيه يعقوب الذي كانت عشته قريبة من عشة الخليفة اذ لم يكن بين سياج كل منهما سوى ممر ضيق . وتلقاني يعقوب بالبشاشة . وبدا عليه من دلائل السرور مثل ما بدا على أخيـه ونصح لي بان أخدم الخليفة بامانة

ويعقوب أقصر من الخليفة عريض الاكتاف مستدير الوجه وبه آثار الجدري وله أنف يرتفع من طرفه وشاربان ولحية خفيفة.وحظه من الدمامة أكثر من حظه من الجمال ولكن طريقته في الحديث عجيبة منحيث اظهاره عطفه علىمحدثه.وكان يخاطبنا وهو يبتسم كما يفعل الخليفة والمهدي . ولا غرابة في ذلك ما دامت أحوالهم في هـذا الرواج . ويعقوب يقرأ ويكتب وقد حفظ القرآن عن ظهر قلبه. اما الخليفة فبالمقابلة الى أخيه يعتبر جاهلا . وهو أصغر سناً من الخليفة ولكنه مستشاره الامينوصاحب الرأي الذي لا يعلى عليـه . وويل لمن يرتأي رأيا يخالف يعقوب او يشتبه في انه يدس له اذ لا رجاء في حياته

واصبنا شيئاً من البلح الذي قدمه لنا ثم استأذنا في الخروج وعدنا الى رقوبه حيث قصـدنا الى المسجد وقعدنا الى الغروب كما فعلنا البارحة وجاء المهدي فوعظ الناس في الزهد في الدنيا والجهاد حتى ينالوا نعيم الفردوس . وتحمس المصلون وقد أسكرهم التواجد فصاحوا بمدائح المهـدي . اما نحن التعساء فكنا نتألم من قعدتنا ونلعن في قلوبنا المهدي والخليفة وجميع من حولهما منالسفلة المنافقين

وفي اليوم التالي طلبنا الخليفة وسألنا هل نرغب في السفر الى دارفور . وكنت

أعرف ان هذا السؤال لم يوجه الينا الا على سبيل الامتحان فاجبنا بصوت واحد إننا نأسف أشد الاسف لفراق المهدى . ورأيت انه كان ينتظر هذا الجواب فابتسم وامتدحنا لحسن اختيارنا

واقترح علينا الخليفة ان نترك عشتنا وأرسل ديمترى مع ملازم الى أميره وكان يونانياً أيضاً وأمر بمنحه عشرين ريالا . فلما غادرنا التفت الى سيد بك وقال : « وأنت ياسيد جمعة مصرى وكل انسان يحب بنى وطنه وعندنا كثيرمن المصريين وكلهم ابن مجرب . ثم انت شجاع يمكن الاعتماد عليك ولذلك يجب ان ترافق أمير المصريين حسن حسين وسيعطيك منزلا ويقضي لك حوائجك وسأعمل أنا أيضاً كل مافيه راحتك »

وسر سيد بك جمعة لهذا الترتيب ثم التفت الخليفة اليَّ وقال : « اما أنت ياعبد القادر فغريب وليس لك أحد سواى . وأنت تعرف العرب فى جنوبي دارفور معرفة جيدة فبناء على أمر المهدى يجب ان تبقى معي ملازما لى »

فاجبت مسرعا : « هذه هي امنية قلبي . وانه لحظ حسن لى ان أتمكن من خدمتك ولك يامولاى ان تثق بطاعتى وأمانتى »

فقال : « اني أعرف ذلك . حماك الله وقوى ايمانك . ولا شك فى انك ستكون ذا منفعة كبري للمهدى ولى »

ثم اختليت بالخليفة فاعاد على مسمعي التعبير عن سروره بخدمتى ومرافقتى له . ثم حذرنى من الاختلاط باقاربه الذين يحسدونه وربما أحدث اختلاطهم بى قطيعة بينى وبينه . وأمر ببناء بضع عشش لي من القش فى الزريبة المجاورة له والتى يملكها ابو انجه (وكان غائباً فى جبال النوبة) وفي أثناء ذلك أبقى بعشتى واحضر الظهر والمساء وأسمع وعظ المهدى . فشكرته شكراً جزيلا ووعدته بالامانة والولاء

وفي اليوم التالى حضر حسين باشا خليفة وبدأ الخليفة فى سؤاله وكان أول ما سأل عنه حالة والى بربر السابق . فاجابه حسين باشا بالجواب المعتاد . فاخذ فى سؤاله عن الحالة فى وادى النيل فوصف له حسين باشا البلاد التى بين بربر وفشودة وقال انها صارت الآن تابعة للمهدى وان المواصلات بينها وبين مصر قد انقطعت.

اما الخرطوم فان غوردون يدافع عنها ولكن عرب الجزيرة قد حاصروها . وكان بالطبع يصف الاحوال بالصيغة التى تروق الخليفة . وكان الخليفة مسرورا بهذه الاخبار وسروره يبدو عليه فى اشاراته واستفهاماته . ووعد الخليفة حسين باشا بان يقدمه في صلاة الظهر للمهدى وا كد له عفوه عنه . وقبل ذلك الميعاد يمكنه ان يستريح معي

ورافقت الخليفة بعد ذلك الي المسجد ومعنا حسين باشا الذى قدم الى المهدى وعاد معي الى منزلى لقضاء الليلة . وتعشينا عند الخليفة كالعادة ثم قمنا الى عشتى . فلما خلا كل منا الى أخيه أعدنا التسليمات والتحيات وصرنا نندب الحالة التى وقعت فيها البلاد والتى أنزلتنا الى هذا الدرك . ثم قلت : « يا حسين باشا اني أعدك بالصمت فاخبرني عن الحالة فى الخرطوم وما يفعل السكان هناك ؟ »

فقال : « وا أسفاه . هى كما وصفت للخليفة . فان اذاعة المنشور باخلاء السودان قد قلبت الحالة وكانت سببا غير مباشر في سقوط بربر . ولست أشك فى انها كانت ستسقط على اية حال ولكن هذا المنشور أسرع فى سقوطها . ولما كان غوردون فى بربر منعته من اتخاذ هذه الخطة ولا أدرى ما الذى جعله يسلكها ثانياً »

وتحدثنا كثيراً عن الاحوال والحوادث التى وقعت لحسين باشا وكان رجلا مسناً وقد تعب فنام . ولكن حديثه أطار النوم من عينى . وجعلت أفكر فى غوردون وقلت فى نفسى هل هذا هو غاية مجهودات غوردون لخدمة البلاد ؟ وهل تذهب ضحايا الرجال والمال بلا فائدة ؟ لقد عولت الحكومة المصرية على ترك البلاد وهى وان لم ننتفع منها فى الماضى سيكون مستقبلها عظيما . وأقل ما فيها تلك الآلاف من الجنود السود الذين يمكن ان يجندوا فى الجيش . وستترك الحكومة هذه البلاد لاهلها وتبقى علاقتها بها ودية وتسحب حامياتها وذخائرها منها وترضى بقيام حكومة محلية

وكان هذا هو الغرض من ارسال غوردون أملا فى ان تقديره بين الاهالى واحترامهم له (وكان هو يكبرهما اكثر من حقيقتهما) يمكنانه من تأدية هذه المهمة . ومن الحقائق ان غوردون كان محبوبا فى المناطق الغربية والمناطق الاستوائية حيث

كسب حب الناس بطيبة قلبه وسخائه . وكان وقت اقامته فى تلك المناطق يكثر من التجوال والسياحة وكان جسوراً عطوفا وقبائل تلك الجهات تقدر هاتين الصفتين . فلا شك اذن فى ان تلك القبائل كانت تحبه ولكنها صارت الآن تعبد المهدى ولذلك نسيت غوردون

وليس السودانيون اوربيين . انهم عرب وزنوج ولا يقدرون العطف والرقة قدرها . وقد اذيع المنشور باخلاء السودان بين العرب واخصهم الجعالين وكانوا يكرهون غوردون لأنهم لم ينسوا بعد ما فعله مع الجلابة

ولما جاء غوردون الى الخرطوم وليس معه قوة يستند اليها عرف هؤلاء العرب انه يعتمد على نفوذه الشخصى في تحقيق أغراضه . ولكن الواقفين على الحالة كانوا يعرفون ان النفوذ الشخصى هو نقطة من بحر فى حل المشكلة السودانية

فما الذى أغراه باذاعة هذا المنشور والاعلان فيه عن اخلاء الحكومة المصرية السودان . وقد نصح له حسين باشا الا يقرأه فى بربر ولكن عندما وصل الى متمه قرأه امام جميع الناس . فهل لم تبلغ غوردون منشورات المهدى التى أرسلها عقب سقوط الابيض ؟ ألم يعرف انه كان يدعو الناس في هذه المنشورات الى اعلان الجهاد على الحكومة وان من يعصيه فى هذا الامر يعتبر خائناً للدين فتصفى املاكه وتؤسر نساؤه واولاده ويصيرون عبيداً للمهدى ؟ ؟

لقد كان غوردون يرمي الى الحصول على معاونة هذه القبائل حتى يتمكن من سحب الحاميات وكان يمكنه ان يتفق معها على ذلك . ولكنه الآن أضاع هذه الفرصة اذ كيف يمكن ان تساعده هذه القبائل اذا كان هو قد اعلن اخلاء السودان ومعنى ذلك ان تترك هذه القبائل لرحمة المهدى ؟ وماذا كان يفعل المهدى بهم لو انه علم انهم عاونوا غوردون على ان يسحب الحاميات ؟ ثم هل كان يمكنهم ان يقاوموا المهدى ومعه اربعون الف جندى كل منهم يحمل بندقية وذلك غير الآلاف المتحمسين الذين يشتاقون الى الدمار والغنائم ؟

كلا . لقد كانت هذه القبائل أعقل واحصف مما حسبها غوردون . كانت تعرف

انه اذا انسحب غوردون من البلاد وتيقن المهدى انهم عاونوه فانه يستأصل شأفتهم ويسبي نساءهم واولادهم . ولم يكونوا هم فى حاجة الى هذه التضحية

واذا لم يكن فى مقدور الحكومة لاسباب سياسية وغير سياسية ان تحتفظ بالسودان فان من العبث ان يرسل غوردون ويضحى به بلا فائدة . ولم تكن ثم حاجة الى رجل ذي مهارة شاذة لكي يسحب جنود الحاميات والذخائر على البواخر الى بربر بحجة رفع الحصار عن المدينة وعندئذ تسحب جميع الحاميات او معظمها . ولكن كان ينبغى السرعة فى هذا العمل ثم هو لم يكن ممكنا بعد سقوط بربر . ويجب ان نذكر ان بربر لم تسقط الا في ١٩ مايو اى بعد ثلاثة اشهر من وصول غوردون الى الخرطوم . وعلى كل حال نقول ان اذاعة منشور غوردون قد عجل سير الاحوال الى حد مزعج . فان الاهالى عرفوا نية الحكومة فى اخلاء السودان وصار كل منهم ينظر الى الى مصالحه الخاصة التى صارت على خلاف مع مصالح الحكومة التى قلبها مواطنهم المهدى

ولم يكن فى مقدور غوردون مع صفات الشجاعة والنشاط التى يتصف بها بحق ان يقف سير الاحوال بعد ان ارتكب هذه الغلطة السياسية الكبرى

ولقد كنت أتقلب فى العنجريب وانا في هذه الافكار بينما كان حسين باشا يغط فى نومه . ورأيت ان الايمان بالقضاء والقدر يفيد فى مثل هذه الساعة ولكنى كنت مازلت اوربياً لم تبلغ نفسي هذه المرحلة وان كنت قد تعلمت بعد ذلك ان أنظر الى الاشياء نظر التسليم والهدوء وعلمتنى تجاربي فى السودان ان أمارس تلك الفضيلة الكبرى ، فضيلة الصبر

وانتشرت بعد ايام قلائل اشاعة بان غوردون أغار على ابى جرجه وجرحه وأن قواته التى كانت قد طوقت الخرطوم قد وقعت وهزمت . فامتلأ قلبي سروراً بهذه الاخبار وان كنت قد تظاهرت بعدم المبالاة

ووصل الى معسكرنا صالح واد الملك وكان قد سلم نفسه في فيداس ثم أرسله ابو حرجه بعد ذلك الينا . وعفا عنه الخليفة والمهدى فأثبت هذه الاخبار وأمدنى ببعض معلومات عن غوردون

وفي هذا المساء استدعاني الخليفة للعشاء معه وما كدنا نشرع فى تمزيق كتلة اللحم الكبيرة التي أمامنا حتى سألني قائلا : « هل سمعت الاخبار اليوم عن الحاج محمد ابى جرجه ؟ »

فقلت وانا أشعر بالنفاق : « كلا . لم أترك بابك طول اليوم ولم ألتق باحد »

فقال الخليفة : « لقد فاجأ غوردون الحاج محمد من البر والبحر وكان البحر الازرق في الفيضان . وقد أحاط البواخر بما يمنع رصاص البنادق من الوصول الى جنده . هذا الكافر رجل ماكر ولكنه سينال عقاب الله . وقد تقهقر رجال الحاج محمد وغوردون الآن فى طرب النصر ولكنه مخدوع فان الله لا ينصر الا الذين يؤمنون به وسينتقم الله منه قريبا . وليس الحاج محمد ذا كفاية ولذلك سيرسل المهدى واد النجومي لكي يطوق الخرطوم »

فقلت وأنا أقصد عكس ما أقول : « أرجو ألا يكون الحاج محمد قد خسر خسائر فادحة »

فقال الخليفة بحق : « لا حرب بلا خسارة ولكني لم أقف على التفاصيل بعد »

وكان انتصار غوردون قد عكر مزاجه فذهبت عنه دماثته وكان يبدو عليه انه يخشي النتائج لهذا الانتصار . ولما ذهبت الى عشتى بعثت خادمي لكي يدعو صالح واد الملك سراً لزيارتي . فأخبرته بان الخليفة يؤيد رواية انتصار غوردون فقال لى انه سمع أيضا هذا الخبر من أفراد قرابته . وامتلأ قلبي بهجة وطربا لهذا النصر ووجدت نفسى أتحدث وانا كلى رجاء بالمستقبل ولكن صالح كان يعد هذا النصر وقتيا وكان يبنى اعتقاده هذا على أسباب معقولة

وأخذ يوضح لى الحالة بقوله انه عند ما وصل الى الخرطوم بدأ تأثير المنشور عن اخلاء السودان يظهر وزادت لذلك صعوباته . وصارت قبائل الجعالين تجتمع وقد اختارت لها الحاج على واد سعد رئيسا وقد اجتمعت لديه قوة كبيرة ولكنه لاسباب شخصية كان يميل الى الحكومة فجعل يسوف في القتال

ورأى القناصل في الخرطوم ان الحالة تتفاقم فطلبوا من غوردون ان يرسلهم الى بربر . وقد كان مما يشك فيه ان يصلوا سالمين الي بربر ولذلك نصح لهم غوردون

بالبقاء فى الخرطوم فبقوا . اما اهالى الخرطوم فقد أخذوا يتوجسون من غوردون لانهم تحققوا من المنشور ان غوردون انما جاء لكي يسحب الحامية وان كانوا قد عرفوا بعد ذلك ان غوردون انما جاء لكي يدافع عنهم أو يموت معهم

وجمع الشيخ عبيد وهو من أكبر مشايخ الطرق فى السودان اتباعه في حلفا لكي يحاصر بهم الخرطوم . وأرسل غوردون بعض الجيش بقيادة حسن باشا حسين الذى كان حاكما على شقه لكي يجلوا المحاصرين عن أماكنهم ووقف غوردون على سطح قصره يراقب جنوده منه بتلسكوبه فرأى بعض ضباطه يفاوضون الثائرين في التسليم فاحضرهم فى الحال وعقد لهم محكمة عسكرية ثم ضربوا بالرصاص . ولكنه على الرغم من هذه النكبة تمكن من تخليص الشايجيه وكانوا موالين للحكومة فانه ندب لهم السنجق عبد الحميد واد محمد فأنقذهم وأحضرهم الى الخرطوم

وكان صالح واد الملك في فيداس قد طوقه الثائرون فرجا غوردون ان يفك الحصار عنه ولكن غوردون لم يتمكن من ذلك فاضطر الى التسليم ومعه ألف وأربعمائة من الجنود غير النظاميين وذخائرهم • وبعد هذا النصر جمع الحاج محمد أبو حرجه جميع سكان الجزيرة لمحاصرة الخرطوم

وبينما كانت هذه الاحوال تجرى حول الخرطوم كان محمد الخير معلم المهدى السابق وكان قبلا يدعى محمد الذكر قد أتي الى النهر فعين المهدى تلميذه السابق أميراً على بربر ووضع جميع القبائل فى تلك المديرية تحت تصرفه • فجمع محمد الخير جميع أنصاره من الجعالين قبيلته وأمدهم بعدد كبير من البرابرة والبشارية وسائر العرب ثم طوق بهم مدينة بربر فلم يمض عليها بضعة أيام حتي سقطت

وكانت مديرية دنقلة لاتزال ثابتة على ولائها للحكومة وذلك يرجع الى مكر مديرها مصطفى بك ياور • فانه عرض تسليم المدينة الى المهدي مرتين ولكن المهدى توجس شرا منه لانه تركي وارسل احد قرابته سيد محمود على لكي يشترك هو وامير الشايجيه الشيخ حداى في تسليم المدينة • فلما علم مصطفى بك ياور ذلك وكان عنده فى ذلك الوقت ضابط انجليزى (هو اللورد كتشنر) يشجعه على القتال

جهز جيشا واوقع بحداى ثم سحق المهديين في كورش وقتل الاميران محمود وحداى

اما فى سنار فلم تكن الحال على ما يرام . فقد حوصرت وكان المدخر بها من القمح كثيرا ولكن مواصلاتها كانت مقطوعة وحاول الحاكم نور بك ان يرد المحاصرين فنجح وارجعهم الى مسافة بعيدة

وجاءت الخطابات تترى الى المهدى رجاء ان يقدم الى النهر ولكنه لم يكن فى حاجة الى العجلة اذ كان متأكدا ان السودان كله قد صار في يديه وانه لا يمكن ان يؤخذ منه الا بجيش مصري او اجنبي كبير . وكان يعرض الجيش كل يوم جمعة ويحضر العرض بنفسه وكان جيشه مؤلفا من ثلاثة اقسام يقود كل قسم منه خليفة ولكن الخليفة عبد الله كان يسمي « رئيس الجيش » وكان قسمه يسمي الراية الزرقاء وكان اخوه يعقوب ينوب عنه وكان الخليفة على واد حلو يقود قسم الراية الخضراء . اما الراية الحمراء او راية الاشراف فكان يقود قسمها الخليفة محمد شريف وكان للامراء الاصاغر رايات خاصة

وكان امراء الراية الزرقاء يصفون جنودهم يوم العرض بحيث تواجه الشرق

وكان جنود الراية الخضراء يصفون امامهم بحيث يواجهون الغرب . ويصل بين هذين الصفين جنود الاشراف وامراؤهم بحيث يواجهون الشمال

وكانت جنود المهدي قد كثر عددها فكان العرض يحتاج الى ميدان كبير جدا مفتوح من ناحية واحدة يدخل منها المهدى ومعه صحابته . ويقول آخر انه سمع اصواتا من السماء تبارك فى انصار المهدى وتعدهم بالنصر . بل بعضهم يقول ويؤكد انه رأى الملائكة تبسط اجنحتها وتؤلف سحابة تقي الجيش وهج الشمس

وبعد ثلاثة ايام من وصول خبر هزيمة الحاج ابو حرجه وصل الينا فى رهاد رجل ايطالى يدعي يوسف كوزى آتيا من الخرطوم . وكان قبلا فى بربر فلما سقطت تركه المسيو ماركه وكيل شركة ديبورج لكى يتمم بعض الحسابات فى بربر وارسله محمد الخير بعد سقوط بربر الى ابو حرجه وهذا بعثه الى غوردون بخطاب ولكن غوردون رفض ان يتلقاه ورده الى خطوط العدو على الشاطىء الشرقي للنيل الازرق فلما وصل الى المهدى ارسله ثانيا الى غوردون بصحبة رجل يوناني يدعى جورجي كالاماتينو ومعه خطاب الى

غوردون يطلب فيه منه التسليم . وارسلت انا على يد هذا اليوناني بضع كلمات لكي يحملها الى غوردون سرا . واذن لليوناني بان يدخل الى الخرطوم . اما كورى فلم يؤذن له لان الضباط اتهموه بانه عند ما دخل فى المرة الاولى دعاهم الى التسليم

ولما انتهى شهر رمضان استدعى ابو انجه ومن معه من القوات فى جبل الدائر وأعلن المهدى عندئذ ان النبى قد أوصى اليه ان يقوم الى الخرطوم ويحاصرها بنفسه وأمر جميع الامراء بجمع رجالهم والتهيؤ للسفر وكل من يتخلف عن هذا الجهاد تصفى املاكه

ولكن الناس الذين لم يكن لحماستهم حد لم يكونوا فى حاجة الى التحذير من التخلف فانهم كانوا يهرعون الى القتال وكل منهم طامع فى الغنيمة التي تنتظر انتصار المؤمنين . وكانت نتيجة اعلان المهدى الجهاد ان هاجر الناس جملة وكانت هجرتهم لامثيل لها فى تاريخ السودان

وغادرنا رهاد فى ٢٢ اغسطس وكانت قوات المهدى تسير فى ثلاث طرق مختلفة . فاتخذت القبائل التى تحمل على الجمال الطريق الشمالى . وكان طريقها على فرس وصلبة وطرة الحضرة . اما الطريق الوسطى التى تمر على طيارة وشرقله والشط ودويم فقد اتخذها المهدى والخلفاء والامراء . اما البقارة وسائر القبائل التى لها مواش فقد اتخذت الطريق الجنوبية . وكنت انا بالطبع ملازماً للخليفة أرافقه ولكني كنت عند ما تحط رحالنا أرسل في طلب صالح واد الملك الذى كان فى رفقة المهدى . وكان الخليفة لسبب لا أعرفه يكرهه وأمرنى بان الزمه انا وخدمي وكلف ابن عمه عثمان واد ادم بان يعني بامري . ومع ذلك كنت أدقق من وقت لآخر لرؤية صالح واد الملك وكان واقفاً على الدوام على الحالة فى مديريات النيل

ولما كدنا نبلغ شرقله شاعت اشاعات عن رجل مسيحي مصرى وصل الى الابيض وانه فى طريقه الى المهدي . وكان البعض يقولون انه امبراطور فرنسا وآخرون يكذبونهم ويقولون بل هو قريب ملكة انجلترا . فلم يكن ثم شك فى ان الرجل أوربي فشعرت باشد الشوق لرؤيته

وأخبرني الخليفة فى المساء بان رجلا فرنسيا وصل الى الابيض وانه بعث فى

طلبه واحضاره الى المهدى . ثم قال : « هل أنت فرنسي وهل عندكم في بلادكم قبائل مختلفة كما هو الحال فى السودان ؟ »

وكان الخليفه يجهل اوربا كل الجهل فجعلت أنير ذهنه عن الموضوع بقدر إمكاني. ثم قال الخليفة : « ولكن ما يريد منا رجل فرنسى يأتى الينا ويقطع هذه الطريق الطويلة؟ عسى ان يكون الله قد هداه الى الصراط المستقيم »

فقلت : « لعله يبقى فى صحبتك وصحبة المهدى »

فنظر الىّ الخليفة وكان لا يصدق قول وقال : « سنرى »

ثم بلغنا شرقله وما كدنا نحط رجالنا حتى أرسل اليّ مولاى وقال: « ياعبد القادر لقد وصل الفرنسي الينا وأمرت باحضاره هنا . فانتظر واسمع ما يقوله اذ ربما نحتاج اليك »

ثم جاءنا حسين باشا وبدا لى ان الخليفة استدعاه. وبعد مدة جاءنا ملازم وأعلن ان الرجل الغريب واقف امام الباب فاذن له بالدخول . ورأيته رجلا طويلا حوالى الثلاثين من عمره وكانت الشمس قد لوحت وجهه . وكان شارباه ولحيته خفيفة اللون وقد لبس الجبة والعمامة . وحيا الخليفة بقوله: « السلام عليكم » . فلم يتحرك الخليفة من العنجريب بل أشار عليه بالقعود وبدأه بقوله : « لمَ جئت هنا وماذا ترغب منا ؟ »

فأجاب بلهجة غريبة غير مفهومة بانه فرنسى جاء من فرنسا

فقال الخليفة : « تكلم بلغتك مع عبد القادر وهو يوضح لنا ما تقصد »

فتحول الغريب الىّ ونظر الىّ متوجساً وقال بالانجليزية « نهارك سعيد يا سيدى »

فقلت : « هل تتكلم الفرنسية . انا اسمي سلاطين . الزم الجد ولا تتطوح . وبعد ذلك يمكنك ان تخبرنى على حدة ما تريده »

فتذمر الخليفة قائلا : « ماذا تقولان ؟ اني أعرف ماذا يطلب ؟ »

فقلت له : « أخبرته يامولاى عن اسمى وطلبت منه ان يتكلم بصراحة لانك أنت والمهدى قد وهبكما الله معرفة ما يدور فى أفكار الناس »

وأسعفني حسين باشا وكان قاعداً خلفي فقال : « هذا حق. الله يطيل عمر الخليفة ثم التفت الي وقال : « لقد أحسنت في تنبيه الغريب »

فسر الخليفة لهذا التمليق وقال : باحثه عن غرضه »

فقال الغريب بالفرنسية : « اسمي اوليفيه بان . وانا رجل فرنسي . ومنذ صباي وانا متعلق بالسودان . أحب أهله . وجميع أهل بلادي يشعرون شعوري . ونحن في اوربا بيننا وبين بعض الامم أحقاد . والامة الانجليزية هي احدى هذه الامم وقد ارسخت قدمها في مصر وأحد قوادها غوردون موجود الآن في الخرطوم فانا جئت لكي أقدم للمهدي مساعدتي انا وامتي »

فقال الخليفة بعد أن ترجمت له هذه الاقوال « أية مساعدة ؟ » فقال اوليفيه بان : « مساعدتي الآن هي النصيحة . ولكن امتي ترغب في صداقتكم وهي مستعدة لمعاونتكم بالمال والسلاح بعد شروط »

فقال الخليفة وكأنه لم يسمع ماقاله له : « هل أنت مسلم ؟؟ »

فاجابه : « اجل . انا مسلم منذ زمن طويل وقد أعلنت اسلامي في الابيض »

فقال لي الخليفة : « اقعد أنت وحسين باشا هنا مع هذا الفرنسي وسأذهب انا الى المهدي لكي أخبره عنه وأعود »

فلما غادرنا الخليفة حييت هذا الغريب وعرفته بحسين باشا ولكن شعرت بشيء من الكراهية له لعلمي انه قدم لمساعدة أعدائنا . ولكن مع ذلك نبهته الى أن يحذر في كل ما يقوله وأن يدعي ان الباعث له على المجيء هو الايمان لا الاغراض السياسية . واغتاظ حسين باشا من هذا الفرنسي حتى قال لي بالعربية : « هل تقديم المال والسلاح لهؤلاء الناس يعد سياسة ؟ هؤلاء الناس ليس لهم غرض الا القتل ونهب الناس واستعباد النساء والبنات . لقد كنتم تنسبوننا الى القسوة والشر وتعاقبوننا حين كنا نشترى العبيد السود مع ان العبد الاسود لايمتاز على الحيوان الا في انه يقدر على حرث الارض »

فقلت . « معلهش اللى عمره طويل بيشوف كتير »

وأخذنا كلنا نفكر ونتأمل كل في حاله ننتظر مجيء الخليفة . وبعد مدة عاد الينا وأمرنا بالوضوء استعداداً للصلاة مع المهدى . فتوضأنا وذهبنا الى مكان الصلاة ووجدنا عدداً عظيما من الناس كلهم يبالغون ويهولون في شأن هذا الغريب الفرنسي .

ولما أخذ كل منا مكانه جلس اوليفيه بان في الصف الثاني وجاء المهدي عندئذ وكانت جبته نقية معطرة وعمامته قد رتبت طياتها ترتيباً يفوق المعتاد وعيناه مكحلتين لهما بريق شديد وكان يبدو عليه أنه عنى عناية كبيرة لكي يؤثر بهيئته في الناس . ولا شك فى أنه شعر بالسرور والزهو لرؤيته رجلا يأتيه من بلاد بعيدة يعرض عليه المعاونة

وقعد على سجادة وطلب اوليفيه بان وحياه بابتسامة ولكنه لم يصافحه ثم أذن له بالقعود وسأله عن سبب مجيئه وكنت انا المترجم بينهما

وأعاد اوليفيه بان حكايته فطلب منى المهدي أن أترجم أقواله بصوت عال يسمعه جميع الحاضرين . ولما انتهيت قال هو أيضا بصوت عال : « لقد سمعت أقوالك وفهمت مقاصدك ولكني لا أعتمد على معونة الناس وانما أعتمد على الله ورسوله . فان أمتك غير مؤمنة ولا يمكننى أن أعقد محالفة بينى وبين أمة غير مؤمنة وبمعونة الله سنهزم أعداءنا ونظفر بهم بواسطة الانصار والملائكة الذين يبعثهم الينا النبى »

وعلا الهتاف من آلاف المجتمعين عند سماعهم هذا الكلام . ولما عاد النظام والسكون قال المهدى : « تقول انك تحب الاسلام وتعترف انه حق فهل تؤمن به ؟ وهل أنت مسلم ؟ »

فقال الفرنسى : « أجل . اني مسلم . لا اله الا الله محمد رسول الله »

فمد المهدى يده فقبلها ولكنه لم يطالبه بيمين الولاء . ثم جاء ميعاد الصلاة فنظمت الصفوف وقضينا الصلاة . ثم وعظنا المهدى وشرح لنا الزهد فى الدنيا وكيفية النجاة وخرجنا مع الخليفة الذى أشار علىّ بان آخذ اوليفيه بان معى الى عشتى وأنتظر أوامره

وخلا كل منا الى الآخر فتحادثنا مليـاً لا نخاف شيئاً . وكنت أكره المهمة

التى جاء من أجلها ولكن أيضا كنت اتحسر عليه لجهله فأعدت عليه التحية ورحبت به وقلت له : «والآن يا عزيزى اوليفيه بان نحن هنا وحدنا ان يزعجنا أحد فلنتكلم بصراحة . ولو اني لا أوافق على مهمتك ولكن أؤكد لك باني سأعمل كل ما في استطاعتي للمحافظة عليك . لقد عشت انا هنا جملة سنوات بعيدا عن المدنية فاخبرني عما يحدث الآن في العالم ؟ »

فقال لى : « انى أثق بك كل الثقة . واعرف اسمك واحمد المقادير التى جمعتنى بك وهناك عده أشياء تهمك معرفتها ولكن اقصر كلامي الآن على مصر »

فقلت له : « اخبرني اذن عن ثورة عرابي باشا والمقتلة التى حدثت بسببه وتدخل الدول واحتلال الانجليز مصر »

فقال . « انا محرر في جريدة ألانديبندانس التى برأس تحريرها روشفور الذى أظن أنك سمعت عنه . وأنت تعرف ان فرنسا وانجلترا نقيضان فى السياسة واننا نضع فى وجه انجلترا كل ما يمكننا من العراقيل - ولم أحضر انا ولى صفة النيابة عن امتى بل جئت بصفتى الشخصية فقط ولكن الامة تعلم بمجيئي وتوافق عليه . وقد عرف ولاة الامور الانجليز مقاصدي وقبضوا عليَّ فى وادى حلفا لارجاعي ولكن لما بلغت اسنا اتفقت مع العرب على أن يحملوني سراً الى الابيض عن طريق الكعب . وقد استقبلنى المهدى مرحبا بى كما ترى ولذلك فاني ارجو الخير على يده»

فقلت : « وهل تظن انه يقبل اقتراحك »

فقال : « اذا رفض اقتراحي فاني أظن انه يعمل لايجاد علاقات حسنة بينه وبين أمتى وهذا يكفيني . وأظن انه بما اني جئت مختارا فهو لا يعارض فى سفرى ثانيا الى بلادى »

فقلت : « هذا مما أشك فيه . قل لى هل لك عائلة ؟ »

فقال . « نعم . لى زوجة وولدان فى باريس وهم لا يغيبون عن بالى وارجو أن اراهم قريبا . ولكنى اخبرنى لم يعارض المهدى في سفرى»

فاجبته قائلا . « اني اعرف هؤلاء الناس والى الآن لا أظن ان هناك ما يدعو الى الخوف على حياتك ولكنى لا اقدر ان اقول متى وكيف يمكنك أن تسافر الى

بلادك . وأرجو أن المهدى يرفض اقتراحاتك التى أظن انها ربما تفيده ولـكني ارجو ايضا أن تعود سالما لعائلتك التي تنتظرك بنافد الصبر »

وكنت قد أمرت الخدم باحضار شيء نأكله وطلبت احضار جوستاف كلوتز (خادم ودنفان الذى كان قد فر من جيش هكس وانضم الى المهدى) لكي يأكل معنا . وما كدنا نشرع في تناول الطعام حتى دخل اثنان من ملازمي الخليفة وطلب من اوليفيه بان أن يتبعهما . فدهش لهذه الدعوة الفجائية وبدا عليه الخوف وهمس الىّ بان اسأل عنه . ودهشت انا ايضا لان لغته العربية لم تكن مفهومة فلماذا يطلبه الخليفة وحده ؟ وكنت أقول ذلك لمصطفى «كلوتز» واذا بملازم يطلبنى انا ايضا . ولما دخلت على الخليفة وجدته قاعدا وحده وأشار علىّ بالقعود فقعدت الى جانبه

ثم قال لى بلهجة الذى يسر الىّ شيئا . « ياعبد القادر انت واحد منا . قل لى ماذا تظن في هذا الفرنسى »

فقلت : « أظن انه مخلص وان قصده حسن . ولكنه لايعرفك ولا يعرف المهدى ويجهل ايضا انكما تعتمدان على معونة الله وحده ولا تحتاجان الى معونة انسانية وان هذا هو سبب انتصاراتكم المتتابعة لان الله يكون على الدوام مع المؤمنين به »

فقال الخليفة : « لقد سمعت كلام المهدى عند ما قال انه لا يرغب في أية علاقة بينه وبين غير المؤمنين وانه يمكنه ان يهزم اعداءه بدون أن يستعين بهم »

فقلت : « هذا أكيد . ولا فائدة من وجود هذا الرجل هنا ويمكنه أن يعود الى وطنه ويخبر الناس هناك بالانتصارات التي يحرزها المهدي وخليفته »

فقال الخليفة : « لعله يفعل ذلك بعد . اما الآن فقد أمرته أن يبقى مع زكي طومال الذى سيعنى به ويقدم له حاجاته »

فقلت له بلهجة التوسل : « ولكنه يجد مشقة عظيمة فى التعبير عن فكره بالعربية اذ هو لايزال يجهلها »

فقال الخليفة : « لقد تمكن من الوصول الينـا بدون مترجم ولكنى مع ذلك اسمح لك بزيارته »

ثم أخذ يتكلم عن أشياء أخرى وأخذني لرؤية الخيول التى أهداها اليه زوجال من دارفور وكنت أعرف بعضها جيدا . وبعد أن تركته ذهبت الى اوليفيه بان فوجدته قد اسند رأسه على يديه وهو فى تفكير عميق . ولما رآني هب واقفاً وقال. « لا اعرف ماذا أقول عن كل هذا . لقد امرونى أن امكث هنا واحضروا لى امتعتى ووكلوا بي رجلا يدعى زكي . فلمَ لم يتركوني امكث معك ؟ »

فقلت بلهجة العطف : « هذه هى طبيعة المهدى والخليفة شر منه في ترتيب الاشياء على ضد ما يرغب الانسان . وانت الآن تمتحن فى الصبر والطاعة والايمان ولكن لاتخش شيئا فان الخليفة يتوجس منا شرا نحن الاثنين ويجب أن نبقى منفصلين حتى لا ننتقد أعماله »

قلت لزكي طومال : « ياصديقى هذا رجل غريب فانا اوصيك به خيرا فكن معه بحق صداقتنا القديمة)

فقال : « لن يحتاج الى شيء استطيع تقديمه اليه »

ثم قال بتؤدة : « ولكن الخليفة امرني ان امنع الناس من مخاطبته فارجوك الا تقابله كثيراً »

فقلت: « هذه الاوامر لاتنطبق عليّ . فانى كنت منذ برهة عند مولاى الخليفة فامرني أن ازور هذا الغريب . فاكرر عليك ان تعامله معاملة حسنة »

ثم عدت الى اوليفيه بان وحاولت ان ادخل السرور في قلبه واخبرته بان الخليفة قد منع الناس من مخالطته وان هذا الامر فى مصلحته لان اختلاطهم به قد يؤدي الى أن يدسوا له عنده ويوقعوا به . اما انا فاني ازوره كلما سنحت الفرصة

وفى اليوم التالى قرع طبل الخليفة ايذانا باستئناف السير . وكانت عادتنا ان نسير من الصباح الى الظهر ولذلك كان سيرنا بطيئا . وكنا عند ما نقف أذهب الى الفرنسي فأجده قاعداً في خيمته كالعادة . وكانت صحته جيدة ولكنه كان يشكو من سوء الطعام . وقال زكي بعد ان سمع هذه الشكوى انه أحضر اليه العصيدة فلم يذقها . فأوضحت له انه غريب لم يألف بعد الطبخ السودانى واقترحت عليه أن أجعل خادمي يهيء له طبقا من الحساء وآخر من الرز . وسألنى الخليفة فى تلك الليلة

هل رأيت أوليفيه بان ؟ فأخبرته بأني قابلته واني وجدته صائما لا يستطيع ان يأكل العصيدة فجعلت خادمي يهيء له طعاما لئلا يمرض ولذلك أرجوه أن يسمح لي بذلك. فوافق الخليفة ولكنه قال : « ولكنك أنت تأكل من طعامنا فيحسن به أن يعتاد هذا الطعام في أقرب وقت . ثم أين مصطفى « كلوتز » فاني لم أره منذ بارحنا رهاد»

فقلت : « انه عندي يساعد الخدم على العناية بالخيول والجمال »

فقال الخليفة : « اطلبه الآن » ففعلت وجاء بعد برهة صغيرة ووقف أمامنا فقال له الخليفة : « أين كنت ؟ اني لم أرك منذ أسابيع . هل نسيت اني مولاك ؟ »

فقال كلوتز في لهجة التأفف : « لقد ذهبت الى عبد القادر باذنك وانت لا تعني بي وقد تركتني وحدي »

فقال الخليفة وهو غاضب : « سأعني بك في المستقبل » ثم هتف باحد الملازمين وطلب منه أن يخبر كاتبه ابن نجا بان يضع مصطفى في الاغلال . وخرج مصطفى وهو لا ينبس بكلمة

ثم قال الخليفة : « ان عند مصطفى وعندك ما يكفيكما من الخدم فيمكنك ان تستغني عنه . وقد كنت اختصصت به ولكنه تركني بدون سبب . فأمرته بان يلزم أخي يعقوب ولكنه تركه أيضاً والآن عندما ذهب اليك قام في ذهنه انه يمكنه أن يستغني عنا جميعا »

فقلت : « اعف عنه فان الرحيم يعفو . ائذن له بالبقاء مع أخيك فلعل هذا يصلحه »

فقال : « يجب أن يبقى مصفداً عدة ايام حتى يعرف انى مولاه وهو ليس مثلك . فأنت تأتي اليّ كل يوم »

وشعرت كأنه يقول هذا لكي يطمئنني لأنه رآني قد تألمت ثم أمر بالعشاء فاحضر وأكلت أنا بشهوة أكثر من المعتاد حتى أوهمه باني راض . وكان قليل الكلام وقت الطعام يبدو عليه كأنه مغموم . وبعد العشاء حاول أن يقول شيئاً يزيل به أثر الكآبة ولكن لهجته كذبته . ثم انفصلنا وعدت الى خيمتي وانا أتأمل في

الحالة . فقد كنت عازما على أن أبقى على وفاق مع الخليفة حتى تتاح لى ساعة الخلاص ولكن صلفه وغطرسته وسوء أدبه قد جعلت هذا الواجب ثقيلا علىّ

وبعد أن سرنا خمسة أيام بلغنا الشط حيث وجدنا الآبار مسدودة فشرعنا فى فتحها وأقمنا بعض العشش هناك لان المهدى قرر الاقامة هنا بضعة أيام . وكنت وقت مسيرنا ازور اوليفيه بان فأجد آماله التى جاء بها تذهب بالتدريج . وكانت معرفته العربية قليلة جداً ولم يكن يؤذن له بالكلام الا مع العبيد الذين كانوا في خدمته . ولم تمض عليه ايام حتى نسي مهمته الاصلية وصار لا يذكر شيئاً سوى زوجته وأولاده . وكنت أحثه على التفاؤل بالمستقبل وان ينزع عن نفسه هذه الكآبة التى لا تنفعه فى شيء . وكان الخليفة قد نسيه تقريبا فلم يكن يذكره ابداً

وبعد وصولنا بيوم الى الشط وافانا محمد الشريف شيخ المهدى السابق الذى كان قد طرده من طريقته وكان أصدقاؤه قد حثوه على ان يذهب اليه ويستغفره

ولكن المهدى أحسن استقباله وسار معه بنفسه الى خيمته وأهدى اليه فتاتين حبشيتين جميلتين وخيولا وغير ذلك . وبهذه المعاملة السمحة جذب المهدى اليه أنصار الشيخ محمد الشريف وضمن ولاءهم

ولما غادرنا شرقلة جاءتنا الاخبار بان جيوش غوردون هزمت هزيمة منكرة . ولما بلغنا الشط جاءتنا تفاصيل هذه الهزيمة التى انتصر فيها الشيخ عبيد على محمد على باشا فى ام درمان . وكانت نتيجة هذا النصر ان الثائرين زادوا ضغطهم فى حصار الخرطوم ولما أمدهم واد النجومي بجيشه وجد غوردون انه لم يعد فى قوته أى فتق فى القوة التى تحاصره .

وخرجنا من الشط الى الدويم حيث عرض المهدى الجيش عرضاً عظيما وأشار الى النيل وقال : « ان الله قد خلق هذا النهر ووهبكم مياهه لتشربوها وقسم لكم أن تملكوا جميع ما على ضفتيه من ارض » فهتف له الجميع هتاف الفرح والسرور وكل منهم يعتقد ان تلك البلاد العجيبة قد وقعت فريسة للمهديين

وغادرنا الدويم الى طرة الحضرة حيث قضينا ايام العيد . وكان اوليفيه بان

الفرنسي قد أصيب بحمى ولما زرته قال لى : « لقد جازفت جملة مجازفات في حياتي دون أن أفكر فى نتائجها ولكن مجيئي هنا غلطة فادحـة . وقد كان أصلح لى لو اني وقعت فى يد الانجليز ومنعوني من تنفيـذ ارادتى » . وكنت أجهد جهدى لكي أعزيه وأسرى عنه ولكنه كان يقابل كلامي بهز رأسه

وفي العيد صلى المهدى بصوت عال غير عادى . ولما وصل الى الخطبـة بكي وانتحب انتحابا مرا . وكنا نحن الذين لا يؤمنون بدعوته نعرف ان هـذا البكاء نفاق ان يعقبه خير لاحد ولكن كانت له النتائج المرغوبة فان قبائل النيل الابيض سارعت الي الانضواء تحت رايته وتحمس الناس أشد تحمس لسماعهم خطبته

وبعد ان استرحنا يومين استأنفنا السفر وكنا نزحف زحفاً كالسلحفاة لكثرة جموعنا وازدياد عددهم يوما بعد يوم . وكانت حالة اوليفيه بان تسوء كل يوم وتبين ان ما به هو التيفوس . ورجاني ان أطلب من المهدي بضعة نقود لان الذين يعنون به يضايقونه بما يطلبونه منه . ففعلت وأمر المهـدى أمين بيت المال بان يعطيه خمسة جنيهات ودعا له بالشفاء . وأخبرت الخليفة بحال بان وبأن المهدى وهبه خمسة جنيهات فلامني لانى فعلت ذلك بدون اذنه . وقال لى : « اذا مات هنا فانه يكون سعيداً فان الله بقدرته قد نقله من الكفر الى الايمان »

وفى صباح اليوم التالى أرسـل إليّ بان فذهبت ووجدته ضعيفاً لا يقوى على النهوض . وكان قد مضى عليه يومان لم يذق فيهما شيئا من الطعام الذى كنت أرسله له ولما قعدت الى جانبه وضع يده فى يدي وقال . « لقد جاءت ساعتى . وانا أشكر لك حنوك عليّ ورعايتك لى . وآخر ما أطلبه منه من المعروف اذا نجوت من هؤلاء المتوحشين وأتيحت لك الفرصة بزيارة باريس ان تذهب الى زوجتي المسكينة وأولادى وتخبرهم انى وانا أموت كنت لا أفكر الا فيهم »

وكان وهو يقول هذا الكلام تنحدر العبرات على خديه الغائرين . وعدت الي تعزيته وتقويته ولـكنى سمعت قرع الطبول فاضطررت الى تركه . وكانت هذه آخر مرة رأيتـه فيها . وأمرت أحد خدمى المدعو نطرون أن يبقى معـه . ثم ذهبت الى

الخليفة فأخبرته بحالته السيئة ورجوته أن يأمر بابقائه في احدى القرى حتى يشفى . فوافق الخليفة على مقترحى وطلب منى ان أذكره بهذه المسألة عند الغروب

ثم جاء الغروب ولكن المريض لم يجيء بل جاء نطرون وحده فقلت له وكان يتفزز من خاطر يساوره : « أين يوسف ؟ » ويوسف هذا هو اسم بوليفيه بان الذى تسمى به حين صار مسلما

فقال : « مات سيدي . وهذا سبب تأخيرنا . وقد دفناه »

فدهشت وقلت : « كيف مات . اخبرني عما حدث »

فقال : « اشتدت به علته حتى لم يستطع الركوب ولكنا كنا مضطرين الى السير . وكان من وقت لآخر يغيب عن وعيه ثم يفيق ويتكلم بكلمات لا نفهمها . فوضعنا على سرج الفرس عنجريباًو ربطناه به وجعلناه يرقد عليه ولكنه كان من الضعف بحيث لم يتماسك فوقه فوقع فجأة ولم يفق بعد ذلك ثم مات فكفناه فى شال من القطن ودفناه وأخذ زكي جميع أمتعته »

فتبين لي ان مرضه كان قد بلغ به وان السقطة قد عجلت الموت وكانت السبب المباشر له . يا له من مسكين . جاء الينا وآماله لا تسعه ثم تكون هذه خاتمته

وذهبت فى الحال الى الخليفة فاخبرته بوفاته فقال : « انه لسعيد » ثم أرسل الى زكي أحد الملازمين لكي يأمره بالاحتفاظ بامتعته ثم أرسلني انا الى المهدي لكي أخبره بوفاته . وتأثر الخليفة وقال بضع كلمات تدل على عطفه وحنانه ثم تلا صلاة الموتى

وبعد ثلاثة أيام اقتربنا من الخرطوم وصرنا على مسيرة يوم منها . وكنا ونحن فى الطريق قد رأينا بواخر غوردون فى النهر وبدا لنا انها أتت الينا للاستطلاع ثم عادت بدوران تطلق عياراً

ولما جاء المساء وضربنا خيامنا جاءنى ملازم من المهدى وطلب منى ان اذهب اليه فذهبت ووجدته قاعداً مع عبد القادر وادام مريم وكان قاضياً سابقاً وله نفوذ عظيم بين قبائل النيل الابيض . وكان حسين خليفة هناك فصرت انا رابعهم

فقال المهدى : « بعثت فى طلبك لكي تكتب الى غوردون ان يسلم المدينة فلا يتعرض للهزيمة . وأخبره بأني المهدى الصادق فعليه تسليم الحامية فيسلم . وأخبره

أيضاً انه اذا رفض التسليم فاننا سنقاتله جميعاً وقل له انك ستقاتله أنت بنفسك وان النصر مضمون لنا وانك انما تقول له ذلك حقناً للدماء »

فالتزمت الصمت حتى دعاني حسين خليفة للاجابة فقلت : « مولاى المهدى . أرجوك ان تنصت اليّ فاني أريد ان أكون أميناً مخلصاً فلا تغضب اذا وجدت في قولي ما يخالف رأيك . فاني اذا كتبت الى غوردون أقول له انك المهدى المنتظر فانه لا يصدقني واذا هددته باني أقاتله بيدى فهو لا يخاف من ذلك شيئاً . ولما كانت رغبتك الوحيدة هي حقن الدماء فاني أطلب منه التسليم فقط . وسأقول له انه ليس عنده من القوة ما يمكنه من قتال المهدى وانه لا أمل له في الحصول على معونة أحد ثم أقول اني سفير الصلح بينك وبينه »

فقال المهدى « أنا موافق على ما تقول . اذهب الآن واكتب الخطابات وفي الغد تحمل الى غوردون »

فذهبت الى خيمتي وكانت خيمتي قد تمزقت وبليت فاهديتها الى بعض من حولي ونصبت بدلا منها بعض الملابس على عصيّ كنت اجلس تحتها وأتظلل بها في النهار . اما في الليل فكنت أنام في الخلاء . وبحثت عن مصباح وأخذت في كتابة الخطابات وأنا قاعد على عنجريب . وكتبت أولا بضعة سطور لغوردون باللغة الفرنسية قلت فيها اني قد فقدت المعجم الفرنسي لان المهديين قد أحرقوه ولذلك فانا اكتب بالالمانية حتى يمكنني التعبير باسهاب عن اغراضي — وقلت اني أؤمل ان ألاقيه قريباً واني أدعو الله لنصره . وقلت أيضا ان بعض الشايجيه الذين انضووا قريباً الى راية المهدى لم يفعلوا ذلك الا خوفا على أنفسهم وأولادهم وان صدورهم لا تحمل الحقد او البغضاء لغوردون

ثم كتبت خطابا مسهبا بالالمانية قلت فيه اني سمعت من جورج كالامنتينو انه (أي غوردون) قد غضب من تسليمي المهدي واني لذلك أوضح الحقائق راجياً منه ان ينظر فيها ويعتبرها ثم شرعت في شرح التجريدات التي جردتها لمقاتلة السلطان هرون « ثم قلت انه عند بدء الثورة المهدية كان الضباط الذين في جيشي يسمعون أخباراً عن عرابي وانه طرد الاوربيين من مصر وان هزائمي تعزى الى اني غير

مسلم . فاضطررت لذلك الى القضاء على هذه الدسائس بالادعاء باني مسلم ونجحت بهذه الطريقة الى ان اصطلم جيش هيكس وانقطع كل أمل في المعونة . وأخبرته عن تناقص جيشي بالحروب المتوالية حتى صار عدده لا يبلغ بضعة مئات من الجنود وان الذخيرة نفدت او كادت . وان الضباط والجنود طالبوني بالتسليم فلم يكن بد بعد ذلك بصفتي أوربيا وحيداً من الخضوع . وأخبرته بان هذا التسليم كان من أشق الاعمال عليّ . ولكني شعرت باعتباري ضابطا نمسويا اني عملت عملا لا أخجل منه . ثم قلت انى بما سلكته من المسلك الحسن مع الخليفة والمهدى قد حصلت على ثقتهما حتى أذنا لي بالكتابة اليه بحجة اني أطلب منه التسليم ولكنى أعرض عليه نفسي لكي أقاتل معه حتى الموت او النصر . فاذا وافق على قرارى لكي انضم اليه فانا أرجو ان يكتب اليّ بضعة أسطر بالفرنسية بهذا المعنى . ولكن لكي تجوز الحيلة يجب ان يكتب اليّ بضعة سطور بالعربية أيضاً يطلب مني فيها ان استأذن المهدي لكي أذهب الى أم درمان للمفاوضة فى الصلح والتسليم ثم أشرت الى ولاء صالح بك وبعض المشايخ الآخرين له ولكنهم لا يمكنهم ان يفروا اليه لانهم في هذه الحالة يضحون أولادهم وزوجاتهم

ثم كتبت خطابا آخر بالالمانية الى القنصل هانسل أرجوه ان يعمل كل ما فى جهده لكي أعود الى الخرطوم وانى اذا رجعت الى الخرطوم أكون ذا فائدة كبيرة لاني أعرف مقاصد المهدي ومبلغ قوته وما الى ذلك . ولكنى أخبرته بانه فى حالة انعقاد النية على تسليم الخرطوم لا داعي لى للهرب فقد ذاعت اشاعة بين رجال المهدى مقتضاها انه اذا لم تأت معونة لغوردون فانه سيسلم . وبدهى انه اذا سلم غوردون ووجدنى المهدي قد فررت اليه فانه يصرف غضبه كله الىّ لاني عاونت عدوه عليه

وقد بدا لى أنه من الانصاف والعقل أن أتأكد من هذه المسألة . وكانت الاشاعات القائلة بان حامية الخرطوم قد سئمت القتال تروج بيننا وانها تنوى التسليم فشددت لذلك من عزم هانسل وقويته على الثبات وان قوات المهدى ليست بالكثرة التى يشاع عنها . وانه يكفى الجيوش المصرية ان تثبت وتنشط حتى يحق لها النصر وحضضته على الثبات ستة أسابيع على الاقل حتي تتمكن النجدات من انجادهم (ولما

عدت الى القاهرة فى سنة ١٨٩٥ علمت ان خطاباتى هذه قد بلغت الى ولاة الامور الانجليز وطبعت مع يوميات غوردون)

وأخبرته ان عندنا اشاعة تقول ان الباخرة الصغيرة التى أرسلت الى دنقلة قد تحطمت في وادى غمر ولـكنى لا أعرف مبلغ هذه الاشاعة من الصحة او الكذب

وفي صباح اليوم التالى فى١٥ اكتوبر أخذت هذه الخطابات وذهبت الى المهدى وأخبرته بان يرسلها مع احد خدمى الى أم درمان . ثم ذهبت وبحثت عن الصبي مرجان فوراً وكان عمره يومئذ ١٥ سنة فسلمته الخطاب أمام المهدى . وأمر المهدي واد سليمان بان يعطيه حماراً ومقداراً من النقود . وقبل ان يغادرنا مرجان أمرته وأكدت عليه بالا يخاطب أحداً سوى غوردون والقنصل هانسل وان يقول لهما بانى أرغب في الذهاب اليهما .

وفى الظهر جاءنا فرسان من بربر وأكدوا لنا رواية تحطيم الباخرة وقتل الضابط ستيوارت ومن معه . وأحضروا معهم جميع الاوراق والوثائق التى كانت في الباخرة وأمرني الخليفة بان أقرأ ما هو مكتوب منها باللغات الاوربية . ووجدت بين هذه الاوراق جملة خطابات مرسلة من الخرطوم ووثائق رسمية أخرى

وكان أهم ما في هذه الاوراق التقرير الحربى الذى يصف الحوادث اليومية فى الخرطوم . ولم يكن ممهوراً بتوقيع ولـكننى لم أشك فى أن كاتبه هو غوردون ولم أطلع الا على جزء من المكاتبات التي لم أنته من قراءتها قبل أن دعاني المهدى وسألنى عن محتويات هذه الاوراق فاجبته بان معظمها رسائل شخصية وان بها تقريراً حربياً لم أفهمه . وكان بين هذه المكاتبات اسوء الحظ بعض الخطابات والتقارير المكتوبة بالعربيه تمكن المهدى والخليفة أن يقفا منها على الحالة فى الخرطوم . وكان بينها خطاب نصفه بالارقام ونصفه بالحروف مرسل من غوردون الى الخديو وقد تمكن عبد الحليم افندى الكاتب السابق في كردوفان ان يفهمه . ووجدت بين تقارير القنصليات خبر وفاة صديقى ارنست مارتو الذى مات فى الخرطوم من الحمى

وناقشني المهدى فى الاوراق التى ترسلها الى غوردون لكي تقنعه بان الباخرة قد تحطمت وان الضابط ستيوارت قد قتل وكان يعتقد ان هذا يجعل غوردون

مضطراً الى التسليم . فاشرت على المهدى بان أحسن ما يقنعه هو تقريره الحربى وانه يجب لذلك رده اليه . وطال الجدال فى هذا الموضوع وأخيراً استقر الرأى على مقترحى .

وفى مساء اليوم الثانى عاد الىّ مرجان الذى كنت أرسلته بخطاب الى غوردون وغيره ولكنه لم يحضر معه جواباً . فلما سألته عن سبب ذلك قال انه عندما وصل الي قلعة أم درمان وسلم الخطابات خرج اليه بعد مدة ضابط القلعة وأخبره بأن يعود وانه لن يجاوب على الخطابات

وأخذت هذا الصبي في الحال الى المهدى فاعاد هذا الجواب ثم ذهبت الى الخليفة وأخبرته بما جرى . وفي المساء نفسه دعاني المهدى وأمرني بأن اكتب خطاباً آخر وقال انه متأكد ان غوردون سيجاوب عندما يسمع بتحطيم الباخرة . وأبديت استعداداً فى الحال لطاعة أمره وأشار علىّ بان يحمل مرجان هذا الخطاب أيضاً فذهبت الى مكاني على العنجريب وقعدت الى ضوء مصباح ضعيف وكتبت بضع كلمات عن فقدان الباخرة ووفاة ستيوارت وذكرت جملة أشياء كنت قد شرحتها فى خطاباتي السابقة وقلت له انه اذا كان يعتقد انى اتيت أمراً يخالف واجبات الضابط وان هـذا هو الذى منعه من الاجابة على خطاباتي فانا أرجوه ان يتيح لى الفرصة لكي أدافع عن نفسي حتى يحكم علىّ حكما سديداً .

وفي الصباح ذهبت مع مرجان الى المهدى . وأمر المهدى احمد واد سليمان ان يعطى مرجان حماراً وسلمه خطابي ثم سافر مرجان وجاءنا بعد يوم ومعه جواب من هانسل مكتوب بالالمانية ومعه ترجمة بالعربية وهذا نصه :

عزيزى سلاطين بك

لقد وصلت خطاباتك وأنا أعرض عليك ان تمضي الى طابية راغب بك (فى قلعة أم درمان) وانا أرغب فى أن أخاطبك بشأن الاجراءات الخاصة بتخليصنا . ويمكنك ان ترجع بعد ذلك الى صديقك .

المخلص لك

هانسل

ولم أفهم المقصود من هذا الخطاب . هل غايته الحقيقية خدع المهدى ؟ اذ لو كانت هذه هى الغاية لكانت الصيغة العربية كافية ثم خطر ببالى انه كان يمكنه ان يوضح غرضه باللغة الالمانية ولكن لعله توقي ذلك خشية وجود احد فى معسكرنا يفهم هذه اللغة فيغرر بي. واعتبرت الفاظ الخطاب فوجدته يقصد او يلمح الى انضمامه الينا . وقد كانت راجت بيننا اشاعات عن خوفه من سقوط المدينة ورغبته هو وسائر الضباط النمسويين فى التسليم للمهدى . ولكن لم يكن من الممكن ان يبت الانسان في هذه النية . ثم قوله : « ويمكنك بعد ذلك ان ترجع الى صديقك » هل يقصد به رجوعى الى المهدى او رجوعى الى غوردون . والحق اني قد غطي علي المعنى ولكنه كشف لى بعد مدة قليلة

واخذت الخطاب فى الحال الى المهدى وأخبرته بان النص العربي يوافق النص الالماني . ولما أتم قراءته سألنى هل أرغب فى الذهاب اليه فاجبت بانى مستعد لتلبية أمره واني على الدوام طوع اشارته

فقال لى : « اني أخشي انك اذا ذهبت الى أم درمان ولقيت القنصل يقبض عليك غوردون ويقتلك لاني لا أعرف السبب فى عدم كتابته اليك لو كان يحسن بك الظن »

فقلت: « لست أعرف سبب سكوته عن الرد وربما كان عنده من الاوامر ما يمنعه من مخاطبة العدو . ولكنى أظن انه يمكن تسوية الحالة عندما التقى بـ « هانسل » وأنت تقول ان غوردون ربما يقبض علي ولكنى لا أخشي ذلك ولو حدث هذا لامكنك ان تخلصنى . اما انه يقتلني فهذا مالن يحدث »

فقال المهدى . « اذن يمكنك ان تستعد للسفر وتنتظر أوامري »

وكنت عند ذهابي الى عشة المهدى قد سمعت بمجيء لبتون بك من بحر الغزال . وعند رجوعى الآن ذهبت اليه ووجدته واقفاً بباب الخليفة ينتظر الاذن بدخوله . ولم يكن من القواعد المرعية ان يخاطب الانسان أحدا لم يحصل بعد على عفو المهدي فقال لى انه يؤمل الامل كله ان أذهب الى الخرطوم . وقال أيضا انه ترك خدمه وأتباعه علي مسيرة ساعات من المعسكر وطلب منى أن استأذن الخليفة فى

مجيئهم . وبعـد دقائق دعاه الخليفة فعفا عنه وأذن له باحضار اتباعه واخبره انه سيقابل المهدى .

وذهبت انا الى مكانى وقعدت على العنجريب وأنا فى أشد القلق انتظر الاوامر لكي أذهب الى أم درمان . وكان يخطر ببالى وانا قاعد ان المهدى ربمـا قد غير فكره ورجع عن عزمه بشأن سفرى

وأخيراً جاءنى خادم يخبرني ان الخليفه أرسل ملازميه فى طلبى . فلمـا نهضت اخبرني الملازم ان أسير معه الى عشة يعقوب حيث كان أخوه الخليفة . فسارعت الى عمامتى فتعممت واحتزمت وسرت وراءه . ولكن لما بلغنا يعقوب قيل لنا ان الخليفة قد غادرها الى عشة ابو انجه . وداخلنى شك من هذا التطواف فى الليل اذ لم تكن هذه عادتنا وكنت أعرف مقدار ما عند هؤلاء الناس من المكر والخديعة فاستعددت لأى حادث . ولما بلغنا زريبة ابو انجه أذن لنا بالدخول . وكانت هذه الزريبة واسعة وكان بها مظلات من قماش كل منها قائمة على عمود من خشب وكل واحدة منفصلة عن الاخرى بحائط من الذرة . وذهبنا فى ضوء مصباح الى احدى احدى هذه المظلات فوجدت يعقوب وابو انجه وفضل المولى وزكي طومال والحاج زبير قاعدين في حلقة يتكلمون بجد ونشاط . وكان وراءهم بضعة رجال قد وقفوا وهم مسلحون ولـكنى لم أجد أثرا للخليفة الذى قيل لى انه يستدعينى وتأكدت عندئذ ان هناك مؤامرة علىّ . وتقدم الملازم وخاطب يعقوب ثم أمرت بالتقدم وقعدت بين الحاج زبير وفضل المولى مواجها لابو انجه

فخاطبنى ابو انجه قائلا . « لقد وعدت المهـدى يا عبد القادر ان تخلص له . وواجب عليك ان تفي بوعدك . ثم عليك ان تطيع الاوامر وان كان فيها ما يؤلمك . أليس كذلك ؟ »

فقلت . « هذا حق . وانت يا ابو انجه اذا سمت لى امرا من المهدى او من الخليفة تجدنى مطيعاً »

فقال . « انى أمرت بالقبض عليك ولكن لا اعرف السبب » وعند ما قال

هذا استل الحاج زبير سيفي وكنت قد وضعته على ركبتي كما هي العادة ثم سلمه لزكي طومال وقبض بكلتا يديه على ذراعي اليمني

فقلت للحاج زبير . « لم آت هنا لكي أقاتل فعلام تقبض على ذراعي ولكن افعل ما أمرت به يا ابو انجه »

وهكذا قضي عليّ بما كنت اقضي به على غيري ، ثم وقف ابو انجه والحاج زبير وخلى ذراعي . ثم أشار ابو انجه الى مظلة في الظلام وقال . « اذهب الى هذه المظلة »

فرافقني السجان ومعه ثمانية آخرون الى المظلة ثم طلب مني ان أقعد على الارض وأحضرت لي السلاسل . وقعدت فوضع في كل من ساقيّ حلقة طرقت حتى تضام طرفاها . ثم وضع حول عنقي حلقة أخرى وبها سلسلة كانت تعوق حركة عنقي . وتحملت كل ذلك وأنا صامت . ثم غادرني الحاج زبير وقال لي الحارسان اللذان تركا معي ان أقعد على الحصير الذي بجانبي

والآن بدأت أفكر وكنت ألوم نفسي على اني لم أجازف وأفر الى الخرطوم على جوادي . ولكن هل كان غوردون يقبلني وقد صرت بعيداً عن الخطر كما قال المهدي ؟ ولكن ما هو حظي الآن ؟ هل هو حظ محمد باشا سعيد وعلى بك شريف ؟ ولم تكن عادتي التفكير في همومي الشخصية وتذكرت قول المادبو . « كن مطيعاً وصبوراً . اللي عمره طويل بيشوف كتير ». وقد مارست الطاعة والآن يجب أن أمارس الصبر . أما العمر الطويل ففي يد الله وحده

وبعد ساعة لم أنمها بالضرورة رأيت عدداً من الملازمين يقتربون مني ومعهم المصابيح وعندما اقتربوا رأيت بينهم الخليفة عبد الله فوقفت وانتظرت .

ورآني واقفاً أمامه فقال . ياعبد القادر هل سلمت أمرك للقدر ؟

فقلت بلهجة الاطمئنان . منذ كنت طفلا . لقد اعتدت الطاعة والآن يجب ان أطيع أردت أو لم أرد

فقال . ان صداقتك لصالح واد الملك وخطاباتك لغوردون فقد جعلتنا نشتبه في أمرك . وهذا هو ما ألجأني الى أن أجبرك على أن تسير في الطريق القويم

فقلت . «انني لم أخف صداقتي مع صالح واد الملك . انه صديقي وأظن انه مخلص لك . أما خطاباتي لغوردون فقد أمرني المهدي أن أكتبها »

فقال الخليفة : هل أمرك بأن تكتب ما كتبت ؟

فقلت :« لقد كتبت ما أمرني به المهدي ولا يمكن أحداً ان يعرف محتويات هذه الخطابات سواي انا ومن كتبت اليه . وكل ما أرجوه يامولاي هو العدل وألا تصغى لاقوال الدساسين »

ثم غادرني فحاولت ان انام ولكن اعصابي كانت هائجة . فكانت الخواطر المختلفة تمر برأسي . وكان الحديد حول عنقي وساقيّ يؤلمني أشد الألم فلم يكن النوم مستطاعا . وما كدت اغفي تلك الليلة برهة قصيرة . وفي شروق الشمس جاءني ابو انجه ومعه خدم يحملون طعاما . وقعد على الحصير الى جانبي ووضع بيننا الطعام . وكان الطعام فاخراً يحتوي على فراريج ورز ولبن وعسل ولحم مشوي وعصيدة . ولكني قلت له انه ليست عندي شهوة للطعام فقال لي « أظنك خائفا يا عبد القادر ولهذا لا يمكنك ان تأكل » فقلت : « كلا . لست أخاف شيئا . وانما لا أشتهي الطعام الآن . ومع ذلك سآكل شيئا حتى لا تستاء » ثم بلعت لقمتين وكان ابو انجه يتودد اليّ ويظهر لي اني ضيفه المكرم

ثم قال لي: «لقد استاء الخليفة لانك لم تظهر له خضوعا وقال انك عنيد . وان هذا في رأيه هو السبب في عدم خوفك »

فقلت « هل كان يجب على أن ألقي نفسي على قدميه واطلب منه العفو عن جرائم لم ارتكبها . انا في يديه فليفعل بي ما يشاء »

فقال: « غداً سنتحمل ونسير نحو الخرطوم ونضيق الحصار على المدينة ثم نهجم هجمة واحدة وسأطلب من الخليفة أن تبقى معي وسيكون هذا أهون عليك من ذهابك الى السجن »

فشكرته وغادرني

وقضيت اليوم كله وانا وحدي . وكنت اؤدي الصلاة بعناية ام الحرس وغيرهم

وكان في يدى مسبحة اسبح بها كما هو الشأن بين المسلمين الطيبين . ولكن الحقيقة انني كنت اكرر عليها صلاة النصارى . (ابانا الذى في السموات)

وكنت أري على مسافة مني خيولي وخدمي وسائر امتعتي . وجاء احد خدمي اليّ وأخبرني بانه أمر بان يلتحق بابي انجه

وفى بكور اليوم التالى قرعت الطبول للتقدم فقوضت الخيام وحملت الجمال وتحرك المعسكر باجمعه . وكان الحديد في ساقيّ يمنعني من المشي . فاحضروا لى حماراً وكانت السلسلة المربوطة بها الحلقة التي حول عنقي طويلة تحتوى على ٨٣ حلقة كنت اسلى نفسى بعدها واطويها طيات حول جسمي وحملت الى ظهر الحمار يسندني من كل جانب رجل حتى لا اقع وكنت وانا سائر يمر بى اصدقائي فيتحسرون ولا يجسرون على مخاطبتى . ووقفنا بعد الظهر على ربوة امكنتنا من رؤية نخيل الخرطوم فشعرت بالشوق الشديد يغالبنى للانضمام الى الحامية

ثم حططنا وامرنا بضرب خيامنا موقتا تحت امرة الخليفة عبد الله . اماالامراء الآخرون فقد ذهب كل منهم بجنده واختار مكانا لمعسكره . وكنت فيهذاالوقت قد شعرت بالجوع الشديد واشتقت الى شيء من الطعام الذى قد قدمه لى ابو انجه فى الامس . ولكن ابانجه كان قد التحق بالخليفة وكان قد نسيني

وحدث ان زوجة احد الحراس اهتدت اليه واحضرت له خبزا من الذرة فاكلت معه وفى الصباح استأنفنا مسيرنا وبقينا نمشى نحو ساعة ثم حططنا ثانيا في المكان الذى اختير نهائيا للمعسكر

وكان ابو انجه قد رتب كل شيء لكي ابقى معه ولا ارسل الى السجن فنصبت لى خيمة ممزقة قديمة وضع حولها زريبة من الشوك فقعدت تحت هذه الخيمة ووضع على بابها ديسة من الشوك يليها الحرس

وأمر المهدى الآن بتضييق الحصار . وفى المساء ارسل عددا من الامراء الى الضفة الشرقية لمعونة واد النجومي وابي حرجه وطلب من جميع اهالى هذه الناحية أن ينضموا الى المحاصرين . وامر ابو انجه وفضل المولى بان يذهبا الى قلعة امدرمان لحصارها وكانت تقع على بعد نحو ٤٠٠ متر من النهر من الضفة الغربية وكان يدافع

عنها فرج الله باشا وهو ضابط سوداني ترقي من رتبة كابتن فى عام واحـد الى أن صار قائدا للقلعة . وكان الذى رقاه بهذه السرعة غوردون. وتمكن ابو انجه من أن يحفر الخنادق بين القلعة والنهر ويضع فيها جنوده علي الرغم من اطلاق النار عليه من البواخر والقلعة . بل تمكن ابو انجه من أن يغرق احدى هـذه البواخر وهى الباخرة «حسينية» بواسطة مدفع سدد مرماه اليها . ولكن البحارة فروا الى الخرطوم

واهمل امرى مدة الحصار وكان حرسى يغير كل يوم وكانت معاملتهم تختلف. وكانت الرقابة تشـتد عليّ اذا كان الحرس مؤلفا من عبيد اسرى ولـكن اذا كانوا جنوداً يعرفوني فانى كنت ألاقي منهـم بعض الحرية وكانوا يؤدون لي الخدمات الصغـيرة ولكنهم كانوا يمنعونى من مخاطبة أي انسان . وكان طعامى سيئاً وكان ابوانجه مشتغلا بالحصار فبقيت انا مدة غيابه تحت رحمة زوجاته وكان قدامرهن بطعامي

وحدث فى احدى المرار ان حارسي كان أحد جنودى القدماء فبعثته برسالة الى رئيسة زوجات ابى انجه أشكو اليها عدم اطعامي مدة يومين : فأرسلت الىّ جوابها تقول : « هل يظن عبـد القادر اننا نسمنه هنا بينما عمه غوردون باشا لا عمل له الا فى القاء القنابل على زوجنا الذى ربما يقتل بسببه »

وقد كانت هذه المرأة مصيبة فى قولها اذا اعتبرت وجهة نظرها

وكان يسمح أحياناً لبعض اليونان بالمجيء الىّ ومخاطبتى وكانوا يخبرونى بما يجد من الاخبار

وكنا عند ما حططنا رحالنا هنا قد قبض على لبتون بك وقيد بالسلاسل بتهمة محاولة الانضمام الى غوردون. ولما فتشت أمتعته وجدت فيها وثيقة وقع عليها الضابط مؤداها انه اضطر الى تسليم المديرية وأخذت زوجتـه وابنته البالغـة من العمر خمس سنوات الى بيت المال . وكانت زوجته زنجية فى خدمة « روسيت » القنصل الالماني من الخرطوم ولما عين مديراً في دارفور ذهبت معه . فلما مات في الفاشر التحقت بلبتون بك وسافرت معه الى بحر الغزال. وأمر الخليفة بتصفية جميع مايمتلكه لبتون ولكنه اذن لزوجة لبتون وابنته بان يكون معهما خادم

وفى أحد الايام جاءني جورجي كالامنتيو وأخبرنى بان الجيش الانجليزى

بقيادة واسون يتقدم نحو دنقله . ولكنه لا يزال فى صعيد مصر وان كانت الطلائع قد بلغت دنقله

وكان غوردون بعـد ان اذاع منشور اخلاء السودان قد أفهم أهالى الخرطوم انه سيجيء اليهم جيش لانجادهم . وتمكن من بث روح الشجاعة والرجاء في جنود الحامية ؟ ولكن بقى الشك فى ميعاد مجيء الجيش وهل يأتي قبل فوات الفرصة ؟

وفي أحد الايام جاءني ملازم من قبل الخليفة وطوق عنق وساقي بملفات أخرى غير ما كان عليّ وأضاف اليها قضيباً من حديد وظننت ان الغرض من ذلك اذلالى. وكنت لا أقوى قبـلا على النهوض لثقل ما أحمله من القيود فلم تزد اضافة هـذه القيود الجديدة شيئاً لانى كنت راقداً طول الوقت

ومضى اليوم التالى دون ان يحدث فيـه شيء . وكنت أسمع من وقت لآخر فرقعـة العيارات بين المحصورين والحاصرين ولكن اليونان الذين كانوا يزودونني قبلا من الاخبار منعوا الآن من مخاطبتى فبقيت لذلك فى جهل من كل ما يجرى حولى

وفى احدى الليالى بعد غروب الشمس بنحو أربع ساعات عنـد ما كان النوم يتسلل الى اعضائي وينسيني ما أنا فيـه أمرنى الحارس بان أنهض فى الحال فوقفت ورأيت ملازمي الخليفة الذين أخبرونى بان الخليفـة فى أثرهم قادم الىّ . ثم رأيت جماعة تحمل مصابيح فأخذت أسائل نفسي : لمَ يأتي الىَّ الخليفة الآن ؟

ولما اقترب الخليفة منى قال لى بلهجة الملاطفة : « ياعبد القادر اقعد »

ثم بسط له خدمه فروته فقعد الي جانبي وقال:« هنا ورقة أرغب فى ان تخبرنى عما فيها لكي تثبت لى امانتك » فأخذت الورقة وقلت : « سأفعل يا مولاى »

وكانت الورقة لا تزيد في الحجم عن نصف ورقة سيجارة وقد كتبت من الجانبين وكان مكتوبا عليها باللغة الفرنسية ما يلي :

« عندى عشرة آلاف رجل تقريبا.ويمكننى الدفاع عن الخرطوم الى آخر شهر يناير . والياس باشا كتب الىَّ . وقد أجبر على ذلك . انه رجل مسن وغير كاف . انا اغفر له . جرب محمد ابو حرجه او غن لنا أغنية أخرى »

« غوردون »

ولم يكن هناك ما يشير الى الشخص المرسلة اليه هذه الرسالة . وكنت متأكداً بانه ليس فى معسكرنا من يعرف الفرنسية وهذا هو سبب مجىء الخليفة الىَّ

ثم قال الخليفة وقد نفد صبره : « قل هل فهمت مضمونها ؟ »

فقلت : « الرسالة من غوردون وهى مكتوبة بخطه بلغة جفرية لا يمكننى ان أفهمها »

فقال الخليفة وقد بدا عليه الغضب : « ما ذا تقول . أوضح ما تقول »

فقلت : « هنا كلمات لا أدرك معناها . فان لكل كلمة معنى خاصا ولا يمكن ان يفهمها الا من اعتاد تفسير الجفر . ولو سألت أحداً من الموظفين السابقين لأكد لك صحة قولى »

فهاج الخليفة وصاح بى غاضبا : « أليس فى الرسالة اسم الياس باشا واسم محمد ابو حرجه »

فقلت بلهجة التهكم : « لقد صدق من أخبرك بهذا فاني يمكننى ان اقرأ اسميهما ولكن لا أفهم شيئا عما يقصد من ذكرهما . ولعل الذى أخبرك بهذين الاسمين يمكنه ان يفسر سائر ما فى الرسالة . ثم اني أجد فيها أيضا رقم ١٠٠٠٠ ولكن لا أعرف هل المقصود منه عدد الجنود او غير ذلك »

فأخذ الورقة من يدى ونهض وهو يقول: « انى مهما عجزت عما فى هذه الورقة فان غوردون سينهزم وستسقط الخرطوم » ثم تركنى مع الحرس

والآن عرفت ان غوردون يقول انه يمكنه الثبات الى آخر ينابر وكنا في أواخر ديسمبر فهل يمكن انقاذ البلدة قبل فوات الفرصة ؟ ولكن ما ذا يعنيني من كل ذلك ؟ هاءنذا مقيد بالسلاسل واست أقدر على عمل شيء يغير مجرى الحوادث

وبلغنا اول ينابر الذى يقول غوردون انه يمكنه ان يثبت فيه الى آخره وأخذت اشعر ان الساعة الحاسمة تقترب

واشتد القتال بين قلعة أم درمان وبين الدراويش وكان فرج الله باشا يجهد جهده وحاول على الرغم من قلة عدد الحامية ان يفتق فتقا فى القوة المحاصرة ويخرج ولكنه رد الى القلعة ثانيا . وفقدت مؤونة القلعة وشرع عندئذ في مفاوضات

التسليم . وكان فرج الله قد خاطب غوردون بالرايات عن التعليمات الواجب اتباعها فاذن له غوردون في التسليم اذالم يكن قادرا على الثبات . وعفا المهدى عن جميع رجال الحامية ولما خرجت الحامية دخل رجال المهدى ولكنهم خرجوا فى الحال لان مدفعية الخرطوم امطرتهم وابلا من القنابل وكان فى القلعة مدفعان ولكن مداهما اقصر من المسافة التى بينهما وبين البلدة وحدث التسليم في ١٥ يناير سنة ١٨٨٥

ووقع ان ام درمان سقطت فان المهدى لم يرسل أى امداد للمحاصرين في شرقي الخرطوم وجنوبها لانه كان يعرف ان القوة المحاصرة تكفى المهمة المنتدبة لها وكان كما كانت حامية الخرطوم كلاهما ينظر بعين القلق الشديد الى الشمال حيث تكون الكلمة الفاصلة

وكان غوردون باشا قد ارسل الى متمه خمس بواخر بقيادة خشم الموس وعبد الحميد واد محمد لكي تنتظر مجيء الانجليز وتجيء بهم الى الخرطوم بأسرع مايمكنها وكان غوردون ينتظر مجيئهم بغاية القلق وكان قد خاطر بكل شيء على مجيء القوة الانجليزية ولكن كل انسان كان يجهل ماتم فى أمرها

واذن غوردون فى اوائل الشهر لجلة عائلات بمبارحة الخرطوم ولم يكن الى هذا الوقت يجيز لنفسه طردهم ولذلك اضطر الى توزيع المؤونة عليهم فكان يوزع مئات الاوقات من البسكويت والذرة على الفقراء كل يوم . وهو على هذا العمل يستحق مكافأة الله ولكنه فى الوقت نفسه قضى على نفسه وعلى رجاله . فقد نفد الزاد وصار كل انسان يبكي ويطلب الخبز . وعاد الآن الى اغراء الاهالى بالخروج من المدينة وهو لو كان قد فعل ذلك منذ شهرين أو ثلاثة لكان عنده من المؤونة مايكفى رجاله مدة طويلة . ولكنه كان يعتمد على مجيء الجيش وكان لذلك لايعنى بادخار المؤونة فهل كان يعتقد انه لايمكن جيشاً انجليزيا أن يتأخر عن ميعاده

وبعد ستة أيام من سقوط أم درمان سمعت عويلا فى المعسكر لم أسمع مثله منذ خروجي من دارفور . وكان المهدى يمنع الناس من اظهار الحزن على الموتي أو القتلى لأنهم في مذهبه يدخلون النعيم . ففهمت انه لابد أن قد حدث شيء غير عادى حتى

يخالف الناس مذهب المهـدى . وكان الحراس المكلفون بحراستى يتطلعون لمعرفة سبب هذا العويل وقد تركوني لهذه الغاية . وعادوا بعد قليـل يقولون ان طلائع الجيش الانجليزى التقت بالقـوات المجموعة من البرابر والجعالين والدغيم وكنانه الذين يقودهم موسى وادحلو وهزمتهم في ابو نلا (ابو كلبه) وقدهلك كثيرون ولم ينج الا عدد قليل عادوا واكثرهم به جراحات وقد فني الدغيم وكنانه تقريبا . وقتل موسي واد حلو وعدد من الامراء أيضاً

فياللبشرى لقد كان قلبي يثب وثوبا لهذه الاخبار . وقلت لنفسى لقد جاء الرجاء بعد هذه السنوات الطويلة . وأمر المهدى والخليفة بان يكف الناس عن العويل ولكنه استمر مع ذلك عدة ساعات وأرسلت الاوامر لنورانجره بان يقوم الى متمه

وبعد يومين أو ثلاثة جاءتنا أخبار هزيمة أخري فى أبي كر وهزيمةأخرى أيضاً فى قبه «جوبات» وتيار قلعة على النيل قريبة من متمة

وعقد المهدي وامراؤه مجلساً للتشاور . فقد رأوا ان كل ماجنوه من الانتصارات السابقة قد بات في خطر حتى أن المحاصرين للخرطوم خافوا وارتدوا من الحصار . وصار القضاء على المهدى مسألة يمكن انهاؤها فى بضعة أيام . فيجب عليهم أن يخاطروا بكل شيء . فارسلت الاوامر للمحاصرين بان يستعدوا الاستعداد التام للهجمة الاخيرة

ثم لم لم تأت البواخر التى تحمل الجنود الانجليزية ؟ فهل كان قواد هذا الجيش يجهلون ان حياة جميع من فى الخرطوم قد باتت فى خطر . ولقد انتظرنا طويلا لكي نسمع صفير البواخر يؤذن بمقدم الانجليز ودوى مدافعهم فوق خنادق الدراويش ولكن انتظارنا كان عبثا . أجل كان عبثا . ولم نكن نفهم علة هذا التأخير أو معناه وكنا نتساءل هل طرأ عائق جديد ؟

وكان اليوم الاحد ١٥ يناير . وهو يوم لن أنساه فى حياتي . ففى مساء ذلك اليوم عبر المهدي وخلفاؤه فى زورق الى الشط الشرقي حيث كان رجالهم مجتمعين للقتال . وكان قد عرف أن النية قد عقدت على مهاجمة الخرطوم في صباح اليوم التالى وذهب المهدى لكي يحمس رجاله ويذكرهم بالجهاد والقتال الى الموت . وكنت ادعو الله أن يكون غوردون قد عرف هذه النية واستعد لها

وفى هذا الوقت أمر المهدى والخلفاء اتباعهم بالا يهتفوا ولا يصيحوا حتى لاتدخل الشبه فى قلوب رجال الحامية الذين انهكهم الجوع والكلال . وخطبهم المهدى وهم سكون ثم عادوا الى الشط الغربى بعد أن خلف الخليفة شريف الذى رجاه أن يبقى مع المجاهدين

وكانت تلك الليلة احفل ليالىَّ فى قلق النفس وثورتها . فقد كنت اقول لنفسي لو أن الحامية تثبت هذه الليلة وتصد المغيرين . اذن لن أخشى شيئا على الخرطوم . اما اذا انهزمت فاننا نفقد كل شيء فى السودان . وشعرت باعياء فى الفجر وبدأ النوم ينسل الىّ واذا بي أسمع ضجيج المدافع والبنادق من آونة لاخرى . ثم شمل السكون مرة أخرى . ولم يكن النور قد قشع الظلام بعد حتى لم أكن اتبين الاشياء . فما معنى كل هذا ؟ ضجيج المدافع والبنادق ثم سكوت تام ؟

ثم ظهر قرص الشمس احمر في الافق . فتساءلت ماذا يأتينا به هذا النهار ؟ وقعدت انتظر وانا فى أشد القلق وهياج النفس . ثم سمعت أصوات الابتهاج والنصر من بعيد وتركنا الحرس وجروا لكي يعرفوا سبب هذه الاصوات . وبعد دقائق عادوا الينا واخبرونا بان الخرطوم اخذت عنوة وصارت الآن فى ايدى الدراويش وبقى لى شك اتعلل به هل تكون هذه الاخبار كاذبة !

ثم زحفت ونهضت وأخذت انظر فى المعسكر فوجدت جما غفيراً من الناس قد تألبوا حول مكان المهدى والخليفة ثم رأيت هؤلاء الناس يسيرون نحوى . وكان امامهم ثلاثة من الزنوج يدعى أحدهم «شطه» وكان سابقا أحد الحرس العبيد عند ضيف الله . وكان فى يده قماش مشرب بالدم قد لف على شيء وكان وراءه جمهور من الناس يبكون . واقترب العبيد الثلاثة منى ثم وقفوا وهم يشيرون اشارات الاهانة والسباب . ثم حل «شطه» القماش واخرج لى رأس غوردون

فدار رأسى وشعرت كأن قلبي قد قفّ . ولكنى جمعت كل قواى وضبطت نفسي ونظرت الى هذا المنظر المفزع وانا صامت . وكانت عينا غوردون الزرقاوان قد فتحتا الى النصف . اما الفم فكان في هيئته العادية . وكان شعر رأسه وعارضيه قد علاهما الشيب

وقال «شطه» وهو يمسك بالرأس امامي : « أليس هذا رأس عمك الكافر؟ »

فقلت بهدوء : « وما فى ذلك . جندى شجاع وقع وهو يقاتل . انه لسعيد اذ قد انتهت آلامه »

فقال شطه : « ها . ها . لاتزال تمدح الكافر . ولكنك سترى النتيجة »

ثم تركوني وذهبوا الي المهدي ومعهم اشارة النصر المفزعة هذه ووراءهم جمهور يبكي .

ثم عدت الى خيمتى وقد ماتت نفسى فى جسمى . اجل لقد سقطت الخرطوم ومات غوردون . وهذا اذن هو نهاية حياة هذا البطل الذى وقع وسيفه فى يده . هذا الرجل الذى لم يكن يعرف الخوف والذى كان له من الخصال ماذاع شهرته فى العالم أجمع

فما هى فائدة الجيش الانجليزي الآن ؟ لقد تأخر فى متمه وكان فى تأخيره هلاك الخرطوم . لقد وصلت طلائع الانجليز الى جوبات على النيل في ٢٠ يناير ووصلت بواخر غوردون الاربع فى ٢١ منه . فلماذا لم يرسلوا علي هذه البواخر جنودا الى الخرطوم مهما كان عددهم قليلا . فلو أن الحامية رأت عدداً من هؤلاء الجنود لامتلأت قلوبهم حماسة وقوة ورجاء ولاستطاعوا أن يصدوا العدو . وكان السكان الذين فقدوا كل ماعندهم من ثقة فى وعود غوردون تعاودهم ثقة جديدة ويحاربون الى صف الحامية لتأكدهم بان القوة الانجليزية توشك أن تنجدهم

وقد جهد غوردون جهده لكي يثبت وقد أعلن ان جيشاً انجليزيا قادماليه وطبع نقوداً من الورق وكان يوزع الاوسمة والرتب كل يوم بلا حساب لكي يشجع الجنود ولما أخذت الاحوال تسوء واليأس يحل كان هو يجاهد فى تحميس الجنود وترجيتهم ولكن اليأس قلب الرجاء . فلم يعودوا يروا فائدة فى هذه الاوسمة والرتب . امانقود الورق فربما كان هناك من يشترى ورق الجنيه بقرشين آملا املا ضعيفا فى الربح اذا جاءت المصادفات بانتصار الحكومة .

ولم يكن أحد يصدق وعود غوردون الآن . ولو أن باخرة واحدة حملت بعض

الجنود وجاءت بهم الى الخرطوم وأخبرتهم بان الانجليز انتصروا لامتلات قلوب السكان والجنود حماسة وصدقوا وعود غوردون وكان عندئذ يمكن لضابط انجليزي أن يرى الجزء الذى دمره فيصان النيل من حصون المدينة وكان في الحال يأمر باصلاحه . ولكن ماذا كان يمكن ان يصنعه غوردون وهو وحيد وليس معه مساعد أوربي

ولم يكن فى مستطاعه ان ينظر فى كل شيء كما انه لم تكن بين يديه الوسائل التى تمكنه من التحقق من مرءوسيه هل ينفذون أوامره ام لا ؟ وكيف كان يمكن قائداً أن ينتظر من جنوده القيام بتنفيذ أوامره اذا كان غير قادر على أن يضمن لهم قوتهم ؟

وفي الليلة المشئومة ليلة ٢٥ يناير علم غوردون بان المهديين سيهجمون على المدينة فأرسل أوامره يخبر القواد هذا الخبر . ولعله كان يشك في صدق نيتهم فى الهجوم فى بكور اليوم التالى . وفى الوقت الذى عبر فيه المهدى الى الضفة الشرقية كان غوردون قد أمر باطلاق بعض الاسهم النارية في الفضاء وكانت الوانها كثيرة مختلفة وكانت الموسيقى تعزف في الوقت نفسه والغرض من كل ذلك تحميس الجنود الذين أضناهم الجوع حتى يثوب اليهم نشاطهم وانتهت الاسهم النارية وسكتت الموسيقى ثم نامت الخرطوم وشرع العدو يزحف في حذر وصمت . وكان رجال العدو يعرفون أماكن الضعف فى الحصون وكانوا يعرفون ان الجنود النظاميين قد وضعوا في الاماكن القوية فى حين ان الخندق المتهدم القريب من النيل الابيض وأيضا مصطبة الخندق لم يكن يحميهما سوي الاهالى الضعاف

وكان هذا الجزء من الحصون فى حال سيئة لان بناءه لم يتم وكان كل يوم يزداد الجزء المعرض منه على النيل . واجتمع معظم الدراويش عند هذه النقطة وكانت سائر قواتهم تواجه سائر الحصون . وشرع فى الهجوم عند اشارة متفق عليها . وفر فى الحال جميع من كانوا عند النيل الابيض بعد أن أطلقوا بضع طلقات . وبينما كان الجنود يشتغلون في صد هجوم القوات الاخرى المهاجمة كان الآن الدراويش

يدحلون من جهة النيل الابيض ويخوضون فى الماء والوحل الى ركبهم . ثم ينصبون فى الشوارع . ودهش الجنود اذ رأوا الدراويش يهاجمونهم من خلف

ولم يقاوم الجنود عندئذ الا مقاومة ضعيفة ووضع كل منهم سلاحه في الحال . ثم قتل المصريون اما السود فلم يقتل منهم الاعدد قليل . ولم تبلغ خسارة العدو ثمانين او مئة رجل . ثم فتح الدراويش أبواب المدينة فخرج من تبقى من الجنود الى معسكر المهدى

ولما دخل الدراويش من جهة النيل الابيض تصايحوا وهم يعدون فى المدينة « للسراية . الكنيسة » لانهم كانوا يعتقدون انهم سيجدون هناك الاموال المدخرة كما يجدون غوردون الذى دافعهم طويلا عن المدينة وعكس عليهم أغراضهم . و كان القادة فى هذا الهجوم رجال مكين واد النور الذى قتل بعد ذلك فى معركة توسكي وهو ينتمي الى قبيلة العرافين . وكان قائدهم السابق شفيق مكين الذى كان يدعى عبد الله واد النور وقد قتل فى حصار الخرطوم و كان رجاله الآن يرغبون فى الثأر له وكان عدد كبير ايضاً من رجال ابو حرجه يستبقون نحو السراي وكانوا يرغبون فى الانتقام لهزيمتهم في بورى حيث هزمهم غوردون

ولما دخلوا السراى وجدوا الخدم فى قبو السراى فقتلوهم فى الحال وكان غوردون واقفاً على السلم المؤدى الى غرفة الجلوس فقال لهم عند ما رآهم : « أين مولاكم المهدى ؟ »

ولكنهم لم يكترثوا لهذا السؤال وتقدم اولهم وطعن غوردون بحربته فوقع على وجهه دون أن ينطق بكلمة . فأخذ القتلة يجرونه على السلالم الى باب السراي وهنا أخذوا رأسه وأرسلوه الى المهدى في ام درمان . أما الجسم فقد ترك لرحمة المتعصبين. وكانت آلاف من هذه الخلائق الوحشية تمر على الجسم ويغمس كل منهم حربته فى دمه . فلم يمض زمن حتى صار الجسم قطعة مشوهة من اللحم . وقد بقيت بقع الدم مدة طويلة فى المكان الذي قتل فيه غوردون شاهدة على ارتكاب هذه الفظيعة بل كانت ترى أيضاً على درجات السلم مدة عدة أسابيع ولم تغسل الا حين قرر الخليفة أن يتخذ هذه السراى مأوى لزوجاته السابقات واللاحقات

ولما أحضر رأس غوردون للمهدى قال انه كاد يود ان يحضر اليه غوردون حياً لانه كان ينوي أن يدخله فى الاسلام ثم يقايض به الحكومة الانجليزية على عرابي باشا لانه كان يأمل ان يساعده عرابى فى فتح مصر . واعتقادى ان المهدى كان ينافق فى تأسفه هذا على قتل غوردون لانه لو كان يرغب حقيقة فى الابقاء على حياته لما خالف أمره احد

وقد فعل غوردون كل ما في استطاعته لكي يقى حياة الاوربيين الذين كانوا فى الخرطوم فقد أذن للضابط استيورت مع بعض القناصل وعدد كبير من الاوربيين فى السفر الى دنقله ولكن بحارة الباخرة « عباس » كانوا غير كفاة وكانوا أيضا مستائين فصدموا الباخرة فى الشلالات فوقع الضابط ستيوارت ومن معه فريسة للغدر الذى قضى عليهم

وكان غوردون يرغب فى هروب اليونان فسلمهم باخرة وتعلل فى الظاهر بانهم يعرفون البحر وأمرهم بالتفتيش فى النيل الابيض وذلك كي يتيح لهم الفرصة بان يسافروا جنوبا الى امين باشا ولكنهم أبوا ذلك . وكان غوردون مهموما بسلامتهم فاقترح اقتراحا آخر فانه أمر الناس بعدم السير في الطرق المؤدية الى النيل الازرق بعد الساعة العاشرة ثم كلف اليونانيين بحراسة هذه الطرق وذلك لكي تتاح لهم الفرصة بالفرار على باخرة قد ارسيت قريباً . ولكن اليونان اختلفوا فيما بينهم فضاع هذا التدبير

وأنا لا أشك في أن هؤلاء اليونانيين لم يكونوا يرغبون فى الفرار الى الخرطوم فان معظمهم كانوا يعيشون فى بلادهم او فى مصر في فاقة شديدة وهم لم ينالوا الثروة الا فى السودان ولذلك لم تطاوعهم نفوسهم على تركه

وكان غوردون يريد ان يقى نفوس جميع الناس الا نفسه . ويمكنني الآن أن أنتقد غوردون من حيث انه لم يحفر خنادق ولم يقم تحصينات تحمي السراى ولكن الارجح ان الذي منع غوردون من عمل ذلك انه خشى ان يتهم بالاهتمام بحياته . وربما كان هذا ايضاً هو السبب في عدم وضعه حراساً حول السراى

وكان يمكنه أن يستعمل عدداً من الجنود لهذا الغرض . وهل يمكن أحداً ان

يشك فى الفائدة التى تعود على الجميع من حماية نفسه . وكان يمكنه بمثل هذا الحرس ان يصل الى الباخرة « اسماعيلية » القريبة من السراى : وكان فرغلى ربان هذه الباخرة قد رأى العدو وهو يهجم على السراى فوقف بالباخرة ينتظر مجيء غوردون ولم يبرح الشط حتى تأكد انه قتل فاقتلع المرساة وسار الى وسط النهر ثم أخذ يروح ويغدو امام المدينة حتى أشار اليه الدراويش بعفو المهدى

وكان لفرغلي زوجة وعائلة فى الخرطوم فسلم بعد ان حصل على الامان . ولكن ما كان أكثر انخداعه فانه ذهب الى بيته فوجد ابنه (وكان فى العاشرة من عمره) مقتولا ووجد زوجته قد ألقت بنفسها على ابنها وجسمها ممزق بالحراب

وليس من الممكن ان يصف الانسان مبلغ الفظاعة والقسوة في المذبحة التى تلت قتل غوردون فانه لم ينج أحد سوي الرجال والنساء من العبيد وكل امرأة عليها شيء من الملاحة من الاحرار . أما غير هؤلاء الذين نجوا من القتل فلم تكن نجاتهم الا مصادفة . . وانتحر كثير من الناس وكان من بينهم محمد باشا حسن ناظر المالية فانه زحف الى جنب ابنته وزوجها وكان كلاهما قد قتل وقد رآه أصدقاؤه في هذه الحال فحضوه على الفرار ولكنه أبي فحاولوا أن يأخذوه عنوة ولكنه صار يصيح ويدعو على المهدى ودراويشه فمر به بعض الدراويش فاجهزوا عليه

وقتل عدد من الناس من أيدى عبيدهم السابقين وكانوا قد انضموا الى العدو وكانوا أدلاءه فاشتركوا الآن فى القتل والنهب والاغتصاب

ويمكن أن يملأ الانسان مجلداً عن هذه الفظائع التى ارتكبت فى ذلك اليوم المشئوم . ولكني أشك فى مصير الذين أبقى على حياتهم هل كان أفضل من مصير القتلى ؟

وعندما احتل الدراويش المنازل شرع في البحث عن الكنوز ولم يكن يقبل عذر أو انكار . وكان معظم السكان قد خبأوا أموالهم فكان كل من يشتبه فيه يعذب حتى يفشي السر او حتي يقتنع معذبه بانه لا يملك شيئاً . وكان السوط يستعمل باسراف فكان الناس يجلدون حتى يتناثر لحمهم . ومن ضروب التعذيب التى كانت تستعمل ان يعلق الرجل من ابهاميه الى عمود من الخشب فيترجح هو تحته فى الهواء

حتى يغمى عليه . وكانوا يأتون بسلخين من القصب المندى ويضعون كلا منهما على وجه الرجل ثم يربطون طرفيهما ثم يضرب هذان السلخان بعصا فيحدث من اهتزازهما آلام مضنية . وكانوا يعذبون النساء بهذه الكيفية أيضاً . ويعذبوهن فى أما كن اجسامهن الحساسة بطريقة لا يمكننى أن أصفها هنا . وحسب القارىء ان يعرف ان أفظع الطرق فى التعذيب كانت تستعمل للحصول على الاموال

ولم ينج من هذا التعذيب سوى النساء الصغيرات في السن والفتيات وذلك خوفا من ان يعترض هذا التعذيب الغاية التي ستستخدم لها هذه النساء والفتيات

وجميع هؤلاء النساء والفتيات أرسلن الى المهدى يوم فتح الخرطوم فاصطفى منهن ما أراد ورد سائرهن الى الخلفاء والامراء واستمر جمع النساء والانتخاب بينهن عدة أسابيع حتى امتلأت بهن بيوت هؤلاء الاوغاد الشهوانيين بل فاضت بشباب الخرطوم الذى قضى عليهن النحس أن يقعن فى أيدي الدراويش

وفي اليوم التالى منح عفو عام لجميع الاهالى ماعدا الشايجيه الذين اهدر دمهم . ولكن على الرغم من هذا العفو استمر القتل وارتكاب الفظائع عدة أيام بعد سقوط الخرطوم

وحملت الغنائم الى بيت المال ولكن بعد اختلاس أشياء كثيرة منها . ووزعت المنازل المهمة على الامراء . وعم المهدى والخليفة في الباخرة « اسماعيلية » الى الخرطوم ورأيا نتيجة انتصارهما الدموى . ولم يبد أحدهما أية علامة على التحسر او الاسف بل ذهب كل منهما الى المنزل المخصص له . وكان كل منهما يقول لاتباعه ان الله أنزل العقاب بسكان المدينة لسفهم وعدم اتباعهم ايمان المهدى

وقضيت الايام الاولى فى اللهو واتباع الشهوات . ولما شبع المهدى واتباعه من من النساء ابتدأوا يلتفتون الى الخطر الذى يداهمهم من الخارج . فأمر الامير عبدالرحمن وادنجومي المشهور بأن يجمع قوة كبيرة ويذهب بها الى متمه لمقاومة الانجليز ويطرد هؤلاء الكفار الذين قيل انهم بلغوا النيل قريباً من هذه البلدة

وفي صباح يوم الاربعاء بعد سقوط الخرطوم بيومين حوالى الساعة الحادية عشرة سمعنا اطلاق القنابل وعيارات البنادق فى ناحية جزيرة توتى . ثم ظهرت باخرتان

وهما « الثلامونية » و « بردين » وكان عليهما السير تشارلس ولسون وعدد من الضباط والجنود الانجليز جاءوا لانقاذ غوردون . وكان السنجق خشم الموس وعبدالحميد محمد اللذان كان غوردون أرسلهما لقيادة الشايجية، على هاتين الباخرتين أيضاً. وسمعوا جميعاً بما حدث لغوردون ولكنهم أرادوا أن يتأكدوا من الخبر وجاءوا الى نصف الطريق بين جزيرة توتي والنيل الابيض

وأطلق الدراويش نيرانهم على الباخرتين من الخنادق الواقعة فى الشمال الشرقي لقلعة أم درمان . ولكن الباخرتين عادتا في الحال عندما رأى رجالهما سقوط الخرطوم

وسمعت بعد ذلك من بعض بحارة هاتين الباخرتين انهم هم والانجليز تأثروا لسقوط الخرطوم . وعرفوا ان السودان قد بات تحت سيطرة المهديين. وكان المفهوم من الحديث الذى كان يتحدث به الجنود على البواخر ان الغرض هو انقاذ غوردون فلما تأكد الخبر عن موته عادت البواخر الى دنقله

ثم اتفق دليل الباخرة « الثلامونية » على ان يجنح بالباخرة الى الشاطيء حتى يكسرها ثم يفر فى النيل هو والربان عبد الحميد ونجحت هذه الخطة وبلغ من شدة اصطدام الباخرة انها عطبت حتى احتاجوا الى نقل ما فيها بسرعة الى الباخرة «بردين» وفر كلاهما وقت الاصطدام وحصلا بواسطة اصدقائهما على عفو المهدى وعادا الى الخرطوم . واستقبلهما المهدي استقبالا حسنا وامتدح صنيعهما في كسر الباخرة. ومع ان عبد الحميد كان من الشايجيه المكروهين وأحد أقارب صالح واد الملك فان المهدي خلع عليه مرقعة اكراما له وكان عدد كثير من النساء قرابته قد سبين عند سقوط الخرطوم ووزعن على الامراء فلما عفى عنه اعدن اليه

اما الباخرة « بردين » فانها في عودتها جنحت وارتطمت بالوحل . ولما كانت حمولتها ثقيلة فانه لم يمكن انقاذها . وكان ذلك قريبا من متمه . وكان عليها السير تشارلس ولسون فشعر عندئذ بحرج مركزه وكان الجنود الذين معه قليلين فلم يكن فى وسعه أن يعبر الى الشط الغربي ليلتحق بسائر قوته فى جوبات لان العدو كان قد خندق بينه وبينها في واد حبشي وكانت قوة الدراويش فى واد حبشى بعدما أصابها من الخور والانحلال العزعة بعد هزعة أبو كليه قد عادت اليها شجاعتها بعد سقوط

الخرطوم وانتشار خبر مجيء النجومى وكان في جوبات باخرة ثالثة تدعي « صفيه » فارسل السير تشارلس اليهاضابطافى زورق يطلب المعونة

وقامت « صفيه » فى الحال وعلم العدو بذلك فخندق على الشاطىء وتهيأ لمجيئها. فلما اقتربت صب عليها ناراً حامية من البنادق والمدافع . ولكن الجنود فيها قاتلوا ببسالة عازمين عزما صادقا على انجاد الباخرة « بردين » مهما كلفهم ذلك واستمر سير الباخرة حتى أصيب المرجل

ولكن الربان أمر فى الحال باصلاح الخلل فاخذ العمال يصلحونه والنار تنصب عليهم من العدو وقضى الليل كله فيهذا الاصلاح حتى اذا كان الصبح تمكنت« صفيه» من استئناف السير ومقاتلة الدراويش. بل تمكنت من اسكات مدافعهم وقتل أميرهم حمد واد فايد وعدد آخر من صغار الامراء

وبلغت « صفيه » « بردين » وأنقذت السير تشارلس ورجاله وكان لهذا العمل العظيم أثر آخر فى انجاد الجنود الانجليز فى متمه

وكان جيش النجومي يسير ببطء لصعوبة جمع الرجال وقد اضره أيضا خبر قتل الامير حمد واد فايد وهزيمة الدراويش فى واد حبشى أمام باخرة واحدة . وقد قيل لى بعد ذلك عند عودتي الى مصر ان ربان الباخرة « صفيه » عند احرازها ذلك النصر كان اللورد تشارلس بريسفورد . ويقال ان النجومي عندما سمع بهذا النصر قال لرجاله انه اذا عزم الانجليز على الدخول الي السودان فانهم بالطبع سيقاتلونهم. اما اذا اتجهوا نحو الشمال فانه لا قتال بينهم وبين رجاله بل يحتلون البلاد التى جلوا عنها . وتأخر في سيره حتى بلغ متمه بعد جلاء الانجليز عنها وعن جوبات . ومع انه طاردهم الى ابو كلبه فانه لم يشتبك معهم فى قتال

وعندما جاءت طلائع الانجليز تحقق المهدى انالسودان باجمعه قد أصبح ملكه فطفح عندئذ سروراً . وأعلن هذا الخبر فى المسجد وأخذ يصف للدراويش فرار الانجليز وكيف ان النبي قد أوحى ان الله قد خرق قربهم فماتوا جميعهم عطشا .

وفى اليوم الخامس لسقوط الخرطوم رأيت ثلة من الجنود أمام خيمتى الممزقة فوضعوني على حمار وأنا فى قيودى وساروا بى الى السجن العمومي . وهناك طوقوا

حولى عوداً وحلقة من الحديد يبلغ وزنهما ثمانية عشر رطلا وكان هذا القيد الجديد يسمى « الحاجه فاطمـه » وكان لا يقيد به الا من كانت جناياتهم خطيرة او من يوصفون بالعناد من المسجونين

وكنت أجهل السبب فى سقوط مكانتى في عين الخليفة الى هـذا الحد ولكن علمت بعد ذلك ان غوردون عند ما عرف من خطابي ان القوة التى أرسلها المهدي الى الخرطوم غير قوية اذاع هذا الخبر بين الجنود فى خطوط الدفاع . وهذا المنشور الذى نشره غوردون وقعت منه نسخة فى يد حمد واد سليمان وكيل بيت المال فسلمها للمهدي والخليفة. فتأكدت لديهما عندئذ الشبهات فى خياتنى وتدبيري السابق لكي التحق بغوردون

ووضعونى في زاوية من الزريبة الكبيرة (أى السجن العمومي) ومنعوني من محادثة أى انسان بحيث اذا خالفت هذا الامر فان العقاب هو الجلد. وكنا فى الليل أربط انا وجميع المسجونين فى سلسلة طويلة الى شجرة وفي الصباح يفك الرباط . وكان يربط معي بعض العبيد الذين قتلوا أسيادهم وكنت أرى لبتون بك فيزاوية أخرى من الزريبة وكان قد مضت عليه مدة فى هذا المكان حتى ألفه . وكان قد أذن له في مخاطبة جميع من يريد باستثنائي أنا وحدي

وفى اليوم الذى دخلت فيه السجن أفرج عن صالح واد الملك وكان أخوه وابنه وجميع قرابته تقريبا قد قتلوا واذن له ان يخرج ويبحث عله يجدا أحداً منهم

وكان طعامي سيئا للغاية فشعرت كأني قد وقعت من الرمضاء فى النار . فقـد كنت قبلا أشكو من الجوع الذى كان يصيبنى من وقت لآخر ولكن الآن صرت لا أجد طعاما سوى الذرة الجافة آكلها كما يأكلها العبيـد وكان مع ذلك مقـدار ما يعطى لى قليلا جداً ورأتنى وأنا فى هـذه الحال زوجة أحـد السجانين فأخذتها الشفقة وصارت تأخذ منى الذرة وتسلقه ثم تعيده الىّ طريا فآكله ولكن لم يأذن لها زوجها بان تقدم لى طعاماً آخر لئلا يعرف رئيس السجانين ذلك فيبلغ الخبر للخليفـة. وكنت أنام على الارض وأضـع تحت رأسي حجراً كوسادة وكان هذا يحدث لى صداعا مستمراً ولـكن حدث فى احـد الايام ونحن نساق الى النهر

لكي نغتسل اني وجدت في الطريق بطانة بردعة يظهر ان صاحبها ألقاها لعدم فائدتها فحملتها وخبأتها تحت ذراعى ونمت عليها تلك الليلة كما ينام الملك على وسادة من زغب

ولكن أحوالى اخذت فى التحسن . فان رئيس السجانين الذى لم يكن يكرهنى صار يأذن لى بالتحدث مع سائر المساجين . وخفف قيودى . أما « الحاجه فاطمه » وأختها فكانتا لا تزالان فى مكانهما ولا يمكننى ان أقول انهما كانتا تزيدان فى رفاهيتى فى تلك الاشهر المضنية التي قضيتها في السجن

وبعد أيام حدثت حركة بين السجانين وأخبرني رئيسهم ان الخليفة سيأتي قريباً لزيارة السجن . فسألته عما يجب أن أفعله امامه حتى أسترضيه فنصح لى بان اجيب فورا على الاسئلة التى توضع لى والا اشكو اى شكاية وان ابقى منكسراً ذليلا في الزاوية التى خصصت لى . وحوالى الظهر حضر الخليفة ومعه اخوته وملازموه وصار يطوف على الزوايا ويرى بعينيه ضحايا عدالته . وبدا لى من مسلك المساجين ان رئيس السجن نصح لهم بمثل ما نصح لى فقد كانوا هادئين في مكانهم وقد حلت سلاسل البعض وأفرج عنهم ثم اقترب الخليفة منى وهزّ رأسه الىّ بعطف وقال : « عبد القادر . انت طيب »

فقلت « أنا طيب يا سيدى »

ثم تركنى وسار . واقترب مني يونس واد وكيم حاكم دنقله واحد قرابة الخليفة فهز يدى قال لى : « تشجع . لا تخش شيئاً . كل شيء سيصلح قريباً »

وابتدأت أحوالى تتحسن منذ هذا اليوم ولكن كنت أشعر بطول الوقت

وانتشرت وافدة الجدرى فى أم درمان وكانت تحصد المئات كل يوم حتى بادت اسرات عن آخرها . واعتقادى ان الخسارة من هذا المرض كانت اكبر من أية خسارة خسرها الدراويش فى المعارك الماضية . والغريب ان العرب أصيبوا به اكثر من غيرهم ومات منه معظم السجانين . اما نحن المسجونين فلم نصب بشيء وان كنا قد فزعنا فزعا شديدا . ولعل الله فى رحمته رأى ان فيما نقاسيه أكثر مما نتحمل

وأتيحت لى الفرص الآن للتحدث مع لبتون الذي كان يزداد سأما كل يوم . وقد كان يبلغ به الحنق والغيظ ان يشكو أحيانا مر الشكوى و بصوت عال حتى كنت أخشى عواقب فعله هذا . ولكن المعيشة التى كنا نعيشها فى السجن كانت قد أثرت فيه حتى خفت على صحته . وتمكنت بعد محادثات طويلة معه من تهدئته . وكان مع عمره الذى لم يعد الثلاثين قد شاب رأسه ولحيته فى مدة سجنه هذه

وأشيع فى احد الايام ان الخليفة مزمع المجيء الى السجن فهيأت خطبة وعنيت بانشائها وفعل لبتون مثل ذلك . وكان المرجح أنه سيخاطبنى أولا

ثم جاءت الساعة الخطرة ودخل الخليفة الى صحن السجن وبدلا من أن يطلب المسجونين واحداً بعد آخر وضع له عنجريب وقعد عليه وأحضر له المساجين وقعدوا فى نصف دائرة . فافرج عن البعض ووعد الآخرين ببحث قضاياهم ولكنه لم يلتفت الىّ ولا الى لبتون

فنظر الىّ لبتون وهز رأسه فوضعت أصبعى على فمى أحذره من عمل أى شيء طائش والتفت الخليفة الى رئيس السجن وقال : « هل بقى علىّ شيء »

فقال السجان : « أنا فى خدمتك يا مولاى »

ثم قعد الخليفة بعد ان كان قد همّ بالقيام والتفت الىّ وقال : « عبدالقادر. انت طيب »

فقلت : « يامولاى . اسمح لى بالكلام أخبرك عن حالى »

فأذن لى بالكلام فقلت : « أنا يامولاى من قبيلة غريبة . وقد جئت أطلب حمايتك فحميتني . ومن طبع الانسان ان يخطيء ويذنب الى الله والى الناس . وانا قد أذنبت ولكني الآن أتوب . أتوب الى الله والى الرسول . هاءنذا يا مولاى فى القيود والسلاسل أمامك . هاءنذا عريان جوعان أفترش الارض وأرقد هنا صابراً أنتظر قدومك لكي تعفو عني . مولاي اني أتذلل لك وأرجو ان تفرج عنى ولكن اذا رأيت بقائي فى هذه الحال التعسة فادعو الله ان يقوينى على تحملها »

وكنت قد حفظت هذه الخطبة جيداً والقيتها بفصاحة نادرة ورأيت أنى بلغت

بهـا الأمر الذى أردته في نفس الخليفة . ثم التفت الى لبتون وقال . « وأنت ياعبد الله »

فقال لبتون : « لا أزيد شيئاً على ما قاله عبد القادر . أعف عنى وافرج عني»

فالتفت الى الخليفة وقال : « منذ مجيئك من دارفور عملت كل ما يجب أن يعمل لاجلك . ولكن قلبك بقى بعيداً عنا وأردت أن تلحق بغوردون الكافر وتحاربنا فى صفه ولقد وفرت عليك حياتك لانك أجنبي . ولكن اذا كنت قدتبت حقيقة فانا أعفو عنك أنت وعبدالله . يا سجان انزع عنهما القيود والسلاسل »

فحملنا السجانون وبعد استعمال الحيل تمكنوا من نزع القيود ثم أعادونا الى الخليفة الذى كان قاعدا على العنجريب ينتظرنا . ثم أمر باحضار القرآن فوضعه على فروة وطلب منا أن نقسم يمين الولاء له . فوضع كل منا يده على القرآن وأقسم بان يخدمه بامانة وولاء فى المستقبل . ثم نهض وأمرنا بأن نسير وراءه ونهضنا ونحن نكاد نجن من الفرح بالافراج عنا بعد هذا السجن الطويل وسرنا في أثره .

ولما بلغنا منزله أمرنا بأن نبقى فى مكان بعيد عنه وتركنا . وبعد دقائق عاد الينا وقعد الى جانبنا وحذرنا من عصيان أوامره . ثم قال انه تسلم خطابات من قائد الجيش فى مصر يقول فيها انه قد أسر أقارب المهدى الذين كانوا فى دنقله وأنه يعرض أن يقايض بهم على ما عند المهدى من الاسرى الذين كانوا مسيحيين »

وقال : « لقد قررنا أن نجيب بانكم جميعاً مسلمون وانكم متحدون معنا ولا ترغبون في أن نقايض عليكم برجال ولو كانوا من قرابة المهدى . فليفعلوا ما شاءوا بأسراهم »

ثم أضاف الى ذلك قوله : « ولـكن لعلـكم تحبون العودة الى النصارى ؟ »

فاكدنا له انا ولبتون باننا لا نرغب فى تركه وان مسرات الدنيا كلها لاتغرينا بمفارقته وان بقاءنا معه يفيدنا لانه يرشدنا الى طريق الخلاص . فجازت عليه أكاذيبنا ووعدنا بان يقدمنا الى المهدى الذي كان قد وعد الخليفة بزيارته فى عصر ذلك اليوم فى منزله . ثم خرج وتركنا

وجاءنا كثير من الاصدقاء يهنئوننا بالافراج عنا وكان بينهم ديمترى زيجاده

ولكن لم يكن معه المقدار المعتاد من التبغ . وكان بينهم أيضاً صديقي القديم الشيخ عليش فلما أخبرته باننا سنقابل المهدى نصح لي بعض نصائح مفيدة في هذه المقابلة

ولما غربت الشمس جاءنا الخليفة وأمرنا بأن نتبعه فسرنا وراءه حتى دخلنا على المهدى وهو قاعد على عنجريب . وكان قد سمن سمناً فاحشاً حتى ما كدت أعرفه . فركعنا أمامه وقبلنا يده عدة مرات وأكد لنا انه يرغب في الخير لنا وان القيود والسلاسل تنفع الناس،يعني بذلك ان العقاب يمنع الناس من ارتكاب الجرائم فينفعهم لهذا السبب . ثم والى الحديث الى قرابته الذين كانوا في أسر الانجليز وانه رفض المقايضة بنا قائلا : « اني أحبكم أكثر مما أحب قرابتي ولهذا رفضت المقايضة »

فاجبته مؤكداً له الامانة والحب وقلت له : « ان كل انسان يجب ان يحبك اكثر مما يحب نفسه لان من لا يفعل ذلك لا يمكنه ان يحب أحداً من قلبه »

وكان الشيخ عليش قد أوصاني بان أقول لك ذلك . فلما سمع المهدي كلامي التفت الى الخليفة وقال : « اسمع ما يقول . قل ثانياً »

فكررت العبارة على مسامعه فأخذ يدي بين يديه وقال : « لقد قلت حقاً . أحبني اكثر مما تحب نفسك »

ثم طلب ليتون بك وأخذ يده وأمرنا كلينا بان نقسم يمين الولاء لاننا قد حنثنا بيميننا الماضية . فاقسمنا من جديد وأمرنا الخليفة بالقيام فقبلنا يد المهدى وشكرنا له بره بنا وعدنا الى مكاننا

ومضي زمن قبل أن يأتينا الخليفة . ولما عاد أذن لليتون بان يرجع الى عائلته وكانت لا تزال في بيت المال وبعث معه بملازم يريه الطريق واكد له عنايته به ثم قال لي . « وأما أنت فأين تريد أن تذهب ؟ هل تعرف أحدا تذهب اليه ، »

فقلت : « ليس لي سوى الله وأنت . ليس لي أحد يامولاى يعنى بي فافعل بي ما تراه خيراً لي »

فقال الخليفة : « لقد كنت ارجو وانتظر هذ الجواب منك . ويمكنك أن تعد من هذه الساعة واحدا من أسرتي . وسأعنى بك ولن تحتاج الى شيء . وستنتفع بملازمتي ولكن اشترط عليك شيئا واحداً وهو أن تطيع كل ما أرسله اليك من الاوامر .

وواجبك ينحصر فى أن تقعد مع الملازمين طول النهار على باب المنزل . اما فى الليل بعد ذهابي فيمكنك أن تذهب الى منزلك الذى سأخصصه لك . وعنـد ما أخرج يجب أن ترافقنى واذا ركبت فعليك أن تسير بحذائي حتي يأتي الوقت المناسب للاذن لك بالركوب الى جانبي . فهل أنت راض بهذه الشروط ؟ وهل تعد بالقيام بها ؟ »

فأجبت : « انا راض يا مولاى كل الرضا بهذه الشروط . وستجد فىّ خادماً مطيعا وارجو ان أجد القوة لكي أقوم بواجباتي خير قيام »

فقال : « الله يقويك ويبعث لك الخير » ثم نهض وقال : « نم هنا هـذه الليلة فى حماية الله وسأراك غداً »

وبقيت وحدي وشعرت اني خرجت من سجنى فدخلت في آخر وأدركت فى الحال مارمى اليه الخليفة فانه لم يكن فى حاجة الى خدمتى لانه لم يكن يثق بي أقل ثقة ولم يكن يريد ان ينتفع بى في مقاومة الحكومة المصرية او مقاومة العالم المتمدين ولكنه أراد ان أكون امام عينيه يشرف علىّ على الدوام . ولعـله أيضاً أراد يعتز ويزهو بوجودى امامه مطيعاً كالعبـد فيفتخر بذلك امام قبيلته التى هى الآن اساس سلطته . والتى كانت يوماً ما تحت امرتي وكذلك يفتخر بعبوديتى امام سائر القبائل التى كنت احكمها.ومع ذلك قلت لنفسى يجب ان اعنى كل العناية بالا أغضبه والا أتيح له الفرصة للاذى. وكنت أعرف الخليفة تمام المعرفة وأدرك ان ابتساماته لاتساوى شيئاً وقد قال لى هو ذلك فى احدى المرات . فقـد كنا نتحدث فقال : « عبد القادر: ان من يتطلع الى السيادة والسلطة يجب عليـه الا يظهر الناس على اغراضه . والا فان خصومه واعداءه يفسدونها عليه »

وفى صباح اليوم التالى جاءني وطلب أخاه يعقوب وأشار عليـه بان يخرج بى ويرينى مكانا ابنى فيه عشتي بحيث لا أكون بعيداً عنـه . وكانت قرابة الخليفة قد أخذوا الامكنة القريبـة ولذلك لم نجد أقرب من مكان يبعد عنـه نحو ٦٠٠ يارده فأخذته لبناء عشتي

ثم طلب الخليفـة كاتب سره فاراني وثيقة موجهة لقائد الجيش الانجليزى

خلاصتها ان جميع الاسرى الاوربيين قد دخلوا فى الاسلام باختيارهم وانهم لا يبغون الرجوع الى بلادهم وطلب مني ان أوقع هذه الوثيقة

ثم سألنى فجأة : « ألست مسلماً ؟ أين تركت زوجاتك اذن ؟ »

وكان هـذا السؤال مربكا فقلت : « لى زوجة واحدة تركتها فى داره وقد بلغنى انها أسرت مع سائر الخدم وانهم الآن فى بيت المال »

فقال : « وهل لك أولاد ؟ » فاجبته بالنفى فقال : « الرجل بلا ولد كالشجرة بلا ثمرة وبما انك قد صرت فى خدمتى فسأعطيك بضع زوجات حتى تعيش عيشة هنية »

فشكرت له عنايتـه بى ورجوته ان يؤجل هديته الى ان انتهى من بناء عشتي وقلت له فى ذلك ان الحريم يجب الا يعرض لنظر الاغراب . وكان ابو انجه قد أخذ جميع أمتعتى فامر الخليفة بان يعوضنى منها باعطائى مخلفات المرحوم أوليفيه بان فارسلت الىّ جميعها وكانت تحتوى على جبة قديمة وعباءة عربيـة بالية وقرآن مكتوب باللغة الفرنسية . وأرسل الىّ فضل المولى يقول ان سائر أمتعة أوليفيه بان قد فقدت منذ وفاته . وامر الخليفـة بان ترد الىّ النقود التى كانت قد أخذت منى وأودعت بيت المال . وكانت تبلغ أربعين جنيهاً وبعض الاقراط التى جمعتها لطرافتها وهـذه كلها سلمها الى حمد وأرسلها له

وشرعت فى بناء منزلى وكنت في مدة البناء أقيم فى منزل الخليفة ووكلت أقدم خدمى سعد الله النبوى في بناء منزلى وكلفته بان يجعله مؤلفا من ثلاث عشش مستقلة داخل حظيرة . ولم أكن أبرح باب الخليفة منذ الصباح الباكر حتى المساء . وكان كلما خرج راكبا أو ماشياً أسير معه عارى القدم . وكان الخليفة عند ما رأى قدمي قد تلفتامن السير بلا حذاء قد أذن لى بان ألبس نعلين وكانتا تحزان فى قدمي وتؤلمانني

وكان الخليفة يرسل الىّ فآكل معه فى بعض الاوقات وكان أيضاً يرسل ما يتبقى من طعامه لنا فآكل مع الملازمين الذين صرت واحداً منهم.واذا كان الليل وذهب

الى فراشــه توجهت أنا الى منزلى فانسطح على العنجريب وأنا فى غاية الاعياء وانام الى الفجر حيث استيقظ واذهب الى باب الخليفة فانتظره للصلاة

ولما علم الخليفة بان منزلى قد تم بناؤه أرسل الىّ جارية وقال لي سعد الله انها جاءت متلففة . وانها قاعدة تنتظرني . فأمرت سعد الله بان يشعل مصباحاً ويرشدنى اليها . ففعل ووجدت المسكينة راقدة على حصير . وسألتها عن ماضي حياتها فاخبرتنى بصوت مشئوم انها من النوبارية وكانت تنتمى الى قبيلة في جنوبي كردوفان وانها سبيت وأرسلت الى بيت المال فبقيت هناك الى ان أرسلها الىّ حمد واد سليمان . وكانت وهى تتكلم قد رفعت ما على رأسها من الاقمشة المعطرة التى كانت متلففة بها فبدا لى وجهها وكتفاها وصدرها

وأشرت الى سعد الله بان يقرب المصباح منها ثم رأيت عنــدئذ أني فى حاجة الى ان اعيء جميع قوتي لكي لا أرعب وأقع من العنجريب فقد كان لها وجه دميم تطل منه عينان صغيرتان وكان أنفها عظيما مفرطحا تحته فم له شفتان غليظتان تكاد ان تبلغان أذنيها عند ما تضحك . وكان رأسها يرتكز على عنق غليظ أشبه شيء بعنق الكلاب التى من ســلالة « البول دوج » وكان اسم هــذه المخلوقة مريم . فأمرت سعد الله بان يأخذها بعيدا عني ويعطيها عنجريباً

فهذه اذن هى أولى هدايا الخليفة لى . وهو لم يهد الىّ حماراً أو فرسا او بضعة نقود أستعين بها ولكنه أرسل لى جارية دميمة لا ارتاح الى وجودها وهى لو كانت جميلة لما قدرت على القيام بتكاليفها

ولما ذهبت فى اليوم التالى سألنى هل أرسل لى حمد واد سليمان جارية؟فقلت : « اجل . لقد أنفذ أوامرك على الفور » ثم وصفت له الجارية وصفاً دقيقاً

فاغتاظ الخليفة أشد الغيظ وبعث فى طلب حمد واد سليمان ووبخه على عدم طاعة أوامره بل مخالفته أيضاً أوامر المهدى . وأرسلت الىّ فى المساء جارية أخرى اقل دمامة من سابقتها وكان الخليفة هو الذى اختارها . ولما هدأت بمنزلى سلمتها لمراحم سعد الله الخادم

واطمأن المهدى والخليفة والامراء من ناحية الغارات الخارجية فشرع كل منهم

فى بناء منزل يوافق مكانته وحاجاته . وأخذت النساء سبايا الخرطوم الى هذه المنازل الجديدة وأخذ أسيادهن فى التمتع بهن لا تزعجهم نظرة الغريب أوحسد الصديق

ولم يكن الخليفة والمهدى وقرابتهما يحبون أن يعرف الناس أنهم أخذوا معظم الغنيمة لانفسهم لان هذا العمل ينافى تعاليم المهدى الذى يقول بالزهد فى ملذات الدنيا وكانت منازلهم واسعة تسع أكثر ممن فيها وذلك انتظارا للغنائم التى ستأتيهم من البلاد التى لم تفتح للآن

وفي يوم ما مرض المهدى ولم يذهب الى المسجد للصلاة . ولم يأبه أحد لمرضه اولا لانه كان قد أعاد على اسماع الناس عدة مرار انه سيفتح مكة والمدينة والقدس ثم يموت بعد عمر طويل فى الكوفة . وأن النبي قد أظهره على هذه الرؤيا . ولكن مرض المهدى لم يكن وعكة خفيفة فقد استولت عليه حمي التيفوس وبعد ستة أيام من مرضه بدأ الذين حوله يقنطون من شفائه

وكان سيدي الخليفة يهتم اهتماما كبيرا بمرض المهدى ولا يبرح داره ليل نهار . وكنت انا أقف على الابواب بلا غاية معينة

وفي مساء اليوم السادس اجتمع جمهور كبير حول بيت المهدى وأمر المصلون فى المسجد بان يصلوا ويدعوا لشفائه لانه بات فى خطر الموت . وكانت هذه أول مرة أعلنت فيه الصفة الخطرة للمرض المصاب به المهدى امام الناس . وفى صباح اليوم السابع اذيع أن حالته تسوء ولم يبق شك فى انه يموت

وكان المرض الآن قد بلغ غايته . وكان المهدى راقدا على عنجريب وحوله الخلفاء وقرابته وحمد واد سليمان ومحمد واد بشير (أحد كبار موظفى بيت المال ووكيل بيت المهدى) وعثمان واد احمد والسيد المكي (وهو شيخ من شيوخ الدين فى كردوفان) وبعض من كبار أنصاره الذين سمح لهم بالدخول في غرفة مرضه

وكان المهدى يغيب عن وعيه من وقت لآخر ولما شعر بان آخرته قد قربت قال للذين حوله : « ان الخليفة عبد الله هو الخليفة الصادق وقد عينه النبى للخلافة بعدى . فهو منى وانا منه . وكما اطعتمونى وانفذتم أوامري كذلك افعلوا معه . الله يرحمنا »

ثم جمع مافيه من قوة وكرر عدة مرات عبارة : « لااله الا الله محمد رسول الله » ووضع يديه مشبوكتين على صدره ومد ساقيه وأسلم روحه

وقبل أن يبرد دمه أقسم أنصـار المهدى يمين الولاء للخليفة عبد الله . وكان أول من بايعه سيد المكي ثم عقب ذلك الخليفتان الآخران وتبعهم جميع الموجودين ولم يكن من الممكن أن يحتفظ بوفاة المهـدي سراً لايذاع بين الجهور . ولكن أمر الجميع بالا يبكوا أو ينوحوا وطلب من الجميع مبايعة الخليفة . وكانت ستنا عائشة أم المؤمنين كبرى زوجات المهدى في غرفة وفاته قاعدة متلففة في احدي الزوايا فلمـا مات خرجت من الغرفة لكي تخبر سائر النساء بوفاة مولاها وزوجها وكان عليها أن تعزيهن وتمنعهن من النوح والندب . وكان معظمهن قد فرحن فى قلوبهن بوفاة المهدى الذى جلب الخراب على البـلاد والذى دعاه الله الى محكمته العليـا قبل أن يتمتع بثمار انتصاره

ولـكن على الرغم من الاوامر القاضية بمنع النوح والندب ارتفعت الاصوات من كل بيت وقيل إن المهدى مات باختياره لانه كان في شوق شديد لرؤية الله

وشرع بعض الموجودين فى غرفة المهدى بغسل الجثة ولفها في قماش من الكتان وأخذ البعض في حفر حفرة عميقة فى الغرفة التى مات فيها وبعد ساعتين وضعوا الجثة فى الحفرة وبنوا فوقها بالطوب ثم طمروا الحفرة بالتراب وصبوا عليه ماء . ولما انتهوا من ذلك رفعوا أيديهم وتلوا عليه صلاة الموتي وخرجوا من الغرفة وهدأروع الجماهير المتكأكئة حول المنزل

وكنا نحن الملازمين أول من دعى الى الخليفة الذى صار يسمى بعد ذلك خليفة المهدى فاقسمناله يمين الولاء وامرنا بان ننقل منبر المهدى الى مدخل المسجد وأن نخبر الجمهور بانه سيخطبهم الآن فلما أخبرناه باننا قد انفذنا أوامره خرج من غرفة المهدى وذهب الى المسجد واعتلى المنبر لاول مرة باعتباره حاكما للبلاد

وكان يتفزز من الهياج وعبراته تنحدر على خديه ثم قال بصوت عال :

« ياأصدقاء المهدى . انه لا مرد لقضاء الله . لقد غادرنا المهدى الى الجنة حيث يجد ملذات النعيم . وعلينا نحن أن نتبع تعاليمه وأن نتعاون وأن نتساند كما يتساند بناء

البيت . وهذا العالم فان . فلا تنحرفوا عن طريق المهدى واغتبطوا بالشطر الحسن الذى معكم من أنصاره وأتباعه . وأنتم أنصاره وانا خليفته. فأقسموا الآن الى يمين الولاء »

ولما انتهى من هذه الخطبة القصيرة شرع الحاضرون فى المبايعة وكانت صيغتها « بايعنا الله ورسوله ومهدينا وبايعناك على توحيد الله الخ ... »

وكانت كل طائفة تبايع تخرج وتأتي اخرى وكان المجتمعون كثيرين حتى كانوا فى خطر الموت من الزحام . واستمرت المبايعة الى المساء . وكان الخليفة قد سكت عن البكاء واخذت امارات الفرح ترتسم على وجهه عندما رأى هذه الجماهير العديدة تزدحم لمبايعته

وكان قد جهده التعب فنزل عن المنبر واحتسى جرعة ماء بعد ان جف ريقه من تعبه طول النهار . ولكن خاطر السلطة الجديدة وانه الحاكم للقطر السوداني كان يؤنسه ويشد من عزمه ولم يترك المنبر الا بعد ان ألح عليه كبار اتباعه بذلك

وقبل ان يترك المنبر طالب امراءه وجعلهم يقسمون يمين الولاء على حدة وامرهم بلزوم طاعته وطاعة اخيه يعقوب ونصح لهم بان يعيشوا على وفاق بعضهم مع البعض لانهم اغراب وذلك لكي يكافحوا دسائس اهل البلاد التى نزلوا فيها ثم حضهم على لزوم تعاليم المهدى

وكنا قد تأخرنا الى ما بعد منتصف الليل فلم ارغب فى الذهاب الى منزلى وانطرحت على الارض حيث انا اسمع روايات الناس عن موت المهدى واستعدادهم لطاعة الخليفة .

والآن يمكننا ان نتساءل . ماذا فعل المهدي لاحياء الدين . وما هى تعاليمه ؟

لقد دعا الى الزهد وكان يجحد الملذات الدنيوية وغرور هذا العالم. وهدم النظام الاجتماعي ونظام الموظفين وسوى بين الاغنياء والفقراء واختار الجبة المرقعة لباساً عاما لجميع الناس . وضم المذاهب الاربعة المالكي والشافعي والحنفي والحنبلى الى مذهب واحد ولم يكن اختلافهـا كبيراً فانه مقصور على كيفية الوضوء والسجود وكيفية عقد الزواج وما الى ذلك . واختار بضع آيات من القرآن سماها الراتب وكان يأمر المصلين بتلاوتها بعد صلاة الصبح وصلاة العصر

وقد سهل على الناس عملية الوضوء. ومنعهم من الشراب وكان السودانيون لا يعقدون زواجا بدون أن يشربوا . وانزل قيمة المهر الى عشرة ريالات وثوبين للبكر وخمسة ريالات وثوبين للثيب . ومن أعطي اكثر من ذلك كان يصادر في أملاكه . وقصرت وليمة العرس على طبق من اللبن وآخر من البلح . وكان يقصد تيسير الزواج وكان يحتم على الآباء والاوصياء زواج بناتهم . وهن بعد صغيرات

ومنع الرقص واللعب وكل من خالف ذلك يعاقب بالجلد وتصفى أملاكه . وكان السباب يعاقب عليه بحساب ثمانين جلدة لكل كلمة بذيئة والحبس سبعة أيام . ومنع استعمال الخمور والمريسة وتدخين التبغ ومن خالف هذه الاوامر يعاقب بالجلد والحبس ثمانية أيام ومصادرة أملاكه . وكان السارق يعاقب بقطع يده اليمنى فاذا عاد الى السرقة قطعت اليسرى

ولما كانت عادة الرجال فى عرب السودان ارسال شعورهم أمر المهدى بحلقها وكذلك أمر بمنع النوح على الموتى أو ندبهم ومنع الولائم التى تقام فى المآتم ومن خالف ذلك تصفى أملاكه

ولما كان المهدى يخشى فرار جنوده لعلمه بما يقاسونه من المعيشة التى رتبها لهم ولعله أيضاً بان مذهبه قد لا يعد صحيحا فى نظر المسلمين الآخرين منع السودانيين من الحج الى مكة ومنع المواصلات بين السودان والاقطار المحيطة به

وكان يعاقب كل من يصرح بالشك فى صحة مذهبه ويشهد عليه أثنان بقطع يده اليمنى وساقه اليسرى . وكان يستغني أحيانا عن شهادة الشاهدين بما يدعيه من ايحاء النبي له واثباته جناية المتهم أو براءته

وكان أيضا يعرف ان معظم أوامره تخالف الدين فأمر لذلك بمنع الناس من دروس الفقه وشروح القرآن وقضى بان تحرق هذه الكتب أو تلقي فى ماء النيل

هذه هي تعاليم المهدى ولم يترك حجراً الا قلبه لكي ينفذ أوامره . وكان فى الظاهر يبدو للناس أنه يحافظ كل المحافظة على لزوم تعاليمه ولكنه كان هو وخلفاؤه وقرابته اذا دخلوا منازلهم استسلموا للنهم فى الطعام والشراب واللهو وضروب اللذات الشهوانية المنتشرة فى السودان

الفصل الحادى عشر

حكم الخليفة عبدالله

لم يحدث شيء ذو أهمية فى دارفور منذ أن غادرتها . فان خالد درزريك كان قد أرسخ حكم المهدى في المديرية باجمعها وبعث الامراء والجيوش لكي يقوي حكم المهدى فى جميع الانحاء . وقد تظاهر ضابطى القديم عمر واد دارهو بالولاء للنظام الجديد ولكنه عند وفاة المهدى قام في ذهنه ان يستقل فكاد له خالد حتى أوقع به وحمل الى دارفور حيث قطع رأسه .

وكان أبو أنجه في كردوفان وكانت هذه المديرية قد خضعت كلها للمهدى ماعدا الجزء الجنوبى فيها وأرضه جبلية فاعتبر أهل هذا الجزء عبيداً لم يدفعوا الجزية وطلب منهم الهجرة الى أم درمان

ولما لم يجيبوا هذا الطلب دعى أبو أنجه الى اخضاعهم والى احتلال بلادهم بجيشه واجبارهم على تموينه وارسال عدد منهم عبيداً الى المهدي . وتمكن ابو انجه بعد أن فقد مقداراً كبيراً من الذخيرة وعددا عظيما من رجاله من القيام بجميع ما أمر به تقريباً . وكان السودان الغربى باستثناء هذا الجزء الصغير منه خاضعا لسلطة المهدى من حدود وادى النيل الى الابيض

أما فى السودان الشرقي فقد ثبتت سنار وكسله ودافعت كل منهما المهديين ولما علمت الحكومة المصرية بالحالة الخطرة التى بات فيها الجنود فى الحاميات الشرقية أرسلت الى يوحنا ملك الحبشة تستنجد به لكي ينقذ حاميات القلابات وجيره وسنهيت وكسله وينقلهم الى مصوع . ولكن حاكم كسله صرح بان الحامية مؤلفة من أولاد البلدة فهو لذلك لا يمكنهم ان يجعلهم يتركون بلدتهم الى مصوع

وأرسل المهدى كلا من ادريس واد عبد الرحيم وحسين واد صحرا بالامداد لكي يعجلا باسقاط المدينة . وفي هذه الاثناء كان الملك يوحنا قد أنقذ حاميات سنهيت وجيره والقلابات وارسلهم الى مصوع وصار العرب المقيمون فى المثلث بين

ـوا كن وبربر وكسله من أتباع المهدى الخاضعين له . وكان عثمان دجنه قد انتخب واليا على هذا القسم وأرسل محمد الخير الي دنقله لكي يحتلها بعد خروج الانجليز منها

هذه اذن هي حالة السودان عند تولى الخليفة . ومن هنا نفهم السبب الذى دعاه الى ان يحث القبائل العربية الغربية على الاتحاد لانهم أغراب في البلاد التى يحتلونها. فانه كان يعرف ان « أولاد البلد » من برابرة وجعالين وسكان الجزيرة لا يستمرئون قدوم هؤلاء العرب الغربيين الذين يختلفون عنهم فى الافكار والاخلاق الى بلادهم.

وكان أول ما عمله الخليفة انه فصل حمد واد سليمان من منصب مدير بيت المال وعين بدلا منه ابراهيم واد عدلان وكان من عرب الكواحلة على النيل الازرق ولكنه أمضى عدة سنوات يشتغل بالتجارة فى كردوفان وكانت له حظوة عند الخليفة

وطلب من عدلان ان يجعل حسابا للوارد والمنصرف وان يكون لهذا الحساب دفاتر تمكن مراجعتها فى أى وقت وتعرف منها الحالة المالية . وأمره أيضاً بان يضع قائمة عن جميع أولئك الذين يتسلمون أى مبلغ من المال والذين يقبضون مرتبا

وعند وفاة المهدي جاءت الاخبار بان الغارة على سنار قد فشلت وان عبدالكريم قد صد عنها فارسل الخليفة عبدالرحمن النجومي لكي يتولى القيادة وذلك في سنة ١٨٨٥ فسلمت الحامية لهذا القائد القويّ . وحدثت الفظائع المعتادة بعد سقوط المدينة فان عددا من أهالى سنار أرسلوا الى الخليفة وكان بينهم بنات الموظفين الجميلات فاحتفظ الخليفة باجملهن ووزع الباقي على الامراء

وشرع الخليفة فى تأييد سيادته . وكان يعرف ان عبد الكريم مزاحم قويّ فاستدعاه الى الحضور الى أم درمان بجميع جيوشه ثم دبر له هو والخليفة على واد حلو مكيدة بحيث سلم عبد الكريم جميع ذخيرته وجنوده وكذلك سلم الخليفة شريف جميع جنوده السود لاخيه يعقوب وأصبح كل منهما مقلم الظفر لاخطر منه .

وبينما كانت هذه الاخبار تشيع في العاصمة وصلت الاخبار بان كسله سقطت وان عثمان دجنه يقاتل الاحباش الذين يقودهم الرأس الوله . وقد انتصر الاحباش على عثمان دجنه واضطروه الى الالتجاء الى كسله ولكنهم اكتفوا بذلك ورجعوا الى بلادهم

واتهم عثمان دجنة حاكم كسله السابق أحمد بك عفت بانه فاوض الاحباش وحرضهم على مقاتلته . ولم يكن هناك أقل ما يثبت هذه التهمة ومع هذا فقد قبض على ستة موظفين فى كسله وشدت أيديهم خلف ظهورهم وضربوا بالرصاص كأنهم مجرمون

وكان الخليفة عبد الله يعرف ان جوره على سائر الخلفاء سيثير غضب قرابة المهدى الذي كانت علاقته بهم سيئة ولكنه لم يبال بذلك . فقد عقد عزمه على ان ينفذ أغراضه ولو احتاج فى ذلك الى استعمال العنف وقد كان مع ذلك يخشى الرأي العام ويعرف ان الاهالى كانوا يحبون المهدى وانهم يعطفون على قرابته فلم يكن يظهر بمظهر العداء لهم . بل سار في طريق مرضاة الجمهور الى ان اهدى الى الخليفة شريف طائفة من العبيد وبعض الخيول العتيقة والبغال الفارهة ووهب اتباعه ايضاً عدداً من العبيد . وقد اجتهد فى ان يجعل هذه الهبات والانعامات علنية حتي يعرفها جميع الناس وقد نال وطره فان الناس حمدوا له فعله وامتدحوا سخاءه فى قصائد كانوا يتغنون بها

وكان واضحاً امام الخليفة ان ترك البلاد البعيدة فى أيدى قرابة المهدى مما يعود بالخطر على حكمه ولذلك لم يتوان فى إرسال قرابته هو الى دارفور وكردوفان لكي يلوا الحكومة .

وقد طلبنى الامير يونس الدكيم لكي أرافقه الى سنار ولكنى قبل أن أغادر أم درمان قال لى الخليفة : « اني أحثك على أن تخدمنى خدمة صادقة . فانى أنظر اليك نظرة الاب لأبنه وقلبي يعطف عليك . والله يعد المؤمنين بالمكافأة كما أن غضبه ينزل على الخونة . ويونس يحبك ويرجو لك الخير وسيسمع لنصائحك وإذا شرع في عمل يعود عليه بالاذى فيجب ان تحذره منه وقد أخبرته باني اعتبرك أحد أولادى وسيستشيرك في كل مايعمله »

فقلت : سأعمل بما تأمرنى . ولكن يونس رئيسي فهو لذلك سيستبد برأيه . فأرجوك ألا تنسب الىّ عملا لا يكون وفق هواك وتجعلنى مسئولا عنه »

فقال : « ان لك أن تشـير ولكن ليس لك أن تعمـل . فاذا كان عمله وفق مشورتك وإلا فهو المسئول »

ثم تحول الحديث الى مسائل دارفور وجهات اخرى من السودان

واستمر الحديث مدة ولكني حين اوشكت ان أهم بالقيام هتف الخليفة باحد الخصيان وهمس في أذنه كلمة . وكنت أعرف مولاي معرفة جيـدة وأعرف ان اشاراته نذير شؤم

وقال لى : « لقد أشرت عليك بان تترك أهلك لأنهم قد جاءوا بعدسفر شاق فهم في حاجة الي الراحة . وسيعطيك يونس خادما وهاءنذا اعطيك زوجة حتي اذا مرضت وجدت من يعنى بك » ثم تبسم وقال : « وهى جميلة وليست مثل تلك التى قدمها لك حمد واد سليمان »

ثم أشار الى المرأة التى دخلت فرفعت نقابها ونظرت اليها فاذا بهاجميلة على الرغم من سمرتها

ثم قال الخليفة : « هذه زوجتى وهي طيبة صبور . وعندى كثير من النساء ولذلك انا اعتقها فيمكنك ان تأخذها »

فارتبكت وكنت طول الوقت أفكر فى طريقة أرفض بها مثل هـذه الهدية . بدون أن أغضب الخليفة . فقلت : « اسمح لى يامولاي بالكلام »

فقال : « لاتخش شيئاً . قل ماتريد »

فقلت : « هذه المرأة كانت يامولاى زوجتك وأنت سـيدى وانا خادمك فكيف يجوز لى أن آخذ زوجتك . ثم انك تقول يامولاى انك تنظر الي كأني ابنك »

ثم أغضيت الطرف وقلت وانا انظر الى الارض : « لا يمكننى أن أقبل هذه الهدية »

فقال وهو يشير الى المرأة بان تذهب : « لقد قلت حقاً وانا أوافقك »

ثم هتف بالخصي قائلا : « يا ألماس . احضر جبتى البيضاء » وذهب وأحضرها فسلمها لى وهو يقول : « خذ هذه الجبة التي لبستها أنا مرارا والتي باركها المهدي . وسيغبطك ألوف الناس عليها فاحرص عليها لأنها تأتيك بالبركات »

فابتهجت بهذه الهدية وقبلت يديه وانا مرتاح الى تخلصى من تلك المرأة التى

ما كانت سوى حجر عثرة ونفقة لاأتحملها ووجدت فى الجبة بديلا طيبا منها . ثم استأذنت فى الخروج وأخذت هديتي الغالية معي

وعين يونس يوم السفر ولكن قبل السفر طلبني الخليفة وحثنى على الصدق فى الخدمة والامانة امام يونس

وفى المساء برحنا أم درمان فى الباخرة «بردين» وفى اليوم الثالث بلغنا شاطىء النيل الازرق وتراءت لنا سنار على بعد

وقد اخترنا مكانا لخيامنا قطعة مستطيلة من الرمل شمالى وادى العبـاس لان الارض التى حولها منخفضة لاتوافق الاقامة مدة فصل الامطار . ولم يكن رأسي يفكر الآن بشيء سوى الفرار . ولكن لما كان جميع الاهالى راضين عن الخليفة فانى كنت فى حاجة الى ان احذر اشد الحذر فى اتخاذ واحد اثق به . ولم يمض علىّ طويل زمن في وادى العباس حتى جاءنى خطاب من الخليفة يقول فيه انه جاءته اخبار بان زوجتى قد وصلت الى كروسكو وانها ترتب الترتيبات اللازمة لفرارى ثم حضني على ان اترك هذه الافكار والزم الايمان . وتسلم يونس ايضاً خطابا جاء فيه هذا المعنى ثم تعلل بانه يريد ان يوقف الخليفة على الاحـوال فى سنار وامرنى بالسفر الى ام درمان . وعلي ذلك ذهبت تدبيراتي للفرار ضياعا ورأيت نفسي بعد ايام فى حضرة مولاي الخليفة

وبدأ الخليفة الكلام عن الخطاب الذى جاءه من بربر فأكدت له بانه اذا كان هذا الخطاب قد وصل بالفعل فانه لم يكتب الا بغية الاذى لى والا فقد يكون هناك خطأ وبرهاني على ذلك انى لم أتزوج قط فليس لى زوجة تصبو الى لقائى . أما اذا جاء احد الى أم درمان وأراد اغرائى بالهرب فاني لن أتأخر عن ابلاغ امره للخليفة

فأكد لى الخليفة بانه لم يصدق هذه الاشاعة ثم سألنى هل احب البقاء معه او مع يونس وكنت اعرف قصده من هذا السؤال فقلت اني لا اعدل بالبقاء معه شيئاً. وابتهج من تملقى له ولكنه قال بصوت جدى انه يذكرني بالولاء والامانة والا احادث احداً خلاف اهل داره . ثم امرنى بلزوم مكاني كما كنت سابقا على باب الدار .

وعند خروجي لم اشك فى ان شبهات قد تأصلت في قلبه وانها ابتدأت فى النمو

وكانت قوة الابيض تحتوى فى هذا الوقت على مائتين من الجنود السود وقد زاد عددهم بما انضم اليهم من جنود داره السود ايضا . وكان كثيرون منهم يقطنون جبل دبرو وهم على عداوة دائمة مع المهدى . وكان الدراويش قد اسروا بعضا منهم واستعملوهم فى بناء اكواخهم واستعبدوهم .

واغتاظ هؤلاء الجنود من هذه المعاملة وعزموا على ان ينالوا حريتهم . وكان الامير سيد محمود غائبا لحسن حظهم فى ام درمان وتمكن المتمردون من الاستيلاء على الترسانة . فأخذوا منها السلاح ثم اقتتلوا مع سائر الجنود وخرجوا الى جبل النوبة

وبلغت هذه الاخبار السيد محمود فى ام درمان فسافر فى الحال الى الابيض وتولى قيادة الجند وسار الى جبل النوبة وحاول ان يهزمهم ولكنه فشل فى ذلك وقتل هو وعده كبير من الجند

ولم يكن الخليفة يجهل تزايد قوة خالد (زوجال) واستقلاله فى دارفور . وكان يعرف انه لقرابته من المهدى يعطف على الخليفة شريف فتعلل بانه يرغب فى ان يتوسط خالد بينه وبين الخليفة شريف فى ايجاد الصلح والوفاق ودعاه لذلك الى الحضور الى ام درمان مع جميع جنوده .

ولكن عند ما وصل خالد الى باره وجد نفسه فجأة محوطا باتباع ابو انجه وكان الخليفة قد أمرهم بأن يأخذوا جنود خالد ويضموهم الى جيشهم ويذهبوا جميعاً الى جبل النوبة لمقاتلة المتمردين . ولم يكن بد من ان يخضع خالد بعد ان وقع فى هذا الشرك فقيد بالسلاسل وأرسل الى أم درمان ثم صودر فى أملاكه وبقى سجيناً عدة أشهر ولكن عفى عنه بعد ذلك وعين بدلا منه عثمان واد آدم ابن عم الخليفة

ونجح ابو أنجه فى هزيمة المتمردين فقتل جميع الزعماء وجعل معظم الجنود المتمردين عبيداً

وعلمت من تاجر قدم الينا من كردوفان فى ذلك الوقت ان صديقى يوسف أوهرولدر قد غادر الابيض وانه سيصل قريباً الى أم درمان . ومع علمى بأنى سأجد أكبر مشقة فى لقائه فقد فرحت بان أحد بني وطنى سيكون قريبا منى . وكنت طول الوقت على باب مولاي الخليفة أنفذ أوامره . وكان يخاطبني أحيانًا بلهجة الرأفة

ويدعوني الى الطعام فآكل معه . وفى أحيان أخرى كان ينساني نسيانا تاما او ينظر اليّ نظرة الحقد والغضب بلا مناسبة أستطيع فهمها . ولكني صرت أنسب هذه الاحوال الى مزاجه الشخصي وصرت أسوم نفسي على الرضا .

وكنت لا أبدى أقل اكتراث لما يحدث فى البلاد من الحوادث وذلك حتى لايجدوا سببا فى زيادة شبهات الخليفة الذى كان على الدوام يتوجس منى شراً ويسأل عن مسلكي ولكن الحقيقة انى كنت أرقب الحوادث بعين الاهتمام بمقدار ما يسمح لي مركزى وكنت أحاول ان أنقشها فى ذهنى حتى لا أنساها لانه لم يكن يسمح لى بكتابة شيء.وكان الخليفة يقتر عليّ فى مؤونة بيتى وقلما كان يأذن باعطائي بعض الارادب من الذرة او منحى بقرة او شاة .

وكنت أعرف ابراهيم عدلان مدة الحكومة السابقة فكان يرسل لى كل شهر مبلغا يتراوح بين العشرة والعشرين ريالا وكان بعض الموظفين والتجار يساعدوننى أيضا بالمال من وقت لآخر . وعلى ذلك يمكننى ان أقول ان حالى وان لم تكن في يسر إلا اني لم أشعر بالحاجة الى ضروريات المعيشة او كنت أشعر بها قليلا من وقت لآخر فقط . وعلى كل كانت حالتى تفضل حال صديقى لبتون الذى وعده الخليفة بمساعدته ولكنه لم يف بوعده وكان لبتون يتمتع بشيء من الحرية يجول أينما شاء فى أم درمان ويحادث الناس ولم يكن مضطراً الى حضور الصلوات الخمس فى المسجد . ولكن حياته كانت مع ذلك مملوءة بالمتاعب والاحزان . وقد رجوت عدلان أن يساعده ويعطيه شيئا من المال ولكن هـذا لم يكفه . وكان لبتون يجهل التجارة ولكن الحاجة اضطرته الى ان يربح شيئا باصلاح البنادق الفاسدة . ولما كنت أعرف انه كان مستخدما فى السفن الانجليزية قديما خطر فى بالى انه ربما يعرف شيئا عن الآلات

والتقيت به أحد الايام في المسجد فشكا الىَّ سوء حاله شكاية مرة فاقترحت عليه ان أبحث له عن وظيفة فى البواخر يستعين بهـا على العيش فطرب لمقترحي ووعدته بانى سأعمل جهدى لكي أحقق له ذلك

وبعد أيام بينما كان الخليفة فى مزاج موافق ينظر الىّ بعين الرضا لان أبا أنجه

أرسل اليه جوادا عتيقا و بعض المال وعددا من عبيد خالد فعدت لتناول الطعام معه وذكرت له حال البواخر وانها يخشى عليها من التلف لأنه ليس فيها من يفهم آلاتها وكيفية اصلاح ما يفسد منها فقال لي انه لا يعرف شيئاً عنها مطلقا وانه في حيرة ماذا يفعل لصيانتها فانهـا ضرورية . فاقترحت عليه في الحال بانه يمكن ان نستخدم لبتون فيها لصيانتها واصلاحها وقلت له ان لبتون كان مهندساً في احدى البواخر الانجليزية . فوافقني الخليفة علي اقتراحي وأمرني بالبحث عنه .

وفي اليوم التالي بحثت عن لبتون ودعوته للحضور . فحضر وأخبرته بما قاله الخليفة ولـكني نصحت له بالا يعمل شيئا مفيدا للبواخر التي يملـكهـا أعداؤنا . فأكد لي لبتون بان معرفته بالآلات سطحية جدا وأنها ستسوء بادارته وان الحظ السيء هو الذي سيجبره على قبول هذه الوظيفة . وخاطب الخليفة عدلان في هذا الشأن . وفي المساء أرسل الي لبتون يقول انه قد تعين في هذه الوظيفة براتب قدره أربعون ريالا في الشهر وفي هذا المبلغ كفاف المعيشة .

وأشيع في ذلك الوقت في أم درمان ان الاحباش سيغيرون على القلابات . وقيل أيضاً ان من يدعى الحاج علي واد سالم من الـكواحلة كان يقيم في القلابات . وقد تعين أميرا علي قبيلته وكان يسيح في تخوم الحبشة فاغار علي جبطة وهدم كنيستها

وكان من يدعى صالح شنجه وهو رجل تكروري كان يقيم قبلا في القلابات فلما أخلاها الجنود المصريون ذهب وأقام في الحبشة ولـكن ابن عمه أحمد وادأرباب عين أميرا في ذلك القسم .

وكان حاكم أمهرة (في الحبشة) الرأس عدل قد طلب من «أرباب» ان يسلم له الحاج علي الذي أغار على جبطة . فرفض طلبه فجمع جيشا وأغار به على القلابات وكان «أرباب» قد علم بنية الراس عدل على الهجوم فجمع جيشا يبلغ ستة آلاف ووقف ينتظره خارج المدينة . ولـكن هجوم الاحباش الذي كان يزيد عددهم على عـدد السودانيين بعشرة أضعاف كان عنيفا فاحدقوا بالدراويش وذبحوهم وقتل «أرباب» ولم ينج إلا عدد قليل جدا . وقطع الاحباش أجسام القتلى ومثلوا بهم ما عدا جسم « ارباب » فانهم استثنوه احتراما لصالح شنجه .

وكان الدراويش قد خزنوا بارودهم فى منزل ووكلوا حراسته لمصرى . فلما طالب الاحباش هذا المصرى بتسليم البارود أبى واشعل البارود فانفجر وقتله هو ومن حوله من الاحباش . أما القلابات نفسها فقد أحرقها الاحباش وسووها بالارض بحيث صارت خرابا لا يعيش فيها سوى الضباع .

ولما بلغ الخليفة خبر اصطلام جيش واد ارباب أرسل خطابا الى الملك يوحنا يعرض عليه افتداء الاسرى بمبلغ يعينه هو بنفسه . ولكنه فى الوقت نفسه أمر يونس بان يقوم بجيشه الى القلابات وينتظر أوامره هناك

وعند ما غادر يونس الخرطوم بجيشه عبر الخليفة النهر الى الخرطوم وشيعه ثم عاد الى أم درمان .

وحدث ان «كلوتز» اختفي فجأة من أم درمان وكان هذا على أثر فشله فى الحصول على ما يعيش به وظننت انه قد فر ونجا . ولكني علمت من بعض التجار الواردين من غضارف انه وصل الى هذه البلدة وقد بلغ به الاعياء حتى مات قبل هجوم الاحباش

الفصل الثانى عشر

بعض الحوادث الاخرى

كان الامير كرم الله قد تولى الحكم فى بحر الغزال بعد لبتون وذهب الى شقة وأقام فيها . ولكن صديقى القديم المادبو كان يحكم هذه الجهة فاصطدم الاثنان وتنازعا السلطة

وانتهي النزاع بالشجار وفر المادبو بعد مقاومة غير مفيدة فقبض عليه وأرسل الى أبي انجه وكان يحقد عليه لعلة سابقة . وذلك ان المادبو أسره أحد الايام عند ما كان يقاتل في صف سليمان زبير وكلفه حمل صندوق كبير من الذخيرة فلما شكا اليه أبو انجه جلده . ولما أحضر المادبو حاول ان يدافع عن نفسه بقوله انه لم يقاتل المهدى وانما كان يقاتل كرم الله . ولكن ما فائدة الدفاع فى هذه الاوقات ؟

وعرف المادبو ان الدفاع لا فائدة فيه فاستسلم لقضاء الله وقال : « ان الله هو الذى يقتلنى . وانا لا أسأل الرحمة وانما اطلب العدل . ولكن كبير على عبد مثلك أن يكون شريفاً . وها هي ذى آثار سوطي على ظهرك لم تزل واضحة . ومهما جاءني الموت فانه سيجدني رجلا هادئاً مطمئناً لقبوله . فانا المادبو والقبائل تعرفني »

وأمر أبو أنجه برده الى السجن ولكنه لم يجلده وفي اليوم التالي قتله امام جيشه وبر المادبو بوعده فانه وقف فى الساحة الفسيحة المعدة لقتله والسلاسل حول عنقه وكان يضحك فى وجه الجنود الذين كانوا يركضون الخيول ويلوحون بالرماح في وجهه . ولما أمر بالركوع لكي يقتل صاح فى الناس ان يشهدوا عليه كيف مات وتحمل الموت بشجاعة . وبعد لحظة انتهي كل شيء . وهكذا ختمت حياة المادبو وكان من أقدر شيوخ العرب فى السودان .

ولما أحضر رأسه الى أم درمان حزن عليه جنود الرزيقات الذين كانوا قد هاجروا الى أم درمان . حتى الخليفة نفسه أسف على قتله . ولكن لما كان كل شيء قد انتهى لم يكن ثم مجال لان يلوم أ كبر أمرائه على شيء فات . ولكنه أخبرني انه لو عاش لكان فيه منفعة كبيرة

وكان يونس قدغادر أبا حرز الى القضارف والقلابات حيث أقام وكانت سلطته واسعة . وحدث انه طلب من الخليفة أن يأذن له فى الاغارة على الحبشة ولم يكن الخليفة قد تسلم الجواب من الملك يوحنا على خطابه فأذن له . فأخذت جيوش يونس فى الاغارة على القرى المتاخمة وكان يقودها عرابى ضيف الله فكان يقتل الرجال ويسبي النساء والأولاد وكانت هذه الجيوش سريعة الحركة كثيرة الاغارة حتى لقد سارت مرة عشرين ميلا فيداخل البلاد تنهب وتقتل وتفتك . ولكن يونس كان في القلابات وعلاقته بالاحباش على ما يرام يتاجر معهم فيأتونه بالبن والعسل والشمع والطاطم وريش النعام والخيول والبغال والعبيد وحدث مرة أن جاءت قافلة كبيرة من الجبارته (وهم من مسلمي الاحباش) ومن المكاده ومعهم متاجر عظيمة فلم يقو يونس على كبح أطماعه فادعى انهم جواسيس أرسلهم الرأس عدل وقبض عليهم وأخذ سلعهم واستحسن الخليفة عمله حتى سماه «عفريت المشركين» و«مسمار الدين»

وكان يونس قد أرسل اليه جميع الفتيات الجميلات اللاتي سبين في الغارات كما أنه أرسل اليه عدداً من الخيول والبغال . وطمع الخليفة فى التوسع وكان أيضاً مغتاظا من الملك يوحنا لانه لم يجب على خطابه فعزم على ان يضم جيش يونس الى جيش أبي أنجه ويغير بهما على الحبشة.وطلب من يونس ان يبقى بجيشه ويتخذ خطة الدفاع الى أن تأتيه أوامره

وأرسلت الاوامر الى ابي انجه لكل يرسل ١٥٠٠ من جنوده المسلحين ببنادق منجتون الي عثمان واد آدم الذى عين أميرا لكردوفان ودارفور . وطلب منه أن يحضر هو بنفسه مع سائر جيشه الى أم درمان

وقبل هذه الحوادث بمدة قليلة كانت قبيلة الكبابيش التى تقيم بين كردوفان ودنقلة قد ظهر منها شيء من العصيان . فأرسلت اليهم تجريدة نجحت في اخضاعهم وغنمت منهم مقادير كبيرة من الماشية والعبيد . ولجأ شيخ القبيلة الشيخ صالح الى أم بدر وهي بقعة بعيدة ومعه عدد قليل من أتباعه

وأرسل الشيخ صالح الى وادى حلفا يستنجد بالحكومة المصرية فسلمت لوكيله مائتى بندقية وأربعين صندوقا من الذخيرة ومائتى جنيه وبعض المسدسات الملبسة بالمعدن

وكان فى اسوان في ذلك الوقت تاجر الماني يدعي شارل نيوفلد وكان يعرف ضيف الله اجيل شقيق الياس باشا الذى فر حديثاً من السودان . وعلم منه ان فى كردوفان مقادير كبيرة من الصمغ لم يستطع التجار إصدارها بالنسبة للثورة وانه يمكن بمعاونة الشيخ صالح أن تنقل الى وادى حلفا . فاغراه الطمع فى المال أن يذهب بنفسه الى الشيخ صالح . ويظهر انه لم يجد صعوبة كبيرة في الحصول على إذن بالسفر الى السودان بعد ان وعد بكتابة تقرير عن الحالة في السودان . وفى أوائل ابريل ١٨٨٧ غادر وادى حلفا قاصداً الشيخ صالح

وكان النجومى عارفا بقيام القافلة فوضع أناساً على الطرق لكي يخبروه بالطريق التى تسلكها القافلة . ومما زاد الطين بلة ان الدليل ضل فى طريقه فقاست القافلة عذابا كبيراً من العطش . ولما وصلوا الى آبار الكاب وجدوا بضعة دراويش فى انتظارهم فنشب قتال انهزم فيه رجال صالح لما كان بهم من الاعياء والعطش وأسر بعضهم

وكان بين الاسرى نيوفلد . وفي بدء القتال عزم نيوفلد على ألا يبيع حياته رخيصة فانه اتخذ مكانا وراء القافلة وكانت معه خادمة حبشية . ولكن القتال لم يبلغ اليه

وعند انتهاء القتال عرض عليه الدراويش أن يعفوا عنه اذا سلم نفسه فرضي وأخذ الى النجومي في دنقلة مع سائر الاسرى . وقتل النجومي جميع الاسرى ماعدا نيوفلد فانه حقن دمه لكي يرسله الى أم درمان

وكنت قد سمعت أن أسيراً اوروبيا سيرسل الى أم درمان . وفي أحد الايام في شهر مايو رأيت جمهوراً يسير نحو دار الخليفة وفي وسطه رجل اوروبي قد ركب جملا . وكان المشاع على ألسنة الناس انه الباشا حاكم وادي حلفا . وكان بين المسجد وبين دار الخليفة بناء يدعى رقوبة يجلس فيه الملازمون والى هذا البناء أدخل اليناني نيوفلد

فلما رأيته صمت لأني كنت أعرف أخلاق الخليفة وجواسيسه وتظاهرت بالمجانة لا أكترث لما يجرى أمامي

. ولما سمع الخليفة بوصول نيوفلد بعث في طلب الخليفتين والقاضيين طاهر المجذوب والامير بخيت ونور أنجره الذى كان قد وصل حديثا من كردوفان حيث كان يحارب مع أبي انجه . وأرسل أيضا في طلب يعقوب أخيه . وعند مادخلوا همست في اذن نور انجره قائلا : « افعل جهدك لكي ينجو الرجل »

وطلبني الخليفة وأمرني بأن أجلس مع المجتمعين معه . ثم أخبرنا بأن الرجل جاسوس انجليزى وطلب من الشيخ طاهر المجذوب أن يستجوبه . وطلبت أنا في الحال أن يؤذن لى بأن أخاطبه بلغة أوروبية فأذن لى وذهبت أنا وطاهر الى الرقوبة حيث كان نيوفلد

ولما ذكر اسمى قام نيوفلد وصافحني وهو فرح . فنبهته الى وجوب مخاطبته الشيخ طاهر الذى وكلت اليه محاكمته وانه يجب عليه الخضوع كل الخضوع لما يقال له . وكان يجيد التكلم بالعربية وأحدث استعداده للكلام أثراً سيئاً في نفوس سامعيه فطلبوا أن يرسل الى الخليفة وكان حكمهم انه جاسوس يجب أن يقتل . ولما صرنا جميعاً في حضرة الخليفة قال لى : « وما رأيك أنت فيه ؟ »

فقلت : « كل ما أعرفه انه الماني أى انه ينتسب لأمة لا تهتم بمصر »

وسلم الي الخليفة أوراقا وطلب مني قراءتها ورأيت في عينيه انه يحدق النظر فيّ لكي يعرف ضميرى

فوجدتها تحتوى على كشف أدوية مكتوب باللغة الالمانية . وخطاب بالانجليزية الى نيوفلد فيه أخبار عن الحالة بالسودان . كذلك خطاب طويل من الجنرال « استيفنسن » ينبيء فيه بانه منحه الاذن بدخول السودان مع القافلة القادمة . وفى الوقت نفسه يطلب معرفة أخبار وافية عن الحالة عموما .

ترجمت هذا الخطاب للخليفة غير انى تكتمت ماطلبه الجنرال من معرفة الاخبار فقلت له ان ما يطلبه هذا الرجل هو السماح له فى دخول البلاد وهو يشتغل فى التجارة كما أخبر الشيخ طاهر . وقد رأيت الخليفة فى تلك اللحظة يحدق النظر بى ثم أمرنا بالانصراف انتظاراً لأوامره خارج الدار .

وقد اجتمع فى ذلك الأوان عند البناء المسمي « الرقوبة » آلاف الناس بقصد رؤية الباشا الانجليزى . وما هى الا هنيهة حتى جاء بعض الضباط السود وأوثقوا يدى نيوفلد وأمروه بمغادرة الرقوبة . فوقفت أنا والقاضي « نورانجره » على كومة من الاحجار نرقب ما سيحدث

وفي تلك اللحظة التى ظنها نيوفلد آخر حياته حدق بنظره الى السماء ثم خر ساجدا دون ان يطلب اليه ذلك . فأمروه بالنهوض ومن ثم تقدم رجل يحمل أرغونا وابتدأ يعزف أنغاما مطربة فوق رأس نيوفلد . ولقد دهشت لما رأيت ان ذلك لم يربكه قط واندفعت خادمته الحبشية بدافع الاخلاص لسيدها طالبة ان تقتل معه ولكنها أعيدت الى الرقوبة فى الحال . وقد تيقنت حينئذ أنا والقاضى بان الخليفة يداعب نيوفلد كما يداعب القط الفأر وان الحكم باعدامه لم يصدر بعد فحاولت أن أشير اليه ولكنه يظهر انه لم يتنبه الي اشارتى

ثم عدنا بعد ذلك فى حضرة الخليفة فبادر الشيخ طاهر بقوله « هل أنتم تصرون على اعدام هذا الرجل » ثم التفت الى نورانجره وقال له ما رأيك وأنت الذى طلبت العفو عن نيوفلد وقلت انه شجاع ثم التفت الىّ وقال « ما رأيك أنت ياعبدالقادر » فقلت يا مولاي ان الرجل يستحق القتل ولو كان هناك أى حاكم غيرك ما تأخر عن

قتله . ولكن علو نفس مولاي الخليفة ورحمته لا شك بانهما سيشملانه خصوصا انه اعتنق الدين الاسلامى وان رحمة الخليفة به لا محالة ستقوى عقيدته . وقد عفا عنه القاضى احمد من قبل كما ان الخليفة لم يكن فى عزمه قط ان يقتله كما ظهر لى .

وحينئذ أمر الخليفة باعادة نيوفلد الى الرقوبة بعد ان فكت أغلاله الا أنه أصدر الأمر بان يعرض على أنظار الجمهور ثم أن يسجن بعد ذلك حتى صدور أوامر أخرى ثم التفت الخليفة الي وأمرني بالا اختلط مع نيوفلد بعد الآن . فانسحبنا جميعاً ولكني لم أعدم الفرصة لابلغ نيوفلد بما قضاه الخليفة من انه سيعرض على أنظار الجمهور . وبعد ذلك نفذ الامر وعرض على الانظار

وفي اليوم التالى استدعاني الخليفة وأبلغني ان النجومى يقول ان نيوفلد أغرى بواسطه الحكومة ليتصل بالشيخ صالح الكباشى ويساعده على محاربة المهديين . فاوضحت للخليفة عدم صحة هذه الرواية اذ ان اوراق نيوفلد صحيحة مستوفاة وان الحكومة على أي الحلات لا يعقل ان تعهد اليه بعمل كهذا . وقد تبادر الى ذهنى فى أول الامر انه صدق قولى فى هذا الصدد ولكني تيقنت من الضد بما أظهره لى من الاحتقار وعدم الثقة مدة من الزمن

وبعد أيام قليلة عقد الخليفة استعراضا كبيرا أخذ اليه نيوفلد مكبلا بالحديد وراكباً جملا . ولما التقى بالخليفة سأله عن آرائه فيما يختص بكتائبه فأجابه بانها بالرغم من وفرة عددها لا تزال الجيوش المصرية أحسن نظاما منها وتدريباً . وعند ذلك امر الخليفة برده الى « الرقوبة » سجينا

ورغبة فى الانتقام من الشيخ صالح الذى لم يقدم ولاءه للخليفة ارسلت اليه حملة قضت على حياته وفرقت رجاله وبهذا قضى على حياة آخر شيخ مخلص للحكومة المصرية

وفى اواخر يوليو وصل « ابوانجه » الى ام درمان مصحوبا بقوة تقدر بعشرين الف رجل . وبعد اسابيع قليلة ارسل جزء من هذه القوة تحت قيادة «زكي طومال» لاخضاع « ابوروف » شيخ قبيلة جهينة الذى لم يلب نداء الخليفة ويذهب الى ام درمان . فدحر زكي طومال معظم رجال تلك القبيلة وارسل كثيرا من السبايا

وأسرى الاطفال هدايا للخليفة وأحضر الباقي بعد ذلك الى أم درمان حيث اشتغلوا في نقل الماء وعمل الحصر . وبيعت قطعانهم بأبخس الأثمان فى الاسواق فبيع الثور او الجمل الذى قيمته ٤٠ او ٦٠ ريالا بريالين او ثلاثة

وتلقى ابو انجه الاوامر لكي يوالى السير من أم درمان الى القلابات بعد تشتيت شمل قبيلة جهينة . ويتولى هناك قيادة الجيوش . فعنـد وصوله جمع القوات المرابطة فى المراكز الجنوبية عند أبي هرر وأخذ ينظمها ويعد العدة للأخذ بثأر (واد أرباب) من الاحباش واجتمعت تحت إمرته أكبر قوة جمعت من عهـد الخليفة عبـد الله إذ كان مجموع ماتحت قيادته ٤٥ ألفا من حاملي الرماح و ٨٠٠ من الخيالة و ٥٠ الف بندقية فغادر القلابات بهذه القوة مخترقا ممر (متنك) قاصداً (راس أوال) ولست أعلم حتى هذه اللحظة لماذا لم يهاجم الاحباش أعداءهم اثناء اختراقهم هـذه الممرات الضيقة والوديان السحيقة التى كان يتعذر عليهم فيها استعمال نيران بنادقهم فاذا لم يتمكنوا من صد أعدائهم فانهـم على الأقل يستطيعون ان يلحقوا بالدراويش خسائر تذكر. وكل ما أمكنني ادراكه هو ان الاحباش ربمـا تأكدوا من فوزهم النهائي وعمـلوا على جرهم بعيداً داخل المملكة حتى يقطعوا عليهم خط رجعتهـم وبذلك يبيدونهم عن آخرهم . فابتدأ القتال على سهل « دبراش » وكان تحت قيادة الرأس « عدل » الفان من المحاربين واتخذ له موقعاً يهـدد به جناح ابو أنجه الشمالى ولكن ابو أنجه كان لديه من الوقت مايسمح له بالانسحاب من التلول وان ينظم صفوفه وهو يتقهقر. فحمل الأحباش المرة تلو الأخرى على الدراويش إلا أن هؤلاء تمكنوا من صدهم بعـد ان حملوهم خسائر فادحة وأخذ ابو انجه بعـد ذلك فى الهجوم حتى انتصر فى معركة حاسمة

وكان يتولى القيادة فى كسلا « ابو حرجه » وقد أمر باللحاق « بعثمان دجنه » ليعاونه فى القتال . وترك « احمد ود علي » نيابة عنـه فى كسلا . وعرج فى طريقـه على أم درمان ليرفع الى الخليفة تقريراً عن حالة القبائل العربية النازلة بشرقي السودان. وزعم انه وصل الى أم درمان فى ساعة متأخرة من الليل إلا ان الخليفة قابله مقابلة طويلة خصوصية . وقد أبلغني اثناء خروجه ان حطابا ورد لى من أهلي .

وبعد بضع دقائق طلبت عند الخليفة وأبلغت بان حاكم سواكن بعث بخطاب الى « عثمان دجنه » يظن انه من عند أهلي.وأمرني الخليفة بفتحه فى الحال واخباره عما يحتويه . فتصفحته بسرعة وأشد ما آلمنى خبر وفاة والدتي . وقد أخبرني اخوتي بانها ما كانت تطلب فى آخر حياتها وهى على فراش الموت الا أن يجمع البارىء بينى وبينهم .

ولما لاحظ الخليفة طول الوقت الذى استغرقته فى مطالعـة الخطاب سألني عن اسم من أرسله لى وما هي محتوياته فاجبته بان اخوتي هم الذين بعثوا به الىّ واني سأترجمه اذ لم يكن هناك داع لكتمان أي شيء فيه فهو عبارة عن بضعة أسطر سطرها اخوة بؤساء الى أخ بعيد عنهم .

وقد أبلغته مقدار جزعهم علىّ لطول غيابي عنهم وكيف انهم على استعداد لعمل أي تضحية فى سبيل خلاصى واستردادى لحريتى . ولما وصلت في الخطاب الى الجزء الخاص بوالدتي قلت للخليفة انه بسبب بعدى عنها كانت فى كل أوقات مرضها تتضرع الى الباري كي تراني قبل موتها . كانت تتمنى ذلك ولكن أمنيتها لم تتحقق ففاضت روحها قبل ان تراني وفي تلك اللحظة التى نضب فيها لعابي ولم أقو على الاستمرار فى الكلام . بادرني الخليفة قائلا :

« ألا تعلم والدتك باني أرحم عليك من أي مخلوق كان وعلى كل حال إني لا أتصور انها كانت على ما تذكر من الحال فعليك ان تحزن لوفاتها ولكن يجب أن تعلم انها ماتت مسيحية ولم تعتقد فى الرسول والمهدى . وعلى ذلك هى لا تلاقي رحمة ربها»

فهاجت أعصابي عند سماع قوله هذا ولكنى لم أفه بكلمة ثم استرجعت قواي وصرت أتلو عليه ماجاء فى الخطاب عن زواج أخى هنرى وان «أودلف» واخواني البنات بخير . وطلبوا الىّ فى آخر خطابهم ان أكتب اليهم عن الطريقة التى يمكن عملها لاسترداد حريتى كما طلبوا الىّ الاسراع في الاجابة عليهم . فقال لى الخليفة اكتب الى واحد من اخوتك كي يسرع فى الحضور الى هنا وأخبره بانه سيكون موضع اجلال واحترام وسوف لا يحتاج الى شيء بالمرة ما دام مقيما هنا . ومع ذلك

سأتكلم معك في هذا الشأن مرة أخرى . وبعد ذلك أشار عليّ بالانصراف . فانصرفت وكان رفاقي الذين علموا بوصول هذا الخطاب ينتظرونني بفارغ الصبر ليسمعوا مني ما حواه وبمجرد ان تلاقوا معي وجهوا لى عدة أسئلة كنت أجاوبهم عليها بكل اقتضاب

ولما ذهب الخليفة الى راحته اتكأت على سريري « عنجريبي » فسألنى خدمي عن الاخبار فكنت أطلب اليهم عدم محادثتى

ثم أخذت أحدث نفسى قائلا: «وا أسفاه عليك يا والدتي فانني أنا الذى كنت سبباً فى لحظاتك السيئة الاخيرة » وقد أخبرني اخوتي فى خطابهم بآخر كلماتها التى كانت تفوه بها فعلمت انها كانت تقول :

« اني على استعداد لملاقاة الخالق. انى على استعداد للموت . ولكنى أرجو ان أرى وأقبل رودلف قبل ان تفيض روحي» وكانت تقول أيضاً «اننى كلما تذكرت انه في قبضة أعدائه تزداد آلامي»

آه . اني أتذكر جيداً كلماتها التى فاهت بها لما عولت على القدوم الى السودان . لقد كانت تقول لى: «يا بنى ان روحك المضطربة تدفعك الى المغامرة بحياتك فى بلاد بعيدة لا تعلم عنها شيئاً . وربما يأتي الوقت الذى تنتهي فيه من كل ذلك وتقبل على حياة هادئة » فما أصدق كلماتك يا والدتي وما أعظم الشقاء الذي سببته لك

وبعد ان فكرت فى هذا كله صرت أنوح ثم أنوح لا بالنسبة لما أنا عليه من حال سيء بل من أجل أمى العزيزة التى فاضت روحها بسببي

وفى صباح اليوم التالى أرسل لى الخليفة وطلب منى مرة أخرى أن أترجم له الخطاب وأمرني ان أرد فى الحال على اخوتى لاخبرهم باني فى رغد من العيش . فنفذت ما طلبه وكتبت خطابا كله ثناء على الخليفة واعجاب بخصاله وكم أنا سعيد بجواره . ولكنى كنت أضع كل كلمات المدح والاطراء وحسن الحال داخل أقواس وبجوارها علامات استفهام . وكتبت في ذيل الخطاب ما يشير الى ان تلك الكلمات الموضوعة بين الاقواس هى عكس الحقيقة

وفى الوقت نفسه طلبت الي اخوتى ان يكتبوا الى الخليفة خطاب شكر على

حسن معاملته لى ! ! ! وان يرسلوا له كيس سفر كبير ويرسلوا لى مبلغ ٢٠٠ جنيه و١٢ ساعة اعتيادية تستحق ان تكون هدايا لاقدمها الى أمراء الخليفة الذين يسرون بها كثيراً . وطلبت نسخة القرآن مترجمة الى اللغة الالمانية . ولكى لا يجزعوا قلت لهم اني أرجو ان تسمح الظروف بملاقاتنا قريبا

طلبت اليهم ان يرسلوا تلك الطلبات الى قنصل النمسا فى القاهرة الذى يرسلها الى حاكم سواكن وهذا يبعث بها الى عثمان دجنة ومنه تصل الىّ . وقد سلمت هذا الخطاب الى الخليفة فبعث به رسولا كان ذاهبا الى عثمان دجنه ليرسله الى سواكن

وقد حزنت قبل وصول الخطاب المحزن بنحو شهر تقريبا لما أصاب صديقى « ليبتون » الذى كان يشتغل فى جرك الخرطوم وأرغمته حالته الصحية على ان يترك عمله . وعاد بعد ذلك الى أم درمان يشكو الفاقة ولكن لحسن حظه كان قد عاد صديقه (صالح واد الحاج على) من القاهرة ومعه بعض النقود أرسلها اليه بعض أفراد أسرته من القاهرة مع صالح المذكور

وكان واد الحاج على هذا طماعا في ابتزاز الاموال حرامها وحلالها ، فقد أعطي « ليبتون » قبل ذلك مبلغ ١٠٠ ريال وأخذ منه تحويلا على أخيه بالقاهرة بمبلغ ٢٠٠ ريال قبضها بمجرد وصوله ولما عاد الى أم درمان أعطى ليبتون ٢٠٠ دولار واغتصب لنفسه باقي ما أرسله أخو « ليبتون » وهو ما يقرب من ٨٠٠ دولار وقد ساعد هذا المبلغ الضئيل « ليبتون » نوعا على فك ضيقه . وهذا مع ما كان يؤمله من ان هناك مخاطبات دائرة بشأن اطلاق حريته كانا سببا فى تخفيف شيء من آلامه . وكان هذا المسكين قد حضر معى ذات يوم من المسجد عقيب الصلاة الى المنزل وأخذ يستشيرني فى انتقاء شخص يضع عنده مبلغ الـ ٢٠٠ دولار بحيث يأخذ منه مايريده كلما شاء اذ انه يخشى اذا بقيت معه ان يندفع فى الظهور بالبذخ والاسراف ومن ثم يفتضح أمره وتعرف صلاته بالقاهرة فيلاقي حتفه .

كنا نتحادث عن حالتنا وما نحن عليه وقد كان فى تلك اللحظة منشرح الصدر اكثر من عادته رغم ما كان ينتابه من الآلام فى ظهره والضعف العام فى كل جسمه وقد تركته حوالي الظهر . وفى يوم الثلاثاء التالى أرسل لى خادمه يطلب أن

أذهب اليه لانه يشكو مرضا شديدا وأبلغنى خادمه ان سيده مصاب بحمى شديدة وانه ملازم الفراش من ثلاثة أيام فوعدت الخادم بأني قادم اليه سريعاً وفى المساء طلبت الى الخليفة ان يسمح لى فى بالذهاب . وفى صبيحة اليوم التالى — وقد حصلت على الاذن بقضاء عامة اليوم مع هذا المريض — ذهبت في الحال الى منزله فوجدته في حالة يرثى لها . وجدته يشكو ألم حمي التيفوس وحالته شديدة لدرجة انه لم يتمكن من معرفتى لما دخلت عليه في أول الامر وقد حدثنى بعد ذلك بالفاظ متقطعة موصيا بان أعتنى باخته . ثم تمتم كلاما عن والده .

الفصل الثالث عشر

حملة الاحباش

وما كان يدور بخلد احد ان انتصارات المهديين يسكت عليها من جانب الاحباش فقد أعد الملك « جان » عدته وجمع قواته بعد ان استتب له الامر فى الداخل ببلاده. أعد العدة لغزو القلابات وبالفعل أحرزت قوات الاحباش نصراً في بادىء الامر الا ان نصرهم انقلب هزيمة عندما أصيب الملك « جان » برصاصة قضت عليه لساعته فارتد الجيش الحبشى بغير نظام وتعقبه « زكي طومال » الذى تمكن من الاستيلاء على تاج الملك ومتاعه وأخذ جثته غنيمة

وقامت على أثر ذلك فى بلاد الاحباش ثورة داخلية بسبب تطلع كثيرين الى العرش .

وكان الايطاليون يحتلون مصوع منذ بدء عام ١٨٨٥ وعلى ذلك مكنتهم تلك الثورات الداخلية من الاستيلاء على مناطق واسعة داخل حدود الحبشة بالقرب من مصوع . وقد قوى الاستيلاء عليها مركز الدراويش فى القلابات لان الاحباش شغلوا باسترداد ما استولى عليه عدوهم الجديد

وبينما كانت القوة المعسكرة فى القلابات تحت رحمة الملك « جان » فى بادىء الامر كان «عثمان واد آدم » فى حرب شديدة فى غربى السودان وقد شتت شمل

السلطان يوسف ودحر جيشه وجعل عساكره بدون مأوي فى شرقي السودان وغربيه وقد حكم على أمرائه واتباعه بأشد العقوبات وساق أتباعه من النساء والاطفال غنائم وارسلهم مخفورين الى الفاشر . وانتشر الهرج والمرج فى جميع الانحاء حتي حدود « دار تاما »

وكان فى ذلك الوقت بتلك الناحية شاب هرب من أم درمان ينتسب الى قبيلة من القبائل النازلة علي ضفاف النهر ويسكن فى تلك الناحية مستظلا بشجرة جميز فلقبوه من أجلها بابو جميزة . فوصل اليه بعض من هؤلاء الرجال الذين شتت شملهم « عثمان واد آدم » وانضموا تحت لوائه فجمع شملهم وتولى قيادتهم للأخذ بثأرهم وبالفعل تم له النصر فى أول الامر على قوة صغيرة من قوي الدراويش كانت في ذلك الوقت قريبة منهم وكان لذلك الانتصار صداه فانضم اليه كثير من الدارفوريين وكونوا قوة عظيمة تحت امرته سار بها الى الفاشر الا ان المنية عاجلته في الطريق فقضى نحبه فانقض « عثمان واد آدم » على جيشه وكان على بضعة أميال من الفاشر وهزم هذا الجيش شر هزيمة

اما الخليفة فكان في هذه الاثناء يسر فى نفسه غزو الديار المصرية وقد استشار من أجل ذلك كثيراً من زعمائه فحسنوا له غزو مصر لما احتوت عليه من حدائق غناء وقصور فخمة وسيدات لونهن أبيض جميلات

وبطبيعة الحال كان أكفأ قواد الخليفة في ذلك الوقت والذى يصح أن توكل اليه قيادة الجيوش الغازية هو « ابن النجومي » لشجاعته النادرة ولأنه عرف مصر وخباياها لما كان تاجراً بسيطاً . وفضلا عن ذلك انه كان من أشد أنصار الدعوة المهدية يعمل لنشرها بكل ماأوتي من حول وقوة

وكانت الجيوش التى تحت أمره مكونة من أبناء القبائل النازلة على ضفاف النيل لذين عرفوا مصر جيداً ولهم صلات قرابة ونسب مع القبائل القاطنة في مديريات الوجه القبلى الملاصقة

فمن أجل هذا لما أصر الخليفة على غزو مصر لم يفكر فى اسناد قيادة الجيوش الفاتحة لغير ابن النجومي

وكان الخليفة يحسب حسابا كبيراً لهذا الفتح ويقدر نتائجه وكان يخشى الهزيمة والخسارة ولذلك تدبر فى الامر وقرر أن يرسل مع ابن النجومي جيوشاً من القبائل النازلة بقرب السودان التابعة له لا من القبائل التى تنتمي اليه حقيقة حفظا لهم ووقاية من الوقوع في الهزيمة فجهز جيش ابن النجومى من قبائل « الجالان » و « الدناجلا » و « النيفاريون » . وقبيلتا « الجالان » و « والدناجلا » من أتباع الخليفة الشريف . وقد كان الخليفة عبدالله ينظر اليهما دائما كما ينظر الى الاعداء

وكان الخليفة يتمني بكل جوارحه نجاح الحملة وما كان يخالجه شك فى قدرة قائده واخلاصه وكان يمني نفسه بغزو الديار المصرية ليضيف الى ملكه بلادا جديدة إلا أن المصريين انتصروا عليه وألحقوا به خسائر فادحة وردوا جيوشه منهوكة القوى إلى دنقلة .

وان حوادث ذلك العهد التى انتهت بهزيمة جيش الدراويش فى واقعة توشكا فى ٣ أغسطس سنة ١٨٨٩ وموت ابن النجومى معروفة لا تحتاج الى اعادة ايضاح هنا . و لكن بمناسبة تكوين الحملة السالفة الذكر من رجال القبائل التى قلنا انها في الاصل كانت معادية للخليفة وهو يوجس منها خيفة دائما أبداً أروى حادثة حدثت لقبيلة من تلك القبائل فقد حدث أن ترددت قبيلة « البتاهية » فى القدوم الى أم درمان لتقديم طاعتها الى الخليفة فجهز للهجوم عليها حملة هزمتها شر هزيمة وأسرت منها مايقرب من ٦٧ رجلا باهلهم . وكانت هذه القبيلة مشهورة بقوة رجالها أيام ان كانت الحكومة المصرية مستولية على السودان

وأمر الخليفة بمحاكمة هؤلاء الأسرى بتهمة « العصيان » فلما سأل قضاته عن عقوبة العصيان أجابوه بلا تردد « الموت » وبعد ذلك أمر الخليفة باعادتهم الى السجن وأخذ يعد المعدات اللازمة لتنفيذ الحكم عليهم

وبناء على ارادته أقاموا ثلاث مشانق فى ساحة السوق . وبعد صلاة الظهر دقت الطبول ايذانا بقرب ميعاد التنفيذ وجاء الخليفة متبوعا بحاشيته راكبا ولما اقترب من مكان التنفيذ نزل وجلس على سرير صغير وحاشيته من حوله ، منهم من هم ركوع ومنهم من هم وقوف ، ثم أحضروا أمامه أولئك الرجال مكتوفى الايدى

يحيط بهم رجال عبد الباقي بينما كانت النساء والاطفال تتبعهم نائحات نادبات
وأمر الخليفة بان يجعل النساء والاطفال فى ناحية والرجال فى ناحية أخرى
وبعد ذلك جاء « احمد الدليا » و « طاهر واد الفالى » و « حسن واد خبير »
وهم الذين انتقاهم الخليفة لتنفيذ الحكم على هؤلاء التعساء وأمر ثالثهم بان يذهب
ويأمر الحراس بان يأخذوهم الى المكان الذي نصبت فيه المشانق .

وبعد ربع ساعة قام الخليفة وتبعه جميع من كان حوله الى ساحةالسوق حيث رأينا
منظراً تقشعر منه الابدان . وجدنا هؤلاء البؤساء قسموا الى ثلاث فرق قسم
نفذ فيه حكم الشنق وقسم تحت التنفيذ والقسم الثالث قطعت ايديهم اليمنى وارجلهم
اليسرى . ووقف الخليفة يشاهد هذا المنظر بنفسه . وقف يشاهد كومة من جثث
الرجال . وقف يشاهد من قطعت أيديهم وأرجلهم . وقف يشاهد هـذه الايدى
وتلك الارجل مبعثرة هنا وهناك . وقال « لعثمان واد احمد » أحد القضاة – وقد
كان من أعز أصدقاء الخليفة « على » وأحد اركان تلك القبيلة – وهو يشير الى تلك
الجثث : « يمكنك الآن أن تأخذ ما بقى من افراد قبيلتك ».قال ذلك بكل سخرية
فارتعدت فرائص الرجل ولم يقدر على الاجابة .

وعاد الخليفة بعد ذلك وأخذ « احمد الدليا » يتمم مهمته . فترك ٢٣ جثة هامدة
ملقاة على الارض هنا وهناك . والباقي ينفذ فيهم الحكم بأفظع حال .

وقد كان هؤلاء يلاقون الموت بشجاعتهم المعهودة فيهم ولم يجزع واحد منهم
بل كان معظمهم يردد كلمات تنبيء عن البسالة كأن يقول أحدهم « الموت حق » أو
« لابد لـكل واحد أن يموت » أو « من لم ير في حياته شجاعا يلاقي الموت فليقدم
الى هنا ليرى بعينيه » وغير ذلك مما يثبت عدم اكتراثهم لما كانوا يلاقونه .

وبعد ذلك تمت ارادة الخليفة بان اعدموا جميعا . ولما عاد الى داره اصـدر
امره بان يترك النساء والاطفال بدون مأوى حتى يباعوا بأرخص الاثمان .

وبالرغم من تلك المناظر التى كانت تقشعر منها الابدان كنت اشعر بسرور
فى نفسى لما وصلنى من الاخبار بان هناك خطابات ستصل الىّ قريبا من اخوتى وان
فى الطريق صندوقين لى من النقود . وفي صباح يوم بينما كنت جالساً امام البـاب

وصل جمل يحمل صندوقين وطلب الجمال مقابلة الخليفة شخصيا قائلا انه جاء ومعه رسائل من عثمان دجنه وامر الخليفة بعد أن تقابل مع الجمال بأن يرسل الصندوقان الى بيت المال وكان قد دهش فى اول الامر لما رآهما . وامر ايضا بأن تعطى الخطابات الى كتاب سره . وضاق صدرى لطول الانتظار لأنى كنت احب ان اعلم ما ورد لى . وكانت للخليفة لذة خاصة فى عدم ابلاغى اي شيء قبل غروب الشمس. فلما غربت ناولني الخطابات وكانت كما لاحظت من اخوتي وهم يظهرون فيها سرورهم العظيم لما تسلموا منى خطابا وعلموا بانى لازلت على قيد الحياة .

وكان أحد تلك الخطابات باللغة العربية موجها الى الخليفة نفسه يشكرونه فيه على عنايته بي . والذى كتبه هو الاستاذ « واهر مند » فجعله كله آيات مدح فلما اطلع الخليفة عليها صار يترنم بذكر كاتبها وأمر بقراءة الخطاب فى المسجد عقب الصلاة ثم أمر بعد ذلك بأن يرد الصندوقان إليّ

وترجمت اله الخطابات التى وصلت الىّ وأبلغته ان اخوتي أرسلوا اليه كيس سفر هدية وانهم يلتمسون منه التنازل بقبول هذه الهدية الصغيرة التى لاتتناسب مع مقامه العظيم فقبلها وأمرني باحضارها اليه فى صباح الغد . وأرسل معى تابعيه ليحضرا فتح الصندوقين فتوجهنا جميعاً الى بيت المال حيث فتحناها فوجدت فيهما مائتى الجنيه التى طلبتها وكذلك الساعات وأمواسا للحلاقة ومرايا وجرائد وترجمة القرآن باللغة الالمانية وهدية الخليفة وقد تسلمت كل هذه الاشياء ثم توجهت الى حجرتي وأخذت أعيد قراءة خطاباتى واحتفظت بالصحف التى تحوى أخبار بلادى العزيزة ! ! !

وكانت تلك الصحف عبارة عن اعداد جريدة Nene Freie Presse وهى بطبيعة الحال فيها الكفاية لسد رمق من لم يعرف شيئا عن أخبار بلاده منذ ست سنوات وجاءنى الأب « اوهروالدر » خفية وأخذنا معا نقلب تلك الصفحات

وفى صباح الغد قمت مبكرا وحملت الهدية وذهبت الى الخليفة فامرنى بفتحها ولما رأى ما احتوت عليه من علب المعدن اللامعة والزجاجات والامواس والفرش أظهر اعجابه الكثير ثم ابتدأت اوضح له فائدة كل شيء على حدة . وحينئذ أرسل فى طلب القضاة الذين كانوا فى ذلك الوقت يباشرون عملهم فلما جاءوه واطلعوا على

ما احتوته الحقيبة دهشوا كثيرا ولو اني كنت على يقين من ان كثيرا منهم رأوا مثل هذه الأشياء قبل الآن

وبعد ذلك طلب الخليفة كاتب سره وأمره بأن يكتب فى الحال خطابا لاخوتي يبين فيه المركز السامي الذى أشغله عند الخليفة وثقته التى لاحدلها في أخيهم وان يدعوهم للحضور الى ام درمان لزيارتي وان لهم الحرية التامة في الرجوع بعد تأدية الزيارة

وأمرني بان اكتب لهم مثل ذلك . وبالرغم من وثوقي بأنهم لايجيبون هذه الدعوة كتبت اليهم بألا يجيبوها وبألا يحضروا

وأرسلت المراسلات مع نفس الرسول الذى قدم من قبل عثمان دجنه .وأعطى الخليفة لعثمان التعليمات بان يبعث تلك الرسائل بنفس الطريقة التي سبق له أن بعث بها فيما مضى

وكان الخليفة في هذا اليوم منشرح الصدر مسرورا ، وكان سروره بسبب قدوم جميع أفراد قبيلته التعايشة الى أم درمان لانه كان قد طلب اليهم ذلك ومهد لهم كل السبل التى تسهل عليهم القدوم . الا أنهم ظنوا أنفسهم أسياد الحرث والنسل واستولوا على كل شيء مروا به من ماشية بجميع أنواعها ونهبوا متاع الرجال وحلي النساء فى طريقهم . مع ان الخليفة كما قدمت كان أمر بتشييد مخازن للمؤن فى طول طريقهم لتسد حاجتهم . وكانت المراكب والبواخر قد أعدت لنقلهم الى أم درمان

ولما وصلوا الى الضفة اليمنى لأم درمان أمرهم الخليفة بالانتظار بعد ان قسمهم الى قسمين وبعد ان أمر بان يلبس الرجال والنساء ازياء جديدة من بيت المال . ثم أخذ يستقبلهم جماعات جماعات في ام درمان واستغرقت مدة نقلهم من الضفة اليمنى الى ام درمان يومين أو ثلاثة أيام حتى يلفت الانظار ويعلم الجميع ان اسيادهم قدموا الى المدينة . وأخلي لهم الجزء الواقع بين المسجد والحصن ليكون مقرا لهم واعطى السكان الذين تركوا ديارهم أرضا بدلا منها كما اصدر أمره لبيت المال بان يمد يد المساعدة لتشييد مساكن جديدة لهم

ولكي يسهل على أفراد قبيلته سبل المعيشة — وكانت أسعار الغلال قدأخذت

فى الصعود — أصدر أمره بمصادرة جميع الغلال المخزونة وبيعها بأرخص الأثمان لرجال التعايشة وقسم الاموال التى جمعت بين أصحاب الغلال الذين عادوا فاشتروا غلالا بأضعاف أضعاف ماباعوا . ويمكنني أن أقول إن ثمن عشرة أرادب بيعت للتعايشة صارت بعد ذلك تساوى ثمن اردبين لما أراد أصحاب الغلال شراء بدل منها .

ولما نفد ما كان مخزونا فى أم درمان أرسل الخليفة رسله الى الجزيرة ليصادروا كل مايجدونه هناك ولكن تلك الاعمال التى عملها فى سبيل راحة أفراد قبيلتـه وما ارتكبه هؤلاء من سلب ونهب سببت كراهية اتباعه فيه .

والآن قد انتشرت المجاعة في جميع انحاء السودان حيث لم يسقط مطر .

ولما وقعت المجاعة وانتشرت فى بربر قبل غيرها من نواحي السودان نقصت المحصولات لدرجة أنها أصبحت لاتسد حاجة السكان ورحل أغلب هؤلاء الى أم درمان التي كانت مزدحمة أشد ازدحام فاشتد الخطب وارتفعت أثمان المحاصيل حتى بلغ ثمن الأردب من الحنطة ٤٠ ريالا ثم ارتفع بعد ذلك الى ٦٠ ريالا . فمات الفقراء جوعا . وكانت الاشهر الاخيرة من عام ١٨٨٩ أشهر شقاء وبؤس وتعاسة فتكت المجاعة فيها بالناس فتكا ذريعا . وانحطت حالة القوم الصحية حتى أصبحت أجسامهم هيا كل عظمية تحوى العظام وعليها الجلود البشرية فقط

وصار الناس يأكلون كل شيء فأكلوا جلود الحيوانات القديمة ولم يتركوا حتى الجلود المصنوعة منها سررهم فقد كانوا يقطعونها ويغلونها فى الماء ثم يأكلونها ويشربون الماء . وانتشرت السرقات وعمت الفوضي فكان كل من في قدرته ارتكاب السرقات فعل .

واني أذكر حادثة وقعت أمامي فقد رأيت رجلا اختطف من غيره قطعة شحم والتهمها بكل شراهة فهجم عليه صاحبها محاولا إخراجها من فمه فأحاط عنقه بيديه وخنقه ولـكن اللص لم يخرج فريسته من فمه وأخيراً وقع مغمى عليه .

وقد كنت نسمع فى ساحة السوق حيث يجلس النساء لبيع سلعهن نداء الاستغاثة فى كل لحظة من هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم السلب والنهب .

وكانت الساحة الواقعة بين بيت الخليفة وبيت يعقوب تزدحم كل ليلة بالذين

يصرخون مطالبين بالخبز وكان بعضهم يتبعني عند ذهابي الى منزلي محاولين اقتحامه وفي ذلك الوقت ما كنت امتلك من القوت الا ما أسد به رمقي ورمق حاشيتي وأصدقائي الذين معي

وفي ذات ليلة — وكان القمر بدراً — بينما كنت راجعاً الى منزلي حوالى الساعة الثانية عشرة ليلا شاهدت بالقرب من بيت الامانة « مخزن السلاح » شيئاً يتحرك على الارض فتوجهت شطره لأرى ما هناك ووقفت أرقب منظراً بشعاً تقشعر منه الأبدان . رأيت ثلاث نساء عاريات مسدلات شعورهن الطويلة على أكتافهن يتهافتن على أكل جحش صغير يخيل لي أنهن خطفنه من أمه . وقد رأيتهن يقطعن من لحمه بأسنانهن وبأيا كان منه . وكان هذا الحيوان المسكين لا يزال على قيد الحياة فهجم عليهن الذين كانوا يتبعونني واختطفوا الفريسة منهن وحينئذ تركت هـذا المنظر فاراً الى داري .

وفي يوم آخر رأيت امرأة يظهر لي انها كانت في يوم من الايام جميلة ، رأيتها ملقاة على الارض وبجانبها طفلها الذي قد لا يتجاوز من العمر عاما وهو يحاول الرضاعة ولكنه كان يحاولها من أم أصبحت للأسف جثة هامدة ! ! ! وبقي يتأوه ويتألم على ذلك الحال حتى مرت عليه امرأة أخرى فاخذته

وفي ذات يوم مرت بداري سيدة ومعها بنتها الوحيدة وكانت هذه المرأة على ما يظهر لي من قبيلة « الجالان » تلك القبيلة التي يمكنني ان أقول انها أحسن القبائل حالا . جاءت هذه السيدة وبنتها معها على شفا حفرة من الموت تطلب مني مساعدتهما فجدت اليها بكل ما أمكنني ان اجود به وبعد ذلك عرضت عليّ ان تسلمني بنتها وتتركها لي رقيقة لأحميها من الموت جوعا . وكانت تتلفظ بهذا القول ودموعها تنهمر من عيونهـا . فطلبت اليها مغادرتي ومعها بنتها وأعطيتها كل ما كان في وسعي ان اعطيه .

ووجدت امرأة أخرى تأكل طفلها فساقوها الى مركز البوليس لتأخذ جزاء ما فعلت ولكنها ماتت بعد يومين

وكان الناس يبيعون أولادهم ذكوراً وأناثا لا لغرض الحصول على أثمانهم بل

لحفظ حياتهم عند من يقدر على تموينهم . وبعد ان انقضت تلك السنة استردوهم بأثمان عالية .

وكانت جثث الموتي فيالشوارع لا تحصى ولايوجد من يحملها . واصدر الخليفة أمره مكلفاً كل شخص بان يحمل الجثث التى توجد أمامداره ليواريها بالتراب ومن لم يفعل تصادر املاكه

وكان لذلك بعض التأثير الا أن اصحاب المنازل كانوا يزيحون ما امام منازلهم الى قرب منازل جيرانهم تخلصاً من العقاب فتسبب من ذلك وقوع المشاكل والمضاربات بين الناس وكنت نرى الجثث طافية فى النيل آتية من البلاد الواقعةعلى ضفتيه وعددها لا يحصى

وكان جل الذين ماتوا في أم درمان من الذين وفدوا عليها من الخارج لا من سكانها الاصليين . اذ ان هؤلاء كانوا قد خزنوا ما وقعت عليه ايديهم من غلال وكانت كل قبيلة تساعد جارتها اذا احتاجت

وكان الحال على عكس ذلك فى جهات السودان الاخرى. وكانما أصابقبيلة « الجالان » أشد مما اصاب أي قبيلة أخرى ولو انها كانت احسن قبائل السودان حالا .

واما سكان دنقله فكانوا احسن حالا منغيرهم وكان اسوأ السكان حالا سكان القضارف والقلابات . وكان (زكي طومال) قد اصدر أوامره في اول المجاعة بأن تجمع كل الحبوب التي فى جهاته على ان يتمون منها جيشه فنجم من ذلك موت الكثير جوعا .

وكثرت حوادث السلب والنهب فى تلك الجهات واصبح الواحد من سكانها يخشى الخروج بدون سلاح يحمي به نفسه ممن يريد السطو عليه لا ليسرقه بل ليفترسه ويأكله كما حدث ذات يوم لاحد امراء قبيلة الحمر فقد وجدت رأسه فى اليوم التالى ملقاة فىطرف منأطرافالمدينة.اما جسمه فلم يوجدلانه أكل بطبيعةالحال

وأبيدت بسبب تلك المجاعة قبائل « الحسانيا » و « الشكرية» و «العقالان» و « الحمرة » عن آخرها وبذلك خلت بقاع واسعة في السودان من السكان .

وكان الحال فى دارفور أحسن منه فى القضارف والقلابات كما كانت القبائل الغربية كقبيلة « حمر » و « دار تاما » و «مزاليط» احسن حالا من الفاشر نفسها اذ كانوا قد منعو تصدير الحبوب اليها .

وقد يخيل الي ان هذه المجاعة حلت بهؤلاء القوم لينتقم بها البارىء جلت قدرته من هذا الخليفة الجبار وشيعته. وعلى أثر انتشارها جهز تجار امدرمان مراكبهم بالحبوب وذهبوا الى فاشوده فبدلوا غلالهم باشياء اخرى كالنحاس والبلح وغيرهما وعمل مثلهم سكان جهات اخرى وصلوا بغلالهم حتى اعالى نهر السوباط

وبعد ذلك ابتدأ فصل الامطار ونمت المزروعات ففرح الناس لازالة الخطب . إلا ان جيوشا من الجراد حلت بالبلاد ففتكت بالمزروعات فتكا ذريعا .

ولما كان الخليفة لا همّ له الا اغداق النعم على أفراد قبيلته والسعي لتوفير راحتهم صدر أوامره الى السكان بالا يبيعوا النزر القليل من محاصيلهم التى جمعوها بعدفتك الجراد الا لافراد قبيلته بأرخص الاثمان . ولما كان هذا القدر لا يكفى بطبيعة الحال اسد رمقهم أصدر أوامره الى ابرهيم عدلان لكي يتوجه الى الجزيرة ليرغم الاهالى هناك على تقديم مالديهم من الذرة بدون مقابل . الا ان عدلان لم يوافق على هـذا الطلب وعارض فيه بكل اباء وشمم

ولقد بحث الخليفة عبد الله مع أخيه يعقوب في هذا الشأن وغيره وكان يعقوب هذا من ألد أعداء عدلان الذى يروى عنه الناس انه طيب القلب عالى الهمة لايميل لاضطهاد الناس بتكليفهم مالا طاقة لهم به بل على النقيض من ذلك كان يأخذ على عاتقه فى كثير من الاوقات ما يقع على غيره من المسئوليات . ولقد جمع ثروة طائلة ما كانت لتخفى على الخليفة

وسمع الخليفة من يعقوب وأصدقائه ان نفوذ عدلان فى البلاد لا يقل عن نفوذه. وقالوا انه دائما يتكلم في المجالس ضده وضد حكومته . وكان من أقواله للناس ان المجاعة لم تكن إلا بسبب ارهاق الخليفة لهم فى سبيل راحة ابناء قبيلته وقد تسبب من هذه الوشايات ان أحيل عدلان الى المحاكمة فقضت عليه بان يقبل الموت أو الفقر ففضل الاول فساقوه مكتوف اليدين الى صدره حتي ساحة السوق وهناك نفذوا فيه

الحكم وكان رابط الجأش لدرجة انه هو الذى وضع رأسه بنفسه فى حبل المشنقة . ورفض ان يشرب الماء الذى قدم اليه طالبا الاسراع فى تنفيذ الحكم . وقدسقطت جثته وهو يشير بسبابته اشارة انه يموت مسلماً موحداً الله سبحانه وتعالى . وحزن جميع السكان على قتله الا ان الخليفة سر سروراً عظيما لأنه قضى على شخص كان يوجس منه ومن نفوذه خيفة وكان غير مطيع لاوامره . وأرسل الخليفة أخاه ليسير فى جنازة عدلان اشارة الى انه لم يشنق إلا تنفيذاً للقانون لاحقداً عليه كما ظن الناس

وولى الخليفة بدله خازناً لبيت المال المدعو « نور واد ابرهيم » الذى كان جده « تكروري » وعلى ذلك هو ليس من القبائل النازلة على ضفاف النيل ولكنه نال ثقه الخليفة ورضاه

وأما بالنسبة لشخصى فقد تغيرت نظرات الخليفة الىَّ وداخله الشك من جهتي

ووصل رد خطابي الاخير الذى أرسلته الى أهلى غير مشتمل على شيء سوى الاغتباط لانتظام المراسلات بيني وبينهم . وكتبوا في الوقت نفسه الى الخليفة يشكرونه على عنايته وعلى الدعوة التى وجهها اليهم بطلب الحضور الى أم درمان .

واعتذر أخى الاكبر عن عدم امكانه الحضور بان حالته لا تساعده لانه يشغل وظيفة كبير أمناء جلالة امبراطور النمسا . واعتـذر الآخر بان وقته وهو ضابط فى الطوبجية لا يسمح له بالقيام برحلة طويلة كهذه

ولما طلبنى الخليفة الى حضرته أمرني بترجمة تلك الخطابات ثم قال لى: « كانت رغبتى فى ان تطلب الى واحد من اخوتك ان يحضر وبما انهما يعتذران الآن باعذار لا أقبلها فيتحتم عليك ألا تكتب اليهما بعد الآن فاذا أرسلت خطاباواحداً اليهما فان ذلك يكفي للقضاء على هدوئك وسكينتك . أفهمت ؟ فأجبته: « نعم يامولاى . أوامرك مطاعة . وانى لا أجد داعياً للكتابة اليهما » فقال لى « أين الانجيل الذى أرسل اليك ؟ » فأجبته : « اني مسلم يا مولاى وليس لدى انجيل بالمنزل وانما الذى أمتلكه هو ترجمة القرآن الذى رآه كاتم سرك لما فتحنا الصناديق سويا » فأمرنى بأن أحضره اليه في صباح الغد وأشار اليَّ بالانصراف

وتيقنت بعد هذه المقابلة أن ثقة الخليفـة بي زالت وعلمت أيضاً انه بعد هزيمة ابن النجومي أخذ يسر الى قضاته أن ثقته فيّ تغيرت

وكنت في هذا الوقت قد صرفت المبلغ الذى وصل اليّ من أهلي وجله منحته هبات الى زملائي الذين أخذوا يدسون لى الدسائس الآن لما علموا انني أصبحت لا أملك شيئاً وهم الذين قالوا للخليفة ان الكتاب الذى عندى هو الانجيل

وفى صباح اليوم التالى توجهت اليه ومعي الكتاب وسلمته اليـه وهو من ترجمة العلامة « المان » ففحصه جيداً

وقال لى : « أنت تقول ان هذا الكتاب ترجمة القرآن وهو مكتوب بلغة الذين ليس عندهم عقيدة دينية . انهم ربما يكونون قد أخطأوا فى ترجمتـه » فأجبته بكل هدوء وسكينة : « انه يا سيدى ترجمة حرفية والغرض منه هو ان أتمكن من فهم الكتاب المقدس الذي نزل من عنـد الله سبحانه وتعالى على يد الرسول باللغة العربية وان شئت ان تتأكد من صحة ترجمته الحرفية » فاجابنى قائلا : « اني اعتقد فيك الصـدق ولكن الناس هم الذين قالوا ذلك القول فيحسن بك والحالة هذه ان تحرقه » ولما أظهرت له الموافقة على طلبه قال لى : « ويجب أيضاً ان ترد الهدية التى بعث بها اخوتك لى لانه لا فائدة لها عنـدي وليعرفوا ان الاشياء الدنيوية لا قيمة لها فى نظري»

ثم أمر كاتم سره بان يكتب خطابا باسمى الى أهلي يخبرهم فيه بان لا داعى بعد الآن الى مكاتبتي . فوقعتـه بامضائى وأرسلته مع الهدية الى بيت المال ليرسلا من هناك الى سوا كن كالمعتاد .

ومن هذا اليوم أصبحت شديد الحرص . وبعد موت عدلان استدعاني الخليفة مرة أخرى بحضور ضباطه وأخذ يقول لى : « انه يعلم انى جاسوس وتجب مراقبتى بكل دقة ومراقبة الذين يحضرون لزيارتي وجلهـم من أعدائه . ويجب عليّ أن أعلمه بمحل نومى في منزلى وان أغير خطتى التى انا متبعها والا لحقت بعدلان » !!!

فأجبته قائلا بكل هدوء وسكينة : « يامولاى لا يمكننى الدفاع عن نفسى . وانا أجهل خصومي الذين وشوا بي ولكنى أفوض أمري للبارىء جلت قدرته . ولقد

مضت ست سنوات بل أكثر وأنا الخادم الامين فى خدمة مولاي أواصل الليل بالنهار على بابه تحت الشمس المحرقة وتساقط المطر الغزير . وتنفيذاً لاوامرك يامولاى قطعت صلاتى مع كل أصدقائى . وفي كل هذه المدة التى أنا فيها فى خدمة سيدى لم أرتكب جرما . فأخبرنى يامولاى عن الذنب الذى ارتكبته . ان طاعتي لك طول هذه المدة لم تكن عن خوف وانما كانت عن محبة واخلاص . وليس يمكننى أن أفعل أكثر من ذلك . وأنى لرحمة ربى وعفو مولاي منتظر . »

فقال للملازمين مارأيكم في أقواله هذه فأجابوه بانهم لم يلاحظوا شيئاً يشين سمعتي .

وقد علمت بعد ذلك من هم هؤلاء الذين أوجدونى فى ذلك المركز الحرج . ثم قال لى أنت مسامح هذه المرة وعليك أن تحاذر فى المستقبل . ثم مد لى يده لأقبلها وأمرني بالانصراف .

وفى اليوم التالي طلبنى وحدثنى بكل لطف طالبا منى أن احذر أعدائى وان أجتهد بقدر المستطاع حتى لايكون لى أعداء وأعلمنى بان المهدية تتبع قواعد الاسلام فاذا ماشهد ضدى فى أي دعوى شاهدان وجبت اداتي حتى ولو كان الشاهدان كاذبين وفى هذه الحالة يصبح العفو عني غير مستطاع فكيف يحلو لى العيش والحالة هذه وحياتي أصبحت بارادة شخصين يريدان الايقاع بي . ولكنى على كل حال شكرته على نصيحته الغالية وقلت له يامولاى اني اعمل دائما بقدر استطاعتي لارضائكم حتى أكون دائما محل ثقتكم .

ولما عدت الى منزلى وقد انتصف الليل كنت فى أشد حالات التعب راغباً فى الراحة فقابلنى خادمي سعد الله وأبلغنى أن تابعا من اتباع الخليفة جاء حالا ومعه سيدة مقنعة أرسلها لى وهي بداري الآن . فسررت عند سماعى ذلك لا لشيء سوى اني تيقنت من رضاء الخليفة وتحققت أن قد زال كل شيء من نفسه . ثم ذهبت مع سعد الله الى المنزل فوجدت تحت القناع سيدة مصرية ولدت بالخرطوم لا بأس بجمالها فبعد أن تبادلنا التحيات بادرتنى بسرد تاريخ حياتها مدعية أنها ابنة ضابط مصري وقد علمت بعد ذلك أنها ابنة جندى وقع قتيلا في حرب الشلك وان زوجها الاول

وقتل فى الحملة التى أرسلت للاستيلاء على الخرطوم وان امها حبشية لاتزال على قيد الحياة . ثم قالت انها كانت احدى نساء ابو انجه العديدات وان الخليفة اختارها الآن لتكون زوجة لى خلفا لذلك البطل العظيم . وقالت لى انه سبق للاحباش أن أسروها وكان زكي طومال هو الذى أطلق سراحها . وقالت أخيرا ان لديهامعلومات قيمة عن المعارك التى نشبت في عهد ابو انجه

وحكاية هذه السيدة هى ان الخليفة كان قد أصدر أوامره باحضار ارامل ابوانجه الى أم درمان فلما حضرن أخذ يوزعهن على أتباعه وقالت لى انها لمغتبطة جدا لوقوعها مع شخص من أبناء جلدتها فأجبتها فى الحال بأني أوروبى وان ماحصل من تغيير لوني انما كان بسبب ماأنا عليه من الحال واضطررت الى أن اقول لها انها ستكون موضع عنايتى .

ولما كنت في أشد حالات التعب طلبت اليها أن تتبع الخادم سعد الله الذى سيمهد لها كل سبل الراحة . وقلت في نفسي ان الخليفة بدلا من أن يأمر خازن بيت المال بأن يمدني بالمساعدة لقضاء حاجياتى الضرورية بعث لى بتلك الزوجة التى تزيد فى شقائى وتعبي .

وفى اليوم التالى سألني الخليفة عما اذا كنت قد أعجبت بهديته وهل أنا راغب فيها . فأجبته بأني سعيد لأنى شعرت برضاء مولاي عني واننى أتمنى أن يجعلنى الله سبحانه وتعالى مشمولا دائما برعايته .

ولما عدت الى منزلى قبل صلاة الظهر وجدته مزدحما بالنساء اللاتي دخلنه بالقوة كما أبلغنى سعد الله مدعيات أنهن أقارب فاطمة البيضاء كما كانوا يسمون السيدة التى بعث بها الى الخليفة ووجدت ضمنهن امرأة مسنة قالت لى انها والدة فاطمة وأنها مسرورة لان ابنتها أصبحت لى ورجتنى ان احسن رعايتها . فاخبرتها بأن ابنتها ستكون دائما موضع عنايتى وستعيش فى منتهي الهناء والسرور واعتذرت لهن بكثرة اشغالى ثم انسحبت بعد ان طلبت الى سعد الله ان يحسن وفادتهن على حسب عادات البلاد وان يخرجهن بعد ذلك ولو أدى الامر الى استدعاء من يساعده .

ومضت بضعة ايام ثم سأل الخليفة عن فاطمة مرة اخرى . وبما انى كنت أعلم

جيداً انه يريد دائما ان اعيش عيشة الوحدة ولا اخالط احداً اخبرته باني لا ارى مانعاً من ان تعيش معي غير ان لها عدة اقارب يترددون عليها طول اليـوم وعلى ذلك قد تضطرني الظروف الى مخالطتهم وهذا امر يأباه مولاي وتأباه نفسي ولذلك فاني سآمرها بأن تخضع لاوامرى وتمتنع عن الاتصال بأهلها ومعارفها بقدر الامكان فاذا لم تخضع فانى افضل تسليمها لاقاربها فارتاح الخليفة لهذا الاقتراح ارتياحا تاما الا انه منذ طرد سـعد الله الزوار فى اول مرة لم يعد احـد يقدم الى دارنا . ومخافة ان يسيء الخليفة الظن في قصدى توانيت قليلا فى تنفيذ ماقررته

وبعد مدة ارسلت فاطمة البيضاء الى امها وكلفتها بالانتظار هناك حتى ابعث اليها . وعرف سعد الله دار امها فبعد مدة ارسلت لها ولأمها ملابس ونقوداً ورسالة اخبرتها فيها بانها اصبحت طليقة غير خاضعة لاوامرى .

واخبرت الخليفة بذلك قائلا له ان امثال هؤلاء القوم الغرباء عنه وعنى لايجوز ان يكون لى صلة بهم واني دائما ابدا على استعداد تام لاطاعة اوامره .

وبعد مضي سنة تقريبا جاءتني الام تستأذنني فى زواج بنتها من احد اقاربهـا فوافقت على ذلك بسرور تام وقد تركت فاطمة البيضاء فى ام درمان سعيدة بين أولادها .

الفصل الرابع عشر

تشتت وتفرق

قد عين حاكما لدنقله عدوى خالد الذى كان مسجونا منذ بضعة أشهر وقد حل محل يونس الا انه لم يمض شهران على هذا التعيين حتى ذهب ضحية الدسائس التى كان يدسها له اثنان من أبناء عم الخليفة كانا قد ذهبا لمراقبة حركاته وأفعاله . وقد استدعاه الخليفة ثانية الى أم درمان ووضعه مرة ثانية فى الاغلال . فهذا العمل كان من شأنه أن زاد هياج أقارب المهدى وانصاره وعقب ذلك اتفاق الخليفة محمد شريف واثنين من أولاد المهدى لم يبلغا العشرين من عمرهما مع كثيرين من الاقارب على أن يعملوا جميعاً للقبض على ناصية الحكم وكبح جماح الخليفة عبد الله . وفعلا أخذوا فى اعداد الخطة اللازمة سراً فى أم درمان وبدأوا كذلك يستميلون الاصدقاء وابناء القبائل وأرسلوا كتبهم الي « الدناجلة » القاطنين بالجزيرة يدعونهم للحضور الى أم درمان للانضمام اليهم . ولكن حدث ان أحد الامراء الجمليين الذى كان قد أقسم بالاّ يبوح لاحد بشيء الا لاخيه واعز صديق عنده خدع القوم وخانهم وذهب يطلع الخليفة على الامر معتبراً إياه اقرب الاصدقاء . فلما وقف الخليفة عبد الله على سر هذه المؤامرة اخذ يعد المعدات لاحباطها الا ان جواسيس الاشراف عندما عرفوا ان مؤامرتهم انكشفت وعرفوا مايدبره لهم الخليفة اجتمعوا فى جزء من المدينة واقع فى شمالى بيت الخليفة واستعدوا للمعركة .

واما انا نفسى فقد كنت مشتاقا لرؤية هذه المعركة فما أخشاه وحياتى كانت كل يوم فى خطر . وان أمام نظرى حادثة عدلان الذى كان الصديق الحميم للخليفة فقد شنقه ومثّل به وقد تأكدت ان عبدالله ما كان يهتم البتة بارواح أعز أصدقائه وأحبهم اليه وان هذه الحرب الداخلة لا بد أنها ستضعف اعدائى « الخليفة وانصاره » وربما كان لى من وراء ذلك الاضطراب المنتظر حدوثه أمل فى ان أسترد حريتى ويصبح

فى مقدورى ان استعمل نفوذى في جيش الحكومة الذى ظهرت فيه نزعة الاستياء بسبب المعاملة التي كان يلقاها

وقد كان من المستحيل على الانسان فى مثل تلك الظروف ان يرسم لنفسه خطة واضحة وكل ما كنت أرغبه هو ان تقوم المعركة وان يكون لى من ورائها اكبر قسط من الفائدة الشخصية

بعد ذلك ابتدأ الفريقان بتبادل الطلقات النارية إلا ان ذلك لم يكن الا ايذانا ببدء المعركة الحربية بين الطرفين

وقد كان الفريقان في حالة لا تسر فكانت الاسلحة من النوع الردىء ولم يمض غير وقت قصير حتى انتهت تلك المعركة وقدرت الخسارة خمسة قتلى

بعد ذلك عرض الخليفة طلب الصلح وان يعين الاشراف شروطهم وقد دارت المفاوضات طول اليوم بين الفريقين وفعلا عادت سيرتها فى اليوم التالى . ومن سوء حظى ان الطرفين وصلا الى حلول مرضية اتفقا عليها ووافق الخليفة وحلف وتعهد بتنفيذها بعد ان عفا عن كل المتهمين

وقد منح الخليفة محمد الشريف مركزاً ساميا وان يحضر جلسات مجلس الخليفة كأحد أقطابه وقد قرر منح كثير من أقارب المهدى اعانات من بيت المال

وعلى ذلك سلمت الجنود أسلحتها الى الخليفة وبذلك تم توقيع الصلح .

وفى يوم الجمعة التالى حضر امام الخليفة قواد الجيش ونالوا منه المكافآت التى كان قد أعدها وفى ظهر ذلك اليوم نفسه اجتمع الخليفة الشريف وأولاد المهدي وعبدالله نفسه

وبذلك وطدت الآن أركان الصلح بين الفريقين واصدرت الاوامر الى رجال المدفعية والمشاة بان يعودوا الى مراكزهم الاصلية غير ان الملازمين والجهادية كلفوا بالبقاء حتى يتم تسليم السلاح جميعه

وفي يوم أحد بعد الظهر أرسلت خادما الى الأب « اوهروالدر » لاسأل عنه فوجد بابه مقفلا وقد حاولت الاستفسار عنه من جيرانه الاغريق فلم اتمكن من الاستدلال على مكانه ولا مكان أفراد بعثته

وقد خيل اليّ فى الحال انه في أثناء الاضطراب ربما يكون قد تمكن بمعرفة مخلصين له من اللياذ بالفرار

وقبل صلاة المغرب حضر رئيس الذين اعتنقوا الدين الاسلامي بدون رغبتهم والسورى « جورج استامبول » وطلبا ان يؤذن لهما بمقابلة الخليفة حالا لأمر مهم ولكن الخليفة ، وكان فى تلك اللحظة مشغولا امرهما بالانتظار فى المسجد حتى يأذن لهما وبعد تأدية الصلاة طلبهما اليه وسألهما عن مرغوبهما فقالا له ان يوسف القسيس ومن معه من النساء هربوا جميعاً ففى الحال طلب « نور الجرباوي » خازن بيت المال ومحمد وهبه حكمدار البوليس وطلب اليهما ان يعملا ما فى وسعهما للقبض على الذين هربوا واحضارهم الى هنا أحياء او أمواتا

وكان من حسن حظ هؤلاء اليونانيين ان الخليفة كان مشغولا باشياء مهمة ولولاها لكان وجه كل قواه للقبض عليهم والتمثيل بهم

وعلى ذلك لم يتمكن الجرباوى ووهبه الا من الحصول على ثلاثة جمال للحاق بـ « اوهر والدر » الذى كان يعلم جيداً ان هروبه متوقف على السرعة

وقد تمنيت من صميم قلبي ان يفوز هو ومن معه بالهروب فقد تعذبوا كثيراً ولو اني حزنت فى الوقت نفسه حزنا شديدا لانه كان الشخص الوحيد الذي يعرف لغتى الاصلية التى كنت أحن الى التحدث بها أحيانا معه

وفي اليوم التالى استدعاني الخليفة وقابلنى بوجه مكفهر قائلا : « هو من ابناء جلدتك وبطبيعة الحال انك كنت تعرف جيدا عزمه علي الهروب فلماذا لم تبلغني حتى كنت اعمل الاحتياطات اللازمة ؟ » فاجبته : « عفوا يا مولاي كيف كان فى استطاعتى ان اعلم عن هروبه شيئا وانا منذ قيام الحركة الاخيرة لم انتقل من مركزى بالليل ولا بالنهار كما تعلم ياسيدى » فاجابنى بكل حدة : « لاشك في ان قنصلكم هو الذى دبر لهم طريقة الهروب »

وكان من بين الخطابات التى وردت أخيرا واحد منها جاء الى الخليفة باللغة العربية من القنصل العام لدولة النمسا والمجر المسيو « فون روستى » يشكره فيه على حسن معاملته للبعثة الكاثوليكية ويطلب اليه ان يسمح لهم بمغادرة السودان والعودة

الى أوطانهم حيث انهم من رعايا الحكومة النمساوية وان لجلالة الامبراطور غاية خاصة بهم ومنذ هذا اليوم اعتقد ان اعضاء هذه البعثة من ابناء جلدتي وهو متيقن الآن بان أمر هروبهم دبر بمعرفة القنصل المشار اليه

وهنا قلت للخليفة : « ربما يكون للقبائل النازلة على الحدود يد في تدبير هروبهم لغنيمة وعدوا بنيلها فحضروا الى أم درمان وانتهزوا فرصة الثورة التي قامت ومهدوا السبيل « لاوهر والدر » ومن معه للهروب . وقد اقتنع الخليفة بهذا الرأى . وبعد ان طلب الي ان اكون دائما مخلصا أمرني بالانصراف

وبالرغم من الوعود التى قطعها الخليفة على نفسه للاشراف بالا يعكر صفو الود والاتفاق الذى تم بين الفريقين بلا مبرر القى القبض على ثلاثة عشر من زعمائهم بينهم اعمام المهدى نفسه وارسلهم بمركب الى فاشوده حيث يوجد زكي طومال الامير المحلف الامين للخليفة والذى كان قد ذهب هناك لاخماد ثورة «الشلك»

ولما وصلوا الى فاشوده وضعهم زكي فى زريبة وتركهم بدون طعام الا القدر اليسير ثمانية ايام. ولما جاءته التعليمات السرية لاعدامهم ضربا بعصى تقطع من اشجار الشوك نفذ ذلك الامر بحضور رجال جيشه بعد ان عراهم من ملابسهم

بعد ذلك عاد زكي طومال الي أم درمان ومعه غنائم كثيرة اذ أحضر معه آلافا من الرقيق من النساء وقطعانا من الماشية باعها بمبالغ عظيمة حصل عليها بالفعل . وقد شكا كثير من الناس زكي الى الخليفة من شدة ظلمه وطغيانه وكان بعض الناس يقولون للخليفة اذا اكتسب قلوب عدد كبير من اتباعه يمكن ان يستقل ويشق عصا الطاعة

غير ان ما قدمه زكي اليه ولأخيه من الهدايا الثمينة من رقيق مال وماشية حفظ له مركزه عندهما

ولما كان زكي طومال بأم درمان قام الخليفة بعدة مناورات عسكرية تولى قيادتها بنفسه غير ان جهله بالحركات العسكرية وعدم النظام السائد بين الثلاثين الف عسكرى جعل هذه المناورات تفشل فشلا تاما ولكن اللوم وقع على رأسى حيث كنت قائما بوظيفة اركان حرب ولما رأى ما وقع فيه من الارتباك قرر بان هذا العمل كان

مقصوداً مني لأني عدلت في تنفيذ اوامره . واخيرا صرف الجنود وبعث بزكي طومال الى القلابات وطلب الي كعادته ان انفذ اوامره كما هي وأهدى الي جاريتين صغيرتين علامة الرضاء

والآن وقد سمع الخليفة شريف بما حدث من قتل اقاربه اعلن استياءه الشديد وسخطه على الخليفة جزاء ماارتكب وبذلك تمكن الخليفة عبد الله من ايجاد سبيل الى محاكمته فسرعان ما اتهمه بانه خارج على القانون غير مطيع للاوامر وكون المحكمة لتحاكمه بتهمة عدم الطاعة

وبالفعل قرر القضاة ادانة الخليفة شريف واصدروا الاوامر بالقبض عليه

وفى اليوم التالى ذهب الضباط لتنفيذ هذا الامر فى منزله الواقع بين منزل عبدالله وقبة المهدى وهناك ابلغوه الامر ونصحوا اليه بان يطيع اوامرهم ولا يظهر أي مقاومة. وفى الحال اصبح تحت تصرف الضباط الذين كان برأسهم عرابي ضيف الله ولما طلب اليهم ان يسمحوا له بلبس حذائه رفضوا ثم ساقوه بكل عنف وشدة لدرجة انه وقع على الارض مرتين . ثم وصلوا الى السجن وهناك وضعوا فيه القيود الحديدية ومنعوا ايا كان من الاتصال به وجعلوا الارض العارية مقعدا له والسماء غطاء

وقد أرسلوا ابناء المهدى الى جدهم « احمد شوقي » وامروه بان يبقيهم عنده محبوسين لا يتصل بهم احد — وقد كان جدهم يطيع الخليفة طاعة عمياء خوفا على ثروة طائلة اقتناها من ان يصادروها منه — فنفذ الاوامر الصادرة اليه كما صدرت

وقد مرت بي بعد ذلك ساعات دقيقة للغاية فقد ارسل يونس رجلا من دنقله الى الخليفة ومعه معلومات مهمة من الحكومة المصرية . وقد قابله الخليفة بنفسه بحضور جميع القضاة وقد داخلني الشك في ان مايدور عليه الحديث هو بخصوصي وقد حاولت استطلاع حقيقة الامر من احد القضاة وكان صديقي الا انه اجابني بالا اجعل للامر اهمية عظمى . وبعد الصلاة اجتمع القضاة والرسول بالخليفة مرة ثانية ولم تمض غير برهة حتى رأينا الرسول قد كبلت يداه بالحديد وارسل الى السجن ولقد اندهشنا عندما رأينا ذلك المنظر

وفى يوم التالى لما ذهبت الى منزلى لبرهة قصيرة طلبنى الخليفة الى حضرته فتوجهت حيث كان مجتمعا ببعض القضاة و بناء على امره اخذت مكانى بينهـم ثم ابتدأ يقول وقد وجه نظره الى قضاته : « ولطالما نصحته بان يكون مخلصا لى وانى دائما اعامله معاملة الاب لابنه وما كنت اصدق ما يصل الىّ من الوشايات بخصوصه ولطالما عفوت عنه » . أخذ يقول كل ذلك عني لقضاته ثم التفت الىّ قائلا : ان المثل العربى يقول « لا يوجد الدخان اذا لم توجد النار » وأنت يحوم حولك دخان كثير

وقد قال الرسول أمس انك جاسوس الحكومة وان مرتبك يدفع شهريا الى مندوبك في القاهرة حيث يرسله اليك هنـا . وهو يوقن بانه رأى توقيعك في ديوان الحكومة هناك . وأنت الذى مهدت الى يوسف القسيس الهروب وقد قال ايضا انك تعمل لتسهيل الاستيلاء على ام درمان بواسطة الانجليز وانك ستشعل النار فى مخزن البارود الموجود بقرب منزلك حينما يبدأون بالزحف . فماذا تقول دفاعا عن نفسك ...؟ فاجبته : —

« مولاي ! ان الله لا يظلم احدا وانت رجل الحق والعدل واني اقول باني لم أكن قط جاسوسا ولا صلة لى بالمرة مع الحكومة المصرية واني لم استلم قط نقودا هنا . وان ضباطك لعلى يقين من انى فى أشد حالات البؤس والشقاء وان احترامي الشديد لشخصك هو الذى يمنعنى من ان اطلب اليك مساعدتي . وبما انه روى لمولاى بانه اطلع على امضائي هناك فاني اتهمه بالكذب وانا موقن بانه لا يعرف لغة اجنبية واذا اردت ياسيدى ان اكتب على قطعة ورق عدة امضاءات ثم نعرضها عليه ليستخلص منها امضائي التى يقول عليها بانه رآها هناك بالقاهرة لفعلت . وهنا يتضح لك جليا ان كان حقيقة يعرف اللغات الاجنبية اولا يعرفها وانت تعرف يامولاى ان يوسف القسيس هرب فى وقت ما كان فى استطاعتى الاتصال به . ولو كان لى اتصال بهؤلاء الذين يمهدون الهرب فلم لا أمهده لنفسي . ومن السهل جدا على الانجليز ان يعلموا ان منزلى بجوار مخزن البارود لأن الرجل الذى جاءنى بالخطابات التى بعث بها الى اخوانى رأى منزلى فلربما يكون هو الذى حدثهم بذلك

« ومن الجائز ان اقاربي الذين قطعت كل صلاتى بهم بناء على امر مولاي يسألون عنى وعن مرتبي فى دواوين الحكومة المصرية ظنا منهم ان السودان لا يزال جزءاً من مصر او يسألون التجار الذين يفدون منه الى القطر المصرى وبطبيعة الحال يعلم هؤلاء التجار جيدا موضع منزلى بالنسبة لمخزن البارود . وانى لموقن بان الحكومة المصرية لاتفكر مطلقا فى الكر عليك وانت هذا الخليفة القوى البطش . واذا سلمنا جدلا بان الحكومة تفكر فى هذا الغزو فمن أين جاءنى التأكيد باننى سأبقى فى مركزى وأتمكن من تنفيذ الخطة التى يقول عنها ؟ هذا فضلا عن أنى كما تعلم يامولاى كنت الخادم ولا زالت الامين المخلص وانى أتمنى بان أكون دائما فى طليعة جيوشك الغازية لنصرتك على أعدائك .

« انى ياسيدى بعد كل هذا الايضاح الذى أوضحته لا أعتمد الا على انك لا تظلم أحداً . »

ثم قلت : وهل يحق لك أن تضحي بمخلص امين لك من أجل وشاية « دنقلاوى » ! فبادرنى بقوله من أين علمت بانه « دنقلاوى » ؟ فقلت له من منذ مدة رأيت هذا الرجل ببابك مع عبد الرحمن واد النجومي الشاهد ونظراً لسخافته والحاحه طردته بالقوة فهو يريد لنفسه الآن الانتقام فانت يامولاى وقد منحك الله العدل والانصاف ستحكم لى بطبيعة الحال بالبراءة .

فقال لى : « ماطلبتك هنا للمحاكمة ولا شككت لحظة فى اخلاصك ولو كان الأمر فيه شيء يشينك ما كنت أمرت بسجنه وانى لعلى يقين من أن اعداءك كثيرون وهم يحاولون دائما الايقاع بك لأنهم يغارون من وجودك بقربي . ولكن يجب عليك أن تحاذر واعتقد دائما ابدا فى المثل القائل : « لايوجد الدخان الاحيث توجد النار » .

وبعد ذلك أمرني بالانصراف ومن ثم انصرف الجميع

ولقد سألت أحد اصدقائى عما قاله الخليفة بعد خروجى فاخبرنى بان الخليفة اعتبر الرجل كذابا ولكن لايخلو الحال من أن يكون في دعواه بعض أشياء حقيقية وقد قال لى أيضاً لابد أن يكون لك أعداء بالقاهرة وهذا الرأي سبق أن طرأ لى .

ولكن ما الحيلة وما العمل وانا أرى ان خصومي يوقعون بي كل يوم ويجعلون مركزى من أحرج المراكز فصرت أفكر دائما فى هذه المواقف وصرت أفكر ايضاً في علاقاتى مع الخليفة وكيف أنها ستتأثر بهذه الوشايات بطبيعة الحال

وان ضيقتى من أنه أصبح بعد كل هذا يتحين لي فرصة للانتقام لانى على ما اعتقد أصبحت فى نظره العدو اللدود في ثوب الصديق الحميم ولكن على كل حال احمد الله ومن يعش ير .

وقد قابلت فى اليوم التالى وانا عائد الى المنزل بعد تأدية الصلاة « القرباوى » وهو الذى خلف « عدلان » فى بيت المال . فحادثنى بكل لطف قائلا لي — بعد ان قلت له انك تزورنا نادرا — لقد جئت لأقلقك بطلبي اليك بان تخلى منزلك اليوم . وسأعطيك بدله فى جنوب شرقي المسجد حيث يستقبل زوار الخليفة وهو ولو انه يقل عن مساحة منزلك الا انه بقرب المسجد ويصلح لرجل عابد مثلك

فقلت له اني أوافق على ذلك بكل سرور ولكن أرجوك أن تقول لى بصفة خاصة من الذي أرسلك . الخليفة أم يعقوب ؟ فاجابنى وهو يضحك قائلا : « آه . هذا سر . ولكن من حديثك أمس مع الخليفة يمكنك أن تعلم حقيقة السبب وهو ان مولانا الخليفة يريد أن يجعلك في مكان قريب منه حتى تكون تحت رقابته مباشرة حيث ستكون على بعد ٢٠٠ خطوة منه »

ثم قال لى اذن متى احضر لاستلام منزلك فقلت له سأنتهى من النقل في مساء هذا اليوم ولربما كان نقل مؤونة حصانى وبغلى هى التى تستغرق منى وقتاً أطول . وهل المنزل الذى سأذهب اليه غير مسكون فاجابني : « نعم بطبيعة الحال » وقد اصدرت الاوامر بان ينظف وتعمل الاصلاحات اللازمة له . ولكن يحسن بك أن تبتدي في مغادرة هذا المنزل حالا وآمل أن تكون سعيداً في منزلك الجديد أكثر مما أنت عليه من السعادة هنا

ولقد وضح لى الآن جليا ان ثقة الخليفة بي قد تزعزعت وأصبح لايثق بى لأن أكون بجوار مخزن البارود . وعلى ذلك حزمت متاعى وأمرت الخدم بنقله الى المنزل الجديد فتأثر الخدم وأخذوا يطلبون الى المولى أن يوقع كل اللعنات على الخليفة حيث

نترك منزلنا الذي أصلحناه وغرسنا فيه الأشجار وحفرنا فيه الآبار . ولكني على كل حال غادرت المنزل مؤملا فيما قاله القرباوى من انى سأكون بمنزلى الجديدأسعد حالا منى فى المنزل الذى انا فيه

وقد أصبحت حالي بعد ذلك مضطربة وأصبح مركزي مزعزعا

ولقد تقابلت اتفاقا مع تاجر من دارفور جاب الديار المصرية والبلاد السورية وعرف كثيراً من أجناس البشر المختلفة وقد عرف لأول وهلةانى نمساوىالاصل وأخذ يحدثنى —وعلم بانى أسير من مدة طويلة ولا صلة لى باى مخلوق— عنالاحوال في القطر المصرى واعطانى بعض الجرائد المصرية القديمة . وتحتوى احدى تلك الصحف على أخبار من النمسا . ولما توجهت الى المنزل وابتدأت أقلب صفحاتها علمت أول ماعلمت ان ولي عهدنا الامير رودلف قد توفي . ولايمكنني ايهاالقارىء ان تتصور مقدار الحزن الذى حل بي . فقد خدمت معه فى الجيش وقد كان بودى ان ارجع الى وطنى وابلغه بعد طول الاسر ان اشرف ساعات قضيتها فى حياتي هي تلك الساعات التي كنت فيها تحت امرته وأعظم شرف لى أن انتمى الى الفرقة الامبراطورية . ولقد فكرت طويلا فيما عساه أن يكون قد اصاب امبراطورنا المعظم بفقد ولده .

قد حلت بى الاحزان فى هذا الوسط المزعج الذى انا موجود بينه وقد كان زملائي وهم لايدرون أسباب حزنى يطلبون ان لا اظهر أسفي بالنسبة لتركي منزلى الاول حيث ان الخليفة أصدر أمره الى جواسيسه بان يراقبوني جيدا فابتدأت اظهر عدم اهتمامي باي شيء مطلقا .

وقبل ذلك بمدة وجيزة كان المصريون قد استولوا على طوكر وهم لا محالة زاحفون ومن أجل ذلك استدعي الخليفة « ابو حرجه » وولى بدله قيادة الجيوش واحدا من أقاربه اسمه « مسعود » وقد أرسل « ابو حرجه » بباخرتين الي الاقاليم الاستوائية ليلحق بعمر صالح الذى كان قد ذهب الى الرجاف ليقيم هناك مركزا لجيوش الدراويش اصد حملة « ستانلى » و « امين باشا »

وبعد مضي أيام قليلة لسفر هذه البواخر مرض الخليفة بالحمي التيفوسية وكان عموم سكان ام درمان يستطلعون أخبار هذا المرض أولا فأولا

وأصبح جميع سكان أم درمان يرقبون أخبار مرض الخليفة بفارغ الصبروكانوا يتوقعون ان موت الخليفة يغير نظام كل شيء . وبطبيعة الحال اذا مات سيخلفه الخليفة « علي واد الحلو » حسب ماتقتضيه القوانين المهدية وكان هذا يترقب وفاته بكل سرور وقد أظهر اتباعه الرغبة الشديدة فى الاستيلاء علي الحكم

بعد ذلك ابتدأت حالته الصحية تتحسن وقد خيل الىّ ان الله سبحانه وتعالى لم يهيىء بعد لهؤلاء القوم النجاة فيقضى على حياة هذا الطاغية

خرج الخليفة بعد ثلاثة أسابيع من مرضه لاول مرة فقابله رجال قبيلته بالتجلة والتعظيم والغبطة والسرور بينما أظهر له بقية السكان سرورا مصطنعا وعلى ذلك لم يعرف شعور الناس نحوه حق المعرفة

وحيث كان يقطن بين النهرين فى الجزيرة قبائل « الجالان » و « الدناجالا » وغيرهما من الاعراب الذين يعرف الخليفة عنهم انهم ألد أعدائه فكان دائما يراقبهم عن كثب ويدعهم عزلا من السلاح مصادرا كل ممتلكاتهم وكان ينتخب من بينهم آنا بعد آخر عددا يرسله لتعزيز حامية دارفور والقلابات والرجاف

وكان يعتقد دائما ان الخليفة علي وأتباعه يحقدون عليه ولو انهم كانوا يظهرون له غير مايخفون الا انه ما كان يتوقع قط ان يعلنوا العداء كما أعلنه من قبل الاشراف

والآن وقد أصبحت اقطن على بعد خطوات منه أخذ يسأل عنى كثيرا زملائي ويطلب اليهم ابلاغه هل انا مسرور من مكاني الجديد او لا . وكان يترقب بفارغ الصبر وقوع هفوة منى ولكن من حسن الحظ كان الملازمون يعطفون علىّ وبيني وبينهم صداقة وكان يسرون لى بين آن وآخر ان الخليفة أصبح شديد الحقد علىّ ويجب ان اكون شديد الحذر .

وفى ذات يوم من شهر ديسمبر سنة ١٨٩٢ لما حصلت على أجازة قصيرة لاستريح فيها من عناء العمل طلبنى احد الملازمين الى الخليفة وبعد ان ذهبت وجدته ينتظرني

فى حجرة الاستقبال محاطا بقضاته . ولقد صدقت ما قيل لى من أول وهلة حيث لم يرد تحيتى وأمرني بان آخذ مكاني بين قضاته

وقال لى بكل حدة خذ هذا الشيء وانظر الى مايحتويه . فقمت واستلمت الشيء المشار اليه ثم جلست فاذا به قطعة مستديرة من النحاس على شكل علبة صغيرة قطرها يقرب من أربعة سنتيمترات مغلقة بقطعة من المعدن متينة كقبضة «المسدس» فحاولت فتح هذا الشيء وبعد ان تمكنت وجدته يحتوى على قطعتين من الورق

وبطبيعة الحال كنت فى هذه اللحظة فى أشد حالات الاستغراب وقلت فى نفسى لعله خطاب من أهلى اومن الحكومة المصرية استحضره الرسول

ولما مسكت قطعتى الورق حاولت قراءة ما يحتويانه فوجدت مكتوبا فيهما باللغات الالمانية والفرنسية والانجليزية والروسية ما يأتي :—

«هذا العصفور نشأوتربي بضيعتى فى « اسكانيا » في مقاطعة « فوريدا» بجنوب الروسيا فمن يمسكه أو يقتله فالمرجو منه ان يكتب لى ويخبرنى عن مكانه «.

الامضاء

سبتمبر سنة ١٨٩٢ ف ر. فولزفن

فرفعت رأسى بعد تلاوة هذا الخطاب فقال الخليفة ما هو المدون بهذه الاوراق فاجبته قائلا يا سيدى لا بد وان تكون هذه القطعة كانت معلقة فى رقبة عصفور قتل وان صاحبه الذى يسكن فى أوربا يطلب الى من يقتله او يمسكه ان يكتب اليه ويخبره عن المكان الذى مسك فيه او قتل

فقال لى لقد قلت صدقا لحقيقة قتل هذا العصفور بالقرب من دنقله ووجدت هذه القطعة برقبته ، وقد أخده من قتله الى الامير يونس الذي عجز كاتبه الخاص عن عن تفسير ماهو مدون به . وبعد ذلك بعثوا به الى ليخبرني بترجمة ماهو مكتوب فيه

فترجمت الجملة كلمة كلمة كما أراد الخليفة وبينت له موضع البقعة التى جاء منها هذا العصفور وكذلك المسافة التى قطعها — فقال الخليفة هذه خرافات يضيع بها الذين لا عقيدة لهم اوقاتهم فبعيد على محمدي ان يجهد نفسه فى خرافات كهذه

بعد ذلك أمرني بان أسلم العلبة الى سكرتيره وامرني بالانصراف غير أني

تصفحت الورقة مرة ثانية بكل سرعة وعلقت منها كلمات « اسكانيا — نوفا — فوريدا بجنوب الروسيا » وأخذت اكرر تلك الكلمات حتى علقت بذا كرتي

وقد كان الملازمون في انتظاري خارج الباب وهم فى غاية الشوق الي سماع أخباري ولما رأوني خارجا وعلى وجهي علامات السرور فرحوا لفرحي

وقد صرت أكرر وانا فى طريقي الى منزلي تلك الكلمات ونذرت اذا منحنى الله سبحانه وتعالى حريتى لا بد من ان أذهب الى هذا الرجل وأبلغه ما طلب وماذا حدث للعصفور . والآن عاد محمود احمد — وهو الذي حل محل عثمان واد آدم لما توفى — الى أم درمان بجيوشه البالغة خمسة آلاف بدوي ولم يترك بها غيرما يكفى لحفظ النظام وعسكر بهذه الجيوش عند عين يونس فى جنوبي المدينة

وقد أمر الخليفة باستعراض جميع الجيوش النازلة فى أم درمان وبطبيعة الحال ستكون نتيجة هذا الاستعراض كنتيجة سابقه وقد كنت اركان الحرب وكل هفوة تقع عليّ مسؤوليتها

بعد ذلك أمر محمود احمد بالعودة الى الفاشر بعد ان جدد عساكره يمين الاخلاص للخليفة . وقد وجه الخليفة نظره الآن الي الجهات الاستوائية فبعث بباخرتين أخريين بهما ٣٠٠ رجل تحت إمرة قريبه عرابي ضيف الله . أرسلهما الى الرجاف ولدى عرابى الاوامر بالقبض على « ابوحرجه » وان يكبله بالحديد . وقد ظهر جليا ان هذا الاخير لم يرسل الى الرجاف الا خدعة

وجاء بعد ذلك دور زكي طومال فحقد عليه يعقوب فأمروه أن يعود حالا الى أم درمان حيث زجوه فى السجن ووضعوا على جسمه اكبر كمية ممكنة من الحديد تعذيبا له . بعد ذلك وضعوه في مغارة وقطعوا صلاته بكل الناس ولم يسمحوا له حتى بالخبز الضرورى لغذائه فمات بعد ٢٠ يوما جوعا وعطشا

وقد حل الآن بدله فى قيادة الجيوش احمد واد على فاصدر له الخليفة الاوامر بغزو القبائل النازلة بين كسلا والبحر الاحمر . وكانت خاضعة للايطاليين ولكنه تلقى أوامر بألا يغزو جيوشا محصنة فى حصون . ولما توجه على رأس جيشه فى نوفمبر سنة ١٨٩٣ من القضارف لحق بالقوة المعسكرة في كسلا وهناك توجه الى «اجردات»

فواجه القوات الطليانية وكانت قليلة العدد الا انها متحصنة وبالرغم مما أمره به الخليفة هاجمها لقلتها فى نظره فهزم شر هزيمة وقتل هو نفسه وقتل قائدان من قواده

وفى أثناء هذه اللحظات الدقيقة واذا بباخرتين تفدان من الرجاف تحملان كميات هائلة من العاج وآلافا من الاسرى وبعد ذلك بقليل وصلت أخبار غير سارة من دارفور وقد روى محمود احمد ان المسيحين دخلوا مناطق بحر الغزال وقد اتحدوا مع القبائل النازلة فى هذه الجهات وقد وصلوا بالفعل الى حضرة النحاس . وقد وقعت تلك الاخبار على الخليفة كالصاعقة

ولما كانت مصر تحكم السودان جند المصريون من أهالى اقليم بحر الغزال الكثير ، منهم من قبل برغبته ومنهم من أجبر على الدخول فى سلك العسكرية . ولما كانت مناطق بحر الغزال أعلى بكثير من غيرها من مناطق السودان ومزروعاتها كثيرة وماؤها وفير . ولما كانت القبائل الساكنة فى تلك الجهة متفرقة الكلمة . سهل كل ذلك على أي أجنبي يريد الاستيلاء عليها وهذا هو ما قد حصل . وكان فى نظر الخليفة ان من يستولى على هذه المناطق فقد استولى على مفتاح السودان باجمعه . ومما زاد الطين بلة ان العبيد يكرهون العرب كراهة لا مزيد عليها .

وقد أمر الخليفة فى الحال محمود احمد بان يجند من جنوبى دارفور ويزحف جنوبا الى بحر الغزال ليكسح الاجانب الذين دخلوا هذا الاقليم

وقد استدعانى الخليفة ذات يوم وسلمنى بعض أوراق مكتوبة بالفرنسية وطلب الى ترجمتها وهى تحتوي خطابين من اللفتنانت دى كنيل الى مساعديه يشملان أوامر أصدرها اليهم . وسلمنى ايضا نص معاهدة موقع عليها من مندوب حكومة الكنغو الحرة والسلطان حامد واد موسى تاريخها ٤ أغسطس سنة ١٨٩٤ والشاهدان فيها « سلطان رعيو » و « سلطان تيجا » وهما موقعان بالافرنجية. فترجمت هذه الاوراق بكل سرعة شفويا للخليفة . ولقد أراد ان يظهر لى عدم اكتراثه فقال : « لم أطلب اليك ترجمة هذه الاوراق لا فى ان لامر شيئا خطيرا — كلا فقد اصدرت أمرى الى محمود احمد ليطرد هؤلاء النصاري الذين اخترقوا الحدود ولكن هناك أمر يهمنى أن أصرح لك به وهو « بما اننا نعتبرك كواحد من عائلتنا

فاني أود ان أشعرك بحقيقة هذا الحال وعلى ذلك قررت ان أزوجك واحدة من بنات أعمامي . فماذ ترى .

وبطبيعة الحال لم تدهشني هذه المنحة فقد عودني الخليفة أمثالها من قبل وتيقنت من حقيقة ما يقصده فهو يريد أن يبعث لى بمن تكون رقيبة على أحوالى بمنزلى . هو يريد أن يعلم حقيقة أسرارى . يريد ان يعرف اذا كانت هناك صلات بيني وبين أي مخلوق آخر . فقلت له يامولاى اننى أدعو لك بالنصر على كل أعدائك . ان هذا الذى تريد ان توليني إياه باقتراني بابنة عمك شرف عظيم . واني أقول لك يامولاي ان ابنة عمك هذا لم تكن من بيت الملك فقط بل هى من سلالة النبيّ عليه أفضل الصلاة والسلام . وعلى ذلك يجب ان تكون موضع كل عناية ومشمولة بكل رعاية ولما كان من سوء الحظ انى مصاب بداء الحماقة والحماقة أعيت من يداويها وقد لايمكننى أن أحكم عواطفي عند حدوث اي حادث ولا تخفى نتيجة هذا بين الزوج وزوجته وقد يؤدى هذا الى نفور قد يحصل لا سمح الله بينى وبين مولاي فأرجو معذرتي اذا رجوت سيدي ان يترك هذا الرأى

فقال لى : الآن وقد عشت بين ظهر انينا عشرة أعوام خبرناك فيها وعرفنا خصالك وعاداتك فلم أسمع عنك الا كل طيب وكل مايخيل لى من أمرك هذا انك لاتود تغيير العادة التى ورثتها من قبيلتك الاصلية بانك لا تريد الا زوجة واحدة (والخليفة يقصد من كلامه هذا انه باعتبارى مسيحيا فلا اتزوج الا واحدة ولذلك أرفض أن اتزوج بابنة عمه) فقلت له لا يامولاي فاني لا اتبع عادة بلادى مطلقا وان كنت اتبعها فلماذا تزوجت بثلاث نساء قبل الآن . فأجابنى فهمت على كل حال فأنت ترفض زوج ابنة عمي ! ! فقلت له : كلا ياسيدى فأنا لا أرفض ولكنى أريد قبل الاقدام على أي شيء ان أوضح لك حقيقة اخلاقي . وبذلك أضمن العواقب . وبطبيعة الحال انه لما يشرفنى الانتساب الى قبيلتكم . الا انى اود قبل كل شيء ان يكون مولاى على علم تام . والآن وقد تيقن من ان محاولاتي هذه كلها علامة الرفض أمرني بالانصراف

وقد وضعت نفسي بعدم القبول هذا فى مركز حرج للغاية وهذا مما جعلنى أزيد في جهدى لتدبير أمر الهروب

وقبل هذه الحادثة ببضعة أشهر كنت قد كلفت تاجرا سودانيا بالذهاب الى القاهرة ومقابلة القنصل النمساوى ليطلب اليه أن يعمل غاية جهده على تمكينى من الهروب ولكن متى تتحقق هذه الآمال

الفصل الخامس عشر

ملاحظات متنوعة

سأحدث القراء الآن عن شخص الخليفة وعاداته وأخلاقه فأقول هو السيد عبد الله ابن السيد محمد ينتمى الى قبيلة التعايشة من أولادأم سارمن أسرة الجبارات. وقد اتصل بالمهدى وهو في الخامسة والثلاثين من عمره وكان فى ذلك الوقت قوى البنية إلا ان الشواغل قد انهكت قواه الآن فأصبحت تراه كهلا اشتعل رأسه شيبا ولو انه لم يتجاوز ٤٩ عاما . أصبح سريع الانفعال . ولما تنتابه تلك الحال يصبح من غير المتيسر علي أعز عزيز لديه الدنو منه ومحادثته حتى ولا أحد اخوته .

وكان يعتقد دائما ان الصدق والامانة لاوجود لهما مطلقا عند أى مخلوق وكل ما يظهره الانسان من ملق ومداهنة إنما هو لقضاء الحاجات والمآرب دون سواها .

وكان بطبعه محبا للملق والمداهنة لذلك كنت ترى القوم يكيلون له الملق جزافا حتى ان أحدهم لا يجسر أن يذكر اسمه دون ان يقرنه بصفات الحكم والقوة والعدل والشجاعة والكرم والصدق . وكان من جهته يقابل ذلك الرياء بسرور وارتياح تام ويا شقاء من كان يمس كرامته .

ولكي يكون لدى القارىء فكرة عامة عن طباع هـذا الرجل أسرد الحكاية الآتية :

كان من بين قضاته قاض اسمه «اسماعيل عبد القادر» تعلم جيداً في القاهرة ونال حظوة كبرى عندالمهدى لانه كتب تاريخاقياعنه يشمل جميع انتصاراته وتاريخ حياته . ولما

مات المهدى أمر الخليفة اسماعيل هذا ان يتمم عمله ويكتب عن الانتصارات ويكيل ألفاظ الملق والمداهنة للخليفة. فقال اسماعيل عبدالقادر ضمن أقواله مقارناً الحالة فى السودان بها في مصر فشبه الخليفة بالخديو اسماعيل باشا وشبه نفسه باسماعيل باشا المفتش ولما وصل هذا القول الى مسامع الخليفة أمر القضاة فى الحال ليجتمعوا لمحاكمة اسماعيل على هذا القول الذى اعتبره الخليفة ذماً فى شخصه وقال « كيف والمهدى خليفة النبي وأنا خليفته يشبهني هذا الرجل بالخديو الذى هو من أصل تركي . كيف أشبه بهذا الرجل وأنا خليفة المهدى والمهدى خليفة النبي الذى هو أعظم مخلوق ظهر على ظهر الارض وطلب الى القضاة ان يحاكموه فقضوا باداته وكبل بالاغلال وأرسل الى الرجاف . وقال الخليفة ماالذى دعاه الى التشبيه بين مصر والسودان فاذا كان يود أن يشبه نفسه بباشا مصرى فأنا خليفة النبي لا أقبل على نفسى مطلقاً ان أشبه بتركي

ولم يقف به غروره عند هذا الحد بل أصدر أوامره فى الحال بان تجمع كل نسخ مؤلف هذا القاضى وتحرق وبالفعل تم ذلك الا نسخة واحدة كما بلغنى احتفظ بها سكرتير الخليفة ولو وجدت هذه النسخة الآن وترجمت الى اللغات الافرنجية لظهر الشيء الكثير مما كانت عليه الحركة المهدية منذ نشأتها

وكان هذا الخليفة مغروراً جداً بقوة جيوشه معتقداً انه فى وسعه ان يعمل كل شيء ويغزو أى بلاد وكانت أخلاقه خليطا من اللين والشدة وما كان يسير الا اذا أحدث آلاماً لآخرين كمصادرته أموالهم او تعذيبهم . وكانت تلك خصاله حتى أيام حياة المهدى نفسه فعبد الله نفسه هو الذى سبب مذبحة الخرطوم التى قتل فيها النساء والاطفال بلا شفقة ولا رحمة

ولما أرسل عثمان واد آدم الى أم درمان اختى سلطان دارفور البرنسيسة مريم عيسى وبخيته منحهما الخليفة حريتهما ولكنه حجز غيرهما من أقاربهما النساء وأخذ لنفسه كثيراً منهن وأعطى توابعه أخريات . ولما علم بان هناك من أهل دارفور من يقطن أم درمان ويريد مساعدة البرنسيستين قبض عليهما وأعطاهما لاثنين من أمرائه هما حبيب وخليل وكانا على أهبة السفر الى الرجاف . وقد حاولت أم بخيته وهى ضريرة ان تتبع ابنتها فرفض طلبها ومنعت بامر الخليفة بالقوة من متابعة بنتها

حتى انها ماتت بعد أيام قليلة وقلبها يتحرق على ابنتها . ورمت بخيته بنفسها فى النهر والباخرة لم تقلع من مكانها ولما نجوها من مخالب الموت ماتت من التعب والبؤس بعد قليل

وكان احمد غراب مصري الجنس مولوداً بالخرطوم ولكنه قبل حملة هكس باشا سافر فى تجارة تاركا وراءه زوجته وهى سودانية وبنته وقد عاد ابراهيما الا انه فى يوم عودته وقبل ان يرى أسرته أحضر امام الخليفة فأوضح الاسباب التي حملته على الرجوع مظهراً رغبته في الدخول فى خدمة الخليفة فقال له انى أقبل ذلك بكل سرور فلتذهب في الحال الى الرجاف . وجاهد في سبيل الله . وعبثا حاول هذا المسكين ان يقنع الخليفة فى ان يستأذنه السماح له برؤية أولاده فأمر الخليفة حرسه فى الحال بان يأخذوه الى المركب المسافر على ان يراقبوه جيداً

والخليفة عبد الله هذا هو الذى سبب هلاك آلاف الناس . وهو الذى كان يعذب الآدميين بان يقطع أيديهم وأرجلهم تعذيبا . ولم ننس له حادثة قتله وشنقه أفراد قبيلة « البتاهين » فى ساحة السوق . ولقد ذكرت كثيراً ان أصدقاءه كانوا أشد خوفا من أعدائه على حياتهم منه . وهل هناك دليل يثبت فظاعة هذا الرجل أقوى من حادثة سفكه دماء الاشراف بعد ان اتفق معهم وعقد التحالف المعروف

وكان كل من يدخل عنده يقف مكتوف اليدين مسبلا عينيه الى الارض ينتظر أمره بالجلوس . وكان هو يجلس دائما على عنجريب مفروش بحصير عليه فرو فاذا أمر أحداً بالجلوس فانما يكون جلوسه على الارض مقعيا كما يقعي عند الصلاة لا يتحرك حتى يؤذن له بالانصراف وكان لا يسمح لأى مخلوق بان يشخص ببصره نحوه وقد حدث مرة ان سوريا اسمه محمد سعيد جمعه سوء الحظ — وهو بعين واحدة لا يرى بالأخرى — بالخليفة فى المسجد فلاحظ الخليفة ان عين هذا السورى ترمقه فدعانى وأمرني بان أبلغه ان الخليفة لا يحب ان يراه مرة أخرى يرمق اليه

وكانت حالته فى منزله على عكس ما هو عليه من طباع إذ كان لين العريكة يطيع أمر ابنه حتى انه فى ذات يوم لما قال الولد لابيه انه أتم دروسه سرعان ما أمر المعلمين بالانصراف . وقد زوج ابنه عثمان هذا بابنة عمه بنت يعقوب ولم يتجاوز من العمر سبعة عشر عاماً . وأقام له افراحا لم يسبق لها مثيل فقد مدت موائد الطعام

ثمانية أيام حتى تمكن كل فرد من سكان ام درمان من ان يأكل . كما انه زين المنزل المبني بالطوب الاحمر والموجود تجاه بيت يعقوب بأفخر الرياش لكي يكون محل سكن ولده .

وبعد ذلك بقليل زوج ابنه هـذا باثنتين من أقاربه وقدم له جوارى اختارهن هو بنفسه لابنـه . وكان يحرم على ابنه الاتصال بالغير كما كان يصرح دائماً بأنه لايسمح له ان تجمعه صلة نسب مع أى قبيلة أخرى.

ولما رأى ان لابنه علاقات مع آخرين سرعان ما جعله يسكن فى منزل داخل السور بجوار منزله ليشدد عليه الرقابة

وقد زوج بنته لابن المهدى «محمد» وكان محمد هذا غير راغب فى هذا الزواج لانه لا يحب ابنة الخليفـة مطلقا . وكان يرغب فى الزواج بقريبة له . إلا ان الخليفـة عبد الله وهو صاحب الحول والقوة وولىّ أمره والرقيب عليه أرغمه على ألا يتزوج بمن يريد فتزوج بابنة الخليفة مرغما وعاشا عيشة مرة .

وكان للخليفة مايقرب من ٤٠٠ امرأة . وبحكم الشرع كان من بينهن أربع زوجات شرعيات والباقيات كن من بنات القبائل التى أرغمت على اتباع المهدىأى بعني آخر أسيرات وكان كلما أحب واحدة وأراد الاقتران بها اقترانا شرعيا طلق واحدة من زوجاته الشرعيات ليستبدلها بمن يريد . وقد جمع في زوجاته بين البيض والسود وقد قسمهن الى أقسام بعضها مكون من ١٥ والبعض من ٢٠ برأس كلا من هذه الاقسام رئيسة وكل قسمين أو ثلاثة أقسام منها تحت اشراف سيدة الاحرار المحظيات عند الخليفة وكان يمنحهن حبا ونقودا وهبات أخري تمكنهن من قضـاء حاجاتهن ويعطيهن أيضاً الملابس بنسبة جمال واخلاق ومركز كل منهن عنده . وتكون تلك الملابس عادة من نسيج قطنى يصنع فى البلاد السودانية ملون الحواشى أو من حرير لامع وشيلان صوف مستوردة من مصر وكان هو نفسه الذى يباشر توزيع هذه الاشياء عليهن وفى بعض الاحيان يوزعها أغاه الخاص

ولما كانت الجوهرات الفضية قد حرمها المهدى كن يتزين عادة بالخرز والصدف وكن يضفرن شعورهن . الا انه فى الايام الاخيرة لبست زوجات العظماء حلياً

من ذهب وفضة ولبست زوجة الخليفة الاصلية اكثر ما يتصوره انسان من حلي

وكان يشرف على حالة نسائه الصحية نسوة مخصوصات لا يتأخرن عن اخطاره بكل ما يحدث من الاصابات

ولما كان يريد اختيار واحدة منهن ليجتمع بها كان يستعرضهن جميعاً ويختار منهن من يشاء . وكان لا يختلط بنسائه الا أغواته ولا يحرسهن الا الملازمون السود وقلما كان يسمح لواحدة منهن ان تتصل بأي كائن كان من أهلها او أقاربها وقد تمضي السنة دون ان ترى الواحدة أي فرد من عائلتها .

وكان اسم زوجته الاولى « ساره » وهي من قبيلته شاركته السراء والضراء. وهي أم أولاد عثمان وخديجه . ومع انها أصبحت زوجة الخليفة الآن إلا أنها كانت تحافظ على مظاهرها وعاداتها الاصلية فكانت تعمل بنفسها أو تحت اشرافها طعامهم البسيط المكون من العصيدة وبعض الفراخ . ولما أراد الخليفة أن يترقي فى معيشته واطلع على أنواع الطعام المصرى واصناف المأكولات التركية وأراد ادخالها فى مطبخه تسبب عن ذلك شقاق بينه وبين زوجته كان سيقضى حتما الى فراقهما لو لا تداخل يعقوب وبعض أفراد اسرته

وكان عنده اغا رئيس يسمى « عبد القيوم » وكان هـذا هو المشرف على تمدين بيت الخليفة ويتناول من بيت المال المصاريف اللازمة ويتولى صرفها. كما كان تحت يديه الهدايا التى كان يقدمها الخليفة لمن يشاء يساعده في اداء هذه المهام رهط من الكتبة والمساعدين تحت امرته كلهم أغوات حيث ان الخليفة كما قدمت ما كان يسمح لغير الاغوات بالدنو من منزله

وأما لباس الخليفة فكان عبارة عن الجبة البيضاء وعلى رأسه عمامة من حرير وعلى كتفه حرام . وكان يلبس فى رجليه فى أول الامر صندلا الا انه غير ذلك بعد قليل واستبدله بلبس « بلغة» صفراء . وكان دائما يحمل فى يده اليسرى عندما يسير سيفا وفي يده اليمنى حربة يتوكأ عليها كأنها عصا . ويتبعه فى سيره ١٢ صبياً خدماً خصوصيين له . جلهم من الاحباش الذين أسرهم ابو انجه وزكي طومال . وكان واجبهم ان يكونوا دائما على مقربة منه ليكونوا رسله عندما يرى أى شيء . ولما يبلغ

الواحد منهم السابعة عشر من عمره يترك خدمة الخليفة الخصوصية ويندمج في حرس الخليفة النظامى . ويحل محله آخر من الصبيان .

وكان الخليفة يعتقد انه باستخدام صغار السن يكون دائما في مأمن من اذاعة أسراره وبطبيعة الحال لا يخطئه واحد مطلقا فى رأيه هذا .

واما فى داخل منزله فكان بطبيعة الحال يحل الاغوات محل هؤلاء الأولاد اذ كما قدمت ما كان يسمح لغيرهم بدخول داره

عرضت على الخليفة منذ ثلاث سنوات فكرة من جانب مشير به الحربيين فارتاح اليها وعزم على تنفيذها . وتتلخص هذه الفكرة في ضم افراد من حرس الخليفة الى صفوف الضباط فى الجيش العام . ولم يكد يعلن موافقته على ذلك الرأى حتى اختار بنفسه عددا من المجاهدين البارزين في جيش محمد احمد وزكي طومال

لم يقف الخليفة عند هذا بل أصدر أمره لامراء القبائل الغربية حتى يحضروا المئات من الجنود الجدد ليدمجوهم تحت الوية ضباطه ولكن تلك الاوامر لم تلق الطاعة الاجماعية من ناحية الامراء . وفى كل خطوة من خطواته التنظيمية الاخيرة كان معنيا باضطهاد الدنقليين والمصريين واخراجهم من دائرة حرسه لانه لم يكن يثق بهم ولم يمل اليهم

جد الخليفة فى سبيل ذلك الانشاء الحربي حتى تمكن من تكوين قوة تتراوح بين احد عشر الفا واثنى عشر الفا من الجند ونظم لذلك العدد الكبير اراضى تشبه القطائع سكنها أولئك الجنود مع نسائهم وهي على مقربة من مساكن الخليفة ودور ابنه وفي حدود السور الحربي الجديد

وقسمت هذه القوة الجديدة الى ثلاث كتائب يقودها على التتابع ابنه عثمان وأخوه هارون ابو محمد (الذى لا تزيد سنه على الثامنة عشرة) وابن عمه ابراهيم خليل . اما الثالث فلم تطل مدة قيادته كتيبته حيث حل محله رجل حربى حبشى اسمه رابح كان فى حاشية الخليفة في بيته الخاص . وانه لما يجب ذكره ان عثمان كان موضع احترام صفوف الجيش بقسميه الأعلى والأدنى فلقبه الجنود بمثل الخليفة .

وتنقسم كل كتيبة الى اجزاء منتظمة يحتوي كل منها على مئة جندى برأسهم ضابط ويلقب برأس المئة ولذلك الضابط مساعدون مدربون

اذا عدنا لأنواع الجنود وجدنا السود منهم مندمجين فى الاقسام المتفرعة من الكتائب وهم فى ذلك ليسوا الجنس العربى الحر ولكنهم تحت رقابة الامراء الذين يصدرون أوامرهم المطاعة لكل من الفريقين على حدة لان السود لا يخضعون للنظم العسكرية كما يخضع العرب

وانا لا نغالى في التقدير اذا قلنا ان جميع أولئك الجنود مسلحون ببنادق رمنجتون ولكننا نظهر امام الحقيقة اكثر دقة وصدقا اذا قلنا ان البنادق المذكورة محفوظة فى المخازن لافى أيدى الجنود حيث لا تسمح ادارة الجيش العليا باخراج البنادق من مكانها الا فى أعياد خاصة فى كل عام. اما فيما يختص بمرتب الجندي فانه لا يتجاوز نصف ريال درويشى شهريا مضافا اليه ثمن (١/٨) أردب من الذرة فى كل اسبوعين. وفي الحق لا يظفر الجندى باكثر من تلك الذرة. اما نصف الريال فيكاد يكون مرتبا اسميا

يجيء بعد ذلك ذكر مرتب كل من رأس المئة والامير وكل من المرتبين عال بطبيعة الحال اذا قسناه الى مرتب الجندى. هذا الى ان كلا منهما (رأس المئة والامير) يظفر بمنح متتالية من النساء والعبيد الخاضعين لنفوذ الخليفة

اذا انعمنا النظر فى مهمة الجنود والحرس وجدناها محصورة فى حماية شخص الخليفة واذن أولئك جميعاً مضطرون لمرافقته فيجولاته الحربية على ان يحميه حرسه الخاص أيام استعراض الجيش العام. ومن العجب ان يسير ذلك الحرس فى ركاب الخليفة الى أى مكان سار وفى أية بقعة نزل مما يدل على رغبته الشديدة في الاحتفاظ بحياته. ولما كان أمر الحرس كذلك اضطر الخليفة ان يقيم له ميداناً خاصاً فسيحاً امام منزله ليكون لاصقا به مدى حياته

يذكر القراء اننا أشرنا فى السطور السالفة الى كراهية الخليفة للمصريين واتساع دائرة الكراهية الىحد انه يمقت سماع انغامهم ومع ذلك كان يستصحب فى رحلاته افراداً ليسمعوه الانغام المصرية وغير المصرية الا انه لم يقلع عن فكرة

الكراهية فبدلا من سير اثنين من المصريين للنفخ فى البوق وتوقيع النغم كان يرافقه اثنان من السود . وكان الخليفة يلقب رأس المئة بكلمة «قبطان» ولقب الامير عنده «بكباشى» اما القائد «أمير الاى»

لا ينسى المتكلم عن الخليفة ان يقول ان عبدالله كان فى أكثر الاحايين يفتش ويراقب جنوده ليلا حتى يثق من بقاء كل رجل من رجاله الحربيين فى المكان الذى عينه له وقد كان أكبر همّ الخليفة موجها الى مركز طليعة الجيش . وازاء هذا التدقيق الشديد وتلك اليد القاسية كان رءوس المئة والامراء يدعون المرض فى كثير من الليالى فيذهبون سراً الى بيوتهم وفى نفوسهم غصص وآلام فيفرجون عنها باظهار استيائهم لذويهم

تشتمل أعمال الخليفة العامة على ترديد الصلوات الخمس يوميا فى الجامع الكبير فعند ما يبدو السحر يؤدى الخليفة صلاة الفجر وبعد ذلك يقرأ المحتشدون بعض الآيات القرآنية فى حضرة المهدى ويستغرق ترديد القرآن وبعض الصلوات الخاصة مدة تقرب من ساعة

وبعد ذلك يعود الخليفة الى مخدعه الخاص ولكنه فى بعض الاحايين يخالف ذلك الترتيب فى المسجد ليتحقق بنفسه مبلغ اذعان سكان أم درمان لاوامره الدينية الخاصة بحضور الصلوات الخمس حضوراً منظماً . اما صلاة الظهر فيقوم بها الخليفة حوالى الساعة الثانية مساء وبعد ساعتين أخريين يؤدى صلاة العصر التي يذكر فيها المصلون بعد تأديتها بعض أقوال دينية ولا تكاد تغرب الشمس حتى يؤدى الخليفة صلاة المغرب ثم ينتهى بعد ثلاث ساعات الى الصلاة الخامسة وهي صلاة العشاء . وفى كل من الصلوات الخمس يصلى الخليفة في محرابه القائم امام صفوف المصلين . وذلك المحراب بناء جميل رباعى الشكل مكون من أعمدة رفيعة مخروطة الشكل يعلو كلا منها طبقة حديدية صلبة ولا ريب في ان الخليفة يستطيع ان يشاهد كل ما يحيط بمحرابه وهو فى حالة هادئة ومكان أمين

هذا هو المحراب الذى يجلس وراءه مباشرة ابن الخليفة فالقضاة فاشخاص قلائل يختارهم الخليفة من اخصائه . اما الجنود الذين يحرسونه فيجلسون على جانبي

المحراب ويظل الجنود السود في الجوانب التى تحيط بالمسجد ملازمين سوراً ضخماً يفصل بين المسجد والميدان . والى جانب الضباط أماكن مخصصة للامراء وأغلب رجال القبائل الغربية وقد عينت لاؤلئك الجهة اليمنى . أما الناحية اليسرى فيجلس فيها بعض الاتباع وقليلون من العرب المنتمين الى الخليفة (على واد هلو) ثم انصار الجعليين والدنقليين . ووراء أولئك جميعا يجلس المصلون من المسلمين فى صفوف تتراوح بين عشرة واثنى عشر حتى اذا ما بدأ الخليفة تلاوة صلاته رددها المصلون

وعلى أية حال فان المصلين لايقلون عن بضعة آلاف . وبما أن الخليفة محدود الدائرة من موقفه بالمصلين فان الامراء الظاهرين وبعض ذوى النفوذ من رجال القبائل مضطرون الى معاونة الخليفة في تأدية الصلاة . ولئن كان فى صدر الخليفة غل أو حقد على شخص من الاشخاص فانه لايتردد فى الاقتصاص منه والزامه بحضور الصلوات الخمس فى المسجد بحيث يراقبه هو وغيره (من المغضوب عليهم من الخليفة) بواسطة أشخاص معينين لهذا الغرض

السبب ان الخليفة — في كل هذه التحرجات وذلك التقييد الدينى — مدفوع بعامل صيانة الدين ولكنه لايرمى الى ذلك فحسب بل يبغي الى جانب ذلك الاحتفاظ بسيادته ونفوذه على اتباعه جميعاً . وانه لواجب علينا فى هذا الصدد ان نقول بان الكثيرين من المصلين يسكنون فى جهات بعيدة عن المسجد الكبير فمن الشاق عليهم ان يذهبوا من منازلهم الى المسجد ويعودوا اليه خمس مرات يوميا وكل مايستطيعون عمله هو ان يجتمع بعض الناس فى منازل أصدقائهم وهذا مايمقته الخليفة مقتاً شديداً لأنه يخشى ما يسمونه « حياة الجماعة » وقد كان الخليفة عبد الله على اعتقاد ثابت في ان هذه الاجتماعات المذكورة البعيدة عن رقابته لا بد ان تنتهى الى المسامرات والتكلم في شئون الجماعات ومثل ذلك الكلام يصل الى بحث أعمال وشئون الخليفة فهذا ينقدها باللوم والتجريح وذلك يرضي عنها خائفا وآخر يمتدحها فلاعجب ان نرى من الخليفة جهداً شديداً مبذولا فى سبيل تأييد فكرة اجتماع المسلمين تحت رقابته هو وحرسه الخاص

نرى من الاقوال السابقة الخاصة باقامة الفرائض الدينية ان الخليفة عبدالله أول

من يصلي بالناس في المسجد الكبير ولكننا لا ننسى أن كل انسان معرض للمرض الذي يحول دون قيامه بما تعود تأديته يوميا واذن الخليفة عرضة لذلك المرض أو لأيٍّ عذر طارىء يمنعه من السير خمس مرات يوميا الى المسجد الكبير وبالفعل تغيب عبد الله في بعض الايام عن القيام بعمله الديني الكبير فكان يخلفه في الامامة أحد القضاة او ضابط من قبيلة تكروري على ان يكون ذلك الضابط مشهوراً بين الناس بصلاحه وتقواه . وعلى أي حال لا يسمح مطلقا للامام الذي يقوم بعمل الخليفة ان يقف في المحراب بل يكون في قيادته الدينية قائما في اول صف مجاور لذلك المحراب العظيم . ومع ان القانون الديني يحتم على الخليفة (علي واد حلو) ان يمثل الخليفة عبد الله في تأدية الفرائض الدينية اثناء غيابه (عبدالله) فان(علي وادحلو) لم يكن يمثله في أغلب الاحايين

كان الخليفة عبد الله في حياته اليومية يتلقى بين صلاة العصر وصلاة المغرب عدة تقارير ويستمع الانباء الخاصة بشئون الامة ويطلع على الخطابات الواردة له ويقابل القضاة والامراء الذين سمح لهم الخليفة قبل يوم المقابلة بالتحدث معه والى جانب اولئك كان يسمح الخليفة في ذلك الميعاد من كل يوم بمقابلة الاشخاص الاخصاء الذين يرغب التحدث اليهم

أما مراسلاته البريدية الخاصةفمحدودةوسائرة في سبيل طبيعية وهو يحتفظلذلك بما يتراوح بين ستين وثمانين جملا لحمل البريد العام على أن يتولى رقابته أشخاص مخصوصون بصفة عمال بريد . ولا يذهبن تصور القارىء الى أن اولئك محصورو العمل في بلد الخليفة وانما هم موزعون في جميع انحاء امبراطوريته حيث يتلقون أوامره وتعلياته فينفذونها عاجلا

ومما يذكر في هذا الصدد ان ابراهيم عدلان اقترح عليه انشاء محطات خاصة للبريد على طول الخطوط الرئيسية المعروفة .

ولكن الخليفة رفض قبول هذا الاقتراح بشيء من الضجر بعد أن قال لابراهيم بانه عني قبل كل شيء بالاوامر الشفوية التي يلقيها (الخليفة) على الاخصاء من رجال البريد الذين لم يتأخروا مطلقا في تنفيذ أوامره باخلاص وامانة علاوة على أن الخليفة

كان يتلقى من اولئك المقربين اليه تقارير وافية عن أعمال الحكام التابعين له

لم يقتصر أمر البريد الخاص على الخليفة بل تعداه الى الامراء كل فى منطقته حيث كان للامير رجال مخصوصون وعدد معين من الجمال لحمل البريد مع تعليمات خاصة لاولئك المتجهين الى أم درمان . ومهما يكن الامر فلم تكن هناك طريقة المراسلات البريدية العامة أي للمراسلات بين الاشخاص من عامة الشعب السوداني ولكن على رغم ذلك كان الحمالون يحملون رسائل من بلد الى آخر بطريقة سرية .

لم يكن الخليفة فى جميع أيام زعامته واثقا بغريب عن دائرته فدعاه ذلك الى التشديد على الرجال المحيطين به حتى انه لم تكن تصدر رسالة من أحدهم الى الخارج الا بعد أن تمر على كاتم سر الخليفة . ومما يذكر عن الخليفة عبد الله انه كان يجهل القراءة والكتابة فحدا به ذلك الى الشك فى كثير من الكتابات الواردة من الخارج الى الامراء القريبين منه وتبعا لذلك كان يصدر أوامره المشددة بمرور الرسائل على سكرتيريه الخصوصيين ومن أهم اولئك في نظره اثنان هما قاسم ومدثر الذين كانا مضطرين دائما لشرح محتويات الخطابات لسيدهما الخليفة على ان الخطابات الواردة لمركز الخلافة ذاته لا يرد عليها السكرتيرون من ذواتهم بل يتلقون أوامر الخليفة فى كل مايكتبونه . ولم يكن جهل الخليفة القراءة والكتابه مانعا له من الوصول لبغيته بواسطة المفتشين الذين يراقبون تلك الردود البريدية

اما هذان السكرتيران فقد عاشا مع الخليفه حياة تعسة مملوءة بالأوامر التى تنم عن ريبة عبد الله فيهما وقد كان ذانك الرجلان على ثقة تامة من أن الخليفة لن يغتفر لهما أصغر هفوة والويل كل الويل لاحدهما أو لاثنيهما فى حالة اذاعة سر من أسرار الخليفة حتى لو كانت تلك الاذاعة غير مقصودة بسوء نية من جانب السكرتيرين ولم يكن الخليفة يقصر فى حالة من تلك الحالات عن معاملة ذينك الرجلين بما عامل به الاحمدى وأشقاءه الاربعة الذين نفذ فيهم حكم الاعدام بعد أن اتهموا باتصالهم بالاشراف .

اذا خلا الخليفة الى نفسه ونزع الى شيء من الراحة أو التحدث للناس فانه لم يكن يرتاح لشيء أكثر من التحدث مع القضاة الذين لم يكونوا — في أغلب الاحيان — غير آلات صماء فى يديه بحيث لم يكونوا يترددون في اصدار أقسى

الاحكام الاستبدادية ضد من يمقتهم الخليفة أو يرتاب فيهم . فانك كنت ترى اولئك القضاة يجلسون امام الخليفة في وقت راحته في شكل نصف دائرة على الارض العارية من كل فراش . ولم يكن يتجاسر أحـد اولئك على رفع رأسه امام الخليفة فاذا جلسوا أرهفوا آذانهم وصمتوا انتظاراً لأوامر الخليفة المطاعة . وقد كانت الاوامر المذكورة فى أغلب الاحيان تلقى بصوت خافت هادىء . والعجيب فى الامر أنهم لم يكونوا بحال من الاحوال يستطيعون رفع أصواتهم وبطبيعة الحال لم يتوقع شخص معارضة أو اقتراحا من جانب أىّ قاض وسواء أكان الخليفة مصيبا فى رأيه أم غير مصيب فان القاضى ملزم بالاذعان للأمر والتأمين على ماسمع

الى جانب اولئك القضاه كان الخليفة فى كثير من الاحايين يجتمع بالأمراء وبعض الاشخاص ذوى النفوذ الموثوق فيهم عنـده . وكان الخليفة على وجه عام يقف على شئون الرعية وأحوال البلاد بواسطة اولئك الاشخاص القريبين ومما يذكر عن عبد الله انه كان ماهراً في بث الفتنة بين اولئك المقربين منه حتى لاتتم الصلة بينهم وحتى يصل كل منهم الى اذاعة ماعنده اذاعة دقيقة لمولاه الخليفة

وكانت مناقشات الخليفة ومباحثاته عقب صلاة العشاء كل يوم، وتلك المباحثات الخاصة مع يعقوب وبعض اقربائه الاقربين ، وكانت تستغرق مباحثاتهم فى كثير من الأحيان بضع ساعات . وفى أيام خاصة تظل الى مابعد منتصف الليل . وعلى وجه عام كانت الاجتماعات العـائلية البحتة خاصة بالبحث فى أنجع الطرق للتخلص من الاشخاص غير المرغوب فى وجودهم أمام الخليفـة بصفة خاصة وامام ابنه وبعض اقربائه بصفة عامة . وانه لما يجدر بنا ذكره ان اولئك الاشخاص كانوا لايتطلعون — فى ذلك الحقد على المكروهين — الى مصالح عامة بل الى ما قد ينجم عنه ضعف لقواهم أو التقليل من أثرهم البارز فى الدولة

كان الخليفة في كثير من الاحيان يقوم برحلات صغيرة داخل المدينة أوفي الجهات المجاورة على انه فى ايام خاصة من الشهر كان يقوم ببعض زيارات لاخصائه في أم درمان . وليس هناك مايدعو الى بذل جهد من الشعب خارج أوداخل المنازل لتعرف ميعاد مرور الخليفة فان الاصوات المرتفعة من الحشم ودق الطبول والنفخ فى الابواق

امام ركب الخليفة ، كل ذلك كاف لأن يسمع الناس ذلك الصوت الخاص على بعد مئات من الامتار فيهرع السكان لتقديم التحية لمولاهم الكبير

كان الى جوار بيت الخليفة مكان فسيح للحرس ودار مسقوفة بقش يظل فيها الخيل بعد أن ينظفها الحرس فاذا ما قال الخليفة انه يعتزم الجولان فى المدينة أسرع حراسه الى خيولهم وأسرجوها . فاذا ظهر الخليفة في رحبة داره الخارجية خرج الضباط والحرس الخاص من كل النواحى المحيطة وأسرعوا لحماية سيدهم . وكان النظام المتبع فى تلك الرحلة أن يتقدم الضباط وحرس الخليفة ثم يتبعهم عبد الله ممتطياً جواده الخاص وحوله من النواحى الاربع دائرة من الحرس الموثوق فى اخلاصهم له . وانك لتكاد تظن الناس الخارجين من منازلهم لمشاهدة الخليفة مجموعات متتالية من الكتائب الحربية . أما الجنود فكل فصيلة تسير على انفراد مكونة من اثنى عشر متجاورين . ووراء اولئك جميعاً يسير الموكب اللاحق والمؤلف من الامراء والاخصاء على ظهور الخيل ثم آخرون من الاقرباء

نضيف الى ذلك ان رجلا عربياً مسلماً اسمه « ابو دخيه » كان يجاور الخليفة الى يساره وكل ما كان لهذا الرجل من شرف هو ان يرفع الخليفة الى جواده الخاص ثم يظل ملازما له أثناء نزوله من الجواد . هذا الى ان الذى كان يشغل الناحية اليمنى من الخليفة أثناء سير موكبه هو كبير الخصيان ورئيس فرقة العبيد في حاشية الخليفة

كان أمام الخليفة مباشرة فى كل رحلة من رحلاته ستة من النافخين في الابواق ايذاناً بمرور الركب العظيم . أما السائرون وراء جواد الخليفة مباشرة فهم الضاربون على طبول خفيفة ترمي الى تحسين صوت البوق فى أذني الخليفة الذى كان شديد الميل لسماع الانغام . ومن اختصاص الاخيرين (الضاربين على الطبول) اصدار اشارات معروفة في المدينة لسير الركب او وقوفه تبعاً لأوامر ورغبات الخليفة . فاذا ما انتهينا من اولئك جاء صف الحشم الخصوصى الذى كان يحمل أفراده محافظ جلدية فيها أوراق دينية وعالمية (خاصة بشئون الدولة)

بعد أن ننتهى من صف القارعين على الطبول قرعا خفيفاً نصل الى صفوف

خصيان الخليفة وصغار خدمه وبين اولئك من يحمل آنيــة كبيرة فيها ماء للوضوء ويحمل غيره سجادة فاخرة لصلاة عبد الله ويسير الآخرون حاملين الرماح . وفى بعض الاحايين يتقــدم الموكب أو يخلفه ركب موســيقى مكون من خمسين سودانياً تتكون آلاتهم الموسـيقية من مستخرجات قرون الوعول وتغطي الجلود طبولهــم المصنوعة من تجاويف جذوع الاشجار الضخمة . وانه لمن الميسور لك أن تميز أنغام أولئك السودانيين بما فيها من تنافر قبيح وبما اشتهرت به من ابتعاد عن كل توقيع مطرب

تعود الخليفة القيام برحلاته بعد صلاة الظهر على أن يرجع الى داره قبل الغروب وفى أثناء كل من الرحلات المذكورة يبذل الضباط أقصي مجهوداتهــم لاظهار شجاعتهم وفروسيتهم أمام مولاهم الخليفة . فمن أمثلة تلك الشجاعة تقدم اربعة من الضباط متجاورين الى ناحية الخليفة بحيث يرمون رماحهم المدببة فى الهواء ويقفزون من صهوات جيادهم الى البقعة الممتدة امام الخليفة ليحيوه واقفين فاذا ما انتهوا من ذلك أسرعوا لركوب جيــادهم وعادوا الى الصف الذى كانوا فيه دون اخلال بنظام الموكب

كان الخليفة في السنوات الاولى من حكمه يحضر الى ساحة الاستعراض العسكرية كل يوم جمعة حيث تجرى حفلة عرض الجنود على اختلاف درجاتهم ولكنه اكتفى فى سنى حكمه الاخيرة باستعراض الجيش أربع مرات فى السنة هى على التعاقب يوم ذكري الميــلاد النبوى ويوم المعراج وأول أيام عيــد الفطر ثم يوم العيد الاضحى . وكان مما يذكر عن عناية الخليفة عبد الله بحفلة العيــد الاضحى انه كان يجمع فرق جميع البلاد المجاورة مع جنود دارفور والقضارف للقيام بالاســتعراض العام وسط دق الطبول والنفخ فى الأبواق . اما الصــلاة فى ذلك اليوم فكانت تقدم منه ومن جنوده الى الله الرحمن فى ساحة الاستعراض حيث يصــلى عبد الله اماما بالجند وهو واقف في غرفة مدببة الحواجز — كأنما هو فى محراب المسجد الكبير — وفى ذلك الحين يحيط به خارج غرفته كثير من ضباطه الاخصاء وبعض اعيان السودان المتمتعين بثقة الخليفة وحبه . اما بقية الضباط والجند وعامة الجمهور فيوزعون أنفسهم فى صفوف

متلاصقة فاذا ما تمت الصلاة صعد عبد الله الى منبر خشبي لالقاء خطبة يستظهرها بعد أن يقرأها له من كتبها من السكرتيرين . وفي نهاية الحفلة يطلق بعض الضباط رصاص بنادقهم سبع مرات إيذاناً بانتهاء الاحتفال المقدس . وعقب ذلك يتقدم واحد منهم لذبح خراف الضحية لارسالها الى السوق العام بواسطة الجنود وتوزيعها صدقة على الفقراء . ولكننا لا ننسى ذكر ما كانت عليه شئون الدولة من الفقر والاضطراب بحيث لم يكن يتسنى ذبح العدد الكافى من الخراف لتقديمها للفقراء فكان ذلك داعياً الى استعاضة الفقراء عن لحم الخراف بقصاع الثريد

اعتاد الخليفة تخصيص اليوم الاول من أيام العيد الاضحي لذلك الاستعراض المصحوب بتأدية فريضة الشكر المقدسة للعزة الالهية ازاء ما أسبغته على السودان من خير طول العام . ولم تكن تجري في ذلك اليوم أية معاملة رسمية . أما المقابلات « التشريفات » فكانت فى الايام الثلاثة التالية لليوم الاول حيث يسير الى دار خلافة عبد الله قبل مشرق الشمس في كل يوم من الايام الثلاثة أمراء أم درمان والجهات المجاورة حاملين راياتهم ومن خلفهم أتباعهم المتفائلون خيراً بالعيد فاذا جمع كل أمير أتباعه سار بهم الى الناحية المعدة له في ساحة الاحتفال (وهى عبارة عن أرض رملية تتخللها أحجار صغيرة) ومن تلك الجهة كانوا يسيرون الى دار عبد الله الا اذا بدت الرغبة من الخليفة في التوجه الى دار الاستعراض . حتى لا يتعب الامراء وأتباعهم وصفوف الجند . وفى كل حال من تلك الاحوال يعيد الجنود السير الى حيث الخليفة لتقديم التحية المهنئين بالعيد وهم في سيرهم هذا يولون وجههم شطر المشرق

أما يعقوب ابن الخليفة وصاحب اكبر مكانة فى السودان بعد أبيه فكان يحمل العلم الرئيسى وهو عبارة عن قطعة كبيرة منتظمة الشكل من القماش الاسود توضع مباشرة أمام الحاجز المدبب القوائم الذى اعتاد الخليفة الجلوس فيه فى ساحة الاستعراض . على ان الخط المستقيم الواصل بين العلم والحاجز يبلغ امتداده اربعمائة قدم . وبعد أن يتركز لواء يعقوب يضع الامراء المختلفون على جانبيه راياتهم المميزة لقبائلهم وقد يكون اكبر بيرق ظاهر بعد لواء يعقوب بيرق الخليفة على

وادهلو الذي يرتكز في البقعة الشمالية من الميدان ممتازا بلونه الاخضر وبقيام بعض ألوية على جانبيه . هذا الى أن الناحيتين اليسرى واليمنى من مركز الجيش معدتان لطوائف خاصة ففي الاولى يتوزع راكبو الخيول والجمال وفي الثانية يقف ضاربو النار الذين يتكونون من بعض الجهادين وأتباع بعض الامراء . على أن الخليفة لا يسمح مطلقا لضاربي النار أولئك بحمل بنادقهم الا في هذه الايام الثلاثة من السنة

لا تكاد الشمس تغرب فى كل يوم من الايام المذكورة المقدسة عند المسلمين حتى يخرج الخليفة عبدالله من تلك الغرفة المدببة القوائم فيركب جواده يحيط به ضباطه وحرسه الخاص . وفى هذه الاثناء يسير الجيش بصفوفه الكاملة أمام الخليفة حيث يوزع الجيب والعمائم على المرضى عنهم من رجاله

كان المتبع أن يمتطى الخليفة صهوة جواده فى ذلك الميدان ولكنه فى بعض الاوقات كان ينزع الى ركوب جمل خاص مزخرفة حمائله . وقد تخطى هذا التقليد مرة واحدة — على ما أذكر — فى سنى حكمه فركب عربة أسرها السودانيون فى الخرطوم من حاكم عام سابق وبقيت بعد ذلك ملكا للمسلمين ومحفوظة فى بيت المال. وبما ان ركوب هذه العربة كان أمراً شاذاً غريبا فلنذكر طريقة مرور الخليفة بالناس وهو فيها فنقول : انها خرجت من بيت المال فكانت أعجوبة لناظريها من الدراويش وكان يجرها جوادان وتسير بخطى متئدة جدا . والداعى لذلك خوف الخليفة من انقلاب العربة فى حالة عدو الجوادين وليس ذلك غريبا على من لم يعتد غير ركوب الخيل والجمال . ومهما يكن الامر فان الخليفة لم يرتح الى فكرة ركوب العربة فارجعت الى بيت المال واستمر على عادته المألوفة فى المواكب والرحلات وهى الخروج على ظهر الجواد مباشرة من المسجد الكبير الى الطريق القريبة حيث راية يعقوب السوداء. فاذا ما وصل اليها تأمل فيها وأظهر احترامه لقاءها . وبعد الانتهاء من تقديم التحية للراية اليعقوبية يولى عبدالله وجهه شطر الحاجز المدبب القوائم حيث يجد الى جانبه مكانا مسقفا مصنوعا من سيقان الاشجار المتراصة بعضها الى بعض والمغطاة بحصائر النخيل فاذا ما انتهى الى ذلك المكان نزل عن جواده واستند الى عنجريب حيث يحيط به القضاة والمقربون اليه

اقتضت التقاليد الدينية في السودان أيام الأعياد الكبرى خروج الخليفة من داره الى الناحية الغربية من المدينة حتى يصل الى ثكنات جنوده ومن الامور المقررة في مقابلات العيد وقوف الجنود حاملين دروعا مغطاة من الطرزين الاوربي والاسيوى وعلى رءوسهم خوذات ثقيلة وأغطية قطنية غريبة الشكل من مختلف الالوان وأعظم ما يميز هذه الأغطية لفائف مخصوصة شبيهة بالعمائم

أما الخيول فمسرحة بأقمشة مبطنة وقد يكون هناك شبه بين تلك الاغطية المبطنة وبين ما كان يضعه الفرسان على خيولهم وقت المبارزة فى العصور القديمة . ولا نكون مغالين اذا قلنا ان المتفرج يوم استعراض الجند على خيولهم يظن انه في حفلة من حفلات القرون الوسطى أو ما قبلها

عندما تنتهى « التشريفات » بنهاية اليوم الثالث من أيام العيد تعود الجنود مع ضباطهم الى ثكناتهم في البلاد المجاورة

***

سأعرض على القراء الآن صورة موجزة للرأي والاغراض السياسية التى كان ينزع اليها الخليفة عبدالله . فأكرر ما قلته أكثر من مرة بان المهدي عندما أعلن نفسه هاديا للمسلمين فى السودان منح حق الخلافة بعده الى ثلاثة أشخاص فى السودان هم عبدالله وعلى واد حلو ومحمد شريف على أن يخلفه بعد موته أولهم ثم يعقب الاثنان الآخران عبدالله بعد موته في حالة بقائهما على قيد الحياة بعده

نفذ القضاء فى المهدى فتولى الخلافة بعد موته أول الثلاثه عبدالله و لكن الخليفة الجديد (عبدالله) لم يفتأ — من اللحظة التى تولى فيها الحكم — يدس للاثنين الآخرين باذلا جهده فى تقوية نفوذه واعلاء كلمته وجعل الخلافة وراثية فى أسرته فلم يرض ذلك الثوريين من طبقة الاشراف الذين عدوا أنفسهم اكبر السودانيين قدراً وذلك راجع الى صلتهم بالمهدي . ومع ذلك قدموا التحية لعبد الله خوفا من السقوط الذى يصيبهم من جراء اشهار العداء للخليفة . الا أن عبدالله كان واقفاً على حقيقة نيات منافسيه فضم الى حاشيته الكثير من فصائل السودانيين التابعين قبلا لعلى واد حلو ومحمد شريف حتى يعينوه باخلاص له على مصادمة منازعيه فى الخلافة.

ليس بدعا أن يشاهد السياسي كل ذلك الجزع من جانب عبدالله فانه غريب عن أم درمان ولم يكن في حياته سوى رجل غامض الأسرار من قبيلة غريبة واذن هو غريب جدا عن البلاد الداخلية وكان — بذكائه وبما يصل اليه من تقارير أتباعه — على ثقة أنه لن يستطيع الاستناد الى تأييد الجعليين والدنقليين وسكان الجزيرة وغيرهم من قبائل وادي النيل واذن اضطر لارسال مندوبين سريين الى القبائل الغربية في الناحية الغربية ليغريهم بالحج الى قبر المهدي والمهاجرة الى وادي النيل

سعي مندوبو عبدالله ورسله في الجهات المجاورة لأم درمان سعيا حثيثا في سبيل الوصول الى اغراء الناس بالمهاجرة الى قبر المهدي والبقاء في الارض التي تقل جثمانه فدعوا الناس الى التمتع بخيرات الارض الجديدة التي يزعمون انها ذاكرين لهم بانهم عبيد الله المختارون وأنه من مصلحة اولئك المدعوين أن يذهبوا لامتلاك الارض الجديدة التي يتمتع سكانها الاصليون بثروة كبرى من مال وماشية وعبيد . وقد ذهب المندوبون في اغرائهم سكان الجهات المجاورة الى حدان وعدوهم بامتلاك كل مافي الارض الجديدة

أثر أولئك المندوبون بدعوتهم الحماسية تأثيراً منتجاً في نفوس السذج فرحل الكثيرون من أفراد القبائل المختلفة الى أم درمان وكانوا في ذلك مدفوعين برغبة خالصة في التمتع بالغني الذي سمعوا عنه . الا أن عدد القادمين لم يكن كافياً لتعمير واغناء أم درمان فعمد الخليفة عبدالله الى اصدار الاوامر لاميرى دارفور وكردوفان حتى ينفذا أوامره بالقوة وتبعاً لذلك تدفق سيل المهاجرين سواءاً كانوا طائعين أم مرغمين وانتهي الامر الى نقص عددهم بعد أن سمعوا الشيء الكثير عن الشدة التي يقاسيها من سبقوهم الى أم درمان

كانت النتيجة المنطقية لذلك احاطة الخليفة بالجمع الغفير من قبائل الرحل الغربيين عنه وعن أتباعه على أن اولئك المهاجرين الجدد لم يألوا جهداً في اقصاء أصحاب الحق الأصليين واعداد أنفسهم لان يكونوا الاسياد المسموعة أوامرهم

لم يمر زمن على اولئك المهاجرين لام درمان حتى امتلأت بهم وظائف الحكومة الرئيسية وكان أصحاب القسم الاكبر من هذه الغنيمة رجال التعايشي . وانك لتكاد

ترى جميع الامراء السابقين في جهة مجهولة بحيث لم تسمع لاحدهم كلمة بعد ذلك وقد تستثني من ذلك الحكم الامير عثمان دجنه. ويرجع ذلك الى أن قبائل العرب الشرقية التي يحكمها عثمان يتكلم أفرادها بلهجة لا يعرفها عرب القبائل الغربية . وعلاوة على ذلك أصبح الكثيرون من أفراد تلك القبائل خاضعين للنفوذين المصري والايطالى وليس من سبب الى اتصال القلائل الباقين بعثمان دجنة سوى كونه واحداً منهم . وعلى أية حال فان قبيلة التعايشى تمكنت من الحصول على السلطان والنفوذ الكاملين فى جميع الجهات التى يضرب رجالهم بارحلهم فى أرضها . ولم يكن لهم غرض سوى ملء جيوبهم بالايراد الضئيل التي يحصل عليه السودان الفقير

مما يذكر عن أوامر الخليفة عبد الله قبل عام ١٨٩٥ أنه اعطي تعلياته لاميرى دنقله وبربر باضعاف نفوذ وقوة رجال مديريتيهما الى أقصى حدود الضعف فدعا ذلك الى تجريد السكان من أسلحتهم النارية وجمع ما لديهم من معدات القتال بحيث ينقص مقدار الموجود من تلك الاسلحة الى حد لا يخشي معه أي خطر .

لم يكتف الخليفة بذلك بل أصدر أمراً جديداً بالتشديد في معاملة رجال توشكو وطوكر فأغرى المأمورين فى تشديدهم بحيث قتلوا كثيرين من الجعليين والدناقلة ورحلوا آخرين الى دارفور والقلابات رغبة فى استئصالهم نهائياً في تينك الناحيتين . واذن استطاع الخليفة اتقاء شر سكان تلك النواحي وضمن التغلب على أية قوة معارضة هناك .

تنطبق مثل هذه المعاملة على سكان الجزيرة الذين أقصوا بأمر الخليفة الى جهات نائية من السودان أو الذين اضطروا الى الحضور لأم درمان هم وأفراد أسرهم حيث قاسوا الامرّين من الاضطهاد والفاقة . ومما زاد في اثقال كواهلهم صدور الامر بتسليم مايزيد عن نصف محصول أراضيهم الزراعية التى كانت موزعة علي عرب القبائل الغربية ومازال الخليفة مستمراً في التضييق على أولئك حتي توصل عام ١٨٩٠ الى تفريق الاراضي على أقربائه وأصحاب الحظوة عنده . وقد بلغ الضيق باصحاب الارض الاصليين حداً التزموا عنده حراثة الارض وتفليحها لاسيادهم الجدد الذين وزعوا على أراضيهم كل مايملكون من خدم وعبيد وماشية

نجم عن ذلك التعسف اهمال أرض الجزيرة القابلة للانتاج الوافر فبعد ان كانت أوفر أرض السودان غلةوأ كثرها سكانا تضاءل هذان الخيران وكان ذلك التضاؤل مصحوبا بهرج ومرج سادا جميع المناطق التى كان الخليفة مضطراً فيها الى الانحياز لناحية الاهالى الذين عوملوا معاملة سيئة ونزل بهم العسف وحاق بهم الطغيان الى حد لا يكاد يصدقه العقل

أكرر الآن ماقلته سابقا عن تفضيل أفراد القبائل المنتمية الى الخليفة عبد الله عن جميع القبائل الأخرى فى جميع الاحوال والظروف فانهم لا يتمتعون بأسمى الوظائف الحكومية والمراتب الشعبية فحسب بل يتمتعون بما هو أسمى من ذلك ماديا فان القسم الاكبر من الاموال والغنائم التى ترد الى بيت المال من مديريات دارفور والقلابات والرجاف يصل الى أيدي أولئك الافراد ولا يجد من يحاسبهم عليه . ومن غريب أمر أولئك الطامعين انهم — رغبة فى ملء جيوبهم بأكبر قيمة من المال — دعوا الخليفة الي فرض ضريبة خاصة على الخيول غير مبال بالشكوى العامة من جانب السكان الاصليين فلا ريب اذن في حصول فرقته على نصيب الأسد من الغنيمة

اشتهر الخليفة عبدالله أيام حكمه بتوسيع نفوذه بواسطة الدسائس وبث الفتن فلا يكاد يتصل به زعماء قبائل غريبة عنه حتى ينشر الفتنة بينهم ليقوي جانبه ويضعفهم ومن أمثلة ذلك أنه عند هزيمة وموت النجومي (الذي كان تابعا للخليفة الشريف الذى سحب منه عبد الله كل نفوذ على غيره من الامراء) وضع عبدالله فلول الجيش المهزوم تحت قيادة الامير يونس وبدلا من رجال الجيش المقتولين عين عبد الله افراداً من الجعليين ورجال أم درمان حتى يكون واثقا من حصوله على نفوذ جديد .

قد وضع الخليفة اولئك في بادىء الامر تحت إمرة مواطنهم بدوى وادالعريق ولكن بدلا من ارسالهم الى دنقلة بعث بهم عبد الله الى القضارف ومما يذكر عن سوء نية الخليفة عبد الله نحوهم ان عذرا قهريا منعهم عن الرحيل الى القضارف فى الميعاد المعين فأسرع (عبدالله) الى اتهامهم بالعصيان ثم اصدر أمره بنفي بدوى وستة من أمرائه الى الرجاف واحلال ستة أخرين بدلا منه تحت إمرة حامد وادعلى ابن عم الخليفة

خلق الانسان وفى طبيعته البشرية نزوع الى طلب الوقاية من القويّ

ورغبته فى التمتع بسند الاقوى فليس بدعا أن نرى حركة جديدة فى صفوف أتباع الامراء لان اكثرهم فضلوا السير تحت لواء الخليفة مباشرة أو تحت أسرة اخيه يعقوب حتي ان أشياع علي وادهلو أنفسهم اسرعوا الى تنفيذ هذه الرغبة ويجمل بى فى هذا الصدد أن اذكر شيئا عن سعي حامد واد جار النبي الذي كان عاملا رئيسا فى هدم التباهين. كان حامد هذا منتميا لقبيلة حسابات التى يرأسها على واد هلو وبما أن حامدا هذا كان على بينة مما يجرى وراغبا فى تنفيذ فكرة الاستناد الى ذراع الاقوي لم يأل جهدا في بث فكرة انضواء اتباعه تحت لواء يعقوب ولكنه (حامد) كان فى الوقت نفسه قصير النظر غير مبال بما يجرى ازاء تصريحاته فافضي برغبته الى أقرباء على واد هلو ولم يكتف بذلك بل تجاوزها الى التصريح فى اجتماع عام بان الذى سيخلف الخليفة عبد الله بعد موته هو أخوه يعقوب أو ابنه الخليفة عثمان. فاذا ما استقر الامر بين يدي يعقوب أو انتهت السطوة الى عثمان تلاشى نفوذ على واد هلو وأصبح رجلا عاديا لا شأن له

عند ما سمع الواقفون هذه التصريحات العلنية أجابه بعضهم بأن المهدى أوصى الخليفة عبد الله قبل موته (المهدى) بأن يخلفه فى الخلافة على واد هلو فقال له حامد بأن الاحوال تغيرت وان عبد الله من القوة بحيث لا يبالى بوصية المهدى الذى سبقه

لم يكد حامد يذكر أقواله هـذه حتى أسرع بعض المشائين بالنميمة الى تبليغ الحادث الى على واد هلو فاتهـم الاخير حامداً بتهمة التحريض وبث الفتنة وعند ما قدم حامد الى القاضى وسمع الاخـير شهادة الشهود لم يبق مجال للشك فى صحة ما أدلى به مخبرو على فانتهى الحادث الى تأثيم حامد بتهـمة الزندقة لانه شك فى قدسية أوامر المهدى وتعاليمه ومع انه كان من المتوقع جداً ان يتدخل الخليفة عبدالله لنصرة حامد وتبرئة ساحتـه لم يستطع الخليفه اظهار تدخله علنا فان ذلك التـدخل دليل قاطع على جلاء رغبة عبد الله فى حرمان علي واد هلو من الخلافة بعده واثبات جديد لصحة ما قاله حامد ومع ذلك لم تكن الحقيقة خافية عن الشعب السوداني عموما وسكان أم درمان خصوصا .

قضى الامر وصدر حكم القضاة باعدام حامد ورغم كون عبد الله بذل أقصى

ما في وسعه لحمل علي واد هلو على ارجاء ميعاد التنفيذ فان ذلك لم يخفف من غلواء علي وشدة حنقه وقد عرف واد هلو ان تنفيذ الحكم فى حامد انتقام مباشر من الخليفة عبدالله . واذن ظفر علي واد هلو بتحقيق رغبته فنفذ حكم الاعدام في حامد جار النبي علنا في ميدان السوق الكبير بعد ان ألصقت به تهمة الزندقة والتحريض على الثورة

لاريب فى ان ذلك التنفيذ مؤلم جداً للخليفة ولأخيه يعقوب وبما أن خروج الخليفة علناً على الحكم دليل على رفضه الاحكام التى ضد الزنادقة كان من المنتظر ان يحرض الخليفة اتباعه سراً على اظهار سخطهم من ذلك الحكم القاسي وهذا وقع فعلا فقد وصلت الاوامر من يعقوب الى رجال جميع القبائل الخاضعة له وصدرت الاوامر من الخليفة الى اتباعه المقربين بان يظهروا جميعهم سخطهم العام وامتعاضهم من تنفيذ الحكم وسبيل اظهار ذلك الشعور هو الامتناع عن حضور التنفيذ

كان الخليفة في أي نزاع قائم بينه وبين خصومه يعتمد أولا وأخيراً على جنوده فان أولئك كافون جداً لارغام أية قوة معارضة له فى الداخل مهما كان شأنها سواءاً أكانت هذه القوة فيأم دمارن ذاتها أم فى أية ناحية أخرى من الجهات المجاورة . واذن هو السيد المتسلط صاحب القوة التى لا تنازع فى داخل السودان . اما اذا خرج الأمر عن الدائرة الداخلية فهو عاجز عن صد جميع الغارات التي تبدو طلائعها من الخارج فان قواد جيشه ليسوا من القوة والدربة بحيث يستطيعون مهاجمة قوة خارجية هجوما يكفل لهم النصر على اعدائهم كما ان رجال جيشه ليسوا من الولاء والوفاء . فى آخر سني حكمه ــ بما كان يعتقده الخليفة في أول ايامه ويرجع ذلك الى انطفاء جذوة الحماسة الشديدة الاولى وهم الى جانب ذلك على قليل من الثقة او الايمان بالقضية التي يحاربون من أجلها واخطر من هذا وذلك تسرب الشك الى رؤوس المحاربين فى قدرة الخليفة واتباعه على مناوأة أية قوة خارجية ترمى الى احتلال السودان

يرغب القراء بطبيعة الحال بعد ان اطلعوا على الكثير من تصرفات الخليفة الدينية والسياسية ان يقفوا على ما لديه من القوى الحربية ولئن كان من العسير

ذكر تقدير دقيق عن رجال الحرب السودانيين ومعداتهم فلا مانع من نشر بيان تقريبي عن الموجود لدى أولئك المحاربين

قبل واثناء عام ١٨٩٥ تنقسم النواحي السودانية التي يشرف عليها الخليفة الى أربعة أقسام رئيسية هي على التتابع أم درمان والرجاف والسودان الغربي والسودان الشرقي وسنذكر فيما يلي عدد المحاربين ومقدارمعداتهم في كل من الاقسام المذكورة

القسم الاول : يتولى إمرة الجيش فيها(أمدرمان)أميران هما عثمان شيخ الدين ويعقوب اما أولهما فيتكون جيشه من احد عشر الف جندي من المشاة في أيديهم احدى عشر الف بندقية و الكل بندقية ماسورة ملساء ويتألف جيش الثانى (يعقوب) من أربعة آلاف من المشاة وثلاثة آلاف وخمسمائة فارس وخمسة وأربعين الف من حاملي الحراب والرماح هذا الى ان مخزن هذا الامير يحتوي على ٤٦ مدفعاً وأربعة آلاف بندقية . كما توجد في مخازن جيش أم درمان ست آلاف بندقية

القسم الثاني : أمير جيش الرجاف هو عرابي واد دفلة الذي يأتمر بأمره أربعة آلاف وخمسمائة من حملة الحراب والف وثمانمائة من المشاة وتوجد في مخزن ثلاثة مدافع والف وثمانمائة بندقية ملساء الماسورة

القسم الثالث : ينقسم (السودان الغربي) الى الفاشر والابيض وشاكا وبربر وأبي حمد وللجهات الثلاث الاولى أمير واحد اسمه محمود (يعينه اثنان من اتباعه) تحت امرته ستة آلاف من المشاة مثالا وثمانمائة وخمسون فارساً والفان وخمسمائة من حملة المزارق والرماح وفي مخزنه أربعة مدافع وست آلاف بندقية اما الناحية الرابعة (بربر) فتحت إمرة زكي عثمان الذي يقود الفا وستمائة من المشاة وخمسمائة فارس والفا وثلثمائة من حملة الرماح وفي مخزنه ستة مدافع والف وستمائة بندقية وبذلك ننتهي الى الناحية الخامسة (ابوحمد) التي يقود جنودها الامير نور عنو وتحت ارشاد هذا الرئيس اربعمائة من المشاة ومائة فارس وسبعمائة من حاملي الرماح . وفي مخزنه أربعة مدافع وأربعمائة بندقية

القسم الرابع : ينقسم (السودان الشرقي) الى احنار اما والقضارف والفاشر واسوبرى والقلابات ودنقله وسواردا وسنذكر محتوياتها تباعا تحت حروف أولية

(ا) ينضوي جنود أضارايا تحت لواء الامير عثمان دجنه الذي يقود أربعمائة وخمسين من المشاة وثلاثمائة وخمسين من الفرسان وألفاً من حملة الرماح وفي مخزنه أربعمائة وخمسون بندقية من طراز الماسورة الواحدة الملساء

(ب) أمير جيش القضارف هو احمد فضيل الذي يصدر أوامره الى أربعة آلاف وخمسمائة من المشاة وستمائة فارس وألف من حاملي المزاريق والحراب وفي مخازنه أربعة مدافع وأربعة آلاف وخمسمائة بندقية

(ج) يتولى إمرة الفاشر — الى جانب إمارة القضارف — احمد فضيل السابق ذكره ويتكون جيش هذا الامير من ألف جندي من المشاة ومائتي فارس وخمسمائة من حاملي الحراب وفى مخزنه ألف بندقية

(د) القائم بادارة شئون أسوبرى العسكرية هو الامير حامد واد علي وتحت ارشاده تسعمائة من المشاة

(ه) الامير فى جيش القلابات هو عين نور (وهو أقل أمراء جنود السودان شأناً) الذي يأتمر بأمره خمسون من المشاة ومائتان من حملة الرماح والحراب . هذا الى ان البنادق التى فى مخزنه خمسون بندقية لا غير

(و) يقود جيش دنقله الامير يونس الدغيم وهـذا الامير ألفان وأربعمائة من المشاة وخمسمائة فارس وخمسة آلاف من حاملى الرماح وفى مخزنه ثمانية مدافع وألفان وربعمائة بندقية

(ز) آخر الامراء السبعة للقسم الرابع هو سورادا وأمير الجيش هناك زعيم سوداني اسمه حموده تحت قيادته مائتان وخمسون من المشاة ومائة فارس وألف من حملة الرماح وفى مخزن الامير مائتان وخمسون بندقية.وباحصاء ما تقدم احصاءاً عاماً نجد الاقسام الاربعة متفرعة الى خمسة عشر معسكراً حربياً فيها اثنى عشر أميراً ومجموع الجنود المشاة في دوائر نفوذ الخليفة المذكورة آنفاً أربعة وثلاثون ألفاً وثلثمائة وخمسون ومجموع الفرسان ستة آلاف وستمائة وعدد حاملى الرماح أربعة وستون ألفاً والموجود من المدافع فى المخازن خمسة وسبعون وعدد البنادق ألفاً وثلثمائة وستون

هذا هو مجموع ما فى البيان ولكن في الحقيقة لا نجد من البنادق المذكورة اكثر من اثنين وعشرين ألف بندقية صالحة للحرب (والبنادق المذكورة من طراز رمنجتن) أما الباقي فعبارة عن بنادق من ذات الماسورة أو الماسورتين وغير ذلك من النماذج القديمة غير المنتجة . ومهما يكن أمر الاسلحة النارية المذكورة فقد أصدر الامراء أوامرهم بقطع اجزاء مختلفة الطول من أنابيب (مواسير) رمنجتن والغرض الرئيسى من ذلك تخفيف ثقل البندقية ولم يبال الجنود بما قد يلحق بالبنادق من الضرر فى حالة ذلك القطع غير المنتظم .

ذكرنا في البيان السابق أن مجموع حاملى الحراب والرماح أربعة وستون ألفاً وانه لمن الواجب علينا بعد ذلك أن نقول إن ربع أولئك — على أقل تقدير — طاعنون فى السن أو صغيرو الاسنان أى انهم فى كلتا الحالتين غير صالحين لنزول المعركة نزولا يضمن لهم الفوز

أما المدافع الخمسة والسبعون فتشتمل على ستة من طراز كروب ذات الفوهة الواسعة القطر (ولكن لا توجد جبخانة كافية للمدافع الستة السالفة الذكر) ثم ثمانية مدافع من أنواع ونماذج مختلفة ويتبقى بعد ذلك واحد وستون مدفعاً نحاسية مختلفة الاشكال والاحجام على أنها تعبأ جميعاً بواسطة الفوهة ومن المعروف عن ذخيرة المدافع الأخيرة أنها تصنع فى أم درمان بصفة خاصة وهذه (الذخيرة) من صنف رخيص غير فعال بحيث لا يبعد مدى طلقة المدفع عن ستمائة أو سبعمائة ياردة

لنتأمل الآن قليلا فى حدود نفوذ الخليفة وبعد ذلك نرى أن سلطان الدراويش امتد فى السنوات القليلة الماضية (قبل عام ١٨٩٥) من وادى حلفا الى الجنوب الشرقى حيث ابو حمد ثم سار شرقا الى سواكن وماجاورها (بما فى ذلك طوكر وضود بركه) واتجه بعد ذلك جنوبا (بما فى ذلك كسلا والقلابات والانحدارات الجنوبية الشرقية لبنى شانقول وجبال جوبي) ثم مال من تلك الناحية الى الجنوب الغربي مقابل النيل الابيض (بما في ذلك فاشودة وبوهر والرجاف)

امتد ذلك النفوذ الدرويشي من الغرب فى اتجاه جنوبي عربي داخل الصحراء الليبية الجنوبية (بما فى ذلك سليمة ومديريات دنقله وكردوفان ودارفور الى حدود

وادای ثم سار جنوبا مخترقا بحر العرب ومارا بدار رنجا (بما في ذلك دار فرتيت وبحر الغزال وقسم من منطقة خط الاستواء)

بعد أن انهزم النجومي اضطر اتباع المهدى الى الجلاء عن القسم الشمالي من مديرية دنقله وأصبح مركز طليعة جيشهم الآن (عام ١٨٩٧) فى ناحية سواردا التى تبعد ثلاثة أيام — سيراً على الاقدام — عن دنقله وانه ليجمل بنا أن نذكر خبر التجريدة التي تمكنت عام ١٨٩٦ من اخراج الدراويش من مديرية دنقله وتأسيس حكومة ذات نفوذ مصرى ممتد جنوبا لغاية مروى

انتصر المصريون في طوكر وهندوب فساعد ذلك القبائل الداخلية على استرجاع ما كان لها من مناطق فى الجهات المجاورة مباشرة اسواكن وطوكر كما انتهى الاستيلاء على كسلا الى امتلاك الايطاليين جميع الاقسام الواقعة شرقي كسلا . وازاء هذا وذاك أصبح نهر عطبرة حد الخليفة الشرقي فى أواخر القرن التاسع عشر

حدث تغيير ظاهر فى مراكز الجنود فانتقلت القوة الرئيسية التي كانت معسكرة في القلابات تحت امرة احمد فضيل الى جهة القضارف ولم تبق في ثكنة القلابات سوى قوة ضئيلة . وقد انتهز رؤساء مناطق بنى شانقول وطور الغورى ثم كثيرون من مشائخ الجهات القريبة هذه الفرصة فاعلنوا استقلال مناطقهم وسرت العدوى الى الناحية الغربية القاصية فبعد أن اعتاد رجال قبائل مسالت وناما وبنى حسين وجمر دفع الضرائب ثاروا على حكومة المهدى وأخيراً أعلنوا استقلالهم واشتركوا عقب ذلك في محالفة دفاعية هجومية مع يوسف سلطان واداى فاعتزم الخليفة عبدالله ارسال مندوبين لاحضار أولئك العصاة واجبارهم على تقديم الطاعة والولاء له ولكنه عدل عن ذلك بعد ما ظهر النفوذ الاوربى الجديد فى بحر الغزال ووقف خاتم موسى أحد قواد عبد الله في دائرة نفوذه دون تمكن من التقدم

اكتفى عبدالله باصدار تعليماته الى خاتم — بعد أفول نجم الدراويش — بعدم التقدم الى الجنوب قبل وصول مدد جديد له من أم درمان

الفصل السادس عشر

ملاحظات متنوعة

أشرت فى الفصل السابق إشارة عامة الى موقف الخليفة عبدالله من القضاء والقضاة والآن أفصل قليلا ما أجملته فاقول ان القضاة هناك آلات صماء في يدى سيدهم الماكر النبيه فلم يكن الخليفة يسمح لهم بالفصل فى القضايا الكبرى وكل ما يمكنهم من بحثه هو ما يختص بالمنازعات العائلية وقضايا الارث وتوزيع الاملاك وما شابه ذلك وعلى أية حال فهم فى جميع أحكامهم الكبرى في القضايا الهامة كانوا ملزمين بالرجوع الى الخليفة قبل اصدار الحكم النهائى ولا حاجة بنا الى القول بان الخليفة كان فى كل ما يدلى به من آراء الى أولئك القضاة لا ينظر الى شيء خلاف مصالحه الشخصية وأهوائه وأغراضه ولكنه في الوقت نفسه كان يجتهد — بما أوتيه من حذق ودهاء — من الظهور أمام الشعب بمظهر المدافع عن الحق والراغب فى اتباع نصوص القانون واذن فالقضاة أمام مهمة شاقة جداً فهم من ناحية مضطرون الى ارضاء أهواء الخليفة وتنفيذ أوامره التى لا تتفق — فى غالب الاحيان — مع العدالة فى شيء ومن الناحية الاخري مضطرون الى صوغ أحكامهم فى قوالب قانونية تبعث الشعب على الاعتقاد فى تمسك الخليفة بالحق ومهما يكن الامر فان تسعين في المائة من أحكام أولئك القضاة لم تنطبق حتي على أبسط مبادىء العدالة . أما الدين في السودان حسبما أرشدني الاختبار الى استنتاجه — فيتمشي مع المبدأ القائل « الغاية تبرر الواسطة » ومما أذكره فى مدة اقامتى أن الدوائر الدينية كانت بين آن وآخر تصدر اعلانات ورسائل صغيرة تحض فيها المسلمين على التقيد بأوامر الدين وتأدية الواجبات الدينية — وفى مقدمتها الصلاة — على الوجه الاتم ثم الابتعاد عن جميع الملذات العالمية والتوجه الى عالم الخير الأعلى ولم تكن الاوامر الدينية المذكورة قاصرة على السودان بل تعدته الى جميع نواحي أفريقيا وبلاد العرب وبورنو ودار فلاته ومكة والمدينة

اعتبر الخليفة شخصه قدوة للمسلمين عموماً في السودان فكان — مادام في صحته الكاملة — يشهد الصلوات الخمس يومياً ليظهر أمام الناس متمسكا باهداب الدين مع أنه في الواقع كان أبعد المسلمين عن التمسك باوامر الدين ففي جميع السنوات التي كنت فيها على اتصال وثيق جداً بالخليفة لم أشاهده على الاطلاق يصلي الى ربه في داره الخاصة ولم أسمعه يكرر — ولو بصوت خافت — بعض التعاليم الدينية التي يعرفها المسلمون جميعاً سواء أكانوا ممن يقرأون ويكتبون أم من الجاهلين

لم يكن ادعاء عبد الله التقوى من الاحكام بحيث يصدقه البعيدون عنه لانه رغم ظهوره بالتقى كان لا يتردد في اصدار أمره بالغاء حفلة دينية وعدم تأدية فرض مذكور اذا كان في تأدية الفرض ما يحول دون تحقيق غرض أو طمع من أطماعه الشخصية وهنا نعود فنقول ان الخليفة كان يتذرع في مثل هذه التعديات بالقضاة حتى يجيء الالغاء من الجانب القانوني وفي ذلك الموقف الحرج لا يتردد القضاة في اعلان أن ذلك الالغاء لازم في سبيل الاحتفاظ بالدين في حالة خاصة فاذا ماصدرت تلك الفتوى ارتاح الخليفة واطمأن الا أن القضاة في بعض الاحايين يقفون من أطماع الخليفة أمام حالات لا يستطيعون معها بحال من الاحوال أن يصدروا أمر الالغاء واذن يضطرون الى التمويه فيدعون بان الالهام الديني أمرهم بالقيام بهذا العمل الشاذ لحكمة قد تغيب عن اذهان البشر

اعتاد الخليفة عبدالله مخاطبة أتباعه من منصة المنبر في المسجد الكبير ولكن بما أن عبدالله يجهل الفقه الديني الاسلامي ويعرف الشيء القليل من قواعد الدين وأصوله فان مدى خطبه الدينية محدودة وبمعنى آخر لا يتعدى تلاوة جمل كتبها له أحد سكرتيريه .

ألغى عبدالله عادة الحج الى مكة واستعوض عنها بدعوة المسلمين الى الحج لقبر المهدي ممثل النبي الكبير وانا على الرغم من مشاهدة كراهية السودانيين لهذه البدعة الجديدة نراهم مضطرين الى الرضوخ لأمر عبدالله وما زال أولئك السودانيون على نظامهم الجديد حتى أصبحوا الآن (عام ١٨٩٧) ساعين من غير قصد الى تحقيق رغبة عبدالله واغبين في الحج دائما الى قبر المهدي وقد ذهب بهم حبهم في التقليد

الجديد الى حد أنهم يسخرون ممن لا يوافقهم فى طريقة الحج هذه · وانه لمن النزاهة والعدل أن نقول بان السودانيين فى تشبثهم هـذا لا يعبرون عن عقيدة ثابتة بل يرمون الي تحقيق رغبة مولاهم عبد الله

أما فيما يختص بالتعليم والاوامر الدينية فمن الحق أن نقول إنهما في حيز العدم من الوجهة العملية الواقعية وكل مافي الامر أن بعض الاولاد والبنات يتلقون معاً آيات قرآنية وبعض جمل من الحديث المقدس لدي المسلمين ويكون ذلك الالقاء بواسطة شيوخ دينيين فى معاهد صغيرة مجاورة للمسجد ولئن قلنا ان الشيوخ يلقون الآيات علي اولئك الصغار فانا لا ننسي بان نذكر الى جانب ذلك ان الذى يحفظ من الآيات قسم صغير والمتبع في زمن الخليفة عبدالله ان يرسل عدد قليل من اولئك الاولاد الى بيت المال بعد اتمام دراستهم الاولية فى المساجد فاذا ما ساروا الى ذلك البيت أصبحوا تلاميذ تحت التمرين لموظفي الحكومة الاقدمين وهناك يتعلمون مقداراً محدوداً من المراسلات الكتابية العامة

نتدرج الآن الى التجارة في السودان فنقول بان ذلك العهد الذى كان زاهراً والذى امتدت فيه الطرق التجارية في السودان قد اضمحل فاصبحت الطرق ــ التى كانت تجتازها القوافل الكثيرة العدد ــ شبيهة بالصحراء المقفرة حيث محت الرمال المكومة معالمها أو حلت بقايا جذور النبات فى بعض نواحيها . وفى صدد ما نذكره يحسن بنا أن نضع بيانا للطرق التجارية الرئيسية الاربع

أولا — الطريق الاربعينية من دارفور الى أسيوط او من كردوفان عن طريق بيوضة الصحراوية الى دنقله ووادى حلفا

ثانياً — الطريق من الخرطوم الى أسوان من ناحية بربر الى الى كروسكو عن طريق ابي حمد

ثالثاً — الطريق من الخرطوم الى سواكن من ناحية بربر أو كسلا

رابعاً — الطريق من القلابات للقضارف فكسلا فمصوع . أما الطريق الحالية (عام ١٨٩٧) التى تجتازها جمال القوافل فمن بربر الى أسوان وسواكن

بعد أن تم الاستيلاء على الخرطوم جلب التجار السودانيون الى أسوان مقادير

كبرى من الحلى الذهبية والفضية وما زال التجار فى عملية النهب والتصدير الى جهات خارجة من السودان حتي اضطر الخليفة الى اصدار أوامره المشددة للتجار بعدم حمل ذهب أو فضة معهم الى مصر مهما كان يعوزهم الانفاق وكل ما سمح به الخليفة لاولئك التجار الخارجين عن السودان هو مقدار من المال يعينه بيت المال حتى لا تضيع حلى الشعب السوداني وكنوزه فى سبيل انفاق غير مشروع في نظر الخليفة. ولم يكتف عبدالله بتحديد مقدار ما يأخذه التجار معهم بأمر بيت المال بل جعل العملة التى يحملونها من الطراز القديم على أن تحدد قيمتها فى جواز سفر التاجر

أدت القيود والتشديدات التى أجراها الخليفة عبدالله مع التجار الى تضاؤل شأن التجارة بين السودانيين ولكن ذلك لم يستمر طويلا فانتعشت التجارة ونهضت بعد كسادها فعادت الى السودان حياته بتبادل أصناف تجارته الرئيسية كالصمغ وريش النعام والتمر الهندي وأوراق نبات السنامكي وما شاكل ذلك. وقد كانت العادة المتبعة فى هذا التبادل التجارى جمع هذه الاصناف فى بيت المال الى جانب ما فيه من العاج المخزون على أن تقدم جميعها للبيع في سوق المزاد العلنى تبعاً للسعر المحلى ولكن بما ان الاصناف المذكورة تستورد من جهات السودان الغربية التى أصابت أهلها الحروب الداخلية والفاقة والامراض فمن المعقول فهمه أن مقدار المستورد يقل بقلة عدد السكان المنتجين

لا شك فى أن الصمغ السوداني احتكار لسكانه وهذا الصنف يختلف فى أثمانه باختلاف انواعه المتعددة وانما نذكر ذلك لندل به على فائدته فى المبادلة علماً بان التبادل التجارى بين مصر والسودان لا يتم بالمال بل بالبضائع والذي نعرفه عن المصريين أنهم يقدمون بدل ما يأخذونه من السودان بضائع جاهزة من مانشستر لان الحاجة اليها فى السودان كبيرة جداً

في حالة التعامل بالنقد في السودان يشترى بيت المال أى صنف تجارى بعشرين ريالا من العملة الجديدة مثلا فيبيعه للشاري السوداني بثلاثين ريالا حتى يبقى المكسب فى بيت المال وعند ما تتم المبايعة بين الطرفين الرسمى والشعبي في السودان يسمح رجال الخليفة لاولئك التجار السودانيين بالسفر الى مصر لبيع تجارتهم وقبل

سفرهم توضع بضائعهم في موازين الشحن لتقدير ثقلها بالضبط وفرض ضريبة خاصة عليها بعد ذلك هي في الغالب ريال على ما زنته قنطار فاذا رغب التاجر شحن تجارته الى سواكن او أسوان اضطر الي دفع ريال آخر على كل مائة رطل ولكن الريال فى هذه الدفعة يكون من العملة الجديدة واذن قد أصبحت الضريبة الاضافية سدس الثمن الاصلى .

يرد العاج الى السودان من أقاليم خط الاستواء بكميات كبرى مرة واحدة كل عام وفى الغالب تمر تجارته بسواكن وبما أن المناطق المذكورة خارجة أو تخرج تباعا عن دوائر نفوذ المهدى فقد كان من الظاهر جداً لدى عبد الله ان الكميات المذكورة تتناقص في السنوات التى تعقبه

أما ناب الفيل فلم تكن الدوائر الحكومية لتظفر به كثيرا لان الوارد منه قليل يجلبه بيت المال من مناطق دارفور الجنوبية ومن الحق ان نقول بان الدراويش —مالم يعودوا الى احتلال بحر الغزال بالقوة مرة اخرى — لا يستطيعون الاحتفاظ بتجارة العاج احتفاظا يضمن لهم مقدارا مذكورا من الثراء

لا يستطيع السودان جلب البضائع من مصر الاعن طريقين هما أسوان وسوا كن وقد كانت الحكومة السودانية فيما سبق تجلب مقدارا من تجارتها القادمة فى مصر أو ماجاورها عن طريق سوا كن الى كسلا أو من كسلا الى مصوع . ولكن حال دون استعمال ذينك الطريقين احتلال السودان الشرقي بواسطة الايطاليين فليست البضائع المستوردة سوى اصناف من قيمة مالية طفيفة وتتكون فى غالبيتها من مواد خاصة بجلابيب النساء وجبب الرجال ومهما يكن الامر فان ذلك شيء غير جوهرى لدى سكان السودان الذين اعتادوا التعلق بكل ماله رونق خارجى زاه وما فيه التزاويق الكثيرة بغض النظرعن تناسب ذلك مع الذوق السليم وبدون اهتمام بالقماش المتين . وفى الحق يكاد يكون من العسير جدا او من المستحيل وجود مشترين من طبقة عالية أو متوسطة في نواحى السودان

بين الاصناف المستوردة الي السودان الروائح العطرية من جميع الاصناف كزيت خشب الصندل والقرنفل والحبوب ذوات الرائحة الطيبة والسبب فى استيراد

ذلك النوع التجارى بكثرة هو استحسان السودانيات اياه ولئن كنا اشرنا أخيرا الى عدم رواج البضائع الغالية القيمة بين أهل السودان فان ذلك لا يمنعنا من القول ان السكر والارز والأنواع العادية من الحلوى والفواكه المجففة تجد جميعها شارين بين اكثر السودانيات ثراء. وقد يجمل بنا ان نذكر فى صدد التجارة أوامر الحكومة المصرية سابقا بمنع الحديد والقصدير والنحاس بنوعيه الاصفر. والاحمر من دخول السودان حتى أصبح عسيرا على الاوروبي فى عام ١٨٩٧ أن يحصل على مقص أو موسى لحلق الذقن وقد كان من جراء هذا المنع ارتفاع أسعار أوانى الطبخ النحاسية الى حد كبير من الغلاء لانه علاوة على منع التصدير استولت الثكنات العسكرية على النحاس القديم القابل للتصليح فاستخدمته فى صنع الخراطيش للبنادق. واذن اضطر السودانيون المعوزون الى الاستعاضة عن الاوانى النحاسية بأوان خزفية فى تحضير الطعام.

كان مفروضا على صاحب كل تجارة واردة للسودان أن يدفع ضريبة عبارة عن عشر قيمة الوارد وقد ألزمت الحكومة اصحاب التجارة المستوردة بدفع الضريبة إما نقدا وإما بضاعة مبادلة وقد كانت الضريبة تؤخذ اكثر من مرة على طول طريق القافلة. فاذا ما وصلت التجارة الى أم درمان أخذت الى بيت المال ووضع عليها ختم الحكومة ومن ذلك الوقت تجبى الحكومة عشرا جديدا. واذن وقف التجار امام ضرائب ثقيلة متعددة كما التزموا تقديم مايشبه الرشوة الى رؤساء أماكن الحكومة السودانيه التجارية في المحطات المختلفة أي أن التاجر كان يدفع من جديد ما يقرب من نصف ثمن البضاعة الذى دفعه اولا للبائع. وهم ازاء ذلك مجبورون على رفع قيم البضائع وعلى الرغم من ذلك كله تجد مكاسبهم فى النهاية قليلة بالنسبة لغيرهم من التجار فى مختلف الجهات المجاورة للسودان.

ان كثيرين من التجار الاغنياء في السودان نزحوا الى مصر وغرضهم الاول ليس جلب التجارة منها أو بيع تجارة لها ولكنهم رموا قبل كل اعتبار آخر الى التخلص من جو السودان بضعة شهور يكونون فيها بعيدين عن سلطان الخليفة الشديد فان كل الذين قاسوا الامرين من ظلم هذا الحاكم لم يجدوا وسيلة للحصول على جواز

يهربون به من السودان سوى التجارة فلم يكن مسموحا للحكومة السودانية أن تعترض أي راغب فى بيع أو جلب تجارة للخارج أو منه

كان الكثيرون من التجار مقيدين بأسرهم وزوجاتهم وبنيهم ولا يخالجنى أي شك أو ريبة فى أنهم لو كانوا خالصين من تلك القيود لما رجعوا مطلقا الى السودان ولفضلوا العيش فى مكان هادىء كمصر — خارج وطنهم الاصلى — عن البقاء تحت نير العسف الشديد والاستبداد المطلق فى السودان

لئن اصيبت التجارة بكساد عظيم فى السودان فثم تجارة لقيت الرواج الكبير والتأييد الكلى من جانب المهدى والخليفة عبد الله وأعنى بذلك تجارة الرقيق وبما أن تصدير العبيد الى مصر لبيعهم أصبح أمرا محظورا ومعاقبا عليه فالخليفة بطبيعة الحال معنى بتوسيع تلك التجارة فى جميع المديريات والنواحى الداخلية فى دائرة نفوذه . ولم يغب عن خاطر الخليفة بعد منع تصدير العبيد -- أن يحول دون استئثار مشتريه بالامر على حسابه .

كان من المستحيل بطبيعة الحال — رغم صدور الاوامر المشددة من حكومة مصر بمنع تصدير الرقيق — أن يحول الخليفة عبد الله دون تجارة الرقيق في مصر وبلاد العرب ولكن القوافل التى كانت فيما مضى تقل المقادير الوافرة من عبيد السودان قد وقفت وقوفا يكاد يكون كليا

كان فى السنوات التى بين ١٨٩٠ و١٨٩٧ يرسل العدد الكبير من عبيد الحبشة بواسطة أبى النجا ومن فاشودة بواسطة زكي طومال ومثل ذينك المقدارين كان يرسله عثمان واد آدم من دارفور وجبال النوبة وكان اولئك المرسلون الى السودان يباعون علنا فى سوق المزاد العلنى على أن تودع أثمانهم في بيت المال أو فى خزانة الخليفة الخاصة . وبمثل الشدة والقسوة التي كان يعامل اولئك الرقيق اثناء شرائهم كانوا يعاملون وقت تسفيرهم الى الجهات .

عرف الجميع عن ابي النجا انه استولى فى بلاد الحبشة على الآلاف من المسيحيين لبيعهم فى سوق الرقيق في السودان وكان أغلب اولئك من النساء والاولاد وقد بلغت القسوة بابي النجا ورجاله مبلغا دعهم لسوق اولئك بالسياط اثناء مسيرهم على

الاقدام من بلاد الحبشة الى أم درمان فاذا ما ذكرنا أنهم كانوا يؤخذون قهرا من عائلاتهم ويحرمون من الطعام الكافى لسد رمقهم في هذه المسافة الطويلة ويسيرون على اقدامهم العارية عرفنا أنهم كانوا أشبه بقطيع من الاغنام فليس بدعا أن يعرف القراء أن العدد الاكبر من أولئك العبيد كانوا يهلكون جوعا أو مرضا قبل الوصول الى أم درمان وأن الباقين منهم — أثناء وصول ابى النجا بهم الى أم درمان — كانوا في حالة سيئة ضعيفة يتعذر معها وجود الشارين وازاء ذلك كان الخليفة فى كثير من الاحيان يتبرع بعدد من اولئك العبيد لبعض اخصائه

بعد أن هزمت قبيلة الشلوك سعى زكى طومال فى الاستفادة من ضعف رجالها ونسائها فحمل العدد الكثير من صنادل — كانت معدة لنقل رجاله الحربيين — ونقلهم الى سيدى عبد الله فى أم درمان . وقد سمعنا فى تلك الاثناء الشيء الكثير عن اختناق المئات من جراء ازدحام الصنادل البحرية بهم فاذا ماوفق الباقون للحياة اخذ الخليفة بعض صغار السن منهم لضمهم الى حرسه الخاص بصفة احتياطي أما النساء فكن يبعن مع الاولاد فى سوق المزاد العلنى الذى كان يستغرق عادة بضعة أيام فى أم درمان

كان اولئك المنكودو الحظ يجلسون فى غالب الاحيان عراة خاوى البطون أمام بيت المال فاذا ما قدر لبعضهم أن يسدوا رمقهم أعطاهم عمال الخليفة اعوادا قليلة من الذرة دون تسوية فكان من الطبيعي أن يصاب المئات منهم بالمرض مما يعرضهم الى عدم عناية أسيادهم الشارين بهم وقت العرض

في كثير من الاحيان كان يبلغ الضجر والتعب بعشرات اولئك التعساء حدا يفضلون معه القاء أجسامهم في ماء النيل حتى يريحوا أجسامهم العارية وبطونهم الخاوية من عذاب لا يعرفون مداه فكانوا يموتون هناك وبما أنه لم يوجد من يعني باخراج جثثهم فان النتيجة المنطقية هي اكتساح الجثث بقوة التيار الى الشاطيء . فاذا ما ظهرت جثة القيت خارج الشاطيء مما يدعو الى نشر رائحة كريهة فى الجهات المجاورة

هذا فيما يختص بالقريبين من شاطيء النيل أما الذين كتب عليهم الشقاء الاكبر

فكانوا يدفعون فى الصحراء . حيث لاماء ولازرع . على طول الطريق بين دارفور وأم درمان وقد كان أولئك البائسون تحت امرة رجال غلاظ القلوب يدفعونهم الى أم درمان نهاراً وليلا دون المنّ عليهم بشيء . ولو قليــل جداً . من الراحة , وقد أكون عاجزاً الآن عن وصف ما يرتكبه أولئك الرجال المتوحشون المفترسون اثناء سيرهم بالنساء الى سوق العبيد فى أم درمان .

كان من عادة أولئك المتوحشين الهمج أن يقطعوا آذان من يعجز من الاولاد أو الرجال أو النساء عن السير الى أم درمان . بمناسـبة ما نزل بهـم من الكلال . ليقدموا الآذان المقطوعة للخليفـة علامة على مقدار من ماتوا من سباياهم وسط الطريق وقد أخبرني أحد أصدقائي أنه شاهد فى مرة من المرار احدى النساء مقطوعة الاذنين ولكنها لم تكن قد فارقت الحياة بعد فدب دبيب الشفقة في قلبه فأحضرها الى الفاشر وبعـد أيام منّ الله عليها بالشفاء فى حين ان أذنيها قدمتا الى الخليفـة دليلا على موتها

وقف تيار القوافل المملوءة بالعبيد الى أم درمان لان القسم الاكبر من الاجزاء الموردة للعبيـد . كدارفور . قد هجرها ساكنوها وفى أحيان أخرى كان يقـدم رجال القبائل . كقبيلتى تاما ومسالت . فروض الخضوع الى الخليفـة ليعفيهم من خطر الاسر . ومع ذلك استمر لغاية عام١٨٩٥ ورود الكثيرين من الرقيق الاسود من الرجاف الا ان بعد المسافة بينهما وبين أم درمان كان يحول دون وصول الكثيرين أحياء الى بيت المال

اضطر الخليفـة عام ١٨٩٦ — حيال نقص او انعدام المأسورين من الرقيق الاسود فى القلابات وكردوفان ودارفور — الى اصدار أوامره الامراء التابعين له ببيع ما يصل الى أيديهم من العبيد لزعماء القبائل المتجولين بحيث يضطر كل من أولئك الزعماء الى كتابة ورقة يذكر فيها اسم العبد ومقدار ما دفعه للامير ثمنا له . وقد كان يسمح لهم الخليفة باعادة بيع من اشتروهم من العبيد بالطريقة ذاتها

لا ريب في ان بيع الرقيق فى أم درمان ذاتها يجرى يوميا ولكن من المحرم رسميا الآن (١٨٩٧) بيع رقيق الجهات والقوافل والسبب فى السماح ببيع النوع

الاول هو اعتبارهم ملك الخليفة وحكراً له على أن جميعهم أو أغلبهم كانوا يعتبرون ضمن الجنود . واذا سلمنا بأن شخصا خارج أم درمان جلب معه سراً أحد العبيد السذج فقد كان من الميسور أن يبيعه بيعا اسميا لبيت المال على أن يورده الى صفوف الجند مقابل قيمة مالية لمن جلب العبيد وذلك في حالة تمتع الرقيق بالصحة أما اذا كان الاخير غير لائق للخدمة فيبقى فى دائرة نفوذ سيده على أن يعمل فى أراضيه الخاصة

أما فيما يختص ببيع النساء والاولاد فأمر مسموح به فى أية ناحية من نواحي السودان بشرط أن يمضى على ورقة البيع اثنان من الشهود ويحسن أن يكون أحد الاثنين قاضيا وفى تلك الورقة يقر الاثنان بان المرأة التي بيعت حق مكتسب للسيد السوداني الذى اشترى والسبب في تنفيذ ذلك العمل والسماح به هو أن كثيراً من العبيد كانوا يهربون من بيوت ساداتهم فيمسكهم آخرون ويبيعونهم لغير ساداتهم الاولين مما أدى الى انتشار فكرة سرقة العبيد في أم درمان وكان أولئك العبيد في كثير من الاحيان يؤخذون بواسطة أشخاص ظاهرين انضمهم الى منازلهم أو كان يغريهم أولئك بترك الحقول والاراضى التى يعملون فيها وبعد ذلك كانوا يقيدون بالسلاسل لترحيلهم الى جهات نائية حيث يتم بيعهم بأثمان بخسة جداً

تنص الشريعة الاسلامية على عدم الاعتراف بشهادة العبيد الذين تتم المساومة على بيعهم في سوق الرقيق فكان أولئك البائسون واقفين على حقيقة حالتهم المزرية فاذا علمنا بان بعضهم عوملوا من أسيادهم معاملة حسنة فان ذلك لم يكن ليرضي الرقيق على وجه عام

أنشأ الخليفة فى أم درمان ذاتها فى ساحة فسيحة على مسافة قريبة من الجنوب الشرقى لبيت المال بيتاً عاديا مبنياً بالطوب وتعرف الساحة المحيطة بهذا البيت بسوق الرقيق وقد كنت فى كثير من الاحيان أدعى بانى أرغب فى شراء أو استبدال بعض الرقيق وبهذه الحجة وحدها كان يسمح لى الخليفة بالتوجه الى سوق الرقيق فسنحت لى بذلك فرص متعددة للوقوف بنفسى على كيفية اجراء عملية المساومة

فى تلك السوق كان يقف الاختصاصيون بتلك التجارة لبيع ما لديهم من سلع

بشرية بحيث يقف حول سور البيت الطيني عدد كبير من النساء والاولاد ويجلس البعض الآخر فهناك ترى العاجز والعارية والمزخرفة والمسرورة وبطبيعة الحال أسعد المذكورات حظا هن المحظيات اللاتي يبعن بثمن طيب ، وبما أن تجارة الرقيق أمر جائز ومشروع جداً فى السودان فمن حق الباعة والشارين أن يفحصوا رقيقهم فحصاً دقيقا من هامة الرأس الى باطن القدم بدون أقل تقيد كما لو كان هذا الرقيق من طبقة الحيوانات الدنيئة .

فكان الشاري يفتح فم المرأة ليرى حال أسنانها وأضراسها ثم يأمر البائع برفع ما عليها من غطاء في النصف الاعلى من جسمها ليفحصها الفحص الدقيق ويعني فى ذلك عناية خاصة بتفحص ذراعيها وبعد ذلك يطلب الشارى من المبيعة ان تمشي الى الامام او الخلف بضع خطوات ليتعرف كيفية مشيها ثم تلقى بعض أسئلة من الشارين على النساء والاولاد للوقوف على مقدار ما يعلمونه ويعلمنه من اللغة العربية وفى الحق يظل كل من أفراد الرقيق خاضعاً لرحمة الشارى فى كل ما يلقيه عليه من أسئلته .

ذكرنا قبلا أن بين الرقيق نسوة يسمين بالمحظيات فنعود الى القول بان أعمالهن تختلف اختلافا كبيراً وهذا لا يمنع دخولهن فى دائرة الاسئلة العامة الموجهة للرقيق فان ذلك أمر عادي جداً ولم يكن يخطر فى بال واحدة منهن أن تعترض على طريقة البيع المذكور رغم ما فيها من شدة فى كثير من الاحيان . وكل ما فى الامر أن بعض النساء أو البنات أو النساء يشعرن بانهن لدى أسعارهن فى كثير من الاحيان أفضل مركزاً من الرقيق وبعبارة أخرى يجدن أنفسهن خادمات وقد يذهب بالواحدة حظها السعيد الى درجة تشعر معها ان مركزها لدى سيدها كمركز أفراد الاسرة التى تخدمها بعد ان كانت فى حالة سيئة عند سيدها الاول الذى كان يعاملها معاملة وحشية قاسية . وبعد أن ينتهي الشارى من استقصاءاته يتساوم مع البائع فيسأله عن ثمنها ثم يردف هذا السؤال بالاستفسار عن امرأة أحسن من التى أمامه ليبيعها له وقد كان الشارى فى كثير من الاحايين يشكو للبائع عدم تمتع المبيعة له بجمال كاف وعدم ظهور مخايل الحسن على جسدها بوجه عام كما كان يشكو أحيانا من جهلها اللغة

العربية جهلا تاما الى غير ذلك من الشكاوى التى لم يكن يقصد منها سوى تخفيض ثمن السلعة الآدمية التى تباع له بينما نرى البائع من الناحية الاخرى باذلا أقصى ما فى وسعه لاظهار محاسن تلك المرأة المنكودة الحظ والاطناب فى جمال أخلاقها مما لا داعى الى تفصيله في هذا المقام

هناك نقائص فى المرأة أو البنت أو الولد تضطر البائع الى تخفيض الثمن وفي مقدمة النقائص المذكورة الغطيط والسرقة والكذب ومهما يكن أمر البيع فالذى نعرفه أنه عند الانتهاء من المساومة والوصول الى اتفاق يخرج البائع ورقة يوقع عليها هو والشاري الذي يدفع الثمن في الساعة التى أصبح فيها سيداً للسلعة البشرية التى اشتراها و كان الدفع دائما بالعملة المحلية السودانية (عملة الريالات الجديدة) ويمكن على وجه الاجمال تقدير الثمن بما يأتي :

كان ثمن العبد العامل الكبير السن يتراوح بين خمسين وثمانين ريالا وثمن المرأة المتوسطة العمر بين ثمانين ومائة وعشرين ريالا أما البنت ما بين الثامنة والحادية عشر من عمرها فكان يقدر ثمنها تبعا لمنظرها وهو على وجه عام بين مائة وعشرة ريالات ومائة وستين ريالا. ويجدر بنا أن نشير الى أن الأثمان الاخيرة ذاتها تختلف باختلاف سعر السوق أو باختلاف الطلب لفئة خاصة من الرقيق

لا توجد من الوجهة العملية صناعات خاصة فى السودان ومع استثناء المواد التى ذكرتها فى الصحائف السابقة لا تجد بضائع مصدرة من السودان

كان فيما مضى (قبل عام ١٨١٧) يرسل العمل المزركش بالذهب أو الفضة الى مصر ولكن بعد أن قل ورود ذينك المعدنين النفيسين — بتضاؤل الايدي العاملة من الرقيق — وبعد أن أصدر المهدي أوامره المشددة ضد لبس الجواهر والحلى نقص أو وقف التصدير للنواحي المجاورة عامة ولمصر خاصة . ومع ذلك لدى السودانيين تجارة رابحة فى الحراب الطويلة والقصيرة والحدايد المستعملة لسروج الخيول والحمير والمدى القصيرة التي توضع على الاذرع. هذا الى ما اكتسبه السودانيون من بيع الآلات الزراعية . ولم يكتف السودانيون بذلك بل اشتركوا فى عمل

السروج الخشبية للخيول والجمال والبغال وصنع (العنجريب) والصناديق الخشبية لشحن الملابس ثم اعداد الابواب والشبابيك والغرف البسيطة

كان السودانيون فى السنين السابقة لا نقضاء القرن التاسع عشر يعملون عملا جديا فى بناء المراكب ولكن حال دون الاستمرار في ذلك العمل المنتج تدخل الخليفة ومصادرته جميع المراكب الموجودة فى النيل ومع ذلك نهضت هذه الصناعة قليلاعام ١٨٩٦ بعد أن أذن الخليفة بتسيير المراكب . ومهما يكن الامر فان الرغبة في بناء السفن قد ضعفت ضعفا كبيرا بعد أن فرض بيت المال الضرائب الثقيلة على كل مركب جديد

من الصناعات التي عنى بها السودانيون عمل الاحذية الصفراء والحمراء والسروج المختلفة الانواع والاحجبة الجلدية لصغار الاولاد والبنات وأعمال السيوف وقرابات المدى أما الكرابيج فتصنع بمقادير وافرة جداً من جلد فرس البحر .

علينا ألا ننسى زراعة القطن وتجارته فى السنين الاخيرة في القرن التاسع عشر فى السودان . فقد كان مصرحاً لكل امرأة أو بنت أن تغزل لحسابها الخاص والى جانب هذا العمل الخاص وجدت فى كل قرية أماكن صغيرة للغازلات اللاتى يقمن بمختلف أنواع النسيج . اما أرض الجزيرة ففيها ناسجات وناسجون لانواع مختلفة من الملابس القطنية كالأثواب والدمور والجنجس التى يبلغ طول كل قطعة جزئية منها عشر ياردات فاذا ماتم نسج الاقمشة المذكورة جلبها أصحاب المحال الصغيرة الى الاسواق بكميات كبيرة على أن يشتريها أفراد الطبقة العامية من رجال ونساء . ولا شك فى أن أعلى نوع من الغزل ينسج في مديرية بربر ففى تلك الناحية تنسج النساء أغطية وجلاليب من الحرير الملون ويغزلن قطعاً حريرية تستعمل كعمائم للاغنياء وبعض الاحزمة التى يلفها لابسو العمائم الاغنياء فوق كساويهم الحريرية القطنية وفى هذا الصدد نذكر الشيلان الحريرية التي تروج في مختلف الانحاء رواجا عظيما .

تقوم مديرية دنقله بمقدار كبير من نسيج القطن ولكن هذه الدائرة مشهورة شهرة خاصة بصنع أغطية قلوع المراكب وانه لواجب علينا فى صدد تقرير الحق أن

نشهد لرجال كردفان بمتانة نسيجهم بغض النظر عن بعد مايصنعونه عن الجمال في المنظر

الى جانب غزل القطن تجد النساء والبنات عملا آخر رائجا هو ضفر الحصر من جميع الاشكال والحجوم من أوراق شجر الدوم التي تباع بكثرة في جميع نواحي السودان ولا مشاحة في أن أمتن نوع من هذه الحصر هو الذي يضفر من الخيوط الضيقة من الاوراق المذكورة ومن قش الشعير والقطع الجلدية الرفيعة . ولا تستعمل الحصر المذكورة في فرش الغرف فحسب بل تحت أطباق الاكل أيضا بحيث تكون الحصيرة في السودان غطاء المائدة بدلا من أغطية القماش المستعملة في الغرب .

وقد تبلغ جودة عمل الحصر حدا نرسل معه مقادير كبيرة الى مصر كتحف وطرائف للاوربيين الذين يقصدون القطر المصري في شهور الشتاء

ان نساء دارفور على مهارة خاصة في صنع الحصر المذكورة التي توضع بين ثناياها بعض الخرازات الزجاجية مما يؤدي الى اكتسابها رونقا جميلا جدا .

* * *

اجتهدت في الصحائف السابقة أن أصور للقارىء حياة الخليفة العامة وشؤون السودان في عهده ولكن ذلك التصوير لا يأخذ شكله الدقيق بدون الاشارة الى حالة السودانيين الخلقية فاقول ان المهدي سعى جهده في ترك التعاليم والعوائد الدينية الرئيسية وانشاء نظم دينية جديدة فبث أوامره في صفوف الشعب ودعا ذلك بطبيعة الحال الى افساد الاخلاق لان الناس اضطروا في الظاهر الى مجاراة المهدي بينما هم في الواقع متمسكون بتعاليم الدين الاصلية وفي هذا الاختلاف بين ما يعتقده المرء وما يدعي امام الخليفة لاحترامه اغراء على الكذب وهذا الاغراء الجزئي ينتهي الى شر خلقي مستطير . وعلينا أن نذكر بان الناس خافوا بطش الخليفة من ناحية وتمسكوا بعصالحهم وشهواتهم من الناحية الاخرى فدعا ذلك الى فساد خلقي عظيم لا أستطيع وصفه للقراء . ومهما يكن الامر فقد كان أغلب سكان السودان غير مرتاحين الى الحالة العامة في السودان عامة وفي أم درمان — حيث يقيم عبد الله — خاصة لانهم أشفقوا على حرياتهم الشخصية من تعسف رجال الخليفة عبد الله ففضلوا حينذاك الانصراف الى اهوائهم وملذاتهم والاسراف فيها بقدر ماتسمح لهم أجسامهم

نستطرد الآن الى نقطة حيوية هامة وهي عدم وجود حياة اجتماعية أو تبادل بين النفوس فكان الحل الوحيد الذى أجمع عليه السودانيون أمرهم هو الاغراق فى بحار الشهوات والميل الى حب النساء حبا بهيميا لاينتهى عند حد . ففكر حينئذ كل سوداني فى الحصول على أقصي عدد من النساء كزوجات له الى جانب محظياته وسراريه فكان الخليفة — من هذه الناحية — مشجعا لرعاياه على السير فى طريق اللذة المفسدة ومن دلائل ذلك التشجيع أنه أمر بتخفيض مصاريف الزواج الرسمية تخفيضا ظاهراً فبعد أن كان صداق البنت عشرة ريالات أصبح خمسة وصار صداق الارملة أقل من ذلك ومعه لباس عادى وحذاءان وبعض روائح عطرية .

اذا رغب سوداني فى الاقتران ببنت وجب على والدها أو وليّ أمرها أن يعلن مصادقته وفى العادة لايحول دون هذا القبول سوى مانع قوىّ جداً . وعلى أية حال فالآباء وأولياء الامور مسئولون دائما عن زواج بناتهم أو من يتولون رعايتهن بحيث يصبحن زوجات متى بلغن عمراً مناسباً .

ذكرنا قبلا اغراق السوداني فى لذته واذن لاعجب أن نرى بأن حصول السودانى على أربع زوجات — وهو أقصي ماصرح به القرآن من عدد للزوج — أمر عادي جداً حتي أن السودانى فى ذلك الحين عد الحصول على الزوجة حصولا على متاع بسيط . هذا الى أن السودانيات كن يرغبن رغبة شديدة في هذا الزواج إما للحصول علي بعض ملابس وكية صغيرة من المال . وإما للرغبة فى نظام جديد من الحياة لم يكن يعرفنه فى منازل آبائهن وأولياء أمورهن وفي الوقت ذاته كن على علم بانهن — تبعا لنصوص الشريعة — يستطعن الانفصال عن أزواجهن بدون عناء كبير

في حالة الطلاق تستبقي السودانية صداقها الا في حالة واحدة هى كراهيتها لزوجها فيتحتم اذ ذاك رد الصداق الى الزوج وقد عرفت في بعض الاحيان أن الزوج كان يترك المهر لزوجته المطلقة بمحض اختياره واني أقرر عن ثقة واطلاع أن من السودانيين من يتزوج فى بحر عشر سنوات باربعين أو خمسين سودانية (مع مراعاة أن هناك طلاقا مستمراً فى حياة مثل ذلك السوداني) كما أن من النساء من تزوجت فى هذه الفترة الخمسة عشر أو العشرين زوجا على أن قانون الزواج الاسلامي

ينص على انقضاء فترة بين الطلاق والزواج الجديد لاتقل عن ثلاثة شهور . أما فيما يختص بالمحظيات فيبيح القانون السوداني الديني تمتع السوداني باي عدد يزيد منهن ولا ريب في أن اباحة التمتع بالمحظيات أدت الى انتشار الفساد الخلقي مع انتشار الامراض السرية الخطرة

قلنا ان المحظيات السودانيات خطر على الاخلاق وجالبات للامراض الخبيثة و لنفصل ذلك نقول انهن لايعشن جميعاً فى المنزل الذى يعيش فيه سيدهن مالم يكن لذلك السيد أولاد من احداهن فانها (المحظية) تضطر للبقاء في منزل قانيها ولايجوز مطلقاً بيعها لآخر ولكنهن فى أغلب الاحيان يبعن لاسيادهن على أن يبقين في حوزاتهم فترات قصيرة جداً على أن يبعن بعد ذلك لغيرهم بأرباح جديدة ولا ريب فى أن هذا الانتقال المستمر من بيت الى آخر يعرض الاخلاق والصحة لخطر جسيم والى جانب ذلك تذبل زهرة شباب المحظية وتضيع معالم جمالها فاذا أضفنا الى ذلك أن المحظية تباع لسيدها فى أول مرة وهي فى سن صغيرة عرفنا ماتقاسيه من الآلام الحقيقية التي لاتخفف منها لذة بهيمية غير منتجة

من المعروف عن تجار الرقيق فى السودان أنهم فى سبيل الحصول على مكسب نقدي لايبالون بمايصيب النساء والبنات من ضعف فى القوة وفساد في الخلق وتعرض لأخبث الامراض فكانوا يشترون البنات الصغيرات ويسمحون لهن بالحرية المطلقة فى اختيار المنزل الذي تعيش فيه البنت والحياة التى تحياها ولم يقف الفساد عند حد أولئك التجار بل تعداه الى الشارين أنفسهم ففى كثير من الاحيان كانوا يسمحون للتجار ببيع محظياتهن لغيرهم على أن يتعاطى أولئك الاسياد مقداراً معيناً من الربح الجديد .

لاريب فى أن شر ماينتج من فساد خلقي تجده فى دوائر الضباط السودانيين وجنودهم حيث يغرى أولئك الخربيون الكثيرات من النساء والبنات للعيش معهم فى ثكناتهم بصفتهن زوجات لهم فاذا مادخلن الثكنات أصبحن كالسلع يتبادلهن جميع الضباط بلا استثناء وبحرية مطلقة ولم يكن الخليفة عبدالله ضد هذه الفكرة الاخيرة بل على النقيض من ذلك كان يشجعها اعتقاداً منه أن انهماك الضباط فى

اللذة وتماديهم في ارضاء شهواتهم يجعل مكانا للخليفة في نفوس ضباطه فوق كل مكانة وبذلك يضمن ولاء رجال الحرب له ورغبتهم فى عدم ترك سيادته عليهم

لاحاجة بنا الى القول بأن السماح بتلك الاباحة المنكرة قد أدى الى انتشار أخبث الامراض بين جميع طبقات الامة سواء في ذلك الاحرار والرقيق الرجال والنساء . فاذا ذكرنا حرارة السودان وأثرها السيء في أى مرض سرى خبيث استطعنا ادراك الانحطاط الخلقى الذى هوى اليه السودان فى ذلك العهد . وعلينا ألا ننسى أن السودان كان محروما من جميع الادوية التى تعالج تلك الامراض مما أدى الى تعريض الصحة على وجه عام لخطر عظيم .

وجد في السودان فى أوائل حكم الخليفة عبدالله قوم أمعنوا فى ضروب الفساد وأطلقوا العنان لشهواتهم فعاقبهم الخليفة فى مبدأ الامر بنفيهم وتشريدهم الى الرجاف ولكنه عدل عن ذلك بعد قليل من الزمن وانتهى الى حل حاسم فى نظره وهو ظهور سهولة كبرى — في معاملة شعب بعيد عن الاخلاق القويمة — فى استعمال التعسف والشدة وصعوبة الجور مع شعب متمسك باهداب الاخلاق القويمة وتبعا لذلك كان الخليفه عبدالله فى آن واحد يكره ويخشى الجعليين الذين سكنوا على شاطيء النيل بين حجر العسل وبربر لان أولئك كانوا العرب الوحيدين في السودان الذين مقتوا الفساد والرذائل الخبيثة واحتفظوا بالاسر الفاضلة البعيدة عن الشهوات الشائنة . كما اعتاد أولئك الجعليون النظر الى الاخلاق بصفتها حجر الزاوية فى بناء الحياة القومية والركن الاساسى فى تأسيس صحة قوية

كان تشديد المهدي على نسائه (زوجاته) بالغا أقصى حد ولم يقف أمر صيانتهن عند حد الخوف من المهدى فى حياته بل تعداه الى الاحتفاظ بالشرف بعد مماته فكان محرما عليهن وهن أرامله (بعد موته) أن يسرن سيرة المخطئات وأن يعشن عيشة الفجور وقد ساعد عبدالله على ذلك فبلغ احترامه لذكرى المهدى حداً دفعه الى انشاء بيوت خاصة للارامل المذكورات حيث تحيط بالمنازل أسوار مرتفعة على مقربة من ضريح المهدى وقد عين عبد الله على ذلك عدداً من الخصيان لمراقبة الارامل المذكورات انفاً .

شدد الخليفة على زوجات ومحظيات سلفه المهدى بعدم الزواج وسن قانونا حرم به عليهن أيّ زواج جديد فكان ذلك ضد رغبتهن ولم يكتف بذلك بل حرم البنات (وأغلبهن من بنات موظفي حكومته السابقين) من طلب الزواج بعد أن بقين في منزله اعداداً لاقترانه بهن فى المستقبل . ومما يذكر عن عسف الخليفة عبد الله فى معاملتهن أنه لم يكن يسمح بمقابلة رجل اياهن حتى ولو كان من ذوى قرباهن وكل ما منّ به عليهن هو السماح لقريباتهن من النسوة بزيارتهن مرة واحدة فى السنة. ومع كل ذلك التقييد لم يكن يفسح عليهن فى العيش فكان يقدم لهن ما يكفيهن بالجهد من القوت واللباس فلا عجب اذا عرفنا أنهن كن يتطلعن دائما الى التحرير من ربق عبودية الخليفة .

أدرك عبد الله أن عسفه وجوره يؤديان بلا نزاع الى زيادة الحاقدين عليه والساعين الى الفتك به فكان تبعاً لذلك كثير الخوف على حياته فطرد بعنف وقساوة جميع السكان النازلين فى منازل صغيرة مجاورة لبيته وأحل محلهم حرسه الخاص الذي استمر فى تنميته يوما بعد يوم . وبعد ذلك بنى سوراً ضخما حول مسكنه والمساكن الصغيرة المجاورة وجمع اليها كل أقربائه على أنه عاد بعد ذلك فأظهر ريبة وخالجه الشك فى بعض أقربائه فآثر ابقاءهم خارج مسكنه المسور ولعدم الظهور دفعة واحدة بهذا الشك جعلهم الى جانب منازل الحرس الخاص ورغم ذلك كله لم يكن الساكنون فى دائرة الخليفة على وفاق وفى ارتياح تام لان أوامر عبد الله كانت شديدة على حرسه الخاص مما أدى الى تبرمهم واستيائهم الشديد كما أنهم تذمروا من مرتباتهم الضئيلة وشكوا لرؤسائهم مراراً من تضييق الخليفة على حريتهم الشخصية وكان عدد المحيطين بالخليفة بضعة آلاف ينتمي أغلبهم الى العرب الخلص ولم يكن مسموحا لهم على الاطلاق الاقتراب من ذويهم كما أن الخليفة حرمهم من ترك مساكنهم ولم يكن يصفح عن هفواتهم الصغيرة فكان ينزل بهم العقاب الصارم

عني عبد الله عناية خاصة بحياته وكان شديد الرغبة في الاحتفاظ بها من عبث الحاقدين عليه فكان لا يخرج في النهار أو الليل الا وفي معيته أفراد معينون من حرسه الخاص واثنان أو ثلاثة من خدمه الامناء له وفيما عدا ذلك لم يكن يرافقه أي

شخص آخر — حتى أقرب أقربائه — ولم يكن يسمح الخليفة لاحد — خلاف الحرس والخدم — بمرافقته

كان من المقرر أن كل من يسمح الخليفة بمقابلته إياه يتجرد من سلاحه (الذي كان يحمله السوداني دائما) ثم يفتشه أحد رجال الحرس قبل دخوله الى غرف الاستقبال الرسمية فكان ذلك العمل من جانب الخليفة دليلا على سوء ظنه فى رعيته فاذا أضفنا الى ذلك كراهية الشعب له استطعنا بسهولة ادراك ما كان يتحدث به الناس عن ظلم الخليفة وتعسفه وعن مخاوفه الشديدة

على الرغم من هذه الشدة النادرة وتلك القسوة المؤلمة لم يوفق الخليفة في اكتساب جانب أية قبيلة حتى أن أفراد قبيلته الخاصة فروا منه وهذه بطبيعة الحال نتيجة منطقية معقولة

عند ما وصل أفراد قبيلة عبد الله الى أم درمان بعد القاء مقاليد الخلافة اليه — مضوا فى الاعتداء على أصحاب الارض فأخذوا غلالهم واغتصبوا نساءهم ونكلوا بأولادهم فاشتد الكرب اشتداداً اضطر الخليفة لاصدار أوامره بعدم خروج تعايشي من أم درمان الا باذن خاص ولكن أوامره تجوهلت ثم دب دبيب العصيان في قلوب السكان حتى انتشرت فكرة التمرد انتشاراً لم يكن معروفا من قبل

أما فيما يختص باخلاق أولئك العرب فحميدة فى ذاتها ولكنهم في الوقت نفسه ميالون الى الكبرياء والاعجاب بأنفسهم فحسب وذلك راجع الى صلتهم وقرابتهم بالخليفة فكانوا يدعون دائما أنهم أسياد البلاد وأصحاب الشأن الاعلى فيها لا لشيء سوى صلتهم بالخليفة

وقد انتهى بهم ذلك التعسف الى وضع أياديهم على خيرات الارض وغلالها وماشيتها وخيولها فكان هذا الاستئثار مدعاة الحسد فى القبائل العربية السودانية حيث الافراد الذين لم ينظروا الى التعايشي ورجاله نظرة ودية

كل ذلك الاضطراب سبب من أهم الاسباب فى حذر الخليفة وخوفه مما يجرى حوله ولكني لا أعتقد أنه على علم دقيق بمقدار كراهة الشعب إياه وحقده عليه وعلى أية حال فقد كان هم الخليفة متجها الى ارضاء أمراء القبائل بارسال الهدايا المالية

والعبيد سراً اليهم فى أوقات الليل من الايام المختلفة. أما الامراء فلم يكونوا يترددون في قبول الهدايا المذكورة وهم على ثقة من أنها جمعت ظلما وعدوانا . وقد يكون من دواعي الاشفاق على الخليفة أنه لم يكن متمتعا بولاء الامراء الحقيقي رغم ما يبعثه اليهم من الهدايا

من أعجب ما يروي عن الخليفة عبد الله أنه لم يفارق أم درمان الى الضواحي مرة واحدة في أكثر من عشر سنين لانه كان يخشى ترك تلك العاصمة التى استجمع فيها كل ما لديه من قوة وذخيرة ووضع تحت رقابته فيها جميع الذين خاف شرهم بعد أن اضطرهم الى القيام بالصلوات الخمس يوميا في حضوره وسماع خطبه الدينية .

صرح الخليفة بان أم درمان هي مدينة المهدى المقدسة وقد يكون غريبا على القراء أن يسمعوا عن أم درمان قبل عام ١٨٩٠ بانها كانت مدينة صغيرة ضئيلة الشأن يسكنها بعض قطاع الطرق وكل مالها من شأن أنها واقعة تجاه الخرطوم . غريب عليهم أن يسمعوا ذلك فى الوقت الذى علت فيه كلمة هذه الجهة وأصبحت أضخم وأعظم شأناً من الخرطوم وقد سبقه اليها المهدي . فبعد أن كانت الارض حقيرة غير منتظمة مدت اليها الاشجار الوارفة الظلال وأسس الجامع الكبير وبيوت الخليفة عبد الله والخليفتين محمد شريف وعلى واد هلو. أما عبد الله فقد وضع يده على جميع الاراضى الواقعة جنوبى المسجد وأما القسم الشمالى فاقتسمه الخليفتان محمد شريف وعلى واد هلو

مما يذكر عن المهدى في حياته أنه صرح علنا فى المسجد الكبير بان أم درمان محلة وقتية لان رؤيا النبي التى ظهرت له فى احدى الليالى أمرته بنقل الخلافة الى الشام بعد التغلب على مصر وبلاد العرب ولكن موته المبكر قد شتت جميع مشاريعه وقضى على آماله وآمال أتباعه

بعد أن نقلت العاصمة الى أم درمان تم تنظيمها وتخطيطها وقد بلغ طولها السطحى من الشمال الي الجنوب مايقرب من ستة أميال انجليزية وقد أصبحت نهاية الحد الجنوبى مقابل الطرف الغربي للخرطوم

اتجهت الرغبة من بادىء الامر الى السكنى على مقربة من شاطىء النيل أملا في

تسهيل الحصول على الماء الكافي فنجم عن تلك الرغبة ازدياد في ناحية وقلة الناحية الأخرى فلم يبق مكان خال واحد في مسافة ثلاثة أميال عرضاً مع خلو أميال ممتدة طولا

أنشئت في بادىء الامر في تلك الناحيـة آلاف من الاكواخ المصنوعة من القش فلم يكن ظاهراً منها سوى المسجد الكبير الذي أحاط به حائط من الطين طوله أربعمائه وستون ياردة وعرضه ثلاثمائة وخمسون ياردة ولكن ذلك لم يرق في عيني الخليفة فاستعاض عنه ببناء من الطوب المحروق الذي تم تبييضه بعد ذلك بمعرفة بنائين من العرب . وبعد ذلك أقام الخليفة لنفسه ولأخيه وأقربائه بيوتا من الطين ثم حذا الامراء حذوهم وتبعهم في ذلك أغنياء أم درمان .

ذكرت في فصل سابق وصفا الضريح المهدى ولكني لم أذكر أني شاهدت — قبل مغادرتي الاخيرة لام درمان — ضياع لون القشرة البيضاء التي على الضريح ولا بأس من العودة الى التفصيل فأقول بأن فوق قبة الضريح ثلاث كرات نحاسية فارغة الواحدة فوق الاخرى ويربط هذه الثلاثة رمح مقوس في آخره حليـة رئيسـية تزين الضريح . ومن أغرب ما سمعتـه من السودانيين أن الخليفـة وضع هذا الرمح حول الكرات الثلاث ليعلن استعداده لمحاربة الطبيعة اذا حدث مايحول دون تحقيق رغباته

كان عبد الله في كثير من الاحيان يقضى ساعات من النهار منفرداً داخل ذلك الضريح (مزار المهدى) والمعروف أن غرضه الاساسى من ذلك هو تلقي الوحى الخاص منه ولكن قلت عنايته بهـذه الزيارات الدينية بعـد أن قتل الكثيرين من أقرباء المهدي وزعماء أتباعه وبطبيعة الحال كان من العسير بل من المريب أن ينقطع عبد الله هذا الانقطاع الفجائي فاضطر الى انتحال المعاذير وتبعا لذلك أوعز الى رجال حرسه الخاص أن يذيعوا بين الناس أن السبب الحقيقي لانقطاع عبد الله عن زيارة سيده المهدى هو خوفه من البقاء بمفـرده داخل الضريح وقد كان منتظراً أن يرد بعضهم على ذلك بأن يستصحب الخليفة معه من يذهب عنه الفزع ولكن عبد الله لم يعجز عن الرد فكان يقول إنه من غير المرغوب فيه أو من الامور غير المسموح بها بقاء أي شخص خلاف الخليفة داخل ضريح المهدي .

هذا ما كان يعتذر به عبـد الله الى الشعب السوداني في حين أنه (عبـد الله) خالف وصايا سيده المهدى لا بالقول فحسب بل بالفعل ايضا

كان من المتبع فتح جميع الابواب المؤدية الى الضريح يوم الجمعة للسماح للشعب بالحج الى ضريح المهـدى وبما أن القانون الدينى كان يحتم على كل رجـل من أتباع المهدي أن يردد صلوات الترحم على جثمان المهدى وروحه فقد كان من الميسور على المشاهد أن يرى الآلاف من الناس متفقين فى الغرض ومختلفين فى طريقة تلاوة الصلوات والادعية ولم يكن قصدهم محصورا فى الصلاة للمهدى ولكنه تعـداه الى طلب الحماية والرحمة من الله الرحمن بشفاء الشهيد (؟) الذى قد رقد فى قبره الاخير ولكنى فى الحقيقة كثير الريبة في أن الصلوات المذكورة خارجة للترحم فانى أقرر — وفى قولى على ما أعتقد كثير من الحق ان لم يكن الصدق كله — أن أغلب الصلوات الصادرة من قلوب اولئك المتحمسين الى مقام العرش الالهي تتطلب من الله انقاذ الشعب السوداني من ظلم وعسف عبد الله المستبد الذى خلف ساكن الضريح الطيب فى نظر السودانيين

يقع بيت الخليفة الرئيسي فى الناحية الجنوبية من الضريح وعلى اتصال بالمسجد الكبير ويحيط بهذا البناء الرئيسى حائط ضخم مبني بالطوب الاحمر ومقسمة نواحيه الى مبان صغيرة متلاصقة وبطبيعة الحال أقرب المباني الى المسجد هى التى يسكنها هو وأفراد بيته المقربون وفى الناحية الشرقية من مسكنه بيوت زوجاته وأماكن الخصيان ومخازنه الخاصة . ومما يسترعى الانظار في الجهة الشرقية من مسكنه المركزية للمسجد الكبير قيام باب خشبي ضخم (لاتوجد أبواب فى داخل المسجد من النواحي الثلاث الاخري) يجتازه المسموح لهم بالوصول الى غرف الخليفة الخاصة ومكان الاستقبال الرسمي .

اذا ما رغب انسان فى اجتياز الممر الرئيسى كان عليه أن يمر بما يشبه الدهليز ومن ثم يسير الى ردهة صغيرة فيها غرفتان لا يوجد على جانب أيتهما ما يمنع من ظهور الناس للخليفة الذى يستقبل الناس فى هذه البقعة . يوجد في الجهة الجنوبية من غرفة الاستقبال باب خاص يقفل بين تلك الغرفة وبين غرفة المخدع ولا يسمح لأحد باجتيازها سوى الشبان من حرس الخليفة

أما المساكن التي سبقت الاشارة اليها فمكونة على شكل قاعات متصلة بين كل والاخرى رواق صغير . وقد تمكن الخليفة من انشاء دور ثانٍ على سقف مجموعة من تلك المساكن ووضع في ذلك الدور المبنى على الطراز الجديد (عام ١٨٩٥) منافذ يتمكن الناظر من احداها من مشاهدة منظر عام واضح لأم درمان

امتازت غرف استقبال الخليفة بالبساطة الكلية والبعد عن الزخرفة وكل ما في الغرف من زينة هو أعمدة العنجريب الممتدة فى كل غرفة وعلى الواحد منها حصيرة من أوراق النخيل أما غرف الخليفة فمزخرفة بكل مايستطيع الحصول عليه من زينة وتزويق فى السودان . ففي كل الغرف الداخلية أسرة نحاسية وحديدية تعلوها ناموسيات (للوقاية من الناموس الذى يعد نكبة السودان وبلاءه) كما أن أراضى الغرف مفروشة بالسجاجيد وفوق المراتب النظيفة أغطية حريرية ووسائد موشاة أطرافها بالحرير الخالص وفوق الابواب والنوافذ ستائر من الالوان والانسجة ولا ريب في أن ذلك أقصى مايطمع اليه الخليفة من زخرف وأبهة فى السودان أما الاروقه فممتلئة بالحصر المصنوعة من أوراق شجر الدوم ثم بمقاعد العنجريب . فاذا قارنا ذلك بما كان عليه الخليفة عبد الله فى أول سني حياته الرسمية وجدنا أنه شديد الميل الى الزخرفة مااستطاع الى ذلك سبيلا

تكلمنا كثيرا عن بيت الخليفة ومساكن رجاله والمقربين اليه والآن نذكر شيئًا موجزاً عن بيت ابنه عثمان فنقول إنه يقع فى الناحية الشرقية من تلك المساكن ويكاد يكون هذا البيت مفروشا بالفراش والاثاث الموجودة في منزل أبيه ولا نغالى اذا قلنا انه أفخم وأكثر نزوعا الى الثروة من مسكن أبيه . فقد يمتاز هذا البيت عن بيت الخليفة بالنجفات النحاسية المدلاة من سقوف الغرف والتي أحضرها عثمان خصيصا من الخرطوم . هذا الى أن بيت عثمان واقع وسط حديقة كبيرة يمتد اليها طمى النيل ويشتغل فيها يومياً مئات من الرقيق الاسود وقد عنى أولئك عناية فائقة بعرض الحديقة في أحسن وأجمل منظر لسيدهم عثمان الذى كان طول حياته مولعا بكل ما هو جميل . ومن الغريب فى أمر اولئك العبيد أنهم كدوا واجتهدوا فى

ذلك راضين مختارين رغم التعب الذى لاقوه ورغم القوت الذى لم يكن يكفيهم في عملهم الشاق

صرف الخليفة عبد الله وابنه عثمان أغلب أوقاتهما في البناء وتجديد نظم ما أقاماه قبلا وقد بذلا أقصى ما يستطيعان من جهد فى سبيل البقاء في حياتهما على الارض متمتعين بأقصى ما تنزع اليه نفساهما من بهجة وسرور

وقد حذا يعقوب أخو الخليفة حذوهما فلم يكن غريباً والحالة هذه أن يتدفق يومياً مئات من العمال (وأغلبهم من الرقيق) الى بيتي الخليفة وابنه حاملين الحجارة والطوب وكل ما يتعلق بالبناء. أما بيت الخليفة على واد هلو فصغير من ناحية وبعيد عن معالم الزينة والزخرف من ناحية أخرى .

كان لعبد الله — الى جانب بيت الخلافة الرئيسى — بعض منازل في الناحيتين الشمالية والجنوبية من أم درمان ولكن المنازل الاخيرة مبنية بناء بسيطاً عاديا لا شيء من الزخرفة فيه والغرض من بنائها هو استعمالها كأماكن استراحة له وللمقربين اليه عندما يرسل بعثات من جنوده الى الجهات المجاورة لام درمان أو عندما يخرج لاستعراض الجنود القادمين حديثا الى أم درمان ولم يكن يستطيع (عبد الله) البقاء في منزل من المنازل المذكورة أكثر من يوم أو يومين في المرة التي يخرج فيها

بني عبد الله خلاف المنازل المذكورة منزلا على مقربة من نهر النيل مجاوراً لحصن الحكومة القديم بعد أن ردم الخنادق التي كانت متاخمة للحصن المذكور . وقد كان يذهب الى هذا المنزل عندما تشرع السفن البخارية فى مغادرة أم درمان الى الرجاف وغرضه الرئيسى من ذلك الوقوف بنفسه على كيفية سير السفينة ومقدار سرعتها

الى جوار بيت الامانات (الترسانة) المكون من بناء ضخم حجري جمعت فيه المدافع والبنادق والذخيرة وكل ما يختص بالحرب والى جوارها (فى البناء نفسه) خمس عربات كانت ملك الحكام السابقين والبعثة الكاثوليكية وقد عنى عبدالله عناية فائقة بحراسة ذلك البيت فوزع على مسافات قصيرة حراساً خصوصيين (ديدبانات)

وأعد لكل واحد كشكا صغيراً ومهمة أولئك هي منع جميع الخارجين عن هيئة الجيش من الدنو الى الترسانة

وجد فى الناحية الشمالية للترسانة مباشرة بناء لحفظ رايات الامراء المقيمين فى أم درمان والى جانب ذلك البناء محل نصف دائرى (يبلغ ارتفاعه نحو عشرين قدماً ويصعد اليه الصاعدون بسلالم مدرجة) لحفظ أبواق وطبول الخليفة الحربية. فاذا ماسرنا الى الناحية الشرقية قليلا وجدنا مخزن الخراطيش والاسلحة الصغيرة

ذكرنا فى الفصول السابقة شيئاً عن بيت المال فنقول الآن انه يقع فى شمال أم درمان على مقربة من نهر النيل ويمتاز هذا البناء بضخامته وانقسامه الى أجزاء بارزة تكاد تكون أروقة متساوية الحجوم وفى تلك الاروقة تجمع البضائع الواردة لام درمان من جميع نواحي السودان ومن مصر كما أن فيه (بيت المال) مكاناً لخزن الحبوب وآخر لجمع الرقيق . ويقع على مسافة قريبة جنوبى بيت المال بناء واسع لبيع الرقيق يسمى (سوق النبيذ) وقد أنشأ عبد الله جوار البناء الاخير بيتا سماه (بيت المال الحربي) بعد أن استقرت خلافة عبد الله وسلفه المهدى فى أم درمان ثم تنظيم المدينة وهي على العموم قائمة فوق أرض مستوية ولكنا نجد في بعض النواحي هنا وهناك تلولا صغيرة تعترض ذلك المستوى . أما تربة أم درمان فمجموعة طبقات صلبة حمراء تكاد تكون حجرية في مجموعها وتتخللها فى أجزاء متفرقة أراض رملية . ومما يذكر عن تعسف عبد الله أنه — في سبيل راحته والتمتع بما يرضي شخصه — أنشأ الطرق والشوارع الجديدة وهذا العمل حميد فى حد ذاته الا أن الخليفة فى سبيل هذا البناء قد هدم بيوتاً كثيرة ولم يدفع لاصحابها المنكودي الحظ قرشاً واحداً فدل بذلك على أنه يرمي من وراء تنظيمه الحيد فى ذاته الى منفعة خاصة هي لذة النظر الى شوارع نظيفة بغض النظر عما يصيب الناس من هدم منازلهم دون تعويض .

علا شأن أم درمان ونقص قدر الخرطوم فى زمن خلافة عبد الله فأصبحت الخرطوم عبارة عن أنقاض وخرائب ولم يبق فيها من المباني الظاهرة سوى المرفأ وقد ظلت المواصلات بين أم درمان والخرطوم بواسطة الرسائل التلغرافية التى أحسن استعمالها موظفو إدارة التلغراف فى الحكومة السابقة

أبقى عبدالله قسماً كبيراً من السور المحيط ببيت المال والمؤدي اليه (لم يكمل هذا البناء فى زمن عبد الله) وعلى طول هذا البناء امتدت حوانيت لبيع المواد التجارية المختلفة والى جوارها حوانيت منفصلة وأماكن صغيرة مستقلة للحلاقين والنجارين والقصابين والخياطين ومن شابههم . هذا الى أن عبد الله عنى بنظام المحتسبين الذين كانوا مسئولين عن حفظ النظام في المدينـة . وانه لما يفزعنى ان أذكر المشانق وآلات الاعدام التى كانت موزعة فى جميع نواحي أم درمان فقد كانت أكبر دليل على حالة المدينة وموقف السودانيين من حكومتهم

كان سكان أم درمان موزعين فى مساكنهم تبعاً لقبائلهم فكان العرب التابعون للقبائل الغربية يسكنون غالبا في المحلات الجنوبية أما القسم الشمالى فكان مخصصاً لسكان وادى النيل ورغم وجود المحتسبين والمحافظين الرسميين على نظام المدينة كان مفروضا على كل قبيلة أن تعين من بين رجالها من يقومون بحفظ الامن والسلام فى القبيلة ذاتها على أن يبلغ أولئك عن أىّ اضطراب أو خلل فى القبيلة الى رجال الحفظ المعينين من قبل الحكومة

اذا استثنينا الشوارع المنتظمة التي أنشأها وخططها الخليفة عبد الله ارضاء لراحته ومزاجه فحسب وجدنا المدينة عبارة عن منحدرات وعطفات مملوءة بقاذورات وبطبيعة الحال أجد شخصى عاجزاً عن وصف الاضرار الصحية المنبعثة من تلك القاذورات الكريهة الرائحة في الاماكن الوبائية التى تجمعت فيها كل أوساخ أم درمان . ويكفينى القول بان جثث الخيول الميتة ترمي فى تلك النواحى وأن الجمال والحمير والماعز تزحم الطرق الضيقة وتملأها بأوساخها وقاذوراتها وكل ما يعمله الخليفة هوأن يصدر أوامره قبل أيام أعياد مخصوصة فى كل سنة باكتساح هذه الاوساخ وتنظيف الطرق الضيقة فلا يتعدى التنظيف حد القاء الجيف المنتنة فى زوايا الحارات فاذا ما جاء فصل الشتاء الممطر حمل الهواء (المشبع بالروائح الكريهة المنبعثة من تلك الاوساخ والجيف) بعض أمراض وبائية تعمل على قتل المئات من السكان المساكين

كانت المدافن قبل عهد الخليفة عبدالله قائمة وسط المدينة ولكن تبرم الاحياء وتذمرهم من الروائح التى أصيب بها السكان من ذلك النظام اضطر عبد الله الى انشاء مكان فسيح خاص واعداده لدفن الموتى وقد وقع اختياره على الصحراء الواقعة شمال مكان استعراض الجنود

سهل على القارىء أن يتصور انتشار الامراض في السودان بعد أن عرف الشيء غير القليل عن الروائح الكريهة وأوساخ البهائم فى جميع نواحي أم درمان تقريبا إلا أن ذلك الانتشار لا يمنعنا من تخصيص الامراض الخطيرة السائدة هناك فنقول ان الحى والدوسنطاريا هما شر ما يبلى به سا كنو أم درمان ولا تكاد تنقطع حمى التيفوس الوبائية بين نوفمبر ومارس من كل عام

نتكلم الآن قليلا عن مياه أم درمان فنقول ان الآبار المفيدة والينابيع المعدة لجلب المياه الصحية انشئت قبيل عام ١٨٩٥ وتلك العيون الصحية أقيمت فى الناحية الشمالية من المسجد الكبير . أما الآبار المحفورة فى نواحي أم درمان الجنوبية فماؤها أجاج في غالب الاوقات . وهى في مجموعها تختلف فى العمق بين ثلاثين وتسعين قدما وقد تم حفرها بواسطة المسجونين تحت رقابة الحراس الغليظى القلوب . ومما يذكر فى صدد السجن والحراس أن المرء في أم درمان يسمع كثيراً من المارة قولهم (لقد أخذوا صاحبنا الى السعير) ومعنى السعير عندهم هو السجن الذى يلاقى فيه المغضوب عليه عذابا شديداً . ان مجرد لفظ هذه الكلمة (السعير) يولد الاضطراب والفزع فى نفوس جميع سامعيها . أما السجن فقائم فى الناحية الجنوبية الشرقية من أم درمان على مقربة من نهر النيل وهو مسيج بحائط ضخم . وللسير الى السجن يمر الانسان بردهة خارجية فسيحة يحرسها نهاراً وليلا جنود من السودانيين المخيفين فاذا ما عبر المرء تلك الردهة وصل الى ساحة داخلية مكونة من غرف طينية صغيرة لاقامة المسجونين المنكودى الحظ الذين اعتادوا — وهم فى السلاسل والاصفاد الثقيلة — قضاء سحابة اليوم فى ظل ذلك البناء وهم في سكون وجمود كاملين لا يتخللهما من الاصوات سوى رنين السلاسل والاوامر القاسية الصادرة من الحراس الغلاظ القلوب وصراخ وتأوهات بعض المسجونين المضطهدين من جراء ما ينزل على

أجسامهم من سياط الجلد والتأديب والويل كل الويل لمن تعرض لسخط الخليفة ومخالفة أمره فامثال أولئك يرسفون فى أثقل الاغلال بعد أن يحتم عليهم مراقب السجن البقاء في أصغر الغرف والامتناع عن الاختلاط بباقي المسجونين

وفى الغالب كانوا يأخذون من الطعام ما يكفى لبقائهم أحياء أي أن أمر مراقب السجن كان صادراً ببقائهم دائماً فى حالة الجوع الشديد التي لا تعرضهم للموت مقابل الكمية القليلة التى يتناولونها للغذاء اما المسجونون العاديون فلايتناولون مقداراً منظماً من الطعام ومن المسموح لهم جلب الطعام من منازلهم وقد حدث في كثير من الاحيان أن الحراس السلابين النهمين التهموا الجزء الاكبر من الطعام الوارد من منزل أحد المسجونين قبل إيصاله الى غرفة المسجون وفي أحيان أخرى كان أولئك المسجونون التعساء يحرمون من كل ما يرد اليهم من بيوتهم الخاصة عند حلول الليل

كان السجانون يقودون المسجونين كقطيع من الغنم الى غرفهم الحجرية التى كانت خالية من النوافذ خلوا كليا وبالتالي كانت محرومة من الشمس والهواء النقي ولم يكن أولئك السجانون القساة يسمعون تضرعات أو توسلات من المسجونين فكانوا يسوقونهم ليلا الى الغرف الحجرية شذر مذر وفى الحقيقة كان أولئك المنكوبون يساقون الى قبور لا فرق بينها وبين قبور الموتى سوى ان النازلين فيها أحياء أشقياء يجور قويهم على ضعيفهم رغم كونهم فى المصاب سواء . وقد كان الحراس فى كثير من الاحيان يذهبون فى الصباح المبكر الى تلك الغرف السوداء المظلمة فيجدون بعض المسجونين التعساء قد ماتوا مختنقين لعدم وجود ذرة من الهواء فى غرفهم المغلقة من جميع نواحيها ولعدم تمتعهم بالغذاء الكافى من الناحية الاخرى . وانه لمن المفزع حقاً أن يشاهد المرء عشرات من أولئك الموتى فى أجسام الاحياء خارجين من كهوفهم الى فضاء السجن كل صباح بعد أن قضوا ليلتهم منهوكي القوى غير قادرين على النوم فى ذلك الوسط المخيف المضر بالصحة

اذا ما بزغ نور الصباح خرجوا من غرفهم الصغيرة وهم أقرب الى الموت منهم الى الحياة — واستظلوا بظل حيطان السجن وقضوا بقية النهار في السعى الى راحة

أجسامهم من ألم الليلة السابقة وعمدوا الى اكتساب قوة جديدة يستطيع بها كل مسجون مواجهة ما ينتظره فى يومه من أتعاب وآلام

من المعقول جداً أن كلا من أولئك الاحياء التعساء كان يفضل الموت على تلك الحياة الشاقة المؤلمة ولكن الواقع خلاف ذلك فقد سعى كل الى البقاء فى الحياة مهما قاسى من ألم وضنك وقد كانت دعواتهم الى الله محصورة فى انقاذهم من الشدة التى انتابتهم ومع أن السجن كان مزدحما ومعرضا المسجونين للاختناق، ومع أن المسجونين كانوا يلاقون من العسف أهوالا ومصائب وآلاما مبرحة — مع ذلك لم أسمع مدة اقامتي في السودان أن واحداً من المسجونين سعى الى الانتحار

وأذكر الآن تشارلس نيوفلد الذى قضي بضع سنوات في ذلك السعير السوداني معرضا للمرض والعسف والاضطهاد فقد كان من المتوقع موت هذا الرجل بين آن وآخر ولكنه بقى على قيد الحياة بواسطة المساعدات التى وصلت اليه بواسطة خادمه الاسود الامين الذى أحضره معه من مصر والى جانب تلك المساعدة كان الاوربيون المقيمون فى أم درمان يقدمون ما يستطيعون من عون الى هذا المسجون الاوروبي اليائس .

فضل تشارلس البقاء على قيد الحياة رغم كونه كان راسفا تحت سلاسل ثقيلة حول رقبته وقدميه ومما نذكره عنه أنه رفض فى ليلة من الليالي البقاء فى غرفة حجرية وصفها بأنها « آخر مرحلة مؤدية الى نار الجحيم » فجوزى على تعنته هذا بالجلد بسياط السودان الموجعة ومع ذلك تحمل آلام الجلد بصبر مدهش فلم يشك لحظة واحدة حتى اضطر الجلادان الى سؤاله فى دهشة وذهول « ما الذى يدعوك الى عدم التذمر وما الذي يمنعك عن طلب العفو ؟ » فأجابهما نيوفلد بجرأة غريبة (وقلب حديد) نالت احترام واعجاب السجانين (هذا التذمر وذلك الطلب الذى يذل يصدران من الآخرين أما أنا فلن أذل نفسى بشيء من ذلك)

بعد أن قضى هذا اليائس ثلاث سنوات فى السجن خففت السلاسل التى كان يرسف فيها ثم نقل الى الخرطوم ولم يبق من الاغلال الا ما كان حول الساقين . وعندما وصل الى سجن الخرطوم أمر بتكرير وتنقية ملح البارود المعد لعمل البارود

وكان ذلك التكرير تحت مراقبة واد حامد بن الله وفى ذلك الحين تحسنت حالته كثيراً وقد كان يمنح مكافأة شهرية ضئيلة مقابل هذا العمل فكانت تلك المكافأة مساعدة له فى الحصول على حاجاته الضرورية للحياة

كان معمل تكرير ملح البارود مجاوراً لبناء الكنيسة التابعة للارسالية الدينية فى الخرطوم فساعد ذلك التوفيق زميلنا تشارلس على النجاة من مخالب الضنك والتعب حيث كان مسموحاً له (نيوفلد) بعد الانتهاء من عمل النهار الشاق المؤلم أن يقضي ليلة فى حدائق كنيسة الارسالية . وليس من شك فى أن أفكاره حينئذ كانت متجهة الى أسرته فى انجلترا ولا ريب فى أنه كان فيما بينه وبين نفسه يلعن ذلك اليوم الاسود الذي أغراه هواه فيه بترك مصر الى السودان حيث وقع في قبضة الخليفة عبد الله

كان من العسير جداً على هذا الرجل أن يذوق الموت ويلقي حتفه درن إثم ارتكبه وقد يكون من توفيق هذا الرجل فى وقت قريب أن يجتمع باصدقائه وأقربائه الذين تاقوا الى رؤيته حراً طليقاً من الاسر المفزع ولئن كان من اليسير وجود العدد الكبير من الاصدقاء (الذين يريدون مساعدة تشارلس) في أوربا فان الحقيقة هي أن تخلص هذا الاسير البائس من يد الخليفة العاتي لا يتم الا بعون الله وحده

ان قلبي ليتوجع وليكاد يتمزق حزناً وألماً كلما شرعت فى كتابة شيء عما يقاسيه المسجونون فى سجن (سـد) أم درمان ورغم ذلك سأذكر شيئاً عن الرجل البائس الشيخ خليل الذى أرسل من مصر ومعه رسائل خاصة الى الخليفة عبدالله فيها بيان عن عدد أسماء الاسرى الذين سلموا فى واقعة توسكي والذين عوملوا معاملة حسنة لم يكن الخليفة يجهلها كما أنه لم يجهل قرب الافراج عنهم وقد ورد فى احدى الرسائل المذكورة طلب من أولى الامر الحربيين فى مصر تسليم سيف ومداليات الجنرال غردون للشيخ خليل لان أصحاب الشأن فى مصر لم يشكوا فى أن الاشياء المذكورة موجودة عند عبد الله

كان يرافق خليلا هذا شخص مصري اسمه بشاره فبعد أن أطلع سكرتير الخليفة الخاص على الرسائل وقرأها لعبد الله أمر الاخير بعودة بشاره لمصر دون اجابة على

الرسائل أما خليل البائس (وهو مصرى المولد) فقد قيدت يداه ورجلاه بالسلاسل الثقيلة بعد أن اتهمه الخليفة بتهمة الجاسوسية

أسيئت معاملة خليل الى أقصى حدود الاساءة وحرم من الغذاء الكافي فأصبح هزيل الجسم الى حد لم يستطع معه القيام من الارض وقد بالغ معذبوه فى اهانته حتى أنهم لم يسمحوا له بماء للشرب وأخيراً نفذ قضاء الله وحكم الموت الهادىء في خليل فتلقاه بسرور وهو على ثقة من أن موته أعظم منقذ له من آلامه المبرحة

نتكلم الآن عن بائس آخر اسمه صالح وهو تاجر يهودي من تونس. فقد جاء هذا البائس الى كسلا باذن من أبي حرجه فلم يكد يصل اليها (كسلا) حتى صدر أمر الخليفة باعتقاله وترحيله الى أم درمان حيث ظل معذبا فى السعير (السجن) لغاية كتابة هذه السطور (عام ١٨٩٧) وهو عبارة عن هيكل عظمى لا أمل له فى الحياة الا بمساعدة زملائه ورجال فرقته الذين اضطروا الى اعتناق الدين الاسلامي للتمكن من ايصال كميات قليلة من الطعام الى صالح هذا

بين المسجونين اثنان من العرب العبابده اتهما بحمل رسائل الى الاوربيين فى أم درمان فاعتقلا وماتا فى السجن بعد أن هلكا جوعا فليس بدعا أن يضطرب الاوربيون المقيمون في ام درمان ازاء سوء معاملة الخليفة معهم من ناحية غير مباشرة ولكن من حسن الحظ اتضح أن الرسائل واردة الى رجل قبطى من أقربائه في مصر

كان عبد الله كثيرا لميل الى الوشايات وتصديقها ومما نرويه في هذا الصدد أن عسكر أبا كلام شيخ قبيلة جمعه الكبيرة كان مشهوراً بصداقته للخليفة عبد الله ولابيه من قبل ولكن تلك الصداقة لم تجده شيئا عند ما وصل الى أذنى الخليفة أن عسكراً هذا تكلم بشدة ضد الحالة فى السودان ففى ذلك الحين أمر عبد الله بالقاء عسكر فى السجن راسفا في الاغلال الثقيلة تأديبا له وزجراً لغيره . ولم يقف الامر عند هذا الحد بل نفي الى الرجاف وحملت زوجته « التى كانت مشهورة بجمالها الرائع » من بين ذراعي زوجها « اثناء توديعه قبل نفيه » الى دار عبد الله لتكون واحدة من حريمه

سبق فى الفصول السابقة ذكر الشيء الكثير عن الامير السوداني الشهير زكي

طومال وهنا نقول انه عندما صدرت أوامر الخليفة باعتقال هذا الامير عومل معاملة سيئة جداً تدل على الغلظة القاسية والانتقام الشنيع فقد بنيت له غرفة من الطين شبيهة بالقبر وأغلق بابها على من فيها ولم يسمح له بشيء من الطعام على الاطلاق وكل ما منّ به الخليفة هو مقدار صغير من الماء سلم له من كوة صغيرة في الغرفة الحجرية وقد تمكن زكي طومال الشجاع من البقاء ثلاثة وعشرين يوما حياً بواسطة الماء الا أن الجوع أنهكه لدرجة الموت ومع ذلك لم يشك طومال لحظة واحدة ولم يطلب عفواً من عبد الله رغم بقائه فى ذلك القبر الشنيع . فقد كان زكي طومال من ناحيته شديد الاباء بعيداً عن التذلل ومن الناحية الاخري كان واثقاً من عبث السعى الى هذا العفو من رجل اشتهر بانتقامه المريع وقساوة قلبه وقد ظل على تلك الحال الى اليوم الرابع والعشرين من سجنه حتى حمله الموت الى مقره الاخير ليرتاح من قساوة معذبيه فى السجن وانتقام عبد الله فى الخارج

فى فجر اليوم الرابع والعشرين سمع بعض الحراس الغلاظ القلوب زفرات الموت من غرفة زكي طومال وعندما سكن الصوت وتحقق أولئك الطغاة من موت الامير أسرعوا لزف البشري الى سيدهم عبد الله فأمر الاخير بحمل جثة الامير (زكى طومال) الي الناحية القريبة من أم درمان وهناك دفن على كومة من الخرق البالية وظهره مقابل مكة (دفن زكي على هذه الصورة يرمي الى تحقيره بابعاد وجهه عن القبلة) فان الخليفة عبد الله لم يكتف بتعذيب غريمه طومال فى الحياة بل أراد مواصلة التعذيب والانتقام منه فى موته بابعاده عن مكة ليحرمه من السلم والراحة في العالم الثاني.

كان عبد الله شديد الخطر على الجميع حتى انه لم يتأخر عن الشك فى القاضى احمد الذي يعد أقرب الملتصقين به فقد اتهمه بخيانته فأمر الحراس بالقائه في الغرفة التي ألقوا فيها زكي طومال من قبل وبعد يومين من سجن احمد هذا دخل اليه فى غرفته قاضيان بأمر من الخليفة وهناك سألا زميلهما البائس احمد عن المكان الذي خبأ فيه أمواله فأجابهما احمد بجرأة: « أخبرا سيدكما عبد الله الخليفة أني زهدت الدنيا ولا أعرف مكاناً أجد فيه الذهب او الفضة »

تحايل القاضيان كثيراً على زميلهما السابق وسعيا جهدهما فى الوصول الى معرفة

المكان الذي يوجد فيه ماله وعندما فشلا عادا أدراجهما مطأطأى الرأسين الى الخليفة وقد كان ذلك الامر كله قبل مغادرتي أم درمان ببضعة أيام . وقد تأكدت عقب رجوعي الي مصر أن القاضي احمد توفى بعد أيام في سجنه على الصورة التى توفى بها زكي طومال

ان المرء يستطيع ملء مجلد كامل بفظائع وقسوة الخليفه ضد المسجونين في السعير (السجن) ولكن من العبث اتعاب القارىء بذكر فظائع وحشية ارتكبت بأمر هذا الظالم المستبد الغليظ القلب عبد الله .

الفصل السابع عشر

وسائل النجاة

كنت أرمى من وراء بقائي الى جانب الخليفة عبد الله والتصاقي به الى غرض مزدوج الفائدة فقد رغبت فى تعرف طباعه من ناحية ومن تعرف أحوال السودان من الناحية الاخري بطريقة تكاد تكون رسمية أما الخليفة عبد الله نفسه فكان بتقريبه اياي يقصد شيئين متقاربين ويرمى الى فائدتين فقد كان على ثقة من أني الموظف المصري الاجنبي الوحيد الملم بشؤون السودان إلماما كلياً دقيقاً وأني جئت البلاد السودانية ودرستها وأصبحت على معرفة كاملة بلغة التخاطب الداخلية وسأذكر الغرض الثاني بعد قليل ·

كان عبد الله على جهل فاضح بالشؤون السياسية وقد ذهب به فكره الى أن خروجي من السودان خطر داهم عليه هو شخصياً لأنى اذا وفقت الى النجاة فمعنى ذلك اني أتمكن بسرعة من اغراء الحكومة المصرية أوأى حكومة أجنبية عن السودان الي دخول تلك البلاد واسقاط نفوذ عبد الله وفي ذلك الحين أتمكن من ايجاد صلة متينة ورابطة وثيقة بين الحكومة الجديدة وبين أفراد وزعماء القبائل الذين يكرهون حكم عبد الله أشد كراهة واذن ينتهى الامر الى انشاء حكومة نظامية في السودان .

قلت ان غرض عبدالله الاول من بقائى هو المامي بشؤون السودان أما الغرض الثاني

يرجع الى نزعة نفسية فقد رغب عبد الله فى ارضاء كبريائه باستخدام الرجل الذى
كان فيما مضى حاكم اقليم دارفور باكمله وحاكم قبيلته فى استخدام الرجل الذى تمتع
فيما مضى بهذه السلطة يعد عظمة لعبد الله فى عيون السودانيين خصوصاً اذا بقي الرجل
المذكور (مؤلف الكتاب) كأسير بين يدي الخليفة ومن المدهش أن عبد الله
لم يتأخر لحظة واحدة عن الظهور بهذه العظمة الكاذبة فكان بين آن وآخر يقول
لرجال القبائل الغربية « انظروا هذا الرجل الذي كان فيما مضى سيدنا وحاكم
قبيلتنا والذى قاسينا الآلام تحت حكمه الجائر انظروا اليه اليوم تجدوه خادمي وسامع
اوامري والملتزم تنفيذ ما أشير به اليه في أية لحظة . انظروا الى الرجل الذى انغمس
في بحر الشهوات وكان منقاداً وراء تيار المعاصي تجدوه اليوم لابساً جبته القذرة
سائراً حافي القدمين فلا ريب اذن فى أن الله رءوف رحيم »

كان عبد الله كثير الحذر والخوف مني ولم يعن كثيراً بغيرى من الاسرى
الاوربيين الذين عاشوا عيشة بسيطة قوامها الاتجار في المواد المختلفة فى حي قريب
من ميدان سوق أم درمان حيث بنوا غرفا خاصة لتجارتهم ظلوا فيها آمنين لا يعكر
صفوهم أى تدخل من الاهالى

كان الاب اوهر والدر نساجا يعيش هو وأهله مما يكسبه من نسج القطن وعاش
الاب روزينولى وبيوروجنتو (وكلاهما من طائفة الارسالية الدينية المسيحية) بياعين
للساعات فى الدائرة المركزية للسوق وقد عاشت السيدات الاوربيات الى جانب
اولئك الاوربيين حتى نجون معهم وقت تدبير الهرب مع استثناء الاخت تريزه
جوبجولتى

يتبقى بعد ذلك جوست حويزى أحد الكتاب الاجانب ثم طائفة أخرى من
اليونانيين والسوريين والمسيحيين والاقباط ويبلغ مجموع اولئك خمسة وا يعين رجالا
ونساء تزوجوا وتزوجن من مسيحيين ولدوا فى السودان أو مصريين ومصريات

تسمى المنطقة الداخلية لاولئك المسيحيين المسلمانية (تطلق على المتناسلين من
غير المسلمين بوجه عام وقد أطلقها اتباع المهدى على كل من لم يدينوا بالاسلام) وقد
اشتغل اولئك بامورهم وانتخبوا من بينهم أميراً ائتمروا بارشاداته وأوامره وقد كان

ذلك الرئيس المسيحي مسئولا لدي الخليفة عن كل مايجرى فى دائرته وعن كل شخص غير مسلم فى أم درمان واسم الامير الحالى (فى عام ١٨٩٦) نيكولا وهو رجل يوناني يطلق عليه السودانيون اسما عربيا مماثلا لاسم الخليفة عبد الله ومهما يكن الامر فلم يكن مسموحا لاى شخص من اولئك المسيحيين بمغادرة أم درمان وقد كان مفروضا عليهم أن يضمن الواحد منهم الآخر ومن نتائج ذلك أنه عندما سافر الاب روزينولي صدرت الاوامر بالقاء زميله وضامنه بيبو فى السعير (السجن) وقد زادت المراقبة واشتد الاضطهاد على اولئك المنكوبين بعد فرار الاب أوهر والدر . فقد انشأ الخليفة خصيصا مكانا حصينا لحجزهم فيه من الناحية الشمالية الشرقية من المسجد الكبير حيث كان مفروضا عليهم أن يحضروا الصلوات الخمس يوميا وقد كان الخليفة عبد الله داهية في ذلك الامر فانه أمر بأن يذهب الشخص من أولئك (غير المسلمين عامة والاوروبيين بصفة خاصة) مرة فى اليوم للمسجدوعين للاحصاء مراقبا يقدم بعد نهاية الصلوات الخمس يوميا تقريرا الى عبد الله يتمكن بواسطته من معرفة المتغيب واذ ذاك يرتاح ضميره لانه يثق من بقاء جميع اولئك المحجوين في ناحيتهم الجديدة

كانت مساكنهم الصغيرة متلاصقة وتبعا لذلك كان من اليسير جدا اتصال الواحد بالآخر مما خفف عنهم آلام الوحشة والاضطهاد اما أطفال اولئك الاشخاص وأولادهم الصغار فكانوا ملزمين بالبقاء فى التكايا السودانية حيث يتعلمون القرآن

قد وصفت فيما مضي كيفية سكنى وما أحاط به في الحياة السودانية وبقي علىّ أن أضيف لما تقدم أنه كان مسموحا لى أن اتكلم مع قلائل من الحرس الخاص الذين كانوا — مثلى — اما تحت الرقابة واما — وهذا خلافي طبعا — كجواسيس للخليفة يراقبون الاجانب ويكتبون التقارير الوافية عن أقوالهم وحركاتهم ثم يرفعونها كل مساء الى دار الخليفة أما دخول المدينة (ام درمان) فكان غير مسموح به الا في النادر هذا الى أني منعت منعا كليا من زيارة المنازل أو زيارة الناس ليبقى الصغير

ومما أرويه عن ميول الخليفة الشخصية أنه كان مولعا جدا بالساعات الصغيرة وساعات الحائط على اختلاف حجومها وقد وضع علىّ الخليفة — فيما وضع من مهمات

— مهمة تنظيف الساعات الكبيرة واصلاح ثلاث ساعات للجيب يتناوب حلهاوقد تمكنت بواسطة هذه المهمة من زيارة ساعاتي ارمني يدعى ارتين بدعوى أن ساعة من ساعات الحائط فى دار الخليفة تحتاج الى الاصلاح

كان بيت الخليفة عبد الله قائما على مقربة من ميدان سوق أمدرمان حيث كنت أتقابل بين حين وآخر مع أفراد مخصوصين كنت أرغب رغبة صادقة فى مقابلتهم . والتحدث معهم . أما فيما يختص بموقفي مع أرتين بائع الساعات فلم أكن أثق فيه على الاطلاق وكل مادعاني الى التوجه اليه فى أوقات مختلفة هو نزوعى الى الالتقاء بالاشخاص المعينين ولئن اضطررت الى الكلام معهم فلم يكن ارتين يسمع مايدور بيننا من حديث .

كان أغلب وقتي مقضيا فى الفسحة الكبرى المواجهة لدار الخليفة حيث يتلى القرآن ولم يكن مسموحا على الاطلاق كتابة أى شيء لان عبد الله كان يرى من العار أن اعمل شيئا أو أتعلم جديدا لم يكن هو يعرف عنه قليلا ولا كثيرا . ورغم ما أبداه عبد الله من حذر وريبة كان يضطر الى دعوتي لاصطحابه فى المسجد الكبير أو فى بعض الرحلات الداخلية الخاصة وكانت وظيفتي معه شبيهة بوظيفة مستشار حاكم الدولة . وازاء أتعابي هذه كلها لم أكن ممن يتناولون مرتبا من الدولة فكنت تبعا لذلك على خفض من العيش فكان طعامي عاديا جدبا يتكون غالبا من العصيدة والبقول الحقيرة وفي يوم أو يومين من الاسبوع كنت أتناول قطعة صغيرة من اللحم بعد شرائها خصيصا من السوق

تأكد عبدالله رغبتي فى الحرية وتطلعى الي الفرار من قيد الاسر ورغم مابذلته لتحويله عن ذلك الفكر لم أستطع نفى مافي مخيلته من شكوك وريب وفي الوقت نفسه كان يخشاني ويتملقني فقد وهب لى الكثير من العبيد وعرض علىّ الزواج من بنات أسرته واجتهد في تقديم هدايا كثيرة لى ليحول بينى وبين الفرار بطرق لطيفة ولكنى أصررت على الرفض إياه فزاد ذلك مخاوفه وشكوكه وتأكد اني أتطلع لاول فرصة أتمكن فيها من مغادرة أم درمان الى الخارج وفى ذلك العمل خطر عظيم عليه خاصة وعلى بلاده عامة

بعد سقوط الخرطوم سعى أفراد أسرتي فى أوربا جهدهم للوصول الى معرفة أخباري الوثيقة ولكنهم تأكدوا أن الظهور بهذا المظهر خطر داهم عليّ ازاء عسف الخليفة وشكوكه

لم يدخر فون جسلر (قنصل النمسا والمجر فى القطر المصرى) جهداً فى استقصاء أخباري وقد وجد هذا الشخص الكبير المقام تعضيداً ظاهراً من جانب الضباط الملحقين بالجيش المصرى وغيرهم من الموظفين . ومما أذكره عن أولئك الاخيرين أنهم كانوا الواسطة فى وصول الاخبار الي أفراد أسرتي عن طريق حاكم سواكن عام ١٨٨٨ فاني شخصياً لم أكن استطيع إيصالها الى الضباط لاني — كما قلت فى الصفحات السابقة — كنت محروما من الاختلاط بأى شخص أجنبي والتزاور مع أي موظف رسمى

مما تقدم يقف القارىء على مقدار فزع الخليفة وسوء ظنه وقد زاد ذلك الريب وصول خطاب من الهرفون روستى (الذى خلف الهرفون جسلر في القنصلية النمساوية فى القطر المصرى) الى الخليفة يطلب منه فيه التصريح بقبول قسيس يعظ الرعايا النمسويين المقيمين فى السودان . وأظن أن أكبر ما أثر فى الخليفة وحول وجهته ضدى هو ورود خطاب من القنصل النمساوى يستعلم فيه عن الحالة في السودان . ومن المدهش أن الخليفة عبد الله استطاع كظم غيظه فطلب مني كتابة بيان عن الموقف الاخير فى أم درمان خاصة والسودان عامة . وبطبيعة الحال لم يبال الخليفة بخطاب الهرفون روستى وكل ما عنى به هو اتهامي بالخيانة من ناحية والكذب من الناحية الاخرى لاني كنت أخبرته قبلا أن جميع الرعايا الاوروبيين فى السودان من الايطاليين مع استثناء الأب أوهروالدر النمساوى فقد جاء طلب القنصل النمساوى مخطئاً ومكذبا لبياني . ومن الحق لم أرم من وراء ادعائى أن الاجانب فى أم درمان جميعهم غير نمساويين الا الى شيء واحد هو الخوف مما قد يحيق بهم من سوء عبدالله في حالة غضبه على شخصى فقد يخيل اليه فى اليوم الذى يريد فيه الاقتصاص مني أن يهلك جميع الاوربيين لانتمائهم الى الجنسية التي أنتمى اليها فى حين أني كنت أسعى جهدى لحملهم على النجاة

كان الخطاب الوارد من الهر روستي ضربة قاضية على جميع تدبيراتي التي قمت بها اصالح اخواني . ومع ذلك سعيت الي اقناع الخليفة بان الغرض من كتاب روستي هو ضم جميع الاوروبيين المقيمين في السودان تحت الشعار النمسوى ولكني عبثاً حاولت اقناعه فقد عمد الى مواجهتي بعد أن كان مكتوما من قبل ثم اتهمني بالكذب الصريح ومحاولة غشه .

وضع أفراد أسرتي مقداراً من المال تحت تصرف قنصل النمسا الجنرال ليستعمله وقت الحاجة لمساعدتي وقد تمكنوا من ايصال مقادير مالية مختلفة لي بواسطة العرب وذلك بعد التسهيلات الشديدة التي تفضل بها علي كثيرون من الضباط الملحقين بالجيش المصرى مع سعادة الماجور ونجت مدير الادارة الحربية ولا أنسى في هذا الصدد أن أقول للقراء بأني في كثير من الاحيان كنت استلم مقادير أقل من المذكورة في الرسائل التي سلمها الى أولئك العرب ولكني كنت مضطراً الى تقرير حصولي على المبالغ كاملة ومهما يكن الامر فقد كنت شاكراً لمن أرسلوا لي المال بمقدار شكرى لمن أوصلوه الى يدى لان الاخيرين ساعدونا مساعدة كبرى في حمل رسائل وتقارير سرية الى أفراد أسرتي دون وصول الجواسيس اليها

كنت شديد الحيطة في صرف المبالغ فقد اجتهدت في الظهور بمظهر البائس الذى لا يجد ما ينفقه حتى لا تتطرق الريبة الى نفوس العسس وحتى لا يقف الخليفة على حقيقة اولئك الاعراب الذين تفضلوا بمساعدتي وتبعاً لذلك عشت أبسط عيشة ودفعت ما وفرته لاصدقائي المعوزين .

وثق أصدقائي المقيمون في القاهرة — بعد أن حرمني الخليفة من أى اتصال بالخارج — أنه من المستحيل عليهم العمل على انقاذى ولذلك فكروا ملياً في الطريقة التي أتمكن بها عند سنوح الفرصة من الفرار والنجاة من عسف عبد الله . وفي الحق كنت عارفا من اللحظة الاولى التي وقعت فيها في الاسر أن نجاتي لا تتم الا بواسطة الفرار في الفرصة المناسبة وعلى الرغم من قضاء اثنى عشر سنة في عذاب وتحت نير الاضطهاد لم يذهب الامل لحظة واحدة من خاطرى فقد كنت على ثقة من الفوز بأمنيتي في النهاية بعد صبري العجيب

قضيت السنين ولم يعلم انسان حقيقـة ماقي نفسي وما اعتزمت تنفيذه ولكني ذكرت عرضاً عرض لابراهيم عدلان وقد وعدني الاخير وعـداً صادقا بانه سيبذل أقصى مافى وسعه لانقاذى

ولكن من سوء الحظ قد وقع غضب الخليفة على ابراهيم عدلان هذا بعد أيام من وعده الشريف فنفي من أم درمان وخسرت أنا بذلك النفي صـديقاً مخلصاً وحامياً شجاعا نبيلا .

عندما مات ابراهيم عـدلان أفضيت بسرى الى شخصين أثق ثقة كليـة في أمانتهما وقدرتهما على كتمان السر ورغم كوني على ثقة — بالنسبة الى ميلهما لى من ناحية والى كراهيتهما الشديدة للخليفة من الناحية الاخرى — من رغبتهما الشديدة فى تخليصى من قبضة عبد الله لم أوفق فى سعيي ولم تصـل مفاوضتى معهما الى نتيجة ولم يكن ذلك لقلة وجود المال الكافى لانقاذى واستعماله في هروبى وانما يرجع الى خوف ذينـك الشخصين من افتضاح أمرهما وظهور اسميهما بعد فرارى وبمـا أنهما صاحبا عائلتين في السودان فلم يكونا يرتابان فى أن العمل الوحيد الذى يعمله الخليفة اقتصاصاً منهما هو نفيهما ثم حمل زوجة كل منهما الى دار حرم عبـد الله ثم تشريد أولاد كل من الرجلين وهذا بلا ريب قصاص فظيع وعقاب لا تحتمله النفس .

فى الوقت نفسه لم يكن أفراد أسرتي ساكتين بل كانوا يدبرون كل الوسائل الممكنة لانقاذي ودعاهم حبهم اياى الى بذل كل مايستطيعون من عون وتعضـيد . وبما أنهم كانوا على جهـل كلي بما يجري فى السودان وعاجزين عجزاً مطلقاً عن مد أيدى المساعدة من فينا الىّ في أم درمان لم تكن أمامهم وسيلة سوى دفع قيم مالية تستخدم لحسابى عند قنصل النمسا فى مصر وقد كانت تصـدر الى الاخير تعليمات من وزير خارجية النمسا باستعمال الاموال المذكورة على أحسن صورة ممكنة لانقاذى وانه لمن الواجب علىّ أن أذكر بالثناء البارون هدلرفون اجبرج (سفير النمسا المفوض فى احدى دول اوروبا الآن عام ١٨٩٥ — والذى كان فيما مضى قنصلا للنمسا فى مصر) فقد سعى جهده لانقاذي في الفرصة الملائمة وبطبيعة الحال لم يكن من الحكمة التوصل لمساعدتي بواسـطة أى شخص فأمر الهروب خطير يسـتدعى الاستناد الى

الوثوق منهم ثقة تامة ولذلك عمد القنصل النمساوى الى اختيار أفراد مؤتمنين يسعون لى من جانب موظفى الحكومة فانتدب القنصل لهذا الغرض الكولونل شيفر بك وبعد مدة غير كبيرة استعان بالماجور ونجت الذى أظهر فى ظروف كثيرة عطفاً كبيراً ولا ريب في أني مدين بحريتي لكل من الماجور ونجت والبارون هولر فبدونهما لم يكن ميسوراً الحصول على أشخاص أمناء من العرب يوصلون الي المقادير المختلفة من المال وسأظل طول حياتى شاكراً لذينك الرجلين الكبيرين جهودهما المتواصلة فى سبيل نجاح مسعاهما وتسهيل أمر الفرار على شخصى العاجز امام الخليفة الشديد السطوة . ومع أن الجميع فشلوا فى مساعيهم وبدا منهم لمساعدتي ما أدخل الريبة فى قلب الخليفة وفى قلوب جواسيسه المنتشرين حوله فاني لا أزال أذكر تلك المهارة الفائقة التى بدت من جانبي الرجلين الفاضلين الاخيرين حتى أن عبد الله لم يدر في خلده حولهما أى شك

في الايام الاولى من شهر فبراير عام ١٨٩٢ وصل الى أم درمان من مصر الشيخ بكار ابو زبيبه رئيس فرقة جمال دنقلة وقد كان هذا الرجل من العرب العبابدة فلم تكد تطأ قدماه أرض السودان حتى احضر امام الخليفة وهناك قال لمولاه انه فر من مصر وقدم عن طريق اسوان طالباً عفو الخليفة والسماح له بالاقامة فى بربر وقد سهل له مهمته هذه جملة خطابات توصية الى زكي عثمان أمير بربر ولم يكد هذا الرجل يمر فى ساحة المسجد الكبير ويلتقي بي حتى أسر لى في أذني « انى أتيت لمساعدتك فاجتهد فى مقابلتى » فأجبته « ان المقابلة تكون غداً بعد صلاة المغرب فى هذا المسجد » وبعد النهاية من جوابي اختفى عن نظرى وعلى الرغم من وثوقي فى النجاة وارتياح ضميرى الى اني سأنجو يوماً من ذلك العش فاني لم أكن شديد الايمان بذلك القول الاخير لأني اختبرت أقوال السودانيين والعرب فوجدتهما في غالبيتها وعوداً كاذبة وأقوالا لا ترمي لغير تبرير موقف قائلها وقت وقوفه أمامى وتبعاً لذلك قضيت اليوم التالى كما أقضي كل يوم عادى فلم أفكر في المقابلة أو نتيجتها لأنى لم أكن آمل تحقيقها وفي حين حدوثها لم يكن يذهب بالى الى أن نجاتي ستحقق بعدها مباشرة

بعد الانتهاء من صلاة المغرب فى اليوم التالى مر بكار فى طريقه الى الخارج بباب المسجد الذى تقابلنا فيه اليوم السابق . فتبعته بحذر شديد ثم دخلنا معاً الى القسم المحجوب عن الانظار من بناء المسجد وعندما غابت عنا عيون الناس وبعدت عن مجلسنا آذان السامعين سلمنى بكار صندوقا من الصفيح يبدو من رائحته انه يحتوى على كمية من البن وقد قال لى صاحبى العربي « لهذا الصندوق قاع مزدوج فافتحه واقرأ الاوراق الموجودة فى آخر القاع الثاني وسأقابلك هنا غداً فى الباب نفسه »

أخفيت الصندوق تحت عباءتي ثم رجعت الى مكانى وكان مقدراً لي أن أتناول العشاء فى تلك الليلة مع الخليفة فارتجف قلبي عندما سمعت تلك الدعوة لانى كنت أحمل صندوقا كبير الحجم الى حدما بحيث يمكن ظهوره تحت ملابسي بكيفية بارزة ومن سوء الترتيب أنى وضعت أمام الذى كان يحدق فيّ طول وقت العشاء. ولكن من حسن حظى — الى جانب ذلك — أن الخليفة كان شديد التعب طول يومه فدار كلامه حول مواضيع عامة وهذا كله لا يمنع استمرار ريبته وعدم تردده فى انزال العقاب الصارم بي وقت سنوح الفرصة . الا أني لم أتردد فى كل مرة أقابله فيها في اظهار ولائى واخلاصي له وبطبيعة الحال كررت ذلك فى ليلة العشاء. ومن الغريب أني استطعت بعد أخذ قطع صغيرة من اللحم وكمية من الذرة المسلوقة ادعاء المرض فأذن لى الخليفة بالانصراف الى حيث أقضي ليلتى كل يوم . فأسرعت الي المنزل وهناك أشعلت المصباح الزيتى الصغير وفتحت الصندوق بمديتى فوجدت ورقة صغيرة كتب عليها بالفرنسية الكلمات الآتية :

« بكار واد أبو زبيبه رجل مخلص امين » الامضاء

(الكولونيل شيفر)

جعلنا (أنا وأحمد) نتساءل عما أصاب الرجال المرسلين لانقاذنا وأغلب ماتجه اليه ظن كل منا هو أن الدراويش قابلوهم فقبضوا عليهم بعد أن شكوا فى أمرهم وارتابوا . ومهما يكن الامر فقد وصلنا الى حيث كنا ممتلئين مخاوف وآلام مبرحة وعند مافارقت احمد عند ساحة الاستعراض طلبت منه أن يخبرني فى المساء عما يحدث وفى الوقت نفسه أكدت له انى مستعد لمحاولة الفرار فى أية لحظة

لم يكد يبدو السحر حتى وصلت الى كوخي الذى تركته منذ ساعات قليلة وأظن أنه من الخير أن أترك للقارىء تصور شعورى وحالتى بدلا من السعي الى وصفها فهذا الوصف مما لاأستطيعه ومن حسن الحظ انى وصلت قبل قدوم أحد الضباط (واسمه عبد الكريم) برسالة من الخليفة يسألني فيها عن سبب تغيبي عن صلاة الفجر فأجبته باني كنت مريضا وفى الحق كانت ملامحى كافية لاغراء الضابط وقوعي فى قبضة المرض الموجع

عبثا انتظرت الاخبار من احد فى ذلك المساء ولم أعلم منه الا بعد يومين عن العرب الذين كانوا معينين لانقاذى فقد رأى أولئك أنه من العسير جدا تخليصى من الاسر ومن المجازفة الخطيرة التقدم لانقاذي فعمدوا الي الرجوع من حيث أتوا وعدم الوفاء بوعدهم . وإذن عجزنا عن تنفيذ خطتنا وقد حمدنا الله حمداً عظيما ازاء منه علينا بالرجوع الى أماكننا دون مراقبة أحد ودون وقوف الخليفةوجواسيسه على سر تغيبنا فى الساعات القلائل المذكورة سالما .

بعد أن رجعت سالما لمكانى فى أم درمان كتبت الى صديقيّ فى مصر شارحا لهم كل ما وقع لي فلم يقنطا واستمرا فى تدبير وسائل المساعدةوهنا اتجهت أنظارهما الى الاب أوهر ولدر الذي — عند ما كان فى مسينا زار أفراد أسرتى وأخذ منهم أقراصا من الاثير تقوى الانسان على احتمال السفر الطويل وتطرد النوم عن المرء . وقد جهز الاقراص المذكورة أوتو كارشيارى وبعد اعدادها وصلت لى كاملة آمنة وقد وضعت تلك الاقراص فى زجاجة صغيرة تمكنت من دفنها بعناية تحت التراب في بقعة لايعرفها أحد غيري

أصبحت واثقا الثقة كلها فى عبد الرحمن واد هرون الذى أرسلته الى مصر برسالة الى البارون هدلر ليعين له (عبد الرحمن) الوسائل التى يراها نافعة ومثمرة في طريق فراري . وقد تم للمرة الثانيـة اتفاق بين السفارة النمساوية في مصر وبين هذا التاجر — وقد تدخل في هذا الاتفاق الماجور ونجت وملحم بك شقير ونعوم افندى شقير — على أن يأخذ عبدالرحمن ألف جنيه تعطى المكافأة (١٠٠٠ جنيه) لعبد الرحمن فى حالة واحدة هي وصولى الى القطر المصري سالما وقد سلمت

السفارة النمساوية هذا الرجل مائتي جنيه لاعداد الاشياء اللازمة قبل الشروع في الفرار.

في ذلك الوقت عين الماجور ونجت حا كما لسواكن وقد خشي عدم نجاح عبد الرحمن فأجري اتفاقا شبيها بالسالف مع رجل عربي اسمه الشيخ كرار وكان المتفق عليه معه السعي الى الفرار بي عن طريق طوكر أو كسلا .

في يوم من الايام سلمني تاجر في أم درمان (قدم ذلك التاجر من سواكن) ورقة كتب عليها ما يأتي :

« مرسل اليكم الشيخ كرار الذي سيسلمك بعض ابر الخياطة كدليل على أن الذي يكلمك هو الشيخ وتأكد أنه رجل أمين وشجاع فثق فيه ثقة تامة وتقبل أصدق التحيات من ونجت » الامضاء : (أوهر ولدر)

عرفت بعد ذلك بقليل من أحد أقرباء عبد الرحمن واد هرون أن الاخير وصل الى بربر من مصر وأنه بدأ يجرى المعدات اللازمة لفراري ولكنه اعتزم — في سبيل ابعاد الريب والشكوك عني — عدم العودة الي أم درمان فكان هذا القرار من جانبه سبب كدر لي .

بدأ اليوم الاول من شهر يناير عام ١٨٩٥ بعد أن قضيت سنوات شدة واضطهاد الى جانب عبد الله المستبد الظالم فهل يمر ذلك العام كما مر أسلافه وهل تأمل في خير جديد نحصل عليه في عامنا الجديد ؟

على أية حال كنت في مستهل ذلك العام شديد الثقة وقد جال بخاطري هاتف يناديني بقرب الافراج عني من ذلك الاسر فكان قلبي يحدثني بأن أصدقائي المخلصين الكثيرين في الخارج سيوفقون لامحالة الى انقاذي وانهم سيكسرون أغلال الاسر ويمكنونني بفضلهم وكرمهم من مشاهدة أفراد أسرتي مرة أخري على الاقل قبل موتي وأني سأنعم بالعودة الى الوطن ومشاهدة رفاق الصبا وأماكن سروري القديم .

في ليلة من ليالي النصف الاول من شهر يناير عام ١٨٩٥ مر بي في الشارع شخص لم تقع عليه عيناي من قبل وقد أشار لي هذا الرجل اشارة فهمت منها أنه يقصد سيرى حيث يسير فخشيت أن يكون جاسوسا فأظهرت له علامة التذمر والاستياء

فأجابني بعد ذلك « انى الرجل الذى يحمل الابر الصغيرة » فلم أكد اسمع ذلك حتى عمنى البشر والسرور فقدت الرجل الى زاوية مظلمة صغيرة مجاورة لكوخي وهناك رجوته أن يسرع فى شرح مهمته لى . فبدأ بتقديم ثلاث إبر صغيرة وورقة صغيرة ثم قال لى بعد ذلك « ان الفرار مستحيل فى الوقت الحالى » . وأضاف الى ذلك قوله « قد أتيت بعد أن اعتزمت عزما أكيدا حملك معي الى كسلا ولكن الفرار الي تلك الناحية أصبح فى الوقت الحالي عسيراً بعد انشاء محطات حربية فى كل من الفاشر وأسوبرى وخور رجب والمطيرة المتصلة بعضها ببعض اتصالا مباشراً الى كسلا » وزاد على ذلك قوله بان أحد جماله قد مات وأنه خسر كثيراً من ماله بالنظر الى كساد الشئون التجارية واذن ليست لديه وسائل كافية لاتقاذى فى الوقت الحالى وتبعا لذلك طلب منى أن أعطيه خطابا للماجور ونجت أسأله فيه تسليمه (الرجل المذكور) مقداراً جديداً من المال وقد وعدني هذا الشخص وعدا أكيدا بانه سيرجع اليَّ فى بحر شهرين

أما انا شخصيا فقد وثقت أن الرجل لن يسمح بتعريض حياته للخطر فى سبيل انقاذى وبما أنه أخبرني بعزمه الاكيد على السفر وعدم تمكنه من التأخير طلبت منه بالحاح أن يقابلنى فى المسجد الكبير مساء اليوم التالى . وعند ئذ افترقنا فرجعت الى مكاني العادى عند باب الخليفة .

أما الورقة التى سلمها اليَّ الرجل من سواكن فتحتوى على توصية ومدح فيه (الرجل) من الاب اوهر ولدر وقد أجبت على هذه الورقة اجابة مختصرة شرحت فيها كل ما وقع لى وعند ماتقابلنا فى الليلة التالية سلمت شيخنا هذا خطابى فأسرع فى ضمه الى جيبه أملا منه أن فيه مايضمن له الحصول على مقدار جديد من المال حسب طلبه . وفى الحق كنت شديد الفزع كثير القنوط وعلى هذه الحالة عدت الي منزلى حيث مررت فجأة بمحمد ابن عم صديقى عبدالرحمن . وكأنما قدرت الاتفاقات أن يسير الي جانبي في تلك اللحظة حيث همس فى اذني « نحن على استعداد » وأضاف الى ذلك « اشترينا الجمال واحضرنا المرشدين في الطريق والوقت المعد لنجاتك هو الربع الاخير من القمر فى الشهر القادم . فكن مستعداً » ولم يضف الى

ذلك شيئاً . وقد شعرت هذه المرة شعورا صادقا بانه من الواجب الابتعاد عن اليأس الذى يتخلل الامل في فترات مختلفة .

قبل أن ينتهي شهر يناير من عام ١٨٩٥ وصل الى أم درمان حسين واد محمود مزوداً بتعليمات وتوصيات البارون هيدلر والماجور ونجت وقد أخبرني هـذا الرجل العربي الجديد أنه على أهبة الاستعداد لحلى على الفرار وقد رجاني حسين هـذا أن اكتب لاصحاب الشأن في مصر بحقيقة ما عمله (حسين) وأن يحمل ما اكتبه الى مصر أحد أشقاء حسين اثناء رحيله للقطر المصري . وبما اني كنت مقيـداً باتفاقي مع عبد الرحمن اضطررت الى الانتظار للوقوف على ما يعمله لعله يوفق الى النجاح ففي حالة فشل مساعيه (عبد الرحمن) عولت على الاستناد الى حسين هـذا . وحتى لا أصدم الاخير — بدلا من تقـديم الشكر له على الاقل — أخبرته باني فى الوقت الحالي أرى صحتي غـير قادرة على موالاة رحلة كبيرة وانى سأخبره بعزمي النهائى في آخر شهر فبراير . وفي الوقت نفسه أعطيته خطابا لاصدقائي في مصر ذكرت لهم عامة ولهيدلر خاصة بأني عولت على الفرار مع عبد الرحمن متمنيا في سعيي هذا توفيقاً تاماً . وفي حالة فشـلي — وقد دعوت الله الرحمن أن يحول دون هـذا الفشل — لا أجد غير (حسين) وسـيلة لفرارى . وانى لا أكتم القارىء حقيقـة ما دار فى نفسي بعد أن كثر عارفو سرى والواقفون على رغبتي فقد خشيت أن يفتضح السر عند الخليفة وإذ ذاك تنزل على صواعق عسفه وغضبه فاني لم أكن أتردد لحظة واحدة في الثقة بان الخليفة فى حالة ريبة جزئية وشك بسيط فى مسعاى سيقدمني الى أشق صنوف الموت بعد أن يلقيني فى السعير (السجن) وبطبيعة الحال كان عبدالله يتلمس أى ظرف للفتك بى لانه كان فيما بينه وبين نفسه يخافنى كثيراً .

أخبرني محمد يوم الاحد ١٧ فبراير سنة ١٨٩٥ فى كلماته القليلة أن الجمال المعدة للفرار ستصـل فى اليوم التالي على أن تستريح من تعبها يومين وفى ليل ٢٠ فبراير نتمم مشروعنا الخطير وزاد على ذلك انه في مساء الثلاثاء ١٩ فبراير سيشـير الي اشارة أفهم منها أن كل شيء قد انتهى على أحسن صورة وأدركت أنا سنقوم بالرحلة الطويلة الشاقة التى تحتاج الى صبر طويل وعزم ثابت .

ظللت انتظر بأمل وخوف فالامل يدفعني اليه ما قضيته من أعوام طوال في عيش مرير قد ينتهي بعد يومين الى حرية مطلقة وأما الخوف فما قد يعترضنا في سبيلنا وعلى أية حال كنت شديد الشوق الى مساء الثلاثاء حتى جاء ذلك الليل والتقيت بمحمد علي باب المسجد الكبير حيث همس في أذني بسرعة داعيا الى الاستعداد للسفر ثم افترقنا على أن نتقابل الليلة القادمة

اني أعترف للقراء أني قضيت القسم الاكبر من تلك الليلة فى حالة اضطراب شديد فكنت بين آن وآخر أقول « هل يفشل ذلك التدبير كسابقه ؟ » وما زلت أردد القول « هل يعترض سبيلنا حادث غير منظور يقضى على كل ما لدى من آمال ؟ » وازاء ذلك الاضطراب الفكرى لم أستطع النوم لحظة واحدة حتى بدا الفجر فمن شدة التعب اغرقت فى النوم العميق ساعتين أو ثلاث ساعات تمنيت بعدها أن أكون فى نشاط يمكنني من الابتداء فى رحلتي الخطيرة

حان صبح اليوم التالي الذى كان معداً لعملنا الخطير فبدأت فى تنفيذ المشروع بالحيلة الوحيدة المعقولة وهى ادعاء المرض فوقفت لدى باب الخليفة وهناك ظهرت بمظهر الضعيف المريض وطلبت من رئيس ضباط حرس عبد الله السماح لي بالتغيب عن صلاة الفجر فى يومنا هذا بعد أن أخبرت هذا الضابط المذكور أني تناولت مقداراً من الشاى والتمر الهندى لتخفيف ما بي من ألم على أن أبقى هادئاً فى منزلي فى اليوم التالي . وقد حمدت الله لاني تمكنت من الحصول على الاذن بالتغيب عن الصلاة وزيادة على ذلك وعد عبد الكريم بأنه سيعتذر عنى لدى الخليفة فى حالة سؤال الاخير عن تغيبي ولم أكن فى شك من أن الخليفة عند ما لا يراني فى صلاة الفجر سيسأل عنى بطريقة ماكرة يريد بواسطتها الوقوف على حقيقة عملي والتثبت من وجودى فى المنزل الا أنه سيدعى طلب الاستفسار عن صحتي بارسال من يراني من قبله واذن فالمسألة خطيرة ومهما يكن الامر فلم تكن امامى أية وسيلة خلاف هذه للاعتذار عن الامتناع عن صلاة الفجر

قبل غروب شمس ذلك اليوم جمعت خدمي وبعد أن أقسم أولئك على الاحتفاظ بالسر وعلى عدم ذكر ما أقوله لهم لاي شخص آخر أخبرتهم أن شقيق الرجل

الذى أحضر لي رسائل و نقوداً مالية وساعات صغيرة من أقربائي منذ سبع سنوات قد وصل أخيراً باشياء أخرى جديدة وبما أنه وصل بدون علم الخليفة فقد اضطررت الى عدم افشاء سر مجيئه الاخير حتى لا تحوم حوله أية شبهة بدون وجه حق وعلاوة على الكلمات السابقة قلت لخدمي إني اعتزمت زيارة الرجل المذكور فى تلك الليلة لاني اعتزمت الافضاء اليه باقوال يذكرها لاقربائي بعد عودته الى مصر ومقابلة قنصل النمسا فى القطر المصري وللاسراع فى تنفيذ الرغبة وابتعاد الرجل عن عيون الرقباء فضلت الافضاء اليه بما عندى فى أقرب ساعة ممكنة من الليل. وبطبيعة الحال صدق الخدم أقوالي لانهم اعتادوا في السنوات الطويلة التى قضوها معي سماع الاقوال والانباء الصادقة منى وعلاوة على ذلك طمع أولئك الخدم فى الحصول على أشياء من الطرائف التي أحضرها الرجل معه من الخارج . واذن اضطروا الى الاحتفاظ بما سمعوه وعدم اذاعة سر ذلك الرجل .

فى سبيل تنفيذ مشروعي الخطير طلبت من خادمي الامين (احمد) مقابلتى فى صباح اليوم التالي في الطرف الشمالى من أم درمان على مقربة من ميدان فير على أن تكون بغلتي مع هذا الخادم في الوقت المحدد . وزدت على ذلك ان نصحت له بعدم الاضطراب أو القلق في حالة تأخيرى عن الميعاد لان العمل الذى رغبت في انجازه يقتضى بطبيعة الحال وقتا كبيراً وعلى أية حال ألححت عليه (احمد) بعدم مغادرة مكان المقابلة حتي أسلمه المال الذى آخذه من الرجل العربى الذى حضر من الخارج وبعد أن يستلمه احمد يوصله الى منزلى ويأخذ مكافأة على ذلك

أما الخدم الآخرون فقد شددت عليهم فى الاحتفاظ بالسر والتزام الصمت الكلى لئلا يصيبنى خطر جسيم من جراء افتضاح الامر المكتوم

أفهمت كلا من خدامي على حدة أنه فى حالة استفسار أحد الضباط عنى من أيهم (الخدم) يكون جوابه على الضابط بأني قضيت ليلة شاقة جداً اضطررت ازاءها الى مغادرة فراشي (المؤلف) ليلا فى صحبة خادمي احمد لسماع نصيحة طبية من شخص لا يعرف أحد مقره . ولكن الذى يعرفه جميعنا (الخدم) هو ذهابه الى شخص خبير بالمرض وملم بوصف الادواء الناجعة

رغبت بعد كل ذلك التضليل أن أسبك حيلتي وأحسن تمثيل روايتي الخيالية فافهمت خدمي باني « مضطر للحصول على مقدار كبير من المال في صباح اليوم التالي فلا حاجة بي الى قسم كبير مما معي لذلك أرى أن أحسن وأفضل مكان يفرق فيه ما معي هو أيدى خدمي الامناء » وحققت القول بالفعل فنفحت كلا منهم ببعض ريالات وكل ما رميت اليه من تضليلي هو تأجيل الميعاد الذي يذاع فيه خبر فراري فقد كنت على ثقة من أن سر تغيبي سيعرف لا محالة سواء أذكر خدمي حقيقة على أم لم يذكروها ولكني الى جانب ذلك عرفت أن تكتم أولئك الخدم سيؤخر انتشار الخبر بضع ساعات تساعدني في الابتعاد مسافة جديدة عن المكان الذي فررت منه . أما خادمي أحمد فكان ينتظرني في المكان الذي عينته له راكبا بغلتي وأما الخدم الذين اكثرت لهم الوعود فعلى انتظار المال الجديد الذي يوزع عليهم بسخاء !!

ادعيت واختلقت من الاقوال كل ما يستطيع العقل التحايل به على أمثال اولئك الخدم السودانيين ولكني وجدت — الى جانب ما قلته ورتبته — الحاجة ماسة الى حساب تدخل الخليفة واستفساره عني فادركت أن الخليفة سيسأل عني فيلقى من خدمي اجابة تدعو الى الريبة والشك وحينئذ يأمر الخليفة أحد الخدم للبحث عن احمد وهذا البحث يستغرق زمنا بطبيعة الحال فاذا ما وصلوا اليه ذكر احمد للخليفة حكاية الشخص المنتظر قدومه لتسليم ما هو خاص بي (المؤلف) وتلك العملية الجديدة تستغرق وقتاً آخر يعقبه فشل الباحثين وعندئذ فجسب ينقب عني العسس والجنود والضباط بعد أن أكون في الواقع اكتسبت الوقت المساعد للفرار .

بعد أن أدركت ذلك عدت الى افهام خدمي بما ينطقون به عند الخليفة في فترات مختلفة

بعد أن أديت صلاة العصر عدت الى منزلي فجمعت خدمي مرة أخرى وشددت عليهم بالاحتفاظ بالسر الهام ثم وعدتهم الوعود الكثيرة بما سأقدمه لهم من هدايا وأموال وبعد ذلك خرجت من عتبة البيت الذي سكنته اكثر من عشر سنين وقبل خروجي توسلت الى الله تعالى أن يحفظني في رحلتي الشاقة وأن يحميني من حياة الاسر والعبودية :

الفصل الثامن عشر

فراري

بعد ثلاث ساعات من غروب الشمس أدينا فريضة صلاة العشاء مع الخليفة فى المسجد الكبير وبعد ذلك عاد (عبدالله) الى مخدعه في بيته الخاص ثم مرت ساعة لم يحدث فيها أى تدخل من أى جانب فيسير الامور سيرها العادى وفى نهاية تلك الساعة ذهب سيدى ومولاى الخليفة عبدالله الى فراشه ولم أكد أثق من ابتعاد الخليفة عن حركاتي حتي حملت الفروة النظيفة التى تعودت استعمالها فى الصلوات الخمس يومياً ثم ارتديت معطفا صوفياً لوقايتي من البرد ثم سرت فى طريق المسجد الى الناحية الشمالية من أم درمان . ولـكنى سمعت صوتا خفيفاً فخشيت وقوف من يعوق فراري الا أنى تبينت الصوت بعد ذلك فعرفت أنه صادر من محمد الذى عينته الظروف الحسنة واسطة لفرارى .

عند ذلك الصوت وقفت فوجدت الى جانب محمدالهادىء الصامت حماراً معداً لركوبي فامتطيت الدابة وأسرعت في مسيرى الخطير في ذلك الليل البهيم . ومن أحسن ما أذكره من دلائل توفيقي فى هروبى الاخير أن الريح الباردة الشمالية اشتدت الى حد اضطر معه كل الآدميين الى الانزواء في بيوتهم الصغيرة اتقاء خطر البرودة القارصة .

سرنا في طريقنا (انا ومحمد) فلم نصادف من الناس أحداً حتى وصلنا الى الطرف الاخير من أم درمان وفي قسم من ذلك الطرف وجدنا بيتا صغيراً مخربا قائماً على زاوية من الطريق الشمالية ومن تلك الدار الصغيرة خرج رجل عربى ومن ورائه جمل معد للسفر فلم تكد تقع عينا الرجل على حتى بادرنى بقوله « سيعينك ذلك الجمل فى رحلتك وسأرشدك فى الطريق الى مصر »

قال لى محمد بعد ذلك : « اسم هذا الدليل زكي بلال وسيسير معك أولا الي الجمال المعدة لاجتياز الصحراء بالراكبين فى بقعة خاصة فاسرع تلق النجاة وانى

شخصياً أتمنى لك سفراً سعيداً واسأل لك من الله الوقاية والامن » ذكر زكي بضع كلمات للجمل دعته (الجمل) الى البروك على الارض فامتطي (زكي) صهوته ودعاني الى الجلوس على جزء من السرج وراءه مباشرة لعدم وجود جملين في تلك اللحظة وبعد ساعة من رحلتنا وصلنا الى بقعة اختبأ فيها بعض الجمال تحت الاشجار الصغيرة وعلى أية حال كان كل شيء على استعداد تام وكنت أنا شخصيا خاضعا لأي أمر يصدر لى من زكي مرشدي في تلك السبيل الخطيرة واذن سمعت كلامه عندما أشار عليّ بركوب جمل خاص

قلت لزكي قبل متابعة رحلتنا « هل أعطاك محمد الدواء » فاجابني (زكي) لم استلم شيئا . وأي دواء تعني ؟ فأجبته بان الدواء الذي أعنيه هو ما يسمونه أقراص الاثير التي تمكن المسافر من مطاردة النوم وتمنحه قوة على مواصلة السفر الطويل الشاق .

ضحك زكي بعد ذلك وقال لي « النوم !! النوم لا تفكر في هذا الموضوع فان النوم لا يجد الى عيني سبيلا وان الله من فوقنا رحيم قدير يمكننا من مطاردة النوم دون الاستعانة بدواء انساني »

لم أجد جوابا علي ذلك سوى قولي « لقد أصبت أيها الصديق كبد الصواب واني مشترك معك في الدعاء الي الله بمد العون الاعلى »

واصلنا السير في طريق شمالية وقد كان من الممكن أن تسرع بنا الجمال في طريقنا الا ان أمرين حالا دون ذلك هما شـدة مافى الليل من حلوكة وبرودة من ناحية وانتشار أعشاب الحلفا وشجر الميموسا فى طريقنا من الناحية الاخرى . وعلى أية حال لم يقف بنا جملانا طول الليل وظللنا ندعو الله أن يمن علينا بالسلامة حتى أشرق نور الصباح البهيج فوجدنا أننا (أنا وزكي) عند أول وادي بشره حيث يجد المسافر واديا ممتداً الى مالا يقل عرضه عن ثلاثة أميال . وتلك الناحية مزروعة ببذور الدخنة من فصل الشتاء حيث يجد أفراد قبيلة الجعليين الساكنون على شاطىء النيل ريا كافيا من مطر السماء

انضم الينا بعد أن غادرنا طرف أم درمان الشرقي قائد آخر صغير السن اسمه

حامد بن حسـين واذن وصلت الى وادي بشره فتمكنت من ضوء الصباح من مشاهدة زكي بلال فاذا به شاب صغير السن مسترسل اللحية والى جواره حامد بن حسين وهو شاب في مقتبل العمر . عندما وقفت الجمال الثلاثة صباحا سألت الرجلين قائلا « من أية قبيلة أنتما ؟ »

فاجابا متضامنين « نحن من جبال جيليف أيها السيدولـكن واثقا أن ارادة الله وحدها هى التى تساعدنا على ارتياحك الينا »

طال الحديث بيننا نحن الثلاثة بعد أن اطمأننت الى ذينك الرفيقين وانتهز أكبر المرشدين سنا ما لقيه فىّ من صراحة وبساطة فقال لي « الى أى مدى بعدنا عن أعدائنا وبعدكم من الزمن نصل الى الجهة التى يضل فيها أعداؤنا عن الوصـول الينا . ؟ »

أجبته على الفور « سيبحث عنى رجال الخليفـة بعد الانتهاء من صلاة الفجر ولـكن ثق أنهم سيبدأون أولا بالشك فى فرارى ثم يعقب ذلك البحث عن الجمال التي يركبها الجنود للبحث عني وكل ذلك يسـتلزم وقتا فثق أن لدينا ما لا يقل عن أربع عشرة ساعة»

فرد على حامد قائلا « ليس هـذا بالشىء الكثير جداً ولـكن اذا ساعدنا الله وقوى جمالنا في مسيرها فان لدينا إذ ذاك أملا قويا فى قطع شوط بعيد أمين . »

اضطررت عندئذ الى القاء السؤال الآتي على حامد«هل لاتعرف قوة جمالنا على السير وهل لم تختبرها قبـلا ؟ » فوجلت عنـد ما أجابني قائلا « انى فى الحق لا أعرف عن تلك الجمال الثلاثة شيئا لانا اشتريناها على عجل فى الوقت الذى سمعنا فيه خبر رغبتك فى الفرار ولكن الذى تثق منه هو أن الذى اشترينا منهـم الجمال قوم مشهورون بامانتهم من ناحية وبمتانة جمالهم من الناحية الاخرى»

ومهما يكن من شيء فقدتابعنا فرارنا بأسرع مانستطيع وقد عدونا بالجمال عدوا لا نتصور فى الارض سرعة لحيوان كتلك التى قام بهاجمالنا الامناء على أنافى الحق أشفقنا على تلك المخلوقات غير الناطقة لما انتابها من شدة وتعب ومما خفف الامر انبساط الارض وسهولة تربتها رغم ماتخللها من اكوام وحفر وبعض التلال الحجرية الصغيرة

ويمكنني التصريح دون مبالغة أنا والينا العدو دون وقوف الى ظهر يومنا ذاك حيث ناداني مرشدى فجأة قائلا . « قف حالا !! ولنبرك جمالنا فى تلك اللحظة ولنكن سريعين في عملنا هذا »

خضعت الامر فوقفنا وبركت الجمال . إلا أني دهشت جداً وتولانى الفزع لوقوف الجمال فى حين أنى اشاهد الجمال وجوادين فى مسافة بعيدة ولم أكن اشك في ان الاعداء قادمون للانقضاض عليّ وعلى المرشدين اللذين معى . فأعددت مسدسي (من طراز رمنجتون) للدفاع عن نفسى وعمن معى وقت الهجوم وعند ذلك قلت لمن معى « اذا كنا الآن مكشوفين أمام عيون اعدائنا فلنسر فى متابعة الهروب بهدوء ونظام لان بروك جمالنا ووقوفنا متجاورين ممايبعث الشكوك والريب الى اولئك الجنود الذين يتعقبوننا واذن ففي أيه طريق هم سائرون ؟ »

أجابني حامد بن حسين « انك على حق في كل ماتقول اما الطريق التى يسيرون فيها فهي الشمالية الغربية »

تيقظنا بعد ذلك من غفلتنا وغيرنا طريق سيرنا فجعلناها الشمالية الشرقية وكنا مطمئنين كثيراً وواثقين بأنا سرنا غير منظورين من اولئك المراقبين . ولكننا فزعنا جداً عند ماشاهدنا على بعد الفى متر تقريبا أحد الجنود التابعين للخليفة مسرعا امتطاء جواده ومتجها الى ناحيتنا

قلت لحامد بعد ذلك « اخبرك ياحامد بانى سأسير جنبا مع زكي فهل تستطيع ايقاف ذلك الرجل القادم الينا واجابته عما يلقيه من أسئلة؟ وعلى أية حال فاطلب منك أن تمنعه »

لم يكد يصل حامد الينا حتى قال بصوت مرتفع « أشكر لله فضله شكراً جزيلا على نجاتك فان الرجل الذى كان يتعقبنا صديق خاص لى اسمه الشيخ موضال وقد كان سائراً فى طريقه الى دنقله ليحضر كميات من البلح الى أم درمان وقد استفسر مني الرجل عن سبب مرافقتى للرجل المصرى الابيض صاحب العينين الشبيهتين بعينى الصقر . »

عندما انتهي حامد من كلامه أجبته (المؤلف) على الفور « ماذا كان جوابك على سؤال ذلك الشيخ ؟ »

فقال حامد بأنه طلب من ذلك الشيخ بصفته صديقا مخلصا له أن يحتفظ بالسر وأعطاه في سبيل ذلك عشرين ريالا من عملة ماريه تريزه ثم أردف ذلك بقوله لي « نحن العرب ميالون كثيراً الى اقتناء المال فلم يكد يحصل مني صديقي على ذلك المبلغ حتى أقسم لي قسما غليظا بانه لن يفشي سرنا بحال من الاحوال وأنه سيمسك لسانه عن الكلام في حالة التقاء متعقبينا به » أما في ما يختص برفاق صاحبي الشيخ فمن الغباوة بدرجة لا يميزون معها بين الابيض والاسود ولا يعرفون الفرق بين العربي السوداني والاوربي الابيض ما دام المطلوب تمييزهم مقنعي الوجوه . هذا الى أن الوقوف مع أولئك مكن زكي ومكنني (المؤلف) من قطع مسافة بعيدة عن الانظار

عندما غربت الشمس تجاوزنا تلال هويبجي ثم نزلنا عن جمالنا للاستراحة في الخلاء وبقينا هناك نحواً من ساعة وتلك الناحية التي عسكرنا فيها تبعد مسير يوم غربي شاطىء النيل ولم نكن في راحتنا الصغيرة نرمي الى اراحة اجسامنا بل كنا أولا وأخيراً نقصد استراحة جمالنا صاحبة الفضل في حملنا الى حيث نتمتع بالحرية . وأظن أنه لم يكن ميسوراً لنا الاستمرار في العدو بعد أن واليناه احدى وعشرين ساعة دون انقطاع منذ غادرنا طرف أم درمان الشمالي . ولم نأكل طول يومنا وكل ما مكننا من تغذية اجسامنا به هو قليل من الماء لكل من الثلاثة العاديين

في تلك الساعة التي ارتحنا فيها وأرحنا جمالنا كنا شديدي التعب ولكنا على الرغم من ذلك أكلنا بلذة وشهية مفتوحة مقداراً من العيش القفار وكمية من البلح .

بعد أن أكلنا قال لي مرشدي حامد « لنقدم الاكل لجمالنا وبعد ذلك نوالي السير السريع أما أنت فاظنك في أشد حالات التعب »

أجبته بسرعة « لست أشعر بشيء من ذلك التعب الذي تعبته لانا في أوربا نعد الوقت من ذهب فاذا كنت في صغري تعلمت ذلك فاني أزيد عليه في حالتي هذه بان الوقت حياة كاملة فلنسرع جداً في عملنا »

تولانا الجزع عندما رفض كل من الجمال الثلاثة تناول شيء من الاكل لانا قدرنا في الحال أن الجمال لن تستطيع السير وأن المانع لها من الاكل هو شدة ما انتابها من تعب الاجهاد في العدو وعلى أية حال عمدنا في تلك اللحظة بعد أخذ

مشورة حامد الى ايقاد نار قليلة الكمية فوق مقدار كبير من الخشب المحروق وصببنا على الخشب والنار جزءاً من الراتينج

بعد الانتهاء من تلك العمليـة وضع حامد الخشب والنار فوق قطعـة خشبية مستطيلة ومر بها حول الجمال ذاكرا بعض كلمات لم أفهم منها شيئاً

تساءلت عند ئذ بشيء من الدهشة ماذا تصنع ياحامد فأجابني « اني أخشى جداً أن يكون فقهاء وقضاة الخليفة عبد الله قد رقوا جمالنا بما يعرقل سيرنا وينجح مقاصد الخليفة وهذا الخوف يدفعني الى استعمال الترياق العربي الذى يفسد سم الحاسدين »

أما ذلك القول فلم يجد مكانا في خاطرى بالطبع وكل ما أجبت به عليه هو « اني أخشى أن تكون الجمال من الفئة الثانية فى السوق وأخشى الى جانب ذلك أن تكون قد تعبت وينبغى أن يترك قسط آخر من الراحة لها عسى أن تتقوى وتنهض بعد ذلك »

انتظرنا نصف ساعة فى مكاننا ظنا بأن الجمال ستأكل بعد ذلك ولكنها امتنعت عن تناول أي طعام فخشينا ضياع الوقت وتمكن اعدائنا من الوصول الينا فاضطررنا الى اعداد جمالنا للركوب وبالفعل قمنا على ظهور جمالنا لمواصلة العدو . أما الجمال فامتنعت عن الجري وكل ماسمحت لنا به هو سير عادى جداً فالتزمنا مطاوعة الجمال في رغبتها وبقينا فى سيرنا البطيء هذا حتى وجدنا أنفسنا وقت شروق الشمس عند الارض المرتفعة شمال غربى متمة

شعرنا عند ئذ بضعف الجمال وتضاؤل قوتها فولد ذلك فى نفوسنا جزعا مستمراً وأصبح من المؤكد لدينا أن الجمال ان تستطيع الوصول الى المكان الذى نريد الانتهاء اليه . — وهذا المكان هو الواقع على مسـير يوم شمالى بربر في طرف الصحراء — حيث اقتضي الاتفاق السابق تغيير الجمال

عند ما أقبل الظهر أرحنا جمالنا فى ظل شجرة باسقة واتفقنا على السير الى ناحية جيليف — الواقعة على مسير مايقرب من يوم في الطريق الشمالية الغربية — حيث

أظل متخبئا فى التلال غير المسكونة وغير المطروقة حتى يتمكن مرشداى زكي وحامد من احضار جمال صالحة لاتمام الرحلة

عند غروب الشمس كانت الجمال صالحة للسير السريع بعد أن ارتاحت قسطا وافراً من الزمن فركبنا الجمال ذاتها ووصلنا في فجر اليوم التالى الي سفح جبل جيليف حيث لا ساكن من بني آدم على الاطلاق

شكرنا الله فضله عند ما بلغنا تلك البقعة ثم نزلنا عن جمالنا وسقناها أمامنا فى رحلة شاقة سرنا فيها على الاقدام مايقرب من ثلاث ساعات فى واد لا تتخلله غير الصخور المرعبة المنظر

ينتسب مرشداى زكي بن بلال وحامد بن حسين الى قبيلة كبابيش فجبل جيليف معروف لديهما حيث ولدا الى جواره فهما اذن على معرفة تامة بكل ممر في ذلك الجبل فاستحسن رفيقاى فى تلك البقعة خلع السروج عن الجمال ووضعها على صخرة بجانبنا .

قال لى حامد بن حسين عند مابلغ ثلاثتنا هذه الصخرة « لقد وصلنا الى وطننا ولا ريب في أن الوطن يحمي ابنه الذى يلوذ به فاطمئن أيها الضيف وكن واثقا أنه لن يصيبك أى أذي مادمت فى أرضنا . فاسترح هادئا ولازم تلك البقعة حيث لايشاهدك متعقب أو مراقب خارجى . وها هي على بعد أقل من مائة متر عين الماء الشهيرة المتفجرة بين الصخور فسأذهب اليها بالجمال لاسقيها منها وسيحضر لك زكي قربة صغيرة مملوءة من ماء تلك العين وفوق ذلك سأخفى الجمال في مكان أمين بحيث لن يستطيع الجن ذاته الوصول الينا والى جمالنا واذن فلننتظر هنا حتى انتهى من التفكير فيما سنتبعه بعد ذلك »

بقيت وحدى ولا أكتم القارىء حقيقة اضطرابى ووجلى فى ذلك القفر الموحش وعلى أية حال استسلمت الى المقادير ودعوت الله أن ينقذني ففكرت فى السير السريع الى الحدود المصرية وأخذت أفكر وتتساورني الهواجس من كل ناحية وبقيت على تلك الحال ساعتين كاملتين جاء بعد انقضائهما صديقي زكي بن بلال حاملا قربة الماء على كتفه ولم يكد يصل اليّ فى وحشتي حتى نادانى قائلا :

« ذق طعم ماء وطنى العزيز تلقه نقيا خالصا هنيئا للشاربين ولتثق أيها الضيف العزيز أن وطنى الذى حملك سالما سيودعك سالما حتى تصل الى الارض الامينة حراً وتأكد أن كل شيء سيجرى فى أحسن صورة بعون الله ولطفه وأن النهاية ستبدد جميع ماحاق بك من آلام ومصائب لا في تلك الرحلة فحسب بل في السنوات الماضية الطوال التى قضيتها أسيراً في أم درمان »

شربت مقداراً قليلا من الماء فوجدته شهياً جداً مصداقا لقول زكي الذي أعجبنى منه حبه الشديد لوطنه رغم ماهو الوطن فيه من فقر ووحشة على النازحين اليه

قلت لزكي « انى على ثقة من الفوز ولكننى أخشى التأخير فأجابنى على الفور «معلهشي» كل شيء بارادة الله وعسي أن يبعث الله لنا الخير في هذا التأخير واذن فلننتظر حامد بن حسين صابرين واثقين في لطف الله

وصل الينا حامد بعد مرور بضع دقائق على ظهر اليوم المذكور وبعد مجيئه تناولنا نحن الثلاثة حامد زكي وأنا طعامنا البسيط العادى المكون من الخبز والتمر وبينما نتناول طعامنا استصوب زكي ركوب جمله والوصول الى الاصدقاء الواقفين على سر نجاتي على أن تستغرق تلك الرحلة يومين متواليين يتمكن زكي بواسطتهما من الحصول على جمال جدد .

قال لى زكي قبل رحيله سأركب الجمل بشارن لانه أقوى الجمال الثلاثة ولم يصب بعد بالكلال الذى يحول دون مواصله الرحلة الجديدة . وهانحن فى مساء السبت فسأواصل رحلتى طول الليل وسحابة يوم الاحد حتى اذا أحيانى الله الى صباح يوم الاثنين وصلت الى البقعة التى اتفقت مع أصدقائي على الالتقاء فيها. وقد اضطر الي البقاء هناك يوما أو يومين فىحالة عدم وجود جمال مستعدة لمواصلة الفرار وعلى أية حال — مالم يعقنى مانع قهرى جداً — سأرجع الى مكانى هذا — الذي انا فيه الآن — يوم الخميس أو يوم الجمعة على أكثر تقدير

أجبت صاحبى زكي بن بلال قائلا أرى الخير في تأجيل المواعيد المذكورة وتأكد انا في انتظارك هنا لغاية يوم السبت أما اذا وصلت الينا قبل ذلك فلا مانع وعلينا أن نضاعف الشكر لله في تلك الحال ولكن الشيء الوحيد الذى نرغب دائما

فى أن تذكره هو أن مصيرنا بين يديك بعد اذن الله فلا تمهل فى شيء على الاطلاق وأطلب اليك الى جانب ذلك أن تكون حذراً أشد الحذر في احضار الجمال بحيث تنتقي أجودها وأقدرها على مواصلة السير حتي لا يصيبنا فى المرة الجديدة ما أصابنا فى سابقتها .

وضع زكى يده في يدى بعد سماع اقوالى وودعنى قائلا « ثق فى حظنا الحسن ثم اعتمد على نيتى الحسنة واخلاصى الشديد »

فاجبته شاكراً وقلت له « الله وحده قادر على أن يحميك ويرجعك الينا عاجلا فى سلم وعافية » . وضع زكي بعد ئذ قليلا من التمر فى قطعة من القماش ليأ كل وقت جوعه أثناء رحلته القصيرة ثم حمل سرج الجمل على ظهره ثم وصف له حامد المكان الذى اختبأ فيه الجمل بشارن الذى استعان به صاحبنا زكي فى سيره وقبل عدوه شدد علينا فى أن نضلل افكار الناس — اذا وجد أناس فى ذلك القفر — عنه وما هي الا دقائق حتي اختفى زكي عن أنظارنا . ثم عمدنا بعد ذلك الي ابعاد الاحجار الصغيرة عن الارض التى قررنا قضاء ليلتنا نائمين عليها حامد وانا وقد وفقنا في عملنا هذا توفيقا عظيما . »

بقينا حامد وانا صامتين فترة طويلة شغل فيها كل منا بالنظر الي الطبيعة والتفكير فيما راق له أن يفكر فيه وبينما أجول ببصرى فى ذلك القفر الواسع قال لى حامد « عندى اقتراح أود عرضه عليك ويتلخص ذلك الاقتراح في أن لي قريبا اسمه ابراهيم باشا له النفوذ الكلى على منطقتنا الجبلية هذه بصفته شيخها ولهذا الشيخ منزل في سفح التل على مسافة أربع ساعات من مكاننا الذى نحن فيه الآن واءن كنا الى الآن محجوبين عن انظار الآدميين فمن الخير أن نعلم شيخنا ابراهيم بوجودنا حتى يكون على بينة ويدلى الينا بما يراه ملائما لنا في عزلتنا هذه وسأذكر له موقفنا بالضبط بدون ذكر اسمك وهو مضطر اديبا على الاقل — بما لى عليه من حق النسب — أن يؤوينى ويجد لى ولك مكانا أمينا وينصح لنا بالمغادرة فى الوقت المناسب وذلك فى حالة تمكن دارس الأثر ومتعقبه من اقتفاء خطواتنا عند سفح التل — وهذا بعيد جداً - فاذ وافقت على رأيى فانى اسير اليه فى جنح الليل حتى أراه

وأنا فى أمن من عيون المراقبين وبعد مقابلته أرجع اليك قبل صباح اليوم التـالى »
لا اكتم القاري، حقيقة ماجال في خاطري من سرور يداخله شيء من الخوف وعلى أية حال أجبته بالموافقة قائلا له « ان المشروع حسن ويحسن بك أن تحمل معك عشرين ريالا تقدمها هدية لصاحب المنزل ولا أزيدك توصية فى الامتناع عن ذكر ذلك لاحد كائنا من كان . »

تركنى حامد عند غروب الشمس فبقيت وحدى هدفا للافـكار المتضاربة والهواجس المختلفة فتذكرت أفراد أسرتي وأصدقائى العديدين « فى أوربا ومصر » وذكرت بصفة خاصة أصدقائى العرب والسودانيين الذين لم يحل اختلافهم فى الجنسية والدين دون اعترافى لهم بالشكر الخاص وتقديرى ما قاموا به في سبيل راحتي ونجاتي وانى لن أنسى جهاد اولئك الاصدقاء الذين لم يرهبهم رجوعهم بعد نجاتي الى حيث يقاضيهم أعدائى ويحاسبونهم حسابا عسيراً . تذكرت فى عزلتي القصيرة هذه أعز من لى في الدنيا واقصد بهن وبهم شقيقاتي وأصدقائى المقربين وكنت أسأل الله فى كل لحظة أن يمن عليّ بنعمة العودة الي وطنى العزيز وما زلت علي حالتى هذه حتى غلب عليّ النوم فالقيت بجسمى الضعيف على الارض المتربة ولم أستيقظ من نومى اللذيذ — رغم خشونة الارض التى نمت عليها — الا قبل الفجر وبعد قليل من صحوى سمعت صوت قدمين فتأكدت أن مرشدى حامداً هو القادم وبالفعل وصل حامد وقال لى « تسير الامور في أحسن أحوالها فان نسيبي الشيخ ابراهيم يرحب بضيفه الذى لا يعرفه ويسأل له الوقاية وعون الله فلتتدرع ايها الصديق بالصبر لان هذا كل ما تملكه الآن ولعله خير ما يملك الانسان في محنته »

جلس حامد بعد عودته من منزل الشيخ ابراهيم على حجرين كبيرين قاتمي اللون بحيث أصبح من العسير ايجاد فارق في اللون بين بشرته والصخر الذي يحمله . أما غرض حامد الاساسى من جلسته هذه فهو مراقبة الناس بطريقة تبعد أنظارهم عنه

بقى حامد في مكانه هـذا وأما أنا فجلست على الارض الى جواره مستظلا بشجرة ممتدة الفروع تصادف وجودها بين الصخور السوداء ولم يكن لنا حديث فى تلك الفترة سوى ماضي وحاضر البلاد الصحراوية التي ظللتنا وقد سعى حامد جهده

فى شرح حالة وطنه الذى كان يذكره بالاعجاب ويعطف عليه عطف المخلص للارض التي ولد فيها

بعد أن مر وقت الظهر بساعات قلائل سمعت من الخلف وقع أقدام فادرت وجهى الى ناحية الصوت فرأيت على بعد مائة وخمسين ياردة رجلا يتسلق المنحدر المقابل لمكان جلوسنا عاملا على وضع فروة مستطيلة فى يده على جزء من ذلك المنحدر وفى الوقت نفسه شاهدته وهو يضع عمامته على رأسه وقد أدركت فى الحال — بعد التيقن من الجهة التي كان قادماً منها — أنه يقصد الوصـول الينا من ناحية وأنه رآنا من الناحية الاخري

كنت في حالة اضطراب فبادرني حامد بقوله « مهما يكن الامر فان القادم أحد أبناء وطنى فقد سمعت صوته ووقع نظرى على سحنته وعلى أية حال فانى أفضل التقدم اليه والتكلم معه فهل توافق على رأيي هذا ؟ » فاجبته « لا ريب في أنى معضدك فى كل ما تراه ملائما لنا في تلك الحال فاسرع لمقابلته واذا اقتضي الحال تقديم شيء من المال لا تتأخر عن ذلك »

ترك رفيقى حامد مقعده الصخرى وسار الى الرجل بخطى سريعة متلاحقة ثم وصل الى قمة التل واختفي عن بصرى ولم تمر بعد ذلك بضع دقائق حتى شاهدتهما كليهما (حامد والرجل الآخر) قادمين الى مكاني بثغرين باسمين وقبل أن يصل حامد إلي قال بأعلى صوته وهو في حالة بشر واغتباط « انا موفقان سعيدا الحظ فالرجل واحد من أنسبائي الاقربين لان والدته ابنة خالة والدتي »

أقبل الرجل نحوى وقدم يده للسلام علي فصافحته مغتبطا ثم قال لى عندما جلس على الحجر المجاور لمكاني « السلام عليكم أيها الصديق ولتكن واثقا أنك لن تصاب بأذى من ناحيتي »

أعطيت هذا الصديق السودانى الجديد كمية من البلح وطلبت منه فى رفق وأدب أن يذوق هذا الطعام البسيط الذى أعاننا على الجوع فى رحلتنا الشاقة ثم سألته بعد ذلك عن اسمه فاجابنى قائلا « يدعوني الناس على واد فيض وأظن أنه من الوفاء لك أن أخبرك الحق »

أسرعت بعد ذلك في استيضاح الحقيقة فاجابني بمنتهى الصراحة « لم أكن متجها الى الخير فى تصرفى معك ولولا الالتقاء بقريبى لكان الشر لاحقاً بك لامحالة وتفصيل ذلك اني غيرت الارض التى كانت ترعي فيها ماشيتى فوصلت منذ أيام قلائل الى سفح التلال التي تراها الآن منحدرة الى الجنوب وبعدذلك اتجهت الى الشقوق القائمة بين الصخور عساني أجد ماء وفيراً نقيا أشرب منه كما ترتوى منه جمالى وبقية ماشيتي لان الماء الذى كان لدينا قبل ذلك غير كاف لمن يعيش الاسابيع والشهور مع عدد غير قليل من الماشية . ولم أكد أصل الى تلك الشقوق حتى شاهدت آثار خطوات جمل فتعقبت الأثر وبعد مسافة مئات من الياردات وجدت آثار قدمي رجل أبيض مبتدئة من مكان بعيد عن الانظار فتحققت أن رجلا غريبا دخل تلك الارض واختبأ بين صخورها رغبة فى الفرار دون شعور المراقبين بمروره فعدت أدراجى مصمما على العودة ليلا ومعي بعض رفاقي لنسهل عليك رحلتك الباقية بالانقضاض عليك واراحتك من الدنيا وما فيها من تعب ومشقة فالحمد لله الذي حال دون اتمام عملى الاجرامي حيث أرسل اليّ ابن خالتى — حامد الذى أفهمنى الامر كله في وضح النهار وأكرر الشكر لله لاني لقيته في الصباح فلو أن ذلك كان ليلا لما عرفت حامداً ولانتهى الامر شر انتهاء »

أنصت حامد لكل ما قاله ابن خالته باهتمام وسكون وبعد الانتهاء قال حامد « سأخبرك ياعلي واد فيض قصة صغيرة فانصت ! كان والدى منذ سنوات طويلة وقت أن كنت شابا صغير السن وايام حكم الاتراك لهذه الجبال — شيخ المنطقة التي نحن فيها وكان المحتكمون اليه من الرعايا كثيرى العدد . وفى ليلة من ليالى ذلك العهد وصل الى بيت أبي رجل هارب طلب منه الامان وقد كان هذا الرجل مطاردا من جنود الحكومة لانه اتهم باللصوصية والاعتداء على حياة بعض التجار فتمكنت الحكومة من أسر زوجاته أما هو فوجد عضداً قويا ونصيراً أمينا حيث أظله أبي واحتفظ بالسر

مرت بعد ذلك الحادث سنوات انتقل فى خلالها والدى الى منطقة بربر فتمكن بعد دفع المال وتقديم ضمانات متنوعة من اصدار العفو عن هذا الرجل المطارد الذى

لم يستطع متهموه ايجاد جريمة معينة يحاكم بمقتضي ارتكابها ولم يكتف والدى بذلك بل ذهب الى الجهات المختصة وقدم نفسه كفالة عن زوجات ذلك الرجل وبذلك حصل على أمر ثان باطلاق سراح زوجاته بعد أن قاسين فى السجن الكثير من الآلام والاتعاب وبعد كل ذلك يسرني أن أخبرك بان الرجل المذكور اسمه فيض »

بينما يتابع حامد أقواله قاطعه على واد فيض قائلا « وأضيف الى اقوالك بان الرجل المذكور هو ابي الذي ولدني ورباني » ثم تغيرت ملامح وجهه واستمر فيقوله « ولدت فى زمن متأخر وسمعت هذه القصة يا حامد من والدتى العزيزة قبل موتها وازاء ذكر تلك الوالدة الطيبة أطلب من الله الرحمة لها . وبعد وفاة والدتي قال لى شقيقي الاكبر ان خير ما أعمله فى الحياة هو القيام بالجميل نحو ابن الرجل الذى أدى جميلا لوالدى واذن فانا مدين لك بالشكر يا حامد حتى أوفى ما على أبي نحو ابيك فثق أنى حاميك وحامي من معك بغض النظر عما تقومان به من خير أو شر لاني أذكر شيئا واحداً هو اني مدين لك بالجميل فاتبعني حتى ارشدك الى أحسن مكان أمين تختبيء فيه مع صديقك الابيض »

رجعنا بعد ذلك جنوبا الي ناحية التلول مسافة لا تقل عن الني ياردة ثم انتهينا الى بقعة شبيهة بالكهف تتخللها الواح صخرية تحجب من وراءها عن الانظار ولا ريب أن البقعة المذكورة كافية لاختفاء اثنين بالغين من ضخامة الجسم ما بلغا .

اخذ على واد فيض يسدى الينا نصائحه وتعلياته بعد ذلك فقال « عندما يحين المساء أحضرا امتعتكما الى هذا المكان بالرغم من عدم وجود ما يدعو الى الخوف فى أية ناحيه مجاورة لان التلول التى امامنا بعيدة عن اقدام الآدميين الا أن الحذر الشديد يدعوكما عندما يجن الليل أن تختارا بقعة آمنة هادئة ملساء لتقضيا ليلتكما عليها بعيدين حتى عن رقابة الجن وقد تدعوني أمانتى الشديدة لكما الى القول بان من المستحيل أن تكونا واثقين الثقة كلها فى أن بعض الانظار لم تقع عليكما وأن بعض الناس ما اعتزموا ما كنت معتزما تنفيذه قبل ملاقاة حامد وأعنى بذلك انتهاز فرصة ظلام الليل للانقضاض عليكما . »

بعد أن انتهى على من قوله الصادر عن اخلاص شديد قال « لقد أطلت فى

حديثي وقضيت وقتا طويلا بعيداً عن مكاني فسأضطر الي العودة لتسقط الاخبار واستماع ماقد يدور حولكما من نبأ على أن أعود اليكما غداً في ساعة من ساعات الليل المظلمة وستعرفانني بصوت خفيف يشبه الصفير فالى الوداع حتى ألقاكما في خير غداً»

أصغينا الى نصيحة علي واد فيض فاخترنا مكانا للنوم وفي فجر اليوم التالي قبل شروق الشمس عدنا الى كهفنا ثم صعد حامد بن حسين قبل الظهر الى قمة أحد التلول لمراقبة الناس وكان عمله هذا شبيها بالضابط الذي يقف في أعلى القلعة لمشاهدة طلائع العدو . ظل حامدساعات في مكانه هذا ولم يأت الى المغارة الا عند ماأحس بالجوع الشديد وقد قدر لنا أن ينتهي ما معنا من خبز في ذلك اليوم فلم يبق في جرابنا سوى مقدار من الملح

بعد أن غربت الشمس بساعتين سمعنا صوتا خفيفا أشبه بالصفير فتأكدنا أن صاحب الصوت هو علي واد فيض وقد تحقق ظننا لحسن الحظ حيث وفى صاحبنا وعده ووصل الينا في الميعاد المضروب من قبل . لم يكن علي وفيًّا في وعده فحسب بل كريمًا ايضا حيث أحضر لنا في عزلتنا هذه كمية كبيرة من اللبن في قربة من جلد الغزال (اعتاد العرب السودانيون دبغ جلود الغزلان الصغيرة واعدادها اواني للبن) والى جانب ذلك مقدار من الخبز المصنوع من الذرة

قال لنا علي عند ما وصل الينا وبعد أن سلم علينا « قلت لزوجتي إني خارج لمقابلة ركب الحجيج السائر الى أم درمان لزيارة قبر المهدي ولي الرغبة في اظهار شيء من الكرم العربي لاولئك المسافرين في رحلتهم الشاقة وفي الحق لم يمنعني عن ذكر الحقيقة لها إلا خوفي من انتشار الخبر لان إمرأتي ثرثارة »

ابتسمت في وجه علي وقلت له « يظهر أن الامر واحد في جميع البلاد فان الكثيرين من الرجال في بلادنا الاوربية يشكون مر الشكوى من نقل الحديث بواسطة زوجاتهم » فارتاح كل من حامد وعلي الى قولي هذا وبعد الانتهاء قال علي «جبت الوادي الضيق وسرت الى مجالس الكثيرين من العشائر ليلة الامس وصباح اليوم فلم أسمع ما يخيفكم فكلا وأشربا مرتاحين مسرورين لاني على ثقة تامة في حظكما الحسن »

قبل أكل الخبز الشبيه بالكعك وشرب اللبن قدمنا الشكر الجم لعلي إزاء هديته الثمينة ثم طلبت منه بعد ذلك، أن يرجع الى بيته حتى لا يثير الريب والشكوك في نفوس أبناء عشيرته بعد تغيبه الطويل عنهم ثم أسررت الى حامد أن يمنح عليا خمسة ريالات قبل رجوعه الى بيته .

عند ما استأذن صاحبنا علي فى الانصراف قلت له « نود أن نراك دائماً أيها المخلص الوفى ولكن الخير فى أن ترتاح فى بيتك وأن تبتعد عما يثير أى شك لان ذهابك وايابك يثيران الريبة بين رجال قبيلتك وقد تترك خطواتك أثراً بارزاً على الرمال يستطيع بواسطته متعقبونا أن يهتدوا الى مكان اختبائنا هذا ولا نطلب منك العودة إلا فى حالة سماع أخبار غير سارة تستدعي هروبنا الى مكان جديد واذن فالوداع من أخ يشكر لك جزيلا ما قدمته له من ولاء واخلاص »

سار حامد بن حسين بعد ذلك مع صديقه علي واد فيض بضع دقائق وبعد رجوعه قال لي « رفض علىّ قبول الريالات الخمسة رفضاً باتاً ولم أستطع التغلب عليه واقناعه بقبول الهدية البسيطة إلا بعد أن أكدت له بان رفض المبلغ يكدر خاطرك — المؤلف — »

بعد أن سافر علي الى بيته وعاد حامد الى الكهف قضينا (حامد وأنا) فترة صغيرة فى الكلام ثم سرنا الى مكان النوم الهادىء حيث قضينا ليلتنا الى صباح اليوم التالي دون أن يعكر صفو النائم قلق او اضطراب ، وعند اشراق الشمس عدت الى الكهف وسار حامد الى قمة التل لمراقبة الناس كما عمل في اليوم السالف . ومما أذكره عن ذلك اليوم أنه مر ساكنا دون وقوع أى حادث مزعج ولكنى أذكر الى جانب ذلك أنه كان طويلا علينا حتى خيل لنا أن ساعاته أطول من الساعات اليومية العادية . فكانت كل ساعة من ساعاته يوما كاملا حيث مرت الافكار المتعاقبة وأخذت أذكر سنى الاسر وحوادث العسف والاضطهاد وفى الحق كنت صبوراً جداً على ذلك المضض وسواء أصبرت أم لم أصبر فلم يكن أمامي ما يعزيني فى نكبتي وما يفرج عني بليتي سوى اعتقادى الراسخ فى لطف الله وفضله وثقتي فى قرب عتقي بحرية دائمة صحيحة هى تلك التى خلق الناس ليتمتعوا بها في الحياة .

قبل انتهاء كمية الماء التى فى قربتنا ذهب حامد الى الشقوق القائمة بين الصخور المجاورة ليملأ القربة وفى الوقت نفسه فكر في احضار الماء للجملين اللذين أنهكهما التعب من قبل والاكل الردىء الآن لانهما لم يجدا من الطعام سوى أوراق الاشجار والاجمات.قال لي حامد قبل ذهابه للشقوق « سأرجع بعد اربع ساعات تقريباً فالتزم السكون والهدوء فى كنك واذا ظهر في مدة غيابي القصيرة أى مخلوق آدمي ـ واسأل الله ألا يظهر في تلك الفترة أحد ـ فاخبره أن حامد واد شيخ حسين قادم بعد قليل من الزمن لان الشخص الذي يظهر سيكون من أبناء وطني بلا جدال فان الشخص الغريب يخشى المجىء الى ناحيتنا ومهما يكن الامر فلا تخض مع الشخص ـ الذى يظهر لك ـ فى الحديث وأول ما أحذرك منه هو سفك الدماء فلا ترق دم أحد مهما ارتبت فيه وانتظر حتى أعود اليك »

أجبته على الفور « سأنفذ نصيحتك مهما تكن الحال وعلى أى حال فأنا واثق انك ستجدنى في هدوء وأمن عند ما ترجع لي »

بعد أن غاب حامد عنى بضع ساعات عاد وقربته مملوءة بالماء ثم قال لي « لقد سرني وجود الجمال في حالة أحسن بكثير من الحالة التى كانت عليها وقت وصولنا الى ناحيتنا وعلى الاقل هى فى راحة كافية » وبعد ذلك أظهر لي انه فى جوع شديد ولم يكتم حاله حيث قال لي « اعطني كمية من البلح لاني جوعان وسأضطر الى العودة لقمة التل لمراقبة الناس »

مر ما تبقى من يومنا فى هدوء وأمن ولكنه كان بطيئاً علينا كيومنا السابق وعند ما جنّ الليل سحب كل منا شخصه الى مكان النوم وبعد أن تحادثنا بصوت خافت جداً بعد أن دعونا الله أن يبقي لنا نعمة الصبر نام كل منا ملء جفنيه حتى صباح اليوم التالي:

ذهب حامد صباح الخميس الى مكان المراقبة المعروف وقبيل الظهر شاهدته نازلا بسرعة من قمة التل فأسرعت الى تجهيز بندقيتى.

قبل وصوله اليّ سألته عن الخبر فأجابنى « اني أشاهد رجلا متجهاً بسرعة الى مكاننا الاول الذى كنا فيه قبل مجيء علي واد فيض فلا بد أن يكون هناك شيء مهم فانتظر فى مكانك لانى سأذهب لملاقاة ذلك الرجل على أن أرجع اليك بعد ذلك »

جلست في مكاني وانتظرت مدة خيل الي — رغم قصرها — أنها الابد الطويل ثم رفعت بصري بحذر فاذا بي أشاهد رجلين من مسافة بعيدة قاصدين مكاني . وقد تمكنت عيناي من تقرير أن القادمين هما حامد بن حسين وزكي بن بلال . فخرجت من مغاراتي وحينذاك أسرع زكي قائلا بأعلى صوته «السلام عليكم ياسيدى فابتهج بالا لانك ستسمع ما يرضيك ويسرك» وبعد أن سلم علي يدا بيد قال « حضرت ومعي جملان جديدان كاملا القوة وقد خبأتهما فى مكان أمين مجاور لبقعتنا هذه وسأرجع الآن لاحضارهما »

لم تمض ساعة حتى أحضر زكي الجملين . فقلت له بسرور كلى « انك سريع جداً فى عملك العظيم فأخبرنى قصتك منذ غادرتنا »

أجابنى زكي « غادرتك مساء السبت الفائت فركبت جملي طول الليل وسحابة اليوم التالي — الاحد — وقد كان جملى بشارن موفقا فى سيره السريع رغم وعورة الارض وفي صباح الاثنين وصلت الى أصدقائي وفي الحال عنيّ أولئك الاصحاب باحضار الجلين اللذين تراهما الآن ولبعد المسافة لم نتمكن من الحصول على الجملين قبل صباح الثلاثاء فغادرت المكان وقت الظهر وسرت سيراً بطيئاً فى عودتي حتى لا أتعب الجملين وتأكد أننا نستطيع الآن مباشرة رحلتنا . وقد سهوت أن أخبرك بأن أصدقائى بعد أن تكلموا معي ذهبوا الى الخيمة القائمة على رأس الصحراء لاعطاء التعليمات لرجال مخصوصين للاستعداد وقت الطلب وقد أخبرتهم باننا قد نصل اليهم مساء الجمعة أو بعد غروب الشمس يوم السبت على أقصى تقدير »

سألت زكي بن بلال بعد ذلك « هل أحضرت معك خبزاً ؟ فانا لا نملك من الطعام سوى كمية من البلح » فأجابني « اني شديد الاسف لنسيان ذلك الامر الحيوى وقد يرجع ذلك الى عجلتى الشديدة » فهونت عليه الامر عند ما شاهدته مطأطىء الرأس وقلت : « لا أهمية للخبز لانا نستطيع اتمام رحلتنا القصيرة هذه حتى دون الاستعانة بشيء من البلح »

قال حامد لزكي « أسرج الجمل الخفيف اللون ثم اذهب مع صديقنا وأخينا الى الصخرة العميقة واسق الجمال ماء ثم انتظرنى هناك وأما أنا فسأحمل السرج على

ظهرى وأسير وراء جملى الذى يستطيع بعد راحته أن يقطع المسافة القصيرة الباقية لغاية تلك الصخرة ولكن أرى من الخير ألا تذهب مباشرة الى عين الماء بل عليك ان تختفى فى بقعة مجاورة حتى تصل اليهـا فمن المخاطرة أن تسير مباشرة الى مكان المـاء لانا لسنا موقنين بان المكان غـير مطروق بأقدام الرعاة ففي الارض جمال كثيرة تحتاج الى المـاء »

سرت مع زكي وفى يدى قيادة احد الجملين قاصـداً معه (زكي) الصخرة التي تنبسق منها المياه ثم اختبأت فى مكان أرشدنى اليه رفيقى .

قبل غروب الشمس بساعتين حضر حامد وزكي بثلاثة جمال ارتوت قبل حضورها وحمل كل من الصديقين قربة مملوءة بالماء وحال وصولهما ركب ثلاثتنا الجمال الثلاثة وسرنا فى طريق شرقية شمالية معرجين الى الناحية الشرقية مخترقين التلال التى كانت فيما مضى وعرة جداً وعسيرا تسلقها ولم يكد يرخي الليـل سدوله حتى وصلنا الى المستوى الفسيح بعيدين عن أنظار الناس . واصلنا رحلتنا طول الليـل بدون وقوف وكان سيرنا على الجمال بطيئا شبيها بالسير العادي وعندمابدأنورالفجر بشرنا حامد بأنا قطعنا ما يقرب من نصف المسافة فى طريقنا الوعرة وفى رحلتنا الخطيرة .

أضاف حامد الى ذلك « انا اليوم في أخطر وأدق أيام رحلتنا لانا أصبحنا مجاورين لشاطىء النيل وسنضطر الى اجتياز مراع تابعة لقبائل النهر فنسـأل الله اللطيف بعباده أن يصل بنا الى غرضنا دون وقوع عيون المراقبين علينا »

فى طول رحلتنا هذه لم يتغير منظر البلاد الخاوية الصحراوية الا فى القليل النادر الذي تجد فيه بقاعا من الاعشاب يتخللها بعض أكمات الميموسا . أماالارض في غالبيتها فرملية تنتشر الاحجار فى بعض نواحيها .

سرنا فى رحلتنا الاخيرة دون وقوف فى الطريق ولم يكن لدينا من الطعام سوى التمر الذى أكلناه على ظهور جمالنا وعند ما بلغت الشمس سمت الرأس شاهدنا قطيعاً من الغنم يقوده بعض الرعاة فاضطررنا الى تحويل خط سيرنا حتي لا يرونا وعند ما شعرنا أنهم شاهدونا أسرع زكي بن بلال بجمله اليهم ليلتقط الانباء وبعد

أن قابلهم رجع الينا فطمأننا بانهم لا يعرفون شيئا عنا وعن هروبنا من أم درمان . تابعنا السير فشاهدنا آثار خطوات جمال وماشية وحمير فخشينا وقوعنا في قبضة المتعقبين ولكنا حمدنا الله لان الناس لم يظهروا في ذلك الوقت وبعد قليل من رحلتنا وصلنا الى جزء منبسط فسيح من الارض مرة أخرى

قال لى حامد « هل تشاهد البقعة الرمادية اللون القائمة على مئات من الياردات أمام خط سيرنا ؟ تلك طريق القوافل من بربر الى وادي حمير ودار شيفية فاذا ما جتزنا تلك البقعة بعيدين عن الانظار فليس بعد ذلك ما يخيفنا لان كل ما بين تلك البقعة والنهر عبارة عن أرض حجرية لا أثر للاقدام فيها ولا شيء من النبات أو الاعشاب بين جهاتها واذن هي بعيدة عن أقدام الآدميين . وعلى أية حال من الواجب عليك أن تنصت لكل تعلياتي من الآن وأولها سير الجمال ببطء حتى اذا ما قطعت جمالنا خمسمائة خطوة أو يزيد وصلنا الى مكان الاثر وبعدئذ تتحول فى الطريق المؤدية الى بربر سائرين بضع دقائق . ثم نغير سيرنا مرة أخرى الى الجهة الشرقية . »

بعد أن انتهى حامد من ذلك القول سكت سكوت الموافقة ثم قال لى « هل ترى تلك الرابية الصخرية الواقعة على بعد ثلاثة أميال تقريبا ؟ هناك سنجد مكانا أمينا هو الوحيد الذى نستطيع عنده تضليل متعقبينا بحيث لا يقفون على أى أثر لاقدامنا »

أصغينا الى تعاليم وأوامر حامد فاجتزنا طريق القوافل التى لا يجتازها الناس الا فى القليل وأكبر امتياز لهـا اختفاء آثار العابرين . وعلى أية حال تقابلنا في المكان المعين

ابتسم حامد فى النهاية وقال لى « حث الجمال على المسير ولا تستغن عن أقصى مساعدة ممكنة من تلك الجمال الامينة لانا الآن فى شديد الحاجة الى خدمتها. ومهما يكن الامر فقد انتهى كل شيء على خير ووفقنا الله توفيقا عظيما »

منذ غادرنا أم درمان لم أشاهد ابتسامة واحدة في وجه حامد قبل هذه الاخيرة فأدركت فى الحال أنا نجونا من الخطر بمحاذاتنا شاطىء النهر

واصلنا السير وكل منا يضرب جمله الشديد التعب بدون رحمة حتي تركنا صفا من التلال الى يميننا ووصلنا الي قرابة .

أما قرابة هذه فعبارة عن نجد رملى التربة مغطاة أرضه بحجارة سوداء تختلف في حجومها من القطعة المماثلة لقبضة الرجل الى القطعة المماثلة لرأسه ومما تمتاز به تلك الحجارة فى الارض المذكورة أنها قائمة فى صفوف منتظمة يخيل لمن يشاهدها أن أفراداً عنوا برصفها على ذلك النسق البديع والى جانب الحجارة توجد صخور فردية يبتعد كل منها عن الآخر مسافة تكاد تكون واحدة فى جميع الصخور . ولا شك فى أن الجمال تعجز عن السير بسرعة في مثل ذلك الخط الحجرى الصخرى وذلك مما يساعدنا فى خطتنا ومما نعده توفيقا جديداً لنا بعثه الله لتسهيل نجاتنا .

قبل أن تغرب الشمس ظهر لنا من بعيد ذلك النيل السعيد بمياهه العذبة فكان موقعه بين الاراضي المتجاورة شبيها بالخط الفضي اللامع وسط البقعة المعدنية بما فيها من ألوان قائمة وخضراء ورملية .

تدرجنا من أعلى النجد فى طريق ملتوية يزيدها وعورة ظلام الليل وما زلنا فى سيرنا البطيء على الجمال حتي وصلنا الى واد قائم بين تلال حجرية . وبعد وصولنا وقفنا لاراحة جمالنا التي أنزلنا السرج عنها وكنا راغبين فى السير على الاقدام ما يقرب من ساعتين حتى نصل الى شاطيء النهر .

جلس حامد وزكي على الارض بعد انزال السروج عن الجمال الثلاثة وأخذا في عملية أكل البلح بذمة وأمانة وبينما هما يأكلان قالا لي معاً « قربنا الى الغاية التى سعينا اليها منذ فكرنا فى الهروب فانتظر هنا مع الجمال الثلاثة لانا (حامد وزكي) سنذهب الى بقعة مجاورة للنهر نعرفها جيداً وفى تلك البقعة ستلتقى باصدقائك الذين سيسهلون لك بقية رحلة النجاة.تركنى الصديقان وبقيت وحدي متأملا في المستقبل وقد مرت أمام مخيلتى في تلك الاثناء صور أفراد أسرتي وصورة مجسمة لوطنى العزيز وبعد أن تعبت من التفكير انطرحت بجسمي المنهوك القوى على الارض فنمت ولم استيقظ الا قبل نصف الليل فلم أجد أحداً من الصديقين (حامد وزكي) فداخلتنى الوساوس وتأكدت أن عدم حضورهما سيحول دون عبوري النهر في الفرصة

الملائمة ليلا . وعلى أي حال صبرت حتى سمعت قبل الفجر بساعتين وقع أقدام فتبينت القادم فعرفت أنه حامد .

سألت حامداً عن الاخبار فى حالة فزع وقلق فأجابني بما جلب لى اليأس قائلا « لاشيء مطلقا فانا لم نتمكن من العثور على أصدقائك فى المكان المعين فرجعت اليك لانك لاتستطيع البقاء هنا بمفردك بعد بزوغ الفجر لانك قريب جداً من مساكن الآدميين فليس بدعاً أن تقع عليك أنظار الرقباء . ولذلك عدت بعد أن تركت صديقي زكي للبحث عن أصدقائك الجدد الذين سيسهلون لك مهمتك الجديدة النيلية فاحمل القربة المائية وجراب البلح على كتفك لأنى من التعب بمكان لاأستطيع معه حمل شيء أكثر من جسمى الذى تحمله قدماى واعلم أنه يتحتم علينا الرجوع الى قرابة حيث نظل هناك الي انتصاف النهار مختفيا بين الاحجار والصخور

أصغيت الى أوامر حامد ونفذتها فوصلت الى النجد بعد مسير ساعة مع حامد وبعد أن سرنا مسافة أخرى في الظلام وقف حامد فجأة وقال لى « قف هنا واصنع حلقة من الاحجار كتلك التي يصنعها رعاة الجمال فى الشتاء لوقاية أنفسهم من البرد الشديد وبعد الانتهاء من صنع تلك الحلقة نم فى جوانبها الداخلية واني مسرور لانك متين في صنعها الآن حتى أنك تكاد تكون عربيا كأنك واحد منا نحن عرب السودان وأكد أني سأحضر اليك في المساء لارى الحال التى أنت عليها وأما الآن فسأرجع الى الجمال . فلا تخف ولا ترتب فى أي شخص قد يراك لان رجال الناحية التى أنت فيها يعرفونني جيداً فاذا سألنى أحدهم أي سؤال أجبته باني حضرت من شيفيه لمشاهدة بعض المقيمين هنا . ومن حسن حظى وجود بعض أقارب لى فى هذه الناحية »

رجع حامد الى الجمال وبقيت أنا وحدى فى بقعة منعزلة مخيفة النظر

أقمت الدائرة الحجرية وكان ارتفاعها نصف متر ولم أجعل فى الداخل مكانا لغير جسمى وقربتي وبندقيتي فلم يكد يشتد وضح النهار حتى انسحبت الى مغارتى الصغيرة وحفرت في أرضها الرملية بقعة عميقة تمكنت فيها من القاء ظهري ومد جسمي بحيث لم يرني أحد وفي ذلك الوقت تدفقت الي رأسي ذكريات الماضى وآمال

المستقبل وفكرت بصفة خاصة في الماضي القريب حيث غضب الخليفة عبدالله و نقمته الشديدة عليّ بعد هروبي ولم يخفف عني الفزع فى ذلك التصور سوي مرور صور أحبائي وأقربائي بمخيلتي فى الوقت نفسه . وما زلت أعلل النفس بالآمال والاماني رغم اشتداد العقبات وخطورة الموقف ولكني بعد ذلك وجدت فساءلت نفسي عن التغيير الذى حدا بي الى مظهر الخوف الجديد وعن الداعي الى عدم تمسكي بمبدأ الصبر ومهما يكن الامر فاني كنت فى أشد أوقات الخطر بعيداً عن الاستسلام الكلى للقنوط كما كنت منذ غادرت أم درمان واثقا في حظي الحسن وتوفيق الله إياي الا أن ذلك لم يمنع شعورى اليوم شعوراً خاصا بالخوف وقد يرجع ذلك الى الشبه القائم بين مغارتي الصغيرة هذه وبين القبر الذى قد يضمني فى القريب العاجل. أعود فاقول ان القبر مصير كل حيّ وأن الناس بالغين من أعمارهم ما بلغوا سيصلون الى القبور التي ضمت أباءهم وأجدادهم من قبل . فسواء أطال عمر الانسان أم قصر فانه لن يصل فى النهاية الى غير تلك الحفرة الضيقة واذن سأموت كما مات الناس ويموتون ولكن الصعوبة فى شيء واحد اذا مت هنا وذلك موتى منبوذاً مهجوراً غير مودع أعزائي واقربائى فيا ساكن السماء ومسير الفلك الدوار لا تتخل عني وكن رحيما بعبدك في ذلك القفر الموحش . فارحم اللهم عبدك الاثيم ولا تعاقبني على ذنوبي فقد طلبت الغفران من جلالك وأنت الواسع الغفران . اللهم ارحمني ! والطف بي واسمح لى بمشاهدة أصدقائي وأعزائي والرجوع الى وطني العزيز مرة أخرى قبل موتى ! »

بعد أن ناجيت الماضي وذكرت آمال المستقبل التزمت الصمت مرة أخرى وفى نهاية الامر فكرت فى الامر — على الرغم من تأخير صاحبي — فانتهيت الى أن الذى انقذني في بداية رحلة النجاة قادر على انقاذى في الختام

مرت بمخيلتي الآمال فذكرت أني سأعبر النهر هـذه الليلة ثم أجتاز الطريق وأصل الى الصحراء غداً وفى مدى يومين أو ثلاثة سأجتاز كل خطر وأصبح فى أمن كلي بحيث استطيع الاسراع بملاقاة من تمنيت السنين الطوال ان حظى بهم فى خير

بعد أن انتهيت من ذلك التفكير ابتسمت مرة أخرى ابتسامة مملوءة بالثقة والامل من عطف الله وعونه ثم مسكت معطفي الصغير ولففت به وجهي حتى أقي

نفسي من حرارة الشمس ومن أنظار المراقبين . ثم بقيت منتظراً ما يقدره لى ربي وأنا على ثقة تامة فى الخير . بعد مرور الظهر بقليل سمعت صوتا خفيفا فرفعت رأسى ونظرت من خلال الاحجار المترامية فصدق ظني حيث عرفت أن القادم هو حامد الذي أقبل إلىّ بابتسامة الصديق المخلص قائلا لى « أسعد حالا وأبشر فقد وجدنا الاصدقاء المعينين لمرافقتك » فطرت فرحا عند ما سمعت هذا القول وتيقنت أن نجم سعدى قد تجلى فى الافق مرة أخرى

عند ما أقبل حامد جلس خارج الكومة الحجرية ثم قال « تستطيع أن تفرج عن نفسك الآن وتخرج من مغارتك الضيقة هذه لاني عينت لك مراقبين فى الجهات المجاورة ينقلون الينا كل ما يحدث حولنا . فلا تخش شيئا لان صاحبنا زكي وجد الرفاق الجدد الثلاثة وقد حضر الآن واحد منهم الينا ليعرف مكان اقامتنا وهم جميعا على استعداد وسيحضرون الينا ماء ولكنى أحذرك أشد الحذر وأنصح لك بالابتعاد عن كل ما يريب لان هروبك من أم درمان أصبح معروفا فى المنطقة التى نحن فيها . فتعال معى الآن أو انتظر حتي يحين الليل وعلى أي حال فأنا ذاهب الآن فهل تستطيع معرفة الطريق بمفردك ؟ وهل ترغب في عودتي اليك لاخذك معي ؟ »

فأجبته « لا داعى الى عودتك مرة أخرى لاني أعرف الطريق وسألتقى بك في المساء »

عند ما غربت الشمس حملت بندقيتي وقربة الماء على ظهري وتركت البقعة التى مرت بمخيلتى فيها تذكارات مؤلمة وآمال كبار . وعند ما وصلت الى الرفاق الجدد وجدت اثنين منهم فرأيتهما غريبين عنى رغم بقائي السنين الطوال فى السودان بين أبنائها .

حياني ذانك الرجلان وقالا لى « قد أرسلنا اليك صديقك احمد واد عبد الله ونحن من قبيلة جهاب وسنسير بك الى النهر حيث يصل الينا احمد واد عبد الله نفسه لمساعدتك في اجتياز النهر وستكون الجمال على انتظارنا فى الشاطئ . الثانى من النهر لتعبر بنا النهر والآن فلتودع صديقيك القديمين لان مهمتهما قد انتهت » . سلمت

بعد ذلك على صديقيّ المخلصين الحميمين حامد وزكى وشكرت لهما اخلاصهما بكلمات خارجة من أعماق القلب ثم قلت لهما « أودعكما وكلى ثقة فى الالتقاء بكما فى وقت سعيد هو وقت السلم والامن »

أخذنا (أنا والرفيقان الجديدان) جملين وتركنا الثالث للصديقين القديمين فارتقيت الى ظهر الجمل وركب خلفي أحد الصديقين الجديدين .

سألت هذا الجديد « ما أسمك ؟ » فأجابنى قائلا « يدعونى الناس باسم محمد وأما اسم صديقي فاسحاق » سألته بعدئذ « هل تجتاز معى الصحراء يا محمد؟ »فأجابنى بقوله « لا ياسيدى فهناك من كلفوا بتلك المهمة وعلى أية حال فالخير فى أن يسير الجمل سيرا بطيئا ويحسن بك أن تغطى وجهك على الرغم من الظلام الشديد . فقد وردت الاوامر من برير من ثلاثة أيام بمراقبة الطرق مراقبة دقيقة ووضعت الطرقات المائية تحت مراقبة شديدة أخرى ومهما يكن الامر فلا خوف عليك من بلدنا »

بعد أن سرنا بجملينا مايقرب من ساعتين فى طريق شرقية شمالية بانحدار شرقي وصلنا الى النهر . وتمكنا قبل نزول النهر من سماع أصوات الآلات المائية وكلام وضحك العبيد وزوجاتهم .

عندما وصلنا الى كومة صغيرة من أوراق الاشجار همس محمد فى أذنى « ادع الجمل للبروك ببطء ورفق حتى لا يصدر منه صوت يلفت الانظار »

برك الجملان على الارض ولم يصدر منهما صوت على الاطلاق وقد تركني الاثنان على أن يعودا مع أحمد فبقيت منفرداً في الظلام الحالك واستمررت على ذلك نحواً من ساعة وأخيراً رأيت أربعة رجال قادمين . فأسرع أطولهم نحوي وضمنى الى صدره وعانقنى طويلا قائلا لي فى صوت خافت « أنا أخوك احمد عبدالله من قبيلة جهياب وأول ما أطلبه منك هو أن تصدق قولي وهو أنك بحمد الله ناج من كل خطر وأما أنتما يا محمد ويا اسحاق فاخليا السرجين عن ظهرى الجملين في رفق وتؤدة ولا تسمعا أحداً من الناس صوتاً ثم انفخا القربتين الفارغتين واربطاهما حول رقبتى الجملين ثم اعبرا النهر من شاطئه فى نقط ومواضع مختلفة ثم انتظرا أوامري غداً على مقربة من دار « مقاتلة الثيران »

التفت الىّ احمد واد عبدالله بعد ذلك قائلا « اتبعني »وحمل احمد سرجاً وحمل الرجل الرابع سرجاً آخر ثم سارا فتبعتهما وبعد بضع دقائق وصلنا الى شاطىء نهر النيل المقدس حيث وجدنا في ركن صغير قارباً صغيراً يكفي بالجهد لحملنا وقد صنع أصدقائي الجدد هذا القارب بأيديهم .

نزلنا الى حافة النهر وركبنا القارب الصغير الذي أقلع بنا الى حيث يريد بنا الله وقد استغرقت عملية عبور المجرى أكثر من ساعة وعند ما وصل الى الشاطئ الثاني صعدنا الى الارض ورجع أحد الرفاق بالقارب الصغير ثم صنع في قاع (القارب) ثقباً واسعاً فغرق (القارب) والغرض من ذلك هو اخفاء كل أثر لعبورنا النهر.

أما نحن فسرنا على الناحية البرية ما يقرب من نصف ساعة وعند ما وصلنا الى بقعة خاصــة طلب مني احمد عبـدالله انتظاره لانه ذهب لاحضار طبق مملوء باللبن ومقدار من الخبز

قال لي أحمد بعد عودته بالطعام « كل واشرب ولا تفكر في شيء فقد اجتزنا الخطر وأقسم لك بالله وبنبينا أنك ناج وأن الله سيمتعك بملاقاة أحبائك جميعاً » كنت عازما ومفكراً أن تتم رحلتك الليلة ولكن أرى الوقت متأخراً جداً فالخير في بقائك هنا الى مساء الغــد وعلاوة على ذلك فانا مضطرون الى أن نسوق الجمال غداً وبمــا أنا قريبان هنا من مساكن الناس فسيسير بك ابن أختي (ابراهيم على) الى مكان بعيد نوعا لا تصل اليك فيه عيون الرقباء . فانتظرني هناك وسأحضر لك دابة تركبها اما اذا كنت شاعراً بالقوة على قطع المسافة على قدميــك فاني استغني عن احضار الدابة » فاجبتــه على الفور « أني قوي ولا ريب في اني قادر على المشي فأين ابراهيم على ؟ »

أجابني احمد « هو الى جوارنا وسيكون مرشدك في الصحراء المقفرة »

كنا حقا في ليـلة مظلمة يزيدها ظلاما ما في مخيلتي من وساوس أصرح بأنهـا ليست مرعبة كما كانت الحال قبل اجتياز النهر . والآن فلنترك الوساوس لنرجع الى ما حدث في الرحلة فأقول إن ابراهيم ذهب أولا بقربة فارغة في يده سائراً في طريق القوافل الموازية للنهر الى أبي حمد وقد تبعت صاحبي الجديد هــذا وبعد أن

سرنا ما يقرب من ثلاثة أميال انجليزية نزل ابراهيم الى النهر وملأ القربة ثم غير خط السير بعد ذلك متجها الى الطريق البرية . اما السير فكان شاقا جداً لان الحجارة الضخمة التي غطت التلال وقامت حوالها عاقت سيرنا السريع أما عن شخصي فكنت كاليائس فى سيره أتخبط مرة نحو اليمين في ذلك الحجر وأتسكع أخرى نحو اليسار فى ذلك التل كأنما أنا فى أقبح حالات السكر وما زلنا في حالنا هذه حتي وصلنا الى حفرة فى الارض فأمرنى ابراهيم بالوقوف عندها حيث قال لي بعد صمته الطويل « هذه هى البقعة التي عينها لي خالى فانتظر هنا هادئا وفى مساء الغد سأحضر الجملين لمواصلة الرحلة وسأترك لك الخبز والماء. فأودعك الآن لانى مضطر الى القيام بجميع معداتنا وأرجو ان ألقاك في خير غداً » اذن بقيت وحدى مرة أخرى لايرافقنى سوى ضوء الشمس واختلاف الافكار ولكنى على أية حال كنت محتملا ولم يكن الليل بساعاته القليلةالباقية وصباح اليوم التالى بالشيء الكثير غير المحتمل لاني نجوت من الخطر بعد عبور النهر واقتربت منالوصول الى أحبائي ووطنى . غربت شمس يومنا الجديد وبعد غروبهابساعة سمعت صوت سير حيوانات مسرعة نحوى فنظرت بدقة واذا بي أجد أحمد عبد الله وفى صحبته رجلان على حمارين . أقبل أحمد مسرعا نحوى وضمني الىصدره مبتسما ثم قال « الشكر لله الذى نجاك وينجيك وأما الرجلان اللذان معي فهما شقيقاى وقد حضرا معي ليسألا لك السلامة »

حييت الرجلين الجديدين تحية اخلاص ثم أدرت وجهى الى أحمد وقلت له « ولكني لاأفهم حقيقة ما جرى وأدرك من شكركم المتكرر لله أني نجوت من خطر عظيم » فأجابنى أحمد بالطبع لم تعرف ما تم ولم تسمع عن الخطر العظيم الذى نجوت منه .باعجوبة فاصغ الىّ أحدثك مليا ! منذ ثلاثة أيام علم زكي عثمان أمير بربر — ولا نعرف المصدر الذى علم منه — أن الحامية المصرية في مورات حصلت على امدادات جديدة كبيرة الاهمية وعظيمة الأثر رغبة فى مهاجمة القوة المهدية فى أبي حمد فاضطر زكي عثمان الى ارسال مدد يدفع غارات المصريين وبالفعل قام اليوم من بربر ستون فارسا وثلاثمائة بيادة ومروا بمساكننا ولا شك أنك تعرف المحاربين أنهم يسمون

الانصار وهم فى مجموعهم ضخام الاجسام مفترسون أقرب الى الوحوش — فى الفتك بالناس — منهم الى الآدميين

أثناء مرور اولئك كنا نجهز لك قسما من خروف ذبحناه ليكون زادا لك فى الطريق فدهش الجنود عند ماراوا ماتقوم بتجهيزه و بعد أن ارتابوا فى عملنا تفرقوا ونهبوا منا مانهبوه وقد كنت حقا شديد الحذر من ناحيتهم وشديد الخوف على ما قد ينتابك من عسفهم اذا صادفوك في طريقهم ولكنى أحمدالله الآن لانهم اجتازوا الطريق الي أبي حمد ولتصحبهم لعنة الله وليصحبنا نصره وعونه فلجلاله الشكر الدائم ازاء حمايته لنا »

صحت بعد ذلك فترة هي فترة الذهول بعد نجاتى من ذلك الهول المروع ثم سجدت في خشوع كامل للخالق الصمد الذى نجاني من ذلك الخطر العظيم بعد اذ لم نكن نتوقعه

علمت بعد ذلك أن الجنرال كتشنر باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى وصل الى وادى حلفا للقيام بالمناورات المعتادة وأن الضابط ماتشل بك قادالاورطة السودانية الثانية عشرة ومائتين من الهجانة الى حلفا من كورسكو عن طريق مورات وهذا سبب الاشاعة عن تقويه حامية مورات وعن الهجوم المزعوم على أبي حمد

قال أحمد بعد ذلك ستتاخر الجمال قليلا لاني أمرت باسراجها فى داخل الحدود اثناء مجيء الدراويش خوفا من أن يستعملها الآخرون — اذا راوها — فى نقل الذخيرة وبعض الحقائب العسكرية فاذا كنت شاعراً بالرغبة فى البقاء هنا الى صباح الغد فاني موافقك على عملك لانا نستطيع بذلك الحصول على جمال مملوءة بالقوة) .
فاجبته على الفور (انى لاأرغب في أي تاخير وافضل فى جميع الاحوال القيام بالرحلة حالا فان تاخير المدد والحاجة الى جمال كاملة القوة لايحولان دون الاسراع في الرحيل وعلي اية حال فاني مملوء ثقة بان الجمال ستصل الينا سريعاً

قبل منتصف الليل وصلت الينا ثلاثة جمال صحبة اثنين قدمهما لى أحمد عبد الله قائلا لي (هذان مرشداك الجديدان ابراهيم على (ابن اخى) ويعقوب حسن

أحد اقربائى الاخصاء. وسيسير بك هذان الى الشيخ حامد فضاى زعيم عرب الاعراب الخاضعين للحكومة المصرية وهذا الاخير سيعينك فى الوصول الى اسوان)

بعد ذلك ملأنا قرب الماء وواصلنا رحلتنا . وعند البدء فى الرحيل قال لى أحمد ابن عبد الله (ارجوك أن تتجاوز عن التقصير فى اتمام معدات الرحلة فان الخطأ ليس من ناحيتى ولئن حرمت من الاكل الطيب فلديك من البلح والخبز ما يكفى لمقاومة غائلة الجوع)

ركبنا الجمال ثلاث ساعات ونصف ساعة فى طريق شرقية شمالية نحو الجانب الشرقى وكان ذلك قبل اشراق الشمس وعند مابزغ نور الفجر وجدنا أنفسنا فى الجهة الشرقية من وادى الحمير (سمى باسم الحمير البرية التى تسكنه ويكاد هذا الوادى يخلو من النبات)

تقدمنا فى سيرنا فدلت الطلائع على أنا فى صحراء حيث شاهدنا الرمال الممتدة فى كل ناحية وبقايا التلال فى بعض الجوانب ولم نجد على الاطلاق شجرة أو شيئا من الزرع الاخضر . وبعد أن سرنا على تلك الحال يومين كاملين — دون استراحة على وجه عام — وصلنا الى تلال نورانى التى كانت محتلة فيما مضى بقبائل عرب بشارين. يمتد هذا الوادى فى اتجاه شمالى شرقى فى معظم جهاته وتتخلله منحدرات وعرة تقوم على جوانبها أشجار الميموسا وفى تل جانبى من تلك التلال توجد أشجار مسماة باسم التل العام « نورانيه »

حدق ابراهيم على ناظريه من أعلى الجمل فتفقد الوادى فرآه خلوا من الناس فنصح لنا بدخوله فدخلناه ثم أسرعنا فى ارواء جمالنا بالماء العذب وملء قربنا الثلاث اما البئر فنازلة فى قاع الوادى ما يقرب من عشرين قدما ومتجهة الى ناحية مركزية على بعد خمس وعشرين ياردة والنزول الى عمق البئر بواسطة مدرجات حجرية صلبة وبما أن الآبار فى السودان أماكن اجتماع الناس فضلنا ترك البئر والذهاب الى مكان فى داخل الوادى فتركناها (البئر) وواصلنا سيرنا الى الداخل مدة لا تقل عن ثلاث ساعات مجتازين تلال نورانى

كان الفرق عظيما بين المرشدين القدماء والجدد فالسابقون كانوا ممتلئين شجاعة

واخلاصا وعلى استعداد لتضحية حياتهم في سبيل انقاذ حياتى أما اللاحقون فعلى النقيض من ذلك لانهم كانوا دائما يتذمرون من عملهم الذى يخيل لى أن احمد عبد الله أجبرهم عليه اجباراً ولم يتأخروا عن اظهار غضبهم لانهم لا ينامون النوم الكافى ولا يأكلون الاكل الجيد . واني أذكر جيداً أن اهمال ابراهيم على ويعقوب حسن أدى الى اضاعة حذائي وصندوق خاص لى فى الطريق وقد سبب لى ضياع حذائي تعباً كثيراً فى المستقبل

وصلنا فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى — الخميس — الى احراش أبي حمد وقد فضلت البقاء مختبئا عن الانظار هناك على الرغم من عداء سكانه عداءاً شديداً لاتباع المهدي

ذكرت قبلا أن أحمد عبدالله أمر ابراهيم على ويعقوب حسن بالوصول بي الى الشيخ حامد فضاي ولكنى أضيف الى ذلك أن هذا الرأى لم يرق فى أعينهما

جاء لي هذان الرجلان عصراً وذكرا لى المخاطر التى تهددهما بغيابهما اياماً كثيرة عن قبيلتهما وبما أنه اصبح من المؤكد جدا وقوف الخليفة على خبر فراري وعلى قسم من الطريق التى اجتزتها لم يكن لدى شك فى أنه سيستجوب الكثيرين ممن يرتاب فى مساعدتهم لى فى الفرار خصوصا من قبيلة اولئك الجدد لانتمائها في الصداقة الى الحكومة المصرية واذن ليس الخطر واقعاً على هذين الرجلين فحسب بل على صديقي المخلص أحمد عبدالله ايضا . واخيراً اتفق رأيهما على الذهاب الى شخص يعرفه كلاهما وبواسطة هذا الشخص اتابع رحلتي بأمان

تأكدت بعد ذلك أن الخير في جوع هذين الرجلين لان بقائهما معي مضطربين خائفين — فضلا عن عدم اخلاصهما الشديد فى مهمتهما — قد يعرضني لخطر جسيم واذن قبلت بسرور طلب الرجلين وانى لا أخفي عن القراء حقيقة كراهتى الشديدة لهما لانهما كانا مجردين عن الاخلاص غير مبالين بما قد يصيبنى من شر ما داما واثقين من نجاتهما وحدهما. ازاء ذلك طلبت منهما الاسراع فى الذهاب الى المكان الجديد حتى يرجعا الى قبيلتهما ولا غرابة بعد ذلك أن يكون ابتعادهما عني فوزاً جديدا لى ومصدر راحة تامة وهدوء فكرى

عند غروب الشمس حضر الرجل الجديد وهو من قبيلة عرب امرات واسمه حامد جرهوش البالغ من العمر حوالى خمسين عاما . وعند ما حياني حامد هذا قال لى « يسعى كل رجل الى مصلحته الخاصة فى شدك — ابراهيم ويعقوب اللذان أعرفهما معرفة تامة — يرغبان فى أن أدلك على الطريق من مكاننا هذا الى اسوان وتأكد أني مستعد للقيام بذلك ولكني أريد الوقوف على ما سأحصل عليه ازاء هذا العمل الشاق » فأجبته على الفور « سأعطيك يوم وصولنا الى اسوان مائة وعشرين ريالا من عملة مارية تريزه علاوة على هدية خاصة أقدمها تبعاً لما تقوم لى به في هذه الرحلة الجديدة »

قدم لى حامد بعد ذلك يده وقال لى « انى مرتاح الى ذلك وأتقبل المهمة فان الله ونبينا شاهدان على صدق ما أقول . وأما عن وعدك فاني أعرف عنصرك وأثق أن الرجل الابيض لا يكذب وإذن سأسير بك الى عشيرتك فى طرق جبلية غير مطروقة بأقدام الآدميين ولا يعرفها من مخلوقات الله سوى الطير الذى يحلق في المعمور دون أن ينقل أسرار الناس الى الناس فاستعد للرحيل لانا سنواصل عملنا باذن الله بعد غروب الشمس »

اخترت أقوى الجمال الثلاثة لمواصلة الرحلة وأخذت قربتين مملوءتين بالماء والقسم الاكبر من البلح وكمية من الذرة وعند ما خيم الليل وصل حامد الى المكان المعد لابتداء السفر . أما ابن حامد فسار راكباً الجمل الوحيد الذي يملكه للبحث عن غلال في روباطاب القريبة من النهر وتبعاً لذلك اضطر حامد لمرافقة ابنه سائراً على قدميه ولم يساعده على عمله الشاق هذا سوى ارادته الصادقة وقدميه القويتين . أما ابراهيم ويعقوب فعاد الى قبيلتهما وبطبيعة الحال لم أودعهما وداع الحزن ولم أذكر لهما فيمعرض الشكر سوى كلمات قلائل لانى أكرر ما قلته قبلا عن سروري العظيم لابتعادهما عنى .

بعد أن واصلنا سيرنا يومين احتزنا في أثنائهما تلالا صخرية . وصلنا في صباح الاحد الي بئر صغيرة تكاد تكون خالية من الماء واسمها « شوف العين » وعلى الرغم

من ظهور ابتعاد القادمين اليها بقيت تبعاً لرغبـة مرشدى في مكان يبعد ساعة عن هذه النقطة

كان طعامنا عبارة عن التمر وكمية من الخبز صنعناها بايدينا وأقصد بذلك أن هذا الخبز كان لوقايتنا من الهلاك جوعا فان أى مخبز أوربى يعرض للخطر العام اذا وجد بين جدرانه رغيف من الارغفة التي نعملها لانها فى مجموعها كريهة في منظرها وطعمها . فطريقة صنع الخبز التي قام بها مرشدى هى جمع كمية من الحجارة حجم كل واحدة منها لا يزيد عن حجم بيضة الفرخة وبعد تكويمها يضع عليها أفراداً صغيرة من الخشب ثم يعجن الذرة فى الماء ويضع فى آنية خشبية ثم يشعل النار فى الحطب والحجارة الصغيرة بواسطة حك الصوفان على حجر الصوان

بعد اشتعال النار في الحطب ينزع حامد الجمر من الحجارة الملتهبة ليضع عليه العجين وبعد ذلك يرد الجمر الى الحجارة . وبعد أن ينتهى من ذلك التقليب النارى يضرب العجين بالعصا الصغيرة حتى يزيل ما فيه من الرماد وآثار الحجارة الصغيرة

هذا هو الخبز الذى نأكله فان لم نكن مدفوعين الى أكله بلذة النظر اليه فليس أقل من أن يدفعنا الى تناوله جوعنا الشديد

بعد أن ارتحنا قليلا على مقربة من البئر واصلنا السير بضع ساعات حتى انتهينا الى المنحدرات الاولى لجبال عتابي الممتدة بين البحر الاحمر ونهر النيل والتى يسكنها فى ناحيتها الجنوبية عرب بشارن وأمران وفى ناحيتها الشمالية قبيلة العبابدة

تتفرع من بعض تلك النواحى الخالية من النبات أودية مملوءة بالغابات يسكنها رعاة الجمال التابعون للقبائل السالفة الذكر

اجتزنا بعد ذلك وادياً قريباً غـير مطروق وواصلنا رحلتنا دون راحة لاني كنت شديد الرغبة فى مشاهدة أعزائي فى أقرب وقت ممكن أضمن فى نهايته السلامة من أخطار رحلتنا المتعبة المفزعة ورغم كوننا ناجين من كل خطر لانا تركنا الحدود المهدية وصرنا على الاراضي المصرية رغم ذلك أصر مرشدى على البقاء بعيدين عن عيون الرقباء والناظرين كائنين من كانوا لانه خاف من أن تقع علينا عيون بعض التجار الذين يتعاملون مع السودان

وبما ان منزله قائم على الحدود وانه كان مضطراً — لاسباب مختلفة — الى الذهاب لبربر فمن الواجب عليّ أن أقدر خدمته لي — فى موقفه الخطير هذا — حق قدرها .

وفى الحق لم أجد بين من شاهدت في السودان رجلا أقوى عزيمة وأسمى روحاً من صديقى الاخير هذا على الرغم من ضعف جسمه . ولا ريب في أن الطعام غير النظامى والسير المتواصل في كثير من الاحايين أثر أثراً سيئاً فى صحة هذا المتقدم في السن . وعلاوة على ذلك شعر صاحبي حامد بالبرد الشديد الذي أوقعه أخيراً فى حبائل المرض فاضطررت اشفاقاً عليه أن أعطيه عباءتي لتدفئته وأبقيت لنفسي المعطف الصغير والحزام الصوفى الكبير وقد وصلت بى الرغبة فى سرعة الوصول الى اسوان حداً دفعنى الى أن أعطيه جملي وأسير على قدمي العارية فوق الاحجار أربعة أيام (سبب سيري عارى القدم هو اضاعة حذائي كما قلت قبلا بواسطة ابراهيم ويعقوب) ولا ريب ان هذه الفترة أشق مراحلي من الوجهة الصحية

خيل الينا قبل الوصول الى اسوان بايام قلائل أن الجمل يتأمر علينا فى اللحظة الاخيرة وليس ذلك غريباً فقد أتعبه السير المتواصل دون راحة الا فيالنادر وعلاوة على ذلك أصيب فى مقدم القدم بجرح زاد واتسع عند ما اصطدم الجمل بحجر مدبب فاضطررت الى أن أقطع جزءاً من حزامى لالف به بطن القدم والجزء المجروح من الجمل على أن أغير هذه اللفافة كل أربع وعشرين ساعة وقد تعلمت ذلك من رعاة الجمال من دارفور وكل ما بينى وبينهم من خلاف أنهم يستعملون الجلد بدل الصوف

آخر الامر قدر الله اللطيف بعباده أن ننزل فى صباح السبت ١٦ مارس من أعلى منحدرات طريقنا فنشاهد نهر النيل السعيد ومدينة اسوان الممتدة على شاطئه وبطبيعة الحال أقر بالعجز الكلى عن وصف السرور الذي ملأ قلبي بعد الشكر لله ازاء النجاة والشعور بتحريري من العبودية فقد انتهت آلامى وقضى الله على مصائبي ونجوت حقا من أيدي البرابرة الشديدى التعصب ووقعت عيناى أول مرة على مساكن شعب متمدين يخضع للقانون والنظام ويأتمر حكامه بأوامر العدالة فحسب

واتجه — ساعة وصولي الى اسوان — قلبي الطروب الى عرش الله الاسمى شاكراً

لجلاله حمايته وعينه المرشدة . قوبلت بأعظم مظاهر الترحيب من معسكرات الضباط الانجليز الخاضعين لصاحب السمو الخديو وفي مساكن الضباط المصريين الذين لم يعلموا الا عند ما التقوا بي أنباء رحلتي المدهشة وقد تسابق كل من أولئك الضباط المصريين الكرام في التفريج عن كربي القديم وفي جلب السرور الذي ينسيني آلامي ونكباتي السابقة . كان الحافظ العسكري فى ذلك الحين في اسوان الكولونل هنتر باشا وكبار ضباطه الذين أذكرهم في هذه اللحظة هم البكباشيون جاكسون وسدني وماتشل بك ووطسون وقد قدم كل منهم أقصى مايستطيع من مجاملة صادقة فشكرت لكل من أعماق قلبي ودعوت لهم بالخير وقبل تغيير ملابسي بملابس جديدة من التي قدمها لي أولئك الضباط طلب مني صديقي البكباشي وطسون السماح له بأخذ صورتي — وطسون هذا من أدق الرسامين — فقبلت طلبه مع الشكر .

أما عن صديقي حامد جرهوش فقد دفعت له — بواسطة بطرس بك سركيس صديقي القديم ووكيل قنصلية انجلترا في اسوان — مائة وعشرين ريالا من عملة مارية تريزه وقدمت لحامد علاوة على ذلك هدية مالية وبعض الملابس والاسلحة وفوق هذا وذاك قدم له هنتر باشا عشرة جنيهات انجليزية تذكاراً لوصولي سالما الى اسوان وبعد ذلك ودعني وداع الاخلاص وعاد الى قبيلته مسروراً مبتهجاً .

بعد قليل من وصولي الى اسوان وردت لي تلغرافات التهاني أولها من الماجور لويس بك بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن معسكر وادى حلفا . وثانيها من رئيس الوكالة السياسية النمساوية في مصر وهو البارون هولرفون أجيرج الذى تعب كثيراً فى سبيل انقاذى . ثم من صديقي المخلص الماجور ونجت بك .

أول من حياني من أبناء وطني تحية شخصية هو البارون فكتور هيرنج ثم أولاده وقد كانوا جميعا في ذهبيتهم فى النيل .

صادف وصولي يوم قيام إحدى بواخر البريد فاغتنمت الفرصة وتمكنت بمساعدة ذي الشأن فى اسوان من مواصلة رحلتي بعد ظهر اليوم المذكور (١٦ مارس)

رافقني جميع الضباط الانجليز والمصريين الى الباخرة ووقعت الفرقة العسكرية السودانية النشيد النمساوى الوطني على موسيقاها فذرفت عيناى الدموع حنينا الى

الوطن العزيز ثم دخلت السفينة فارتفع الهتاف من جميع الركاب على اختلاف جنسياتهم فشكرت لهم جزيلا ثم شكرت للضباط المقيمين فى اسوان عنايتهم بي واخلاصهم لى . وفي الحق لم أكن مستحقا كل ذلك التكريم وهذه الحفاوة ولم أجد — مع شعورى بالخجل الشديد — سوى تقديم الشكر والدعاء للجميع بالخير .

كان معي في سفرى ماتشل بك قائد الفرقة السودانية الثانية عشرة والذى كانت مناوراته من وادي حلفا الى كورسكو عن طريق مورات سببا فى أكل الطعام المعد لى عند ما وقع عليه الجنود السودانيون وسببا فى تغيير خط سيرى

عند ما وصلت مساء الاحد الى الاقصر تجلى عطف الاوربيين المسافرين معي مرة أخري وهنا تلقيت عن طريق البارون هولر تلغرافا من شقيقاتى العزيزات صادراً من عاصمة وطني العزيز (فينا) فما أبهج تلك الساعة التى قرأت فيها تلغرافا عليه امضاء باسماء شقيقاتي العزيزات وعنوان فينا العزيزة

فى الساعة الخامسة من مساء الاثنين وصلنا الي جرجا أقصى محطة جنوبية للسكك الحديدية المصرية ومنها ركبت القطار الى مصر حيث وصلت الساعة السادسة من صباح الثلاثاء ١٩ مارس

على الرغم من تلك الساعة المبكرة جداً في الصباح وجدت على المحطة البارون هولر فون ايجرج وجميع موظفى السفارة النمساوية والقنصل النمساوى الدكتور كارل وترفون جورا كوشى وهناك أيضا وجدت صديقى العزيز ونجت بك الذى لا أستطيع في كلماتي القليلة هذه أن أعبر عن شكري له . والى جانب اولئك شاهدت مراسل « التيمس » والاب روز نيولى وآخرين غيره ومع اولئك فوتوغرافي يأخذ الصور المختلفة .

بعد أن صرفنا بضع دقائق فى تبادل التحيات سرنا الى السفارة النمساوية حيث بقيت مدة طويلة ضيفا عند الرجل الطيب الشديد الاخلاص البارون هولر الذي قام بمجهود عظيم في سبيل حريتى والذى لم يكن عمله ناجما عن واجبه بصفته ممثل النمسا فى الحكومة المصرية ولكن كان صادراً عن عاطفة حية مشفقة على شخص أصيب بالاسر المفزع

عند ما وصلت الى السفارة وجدت الغرف الخاصة مزينة باعلام وطنى العزيز ومملوءة بالازهار والورد وقد كتب على باب السفارة « تحية صادقة للضيف الكريم »

فى ذات اليوم الذى وصلت فيه الى مصر تسلمت تلغرافات التهنئة — بنجاتي — من أفراد أسرتى وأصدقائى ورفقائى فى المدرسة قديما ومن صحف عديدة فى اوربا بصفة عامة والنمسا بصفة خاصة . واني لاأنسى العطف العظيم الذى تفضل به علىّ صاحب السمو الملكي الدوق ولهلم أف ورتمبرج وصاحب السمو البرنس لويس استر هازى وقد كان كلاهما فى حملة بوسنه عند ما كنت أحارب مع فرقتى العسكرية ولا ريب فى أنى سأذكر دائما كلمات التشجيع التى نادى بها ذانك الرجلان العظيمان إزاء مصائبي الاولى وكلمات التهنئة بعد الفرار من مقر الخليفة عبد الله المشهور بطغيانه ·

بعد عودتي الى مصر بقليل تشرفت بمقابلة حضرة صاحب السمو خديو مصر الذى أنعم علىّ برتبه الباشوية . دخلت السودان منذ ستة عشر عاما كلازم أول فى الجيش النمساوى وعند ماعينت حا كما لدارفور منحت من الحربيـة المصرية لقب أميرال أما الآن فرقيت الى درجة اللواء حسب نظام الجيش المصرى

بعد أيام قلائل من تلك المقابلة السامية كنت واقفا فى شرفة السفارة متطلعا الى جمال حديقتها فى فصل الربيع فشاهدت طيرا مائيا أليفا الي جانب الاعشاب فتذكرت فى الحال طير فالزرفين التابع لاسكانيانوفا توريدا الكائنة في روسيا الجنوبية ففي الحال دخلت غرفتى وكتبت له بيانا كاملا عن طير الكركي الذى أطلقه فى عام ١٨٩٢ والذى قتل فى دارشيفيه . وفي الحق كنت مسروراً جداً بكتابة خطاب تفصيلى الى الصاحب الاصلى لذلك الطير وما هى الا فترة صغيرة حتي ورد لى من فالزرفين رد على خطابى يشكرني فيه جزيلا ما ذكرته عنه ويدعوني لزيارته ولكنى لسوء الحظ لم أتمكن من القيام بتلك الزيارة النفيسة لأنى ارتبطت بمواعيد كثيرة جداً حالت دون قبول الدعوة الجديدة

كثرت الدعوات الرسمية والخصوصية وتعددت الزيارات بحيث لم استطع القيام بعمل رسمى جدي قبل مرور بضعة أسابيع

كان أول عمل لى بطبيعة الحال كتابة تقرير رسمى مفصل أرفعه لرؤسائى الحربيين وبعد ذلك بفترة بدأت فى كتابة قصة حياتي فى الاعوام الستة العشرة الاخيرة

أما صديقي القديم وزميلى فى الاسر الاب أوهر ولدر الخطيب الديني فى سواكن فقد انتهز أول فرصة وحضر خصيصا الي مصر لتحيتى وفي الحق كان اجتماعنا سبب سرور جديد لا أستطيع وصفه وقد شعرت براحة كلية لانى تمكنت شخصيا من تقديم شكرى الجزيل لهذا الصديق المخلص إزاء ما أبداه نحوي من مساعدة وتأييد. اني أشعر بثقل فى رأسى ودوران قد يعقبه الاغماء كلما أتذكر الحالة الماضية وأقارنها بالحالية وكلما أسرد حوادث مدة اثنتي عشرة سنة قضيتها أسيرا فى أقصي حالات الاسر .وازاء ذلك كله لم أستجمع قوى تفكيرى قبل مرور فترة غير قصيرة

الآن أشعر باني رجل من شعب متمدن ورجال مسالمين فترجع أفكارى الى البرابرة المتعصبين الذين عشت معهم زمنا طويلا قاسيت فيه الآلام وواجهت المخاطر ثم أعود فأذكر رفاقي الذين لايزالون تحت الاسر الممض وألقي نظرة أسي على الامم الواقعة فى حبائل الاسر . فلله أجزل الشكر على فضله العظيم حيث نجانى من الخطر الفادح وأوصلنى بالسلامة الي شعب هادي، أمين

الفصل التاسع عشر

الختام

بعد أن قضيت أكثر من ستة عشر عاما — من بينها اثنتا عشر عاما في الاسر الشنيع — في افريقيا منقطع الصلة عن العالم المتمدين قدر لى حظى السعيد أن أعود الىاوربا الا انه من الواجب عليّ أن أقول بأن تغيراً عظيما فى سبيل العمران حدث في افريقيا فى هذه المدة فكثير من المناطق التى خاطر فيها أمثال المحترمين لفنجستون واسيك وجرانت وبيكر وستانلى وكرون وبراز وجنكر وشو نيفورت وهواب و ليغز ومئات غيرهم بأرواحهم العزيزة فى سبيل البحث عنها اصبحت (المناطق) قابلة الآن للنهوض المتمشي مع المدنية.فى كثير من المناطق التى قاسى فيها المكتشفون قبلا كثيرا من المخاطر توجد الآن قوى ومحطات عسكرية تساعد على نشر الامن وتسهيل التجارة التى تعد أهم عناصر التقدم فى الجهات المذكورة .

لئن تطلعنا الى الدول صواحب الشأن في تلك المناطق فانا نجدفى الشرق ايطاليا وانجلترا والمانيا وفى الغرب الكنغو (باجيكا) وفرنسا وانجلترا وتسعى كل من تلك الدول سعيا حثيثا فى زيادة النفوذ فى جهات مختلفة وترمين جميعا الى وضع الايدي على افريقيا الوسطي وقد بدأ رجال القبائل المتوحشة — الذين يعتبرون أقرب الي الحيوان منهم الى الانسان — يدركون حاجياتهم الضرورية وأن هناك أناسا ذوى مراتب سامية فى أنفسهم ويرجع ذلك الي المقدار الذي حصلوا عليه من المدنية والتقدم ولا شك عندى فى أن الممالك الاسلامية الصغيرة الشمالية كوادى بورنو وفلاتا سيدرك زعماؤها حاجتهم للتعاون مع الدول العظمى فى سبيل الاحتفاظ بحكمهم الوراثي

ذكرت المناطق السابقة ولم أشر الى الآن بشيء للبقعة التى قضيت فيها أكثر من عشر سنين ورغبتى في ذلك منحصرة فى تخصيص الذكر والكلام عند ورود اسم السودان بين المناطق الافريقية .

والآن أقول بانا نجد فى الناحية المتوسطة من أفريقيا بين الاراضى المذكورة أخيراً وحيال القوي الاوربية الباسطة نفوذها فى الشمال والجنوب والغرب نجد في تلك الناحية السودان المصري الذى يخضع اليوم لحكم الخليفة عبدالله واشياع المهدى وهم أشد الحكام قساوة وا كثرهم ظلما للرعايا .

ان الاوربي كائنا من كان لن يستطيع اجتياز ذلك السودان كزائر أو عامل وأقصى ما يحدث لذلك الاوربي لا يختلف عن أدنى ما يصيبه سوى اختلاف جزئى لا يؤثر شيئا فى النفس التي اعتادت الحرية والتى خلقها الله فى جسم الانسان لتشعر بسعادة الحياة الهادئة البعيدة عن العسف والمظالم من ناحية الحاكم صاحب الامر . وللايجاز أقول بان أقصى ما يصيب الاوربي في السودان هو الموت وأدنى ما ينتابه هو البقاء طول حياته أو أغلبها أسيراً مغلوبا على أمره . قد لا يجد فى الحقيقة فرقا بين الموت وبين تلك الحالة المؤلمة ولكنى عن شخصي أجد اختلافا ظاهراً هو تمتعى بالنجاة والحياة الحرة قبل موتي الطبيعي المادى.

اذن يتعرض الاوربي السائر لتلك البلاد البعيدة عن المدنية والممتدة جنوبا على طول النيل الى الرجاف وشرقا الى غربى كسلا على مقربة من وادى - للموت السريع أو لعيش مرير تحيط به مظالم المستبدين

لم يكن السودان تحت حكم مصر على مثل ما أصف من شدة على الاوربيين ولم نكن نحن الغربيين نتضجر من أمثال تلك المظالم فما هى الا عشر سنوات منذ وقع السودان فى قبضة المهديين حتى شاهدنا المظالم تترى والعسف يتوالى وانه لمن الحق أن أصرح بان السودان ظل اكثر من سبعين سنة — منذ دخله محمد على — تحت حكم مصر والمصريين فكان من ذلك العهد الطويل مفتوحا للجميع ومستعداً اقبول كل جديد تأتى به المدنية ويدعو اليه العمران

تحت حكم المصريين انتشر التجار المصريون والاجانب على السواء في مدن السودان الرئيسية وفي الخرطوم ذاتها كان للدول الاوربية العظمى ممثلون محترمون من الجميع وقد كان الاجانب من جميع الدول الاوربية متمتعين بحق الدخول الى السودان والخروج منه وهم فى كل من تينك الحالتين على أتم ما يتمنون من أمن

وهدو. وسلم. والى جانب ذلك سهلت المواصلات بين السودان وأبعد الممالك الاوربية بواسطة الرسائل التلغرافية والبريدية المنظمة

ان أعظم ما تمتع به السودان أثناء الحكم المصرى الطويل هو قيام كل فرد بشعائره الدينية وبنشر العلوم حسبما يوحى اليه ضميره فكنت ترى مساجد المسلمين وكنائس المسيحيين فى أماكن قريبة يقصدها أبناؤها بمطلق الحرية وفى هدوء واطمئنان كما كنت ترى مدارس المسيحيين الاوربيين منتشرة لتعليم العلوم الحديثة لا فرق فى ذلك بين الفلسفية منها والدينية والعلمية المحضة . كانت المناطق السودانية مقطونة بقبائل مختلفة وكان العداء فى كثير من الاحيان شديداً بين رجال القبائل ولكن حزم الحكومة المصرية أدي الى نشر السلم بين السودانيين على وجه عام سواء أكانوا فى ذلك راضين أم مرغمين

جاء دور المهديين فانقلب الحسن الي سيء وأصبحت الحال المهدية الجديدة غير الحال المصرية الاولى فانتشر الجزع والاضطراب فى البلاد السودانية وقد أبنت فى الفصول السابقة مقدار طمع وسوء ادارة الموظفين الجدد مما وصل بالبلاد الي حد أصبح ميسوراً معه نشوب الثورة

سعيت جهدى فى الفصول السابقة الي شرح ما قام به محمد احمد لاستغلال الموقف والظهور بين القبائل المتقاتلة فقد أيقن ذلك الرجل أن السبيل الوحيدة التي توفق بين اولئك المتخاصمين هي سبيل الدين فادعى أنه المهدى المرسل من الله تعالى لتحرير البلاد من النير الاجنبي ولاحياء الدين فكان ذلك العمل من جانب المهدى سببا رئيسيا فى ايجاد خلة التعصب الديني الذميم الذى زاد سوء الحالة فى الاثنتي عشرة سنة الاخيرة ودعا الى تذمر لا من الاجانب فحسب بل من السودانيين أيضا الذين وقعوا فى حبائل الفوضي والظلم

كان من المستحيل نجاح الثورة بدون التعصب هذا الي أنا وقفنا به (التعصب) أمام حالة حرجة هى حالة الحرب والجهاد بين المختلفين فى الدين ومن الغريب في امر ذلك السودان أنا لم نجد حالة توازن بين التعصب الممقوت والتسامح الحميد فكنا قريبين فى حالتنا من القرون الوسطى أو ما هو أبعد أمداً

سعيت — عندما ذكرت حياتي وأعمالي فى الفصول الاولى وعندما وقفت امام نذير التعصب الديني — الى السير بخطى متئدة فى سبيل تعقب الاسباب الرئيسية التى دعت الى الحالة الحاضرة ولئن قررنا حقا أن الحالة تغيرت عما كانت عليه في زمن المهدى وأوائل حكم الخليفة عبدالله فانا نذكر الى جانب ذلك أن الموقف لايزال خطيراً وهو في حاجة الى الايدى العاملة بنشاط بعد معرفة الحقائق والتفصيل حتي يتمكن أصحاب الشان من معرفة السبل التى يتحتم عليهم عبورها للاحتفاظ بالمدنية ونشر ألوية العدل فى ذلك الفضاء الواسع من الامة التي هوت الي حالة مكربة مؤلمة لا نستطيع وصفها بعد أن ضعف فيها المستويان الرئيسيان لبقاء الامم وهما الخلق والديني . والى جانب ذلك نذكر ما يطمع اليه الجميع سواء في ذلك الوطنيون والاجانب . من عدل شامل وطمأنينة محققة .

ان أول من ما يتبادر الى ذهن المفكر فى شؤون السودان بعد قيام حكم المهديين هو مصير المدنية الناشئة الجديدة التي وجدت فى سني حكم المصريين منذ عهد محمد علي فليس من شك فى أن تغيير الحال وحلول الفوضى محل النظام يولدان في العقل شعوراً صادقا بانقضاء كل أثر ظهر للمدنية في السودان قبل المهديين وهذا ما حدث بالفعل فقد اندثرت معالم المدنية رغم طراوتها وحدتها والسبب الرئيسى في اندثارها هو انتقال الحكم الي أولئك المستبدين الجهلة بل أذهب الى أكثر من ذلك فاقول إن سبب ضياع المدنية راجع الى ظهور نفوذ أولئك الهمجيين الذين أسسوا على انقاض الحكومة السودانية المصرية السياسية نظاما جديداً كان الي حد ما متبعاً خطوات النظام الماضى فى العرض ولكنه خالفه في الجوهر فبدلا من الحق والعدالة والاخلاق فى حكومة العهد المصرى تجد الظلم والباطل البربرى والتجرد من نظم الاخلاق في حكومة المهديين وأتباعهم . وانه لمن الواجب علىّ أن أقرر للقراء — غير مدفوع في ذلك بنزعة الثأر لنفسى مما قاست من ويلات ولكني مدفوع بوازع الضمير رغبة فى تقرير الحقيقة كلها — باني لن أستطيع ذكر أمة ظلت فى حياة المدنية أكثر من نصف قرن ثم هبطت الى الدرك الاسفل من الهمجية غير السودان .

لنفكر لحظة واحدة فى تلك القوة الجديدة التى برزت بروز الشر ودعت الى الفوضي فى ربوع السودان مما اعتبرها الاوربيون بحق عقبة كأداء فى سبيل المدنية الناهضة . ونذيراً بفشل المساعى الكبرى التى بذلوها فيالسنوات الاخيرة فيالكثير من جهات تلك القارة الافريقية الفسيحة.

سعيت فى الفصول الاولى الى تبيان أثر المهدىعندما صاح فى الناس أول صيحة وعندما ظهر نفوذه الواسع فى السودان فقد كان هذا الرجل سيد السودان الحقيقي فلم يكن يصدر أمراً حتي يسرع الاتباع لتلبيته وهم على استعداد لتفديته بالقلوب والارواح . كما أني ذكرت التعصب الذميم اللعين الذى أوجده المهدى فى حياته ثم أردفت ذلك بشرح تضاؤل ذلك التعصب بعد موته (المهدي) حيث حل محل القوة الدينية نفوذ جديد للخليفة عبدالله كان يتذرع فيه بالدين تذرعا اسمياً ولكنه فى الحقيقة كان مدفوعا بنزعة الظلم التىوجدت بين جنبيه منذ عرف الفارق بين الخير والشر . ولم تكن القسوة قاصرة علىالخليفة عبدالله ولكنها تعدته الى عرب القبائل الغربية فقد حل أولئك محل الجنود المصريين فأهلكوا الزرع والنسل وحكموا السكان المنكودى الحظ بقضيب من حديد فذاق أولئك السودانيون كل مرارة وابتلاهم الله بشر أولئك الجدد المستبدين مما جعلهم يذكرون ليل نهار فضائل الحكم المصري ثم دفعهم أ كثر من ذلك الى التذمر المنذر بالثورة والتطلع الى حكومة تمنحهم الهدوء والسلم .

انه لمن التطويل غير المحمود بل من التكرار الممل الموجع للنفس أن أعود لذكر الفظائع التى ارتكبها الخليفة عبد الله وأتباعه فى سبيل احتفاظهم بعرا كزهم الدينية والحكومية ولكن من واجبي هنا أن أذكر لقرائي أن خمسة وسبعين فى المائة — على أقل تقدير — من مجموع السكان فى السودان ماتوا إما بالحرب وإما بالجوع وإما بالامراض الوبائية الفتاكة فيبقي لنا بعد ذلك أقل من خمسة وعشرين فى المائة ليسوا فى حقيقتهم أحسن حالا وأفضل عيشا من الرقيق .

تذكرني كلمة الرقيق الاخيرة بذلك الطغيان البادى في تجارته فى السودان ولئن كان الرقيق فى بادىء أمره مقصوراً على العبيد فانه — بعد امتداد نفوذ عبد الله —

يضم الى دائرته العـدد الكبير من مسيحي الاحباش والسوريين والأقباط والمصريين المسلمين

ان القسم الواسع من السودان الذى يحكمه الخليفة عبد الله اليوم قد تغير فى نظامه عن الحكم المصرى ولكنه تغير لا يشرف صاحبه فقد أصبحت المناطق الخصبة المثرية الآهلة بالسكان صحراء مقفرة يخاف الناس ولوجها . فانك اليوم تجد السهول الكبري التى وطئتها أقدام قبائل العرب الغربية شبيهة بالصحارى لا يظهر فيها من المخلوقات غير الوحوش الضارية أما مواطن الآدميين على شاطيء النيـل فاصبحت مقطونة ببدو القبائل المرتحلة بعد أن طرد أولئك أصحاب البلاد الاولين أو استبقوهم لا لشيء سوي تفليح الارض واستثمارها لخير الاسياد الجدد .

حرم السكان الاصليون من جميع وسائل الدفاع عن النفس وأصبحوا — بعد مانزل بهم من جوز وعسف — في حالة فقدوا معها كل أمل فى الحصول على العطف من ناحية أولئك الاسياد الجدد . فضعفت أو تلاشت فيهـم قوة المقاومة واذن فالباقون من السكان الحاصلين على المساحات الضيقة المشرفة على النهر ليسوا أفضل من العبيد فى غير حالة واحدة هى حين تعريضهم للبيع فى سوق الرقيق

ما الذى يستطيع أولئك اليائسون المنكوبون عمله لمهاجمة أسيادهم الجدد الاقوياء ؟ إنهم أمام أحد أمرين فاما التسليم والبقاء فى عيش الذل . وإما الاعتراض وفى تلك الحالة يلاقون آجالهم بحد السيف

انه لمن المغالاة والجنون المطبق أن يفكر أحـد في أن المغلوبين على أمرهم فى عهد الخليفة عبد الله يستطيعون انهاء حالتهم المزرية بثورة داخلية لانهم لا يملكون شيئا من معدات الدفاع أمام قوة الحكومة الظالمة واذن لا بد من وصول العون والمدد من الخارج الى أولئك المنكودين . وعلى السكان المحليين أن يتحققوا أن الخير فى الثبات وعدم التقهقر بعد ظهور حكومة عادلة جديدة لان ظهور أى دليل من دلائل الضعف، والمقاومة لروح المدنية الجديدة سيضر التقدم المقصود ضررا بليغا

انه لمن الواجب على السودانيين — فى سبيل الاحتفاظ بتقدمهم المنشود والابتعاد

عن مصائب العسف والمظالم — أن يعتقدوا أن قوة الخليفة فى ضعف مستمر لان ذلك الضعف أعظم مساعد لارتفاع كلمة الحق ورجوع عصر المدنية

عندئذ يستطيع السودانيون الوثوق فى القوي الجديدة الخارجية التى ستساعدهم فى تحطيم قيود العسف والتطويح بالامبراطورية المهدية الجائرة

اني أطلب من القارىء أن يتمهل فى الحكم على ضياع نفوذ المهدى وعبد الله ومن والاهما فقد يتصور البعض مما سبق أن ذلك النفوذ الشديد سيزول قريبا ولكنى أعود فأؤكد أنه غير قابل للاندراس فى حد ذاته ولكنه عرضة لذلك التدهور بمؤثر خارجي فحسب على أن ذلك يستغرق زمنا غير قليل

أحيل قراء الكتاب الى الفصول الاخيرة السالفة ليعرفوا مقدار ما اتخذه عبد الله في سبيل الاحتفاظ بقوته الداخلية طول حياته حيال أعدائه الداخليين فليس غريبا أن يظل ذلك الاعتقاد راسخا فى فكر الخليفة وقابلا للتصديق عند الجميع مادام عبد الله فى أمن من أي اعتداء خارجى وتدخل أجنبي . واذن من المؤكد أن هذا الرجل سيظل صاحب السلطان طول حياته . أما بعد موته فمن المحتمل بل من المؤكد أيضا أن انقلابا عظيما سيحدث فى ربوع السودان وأن انفجارا هائلا سيتولد بعد الضغط الطويل

وأقرب مايتبادر الي الذهن هو أن ذلك الانقلاب ينتهى الي خلع الاسرة التى عني عبد الله منذ تولى خلافة المهديين بتأسيس حكمها الثابت ولكنى لا أستطيع التأكيد بان ذلك التغيير سيقرب السودان الى مصادر المدنية اكثر مما هى الآن

اذا عرفنا ذلك وجب علينا أن نقرر أن الخير لا يتم للسودان الا بواسطة مساعدة خارجية . ومهما يكن من شيء فان الغرض السابق قد لا يتفق اتفاقا رقيقا مع مقتضيات الحال في السودان اليوم

ان الذين يرغبون في دراسة حالة السودان الحاضرة ملزمون قبل أي اعتبار آخر أن يدركوا بان السودان اليوم ليس هو ذلك السودان فى أيام اسماعيل باشا عند ما تجلت المدنية بواسطة نفوذ الحكومة المصرية في الوقت الذى كانت فيه البقاع والامم المختلفة المجاورة للنفوذ المصرى اما فى درك الهمجية واما عابدة للاوثان حيث

لم يستطع الاوربي ضمان النجاة لنفسه اذا اجتاز احداها علاوة على أن جميع الاوربيين لم يكونوا معروفين ولم تكن حتى دولة واحدة من القارة الاوربية معروفة لدي الامم المذكورة كما أن العرب لم يظهروا فى غير القليل النادر

كان السودان اذن زهرة تلك البقاع والمتميز عن جميع ماجاوره بماله من مدنية ونهوض وكان ذلك كله في العهد المصرى ولكنى أقول — كما قلت قبلا — ان الهمجية تطرقت الى جوانبه عند ماجاء عهد المهديين

كان السودان على مقدار مذكور من المدنية والنهوض فأصبح منكودا متخبطاً فى طرقات الجهالة والظلم بعد أن ألقيت مقاليد الحكم فيه الي قوة همجية وحشية تكره النفوذين الاوربي والعثماني على حد سواء .

تلك هى الامة التى تعترض الطريق من النشوز المركزية القائمة على وادى النيل الى البحر الابيض المتوسط كما أنها الأمة التي تضع طابعها على المناطق التي كانت في وقت من الاوقات متمتعة بالهدوء والسلم وقابلة لكل مصدر من مصادر التجارة والمدنية والنهوض وانه لمن المحزن أن نذكر تدهور السودان وظهور ذلك الاضمحلال جليا لان المناطق التى كانت منحطة قبلا أخذت تنهض وتقوى فى حين نرى السودان متدهوراً .

أصبح من السهل وجود التبادل بين المناطق السالفة الذكر وبين العالم الخارجي وتدفق سبل التجارة بحيث لا يعترضه معترض كما كانت الحال قبلا . فأصبح كل أجنبي آمنا على حياته من الخطر فى حالة اجتياز أية منطقة وذلك بفضل حماية الحكومة الاوربية ويكاد يكون أحسن ما أذكره عن تلك المناطق أن العناصر الهمجية القائمة فيها أصبح افرادها يدركون أن الخطأ والجهل كل الجهل في مقاومة تيار المدنية وان الخير كله فى التمتع بظل النهوض الحديث

لننتقل فترة من التعميم الى التخصيص ونتساءل عن حقيقة الموقف الحالي فى السودان فنقول ان النفوذ المصري في الشرق السوداني يسير سيراً بطيئاً جداً لاسترداد ما كان له من أراض في الجهات المجاورة لسواكن وطوكر أما فى الجنوب

الشرقي فقــد استولى الايطاليون على كسلا وأجبروا المهــديين على إقامة خط دفاع قويّ في الشاطىء الغربي من نهر عطبرة

نسير مسافة الى الجنوب فلا نجد فى الوقت الحالى رغبة بين الاحباش فى تغيير ما بينهم وبين الدراويش من علاقات قديمة . أما فى المناطق الجبلية التابعة لفازغلو والنيل الازرق فقد جاهر السكان بعدائهم للخليفة ورغبتهم فى الابتعاد عن طاعته .

نتجه جنوبا مسافة طويلة أخرى الى منابع النيــل فنجد حركة جديدة للنفوذ الانجليزي وليس ذلك غريبا في تلك الجهات استطاع استيك وجرنت وبيكى تخليد اسمائهم واسم أمتهم الانجليزية بما قاموا به من اكتشافات مجيدة كما أنهم اكتسبوا حب الاهالى بما بذلوه من مجهود ضد الرقيق وتجارته . ولا شك أن هــذه الجهات ستتصل قبل مرور وقت طويل بشاطىء النيــل بواسطة سكة حديدية لا تساعد على فتح الجهات التى تجتازها فحسب بل ستساعد على ايجاد مخرج لتجارة الخط الاستوائي الجنوبي وما جاوره من الجهات واذن للنفوذ الانجليزى أثر ظاهر هنا بعد ذلك نذكر ولاية الكنغو الحرة التى تمكنت في السنوات القلائل الاخيرة — بفضل ما بذلته من مجهود عظيم — من ضم مقدار كبير عن الاراضي الى نفوذها

كان النفوذ الجديد لولاية الكنغو الحرة عظيما فلم يقتصر على مسيو مواوبانجي بل تعداه الي مناطق كثيرة من مديرية بحر الغزال وفى خط الاستواء حتى أن تلك الآية تمكنت من التقدم الى المكان المجاور لنفوذ الدراويش في الرجاف الكائنة على وادى النيل

فيما وراء ذلك النفوذ نجد على مقربة من أوبانجى العليا مساعي الفرنسيين وأحلامهم حيث يسعون السعى المتواصل في سبيل تحقيق آمالهم فى تلك الناحية كما حققوها فى جهات مختلفة من القارة الافريقية . اذا ذهبنا بعيداً الى الشمال الغربي وجدنا نفوذ الخليفة فى المناظر القائمة هناك معدداً بعدد القبائل المختلفة التي سيصبح أفرادها قريبا أو بعد زمن طويل خاضعين بمحض إرادتهم للنفوذ الاوربي الممتد الى داخل أفريقيا من الناحيتين الغربية والشمالية

أما في النهاية الشمالية فستقيم القوة المصرية التى بدأ الخليفة عبدالله يدرك خطرها

ويثق أنها، القوة المصرية ، ستكون أول من يتقدم للتدخل في شئون امبراطوريته المضطربة المزعزعة الاركان

من ذلك البيان الموجز نطلع على الموقف الحالى—من الناحية الدفاعية الهجومية — للمهدى في السودان فانه كامل العدة ومتين الشهرة فى داخل أملاكه ومناطق نفوذه ولكنه مهدد من جميع الجوانب الخارجية وهو ازاء ذلك التهديد لا يملك ما يدفع به غارة المحتاجين لان الشعب الذى يحكمه لا يخلص له بطبيعة الحال وقت الخطر والسبب فى ذلك معروف لدى القارىء وهو الرغبة في التخلص من جور عبدالله باية وسيلة وعندى قليل من الشك فى أن امبراطورية الخليفة ستحطم ويتقلص ظلها قبل هجوم قوي أية دولة متمدينة

اذاً ما الذى يجب عمله ؟

هل تصبح مصر مرة أخرى الحاكمة الفعلية الحقيقية للبلاد التى كانت مصر سيدتها الشرعية وما لكتها قبل حكم المهديين ؟

هل تدرك وتفهم جيداً كل مملكة من الممالك المتمدينة — السائرة مجردة عن الهوى الى شواطيء النيل الصالحة للملاحة — أن الواجب يقضى عليها بعدم محاولة قطع أو مقاومة مصدر حياة مصر النائية بتحويل منافع الماء الراوية الى الاراضى التي تحصل عليها كل منهن ؟

هل تسعى الممالك المتمدينة سعيا شريفا في كل ما يعملنه وتفكر كل على حدة في أن الفضيلة تقتضي التجرد عن الهوي وعدم تعريض مصالح مصر للخطر ؟ هل ترضى كل مملكة رضاء المخلص الشريف بعدم التقدم لسفك الدماء وانفاق الاموال فى سبيل غير مشروعة كل ما فيها مكسب لايجيء إلا من اعتداء غير مشروع ؟

هل تدرك كل دولة أنه من غير اللائق أن تتدخل فى شؤون مصر وحقوقها

...

-حن فى دائرة السياستين العملية والتدريبية وقد لايكون من عملى
- فيها ومناقشتها والافصاح عن غوامضها .

ان كل ما أرمي اليه هو الافضاء بآرائى المجردة عن الهوى والتى يدفعنى الى

تقريرها وازع من ضميرى يذكرني دائما باهمية وفائدة وقيمة السودان لمصر واني أصرح بعناصري لذلك الرأى ودفاعى عنه بكل مالى من قوة .

ان الاسباب التى دفعت محمد علي الى امتلاك السودان منذ ثلاثة أرباع قرن (نذكر القارىء المصري بأن سلاطين باشا كتب مؤلفه الذى ترجمه في عام ١٨٩٥) كانت ولا تزال وستبقى وجيهة جداً ويكفى تلخيص ذلك فى أن النيل حياة مصر .

فالواجب إذن قائم فى حفظ وادي النيل من أى اعتداء واذن يجب على المسئولين أن ينظروا بعين اليقظة والحذر الى أى تقدم من جانب دولة أو دول أجنبية الي طريق النيل العظيم لان الامر الذى لاريبة فيه ولا جدال هو أن انشاء مستعمرات على شواطىء النيل أمر عظيم الخطورة لان الدولة المستعمرة فى تلك الناحية قد تغلب مصالحها الشخصية ومطامعها الجديدة على مصالح مصر وسعادة المصريين وتقدمهم ورخائهم .

أذكر من الصفحات الاخيرة من كتابي فى الفصل الاخير اني أشرت في مواضع متفرقة من مؤلفي الى الاهمية العظمى التي لبحر الغزال وقد لا يكون من التكرار ذكر ما لذلك الاقليم السوداني العظيم من أهمية وماله من شأن بالنسبة للسودان على وجه عام .

ان ذلك الاقليم (بحر الغزال) أخصب أقاليم السودان ومساحته في مجموعها من أكبر المساحات المنتجة وأعظم ما يمتاز به بحر الغزال أنه يستمد ماء ريه من مجموعة جداول ومجار مائية على أنه فى كثير من نواحيه مغطي بالجبال والغابات التى تأوي اليها الافيال. أما الوديان الواطئة فخاضعة لحكم الفيضان

ان خصوبة تربة بحر الغزال تعد من الخيرات النادرة فى السودان فمن السهل الحصول منها على كميات كبرى من القطن والمطاط . هذا الى كثرة ما فى البلاد من أغنام وماشية .

أما عدد السكان فاستطيع تقديره بما يتراوح بين خمسة ر

والكثيرون من أولئك يصلحون لحمل السلاح الا أن العداوات المستمرة بين القبائل المختلفة تحول دون أي اتفاق عام بين السكان وذلك أكبر مساعد للدولة

الاجنبية على التقدم للاقليم الكبير المذكور والحصول على نفوذ ظاهر فيه وإنشاء قوة حربية داخلية فيه منحازة الى جانب تلك الدولة فمن السهل بطبيعة الحال اتحاد قوة موالية في منطقة عرفت باشتداد الشحناء بين أفرادها وتنافر رجال قبائلها المختلفين

كل ذلك مما يغري القوة الاجنبية الى التقدم ولكني أعود فأذكر التقدم المجرد عن الهوي وعساني أكون مغاليا فى توقع مثل ذلك العمل من أية دولة لا ترمي لغير شيء واحد هو مد نفوذها وتوسيع سلطانها

كانت مشراع الرق ميناء بحر الغزال منذ ظهر حكم المصريين في السودان وقد اعتادت البواخر الصاعدة من الخرطوم اجتياز تلك الميناء فى فترات دورية كل عام ولكنها في بعض الاحيان كانت تتعطل فى طريقها لما يعترضها من الاعشاب العائمة التي كانت بين آن وآخر تسد طريق النيل الاعلى . عند الناحية الجنوبية من فاشودة مباشرة بخرج النيل من بقعة يظن أنها كانت مقر بحيرة قديمة . تعترض ذلك السير الفسيح البطيء مجار مختلفة لجداول وأنهار وفى كثير من الاحايين تقف السدود في طريق السير السريع فكان المسافرون فى كثير من الاحيان مضطرين الى قطع هذه السدود العشبية بالسيوف والفؤوس . ومما يذكر في هذا الصدد أن بعثة السر صموئيل بيكر تأخرت عاما كاملا عن انهاء مهمتها بسبب اعتراض تلك السدود (البعثة المذكورة استغرقت ما يقرب من أربعة أعوام من ١٨٧٠ الى ١٨٧٤)

بالاطلاع على ماتقدم نجد مركز بحر الغزال من الوجهتين الجغرافية والحربية — مع مقارنته بمراكز باقي أقاليم السودان — عظيم الاهمية واذاً فوجود أية قوة أجنبية فى السودان لاتنظر لغير مصالحها الشخصية ونزعاتها الاستعمارية أو بمعنى آخر لايهمها بقاء المصالح المصرية فى السودان سيجعل بقاءها (القوة الاجنبية) فى مركز ممتاز يعرض مصر للخطر بل أذهب الي أكثر من ذلك فأقول إن ذلك البقاء سيحول دون تحقيق رغبة المصريين فى استرداد أقاليمهم الاولي التى فقدوها فى السودان وفي حالة رجوع مصر الى السودان مع بقاء تلك القوة الاجنبية سيكون نفوذ مصر فى خطر دائم . والسبب الرئيسى فى كل ذلك هو أن القوة الخارجية التي ستدخل بحر الغزال أو تسيطر عليه ستكون صاحبة النفوذ المطلق هناك وسيظل تحت يديها

كل مورد من موارد الخير فى ذلك الاقليم العظيم الذي يعد من وجهة الرجال والمواد أكبر وأعظم أقسام وادي النيل

تكلمت كثيراً فى الصفحات السابقة عن كل ما أعرفه عن حركات ومطامع الاوربيين في هذا الصدد واني لا أستبعد أن أية محاولة حربية من جانب دولة أوربية فى سبيل الوصول الى النيل عن طريق مشراع الرق أو بحر الحمر أو بحر العرب ستلقى اعتراضا كبيراً من جانب المهديين ولكن فى الوقت نفسه أقرر أنه اذا حدث مثل ذلك الاعتراض وقابله نشاط من جانب القوة الاوربية الجديدة فالنتيجة المحتملة جدا هي ضياع مناطق المهديين من أيديهم

لو أن الخليفة عبد الله على علم بان الاوروبيين « البيض » الموجودين فى بحر الغزال أقوى كثيرا مما يتصور وأكثر عدداً وأعظم تدريبا مما يعرف عنهم بواسطة التقارير غير المضبوطة التي تقدم اليه بين آن وآخر — لو أنه علي علم بذلك لما تردد فى مهاجمتهم قبل استفحال الخطر وفى تلك الحال يكون مضطرا الي ارسال مدد من جيوشه من أم درمان . وهذا العمل صعب وغير ميسور التنفيذ لان احتياطى جنوده يكاد يكون معدوداً ومنحصرا فى تقوية مواضع الخطر من عطبرة مقابل كسلا وفي مديريه دنقلة . هذا البيان الموجز يوضح لنا ضعف قوة الخليفة ويثبت ما أشرت اليه سابقا عن عدم تمكن عبد الله من أى وقوف في وجه اعتداء خارجي ولا ريب أن مثل ذلك النفوذ معرض للضياع ومهدد بالتلاشي خصوصا اذا ذكرنا الى جانبه العداء الشديد الموجه من سكان البلاد الداخلية لحاكمهم عبد الله

نعود الآن عودة سطحية الى الموقف الدرويشى فى دارفور وكردوفان فنذكر قبل كل شيء أن القوة الحالية للامير محمود لا تتعدى بضعة آلاف من حاملي البنادق والضاربين بالرماح واولئك على قلتهم ليسوا فى بقعة واحدة ولكنهم موزعون فى مخافر الفاشر . أما محمود نفسه فيقيم فى الفاشر مع القسم الاكبر من تلك القوة على أنه فى مناوشات دائمة مع قبائل دارحجر ومسالت وتاما وبنى حسين وحوتر وقبائل أخرى فى منطقتى كبكبيه وكلكول .

لم يوفق الامير محمود توفيقا متواصلا فى عمله وقد يرجع ذلك — الى حدما —

لقلة عدد المقاتلين معه أمام أعدائه الكثيرين ومهما يكن من شيء فاني أذكر لتقرير الوقائع أن أحد كبار مساعدي محمود الحربيين واسمه فضل الله قدقتل أخيراً في معركة هجومية وهزم جنوده المحاربون معه (وعددهم ستمائة) في معركة حامية مع القبائل المعادية الثائرة . واني أذكر جيداً أن الاوامر صدرت — في الوقت الذي غادرت فيه أم درمان — الى الامير محمود بارسال قوة لتأديب الثوار من الفاشر والظاهر أن هذه القوة نجحت نجاحا جزئيا عوض شيئا من الخسارة السالفة الذكر التي مني بها الدراويش .

قد يحسن بي أن أذكر كلمة سطحية عن القبائل المذكورة المعادية لنفوذ المهدى فأقول إنها من الوجهة الظاهرية الصورية مستقلة أى أن استقلالها اسمى ولكنها فى الواقع تدين بشيء من الطاعة الى سلطنة واداي. وأفراد القبائل المذكورة يعدون فى الوقت نفسه على شيء كثير من الولاء لاصحاب النفوذ فى سلطنة واداى واذاً من الخطأ الواضح أن يعتقد معتقد — كما شاع بين الكثيرين من الاوربيين وغيرهم فى السودان وخارجه — أن اولئك الثائرين كانوا عاملين تحت قيادة رابح الزبير . لان هذا الزعيم السوداني (رابح) شديد العداء لوادای ولن يسمح بأن يكون المؤتمرون بأمره على شيء — ولو قليل جداً — من الولاء لواداى. وعلاوة على ذلك فان نفوذ رابح هذا لا يمتد فى مسافته الى الناحية الشرقية والمعروف والمحقق أنه (نفوذه) قائم في الاقسام الواقعة الي جنوبي وغربي بحيرة تشاد .

على تلك الحال كانت الشؤون جارية في تلك المناطق الجنوبية والغربية عندما غادرت السودان . ولم أكد أصل الى البيئة المتمدينة حتى قرأت فى الصحف تقارير وأنباء غريبة ومتناقضة في بعض المواضع عن الحال فى الاقاليم المذكورة

تكلمت كثيراً عن احتمال تقلص ظل الامبراطورية المهدية وتلاشي نفوذها فى الوقت الذى تتقدم فيه دولة متمدينة الى قلب السودان ولكنى بخبرتي الواسعة في السنين التي قضيتها في قلب النفوذ الدرويشى أتقدم بمحض الاخلاص بكلمة تحذير الى الامة التى قضيت السنين الطوال فى الاشادة بذكرها وطلب التقدم المستمر

لها وبعنى آخر أريد التقدم بالنصيحة الى الامة التى دعوت لها بحياة ناهضة سعيدة ازاء تجديد عهد السودان المصري .

انى أذكر لها فى ايجاز كلى أن المد والجزر لن ينتظرا انسانا كما أنهما فى بعض الاحيان لن يتركا فرصة البقاء لانسان

أريد في ختام مؤلفي أن أكون أكثر صراحة فأقول إن مصر التى تطلعت وتتطلع الى استرداد ما فقدته فى السودان من يدى الخليفة قد تقف فى سبيلها أمة أخرى لا تكتفي باستخلاص المناطق من يدى الخليفة بل تعمد الى عرقلة المساعى المصرية والى إدخال وسائل الرى الهندسية فى الجهات التي تستمد منها مصر حياتها المائية وفي ذلك خطر جسيم على مصر لان الدولة الجديدة صاحبة الوسائل الهندسية ستنظر الى خيرها أولا فتهدد مصر تهديداً ظاهراً . واذاً — وهذا أخف الضررين وأهون الشرين — ستحرم الدولة الجديدة صاحبة الحق القديم من خيرات التجارة الواسعة التى كانت — تحت ادارة طيبة في السودان — مصدر ثراء وتهوض للقطر المصرى صاحب الحق الشرعى ولكل أقاليم النيل المنضوية تحت لواء مصر

بهذه الكلمات القليلة الصادرة عن اخلاص شديد نحو الامة التى عدت اليها بعد اثنى عشر عاما من سنى الاسر الشديدة على النفس — أتقدم في ختام مؤلفي الى مصر ولكنى قبل الختام أشير الى حادثة واحدة قد تساعد على رد مافقدته مصر من حيث الامل فى الاسترداد . عندما أجبرت في شهر ديسمبر عام ١٨٨٣ على الخضوع والتسليم لرجال المهدى كنت معتزاً بسيف نفيس من سيوف الوطن النمساوي وقد حفرت عليه بحروف عربية اسمى كاملا غير منقوص فى تفاصيله ولكنى حرمت مع الاسف حق حمل ذلك السيف وبالتالي وقع بين أيدى رجال المهدى وبطبيعة الحال لم أفكر لحظة واحدة في استرداد ذلك السيف العزيز ولكنى عند ما ذهبت الى لندن فى شهر أغسطس عام ١٨٩٥ لحضور المؤتمر الجغرافى تسلمت هذا السيف بواسطة المستر جون كوك أحد رؤساء شركة كوك وكان ذلك فى مكتبه فى لدجسيت سركس . وقد ظهر لي أن المستر جون كوك اشترى ذلك السيف من وطنى فى الاقصر عام ١٨٩٠ عند ما كان ماراً بباخرته في شاطىء النيل عند اسوان . فقد

شغف المستر جون باقتناء السيف لوجود الاسم العربي المحفور عليه وبعد قليل من شرائه تمكن بواسطة صديق الماجور ونجت من الوقوف على صاحب الاسم المحفور وهو بطبيعة الحال اسمي .

ويخيل لي أن المهدى قدم سيفي هدية لاحد أتباعه الذين اشتركوا فى الغارة على مصر تحت قيادة النجومي فى عام ١٨٨٩ وأنه عندما تغلب الجنرال سرفرنسيس جرنفيل على النجومي فى توسكي وقع حامل سلاحى بين المقتولين أو الاسرى وبعد ذلك أخذ أحد أفراد توسكي ذلك السلاح ثم سار به الى مصر ووجد بحكم الصدفة في الاقصر أثناء مرور المستر جون كوك الذى تمكن من ابتياعه كأثر عربي.

ان فقد السلاح فى مجاهل دارفور ثم الحصول عليه فى قلب لندن أمر مدهش جداً وهو فوق المصادفات العادية . واذن لاقنوط ولا يأس فقد ترجع الاقاليم التى فقدت الى يدى صاحبها القديم رجوعاً لم يكن يخطر على بال

عشت فى خلال الاعوام الستة عشرة الاخيرة عيشة مدهشة لا يكاد يتصورها العقل وقد سعيت جهدى في اثنائها الى الحصول على اختبارات واسعة من أبسط عيشة فى أيامي العادية البعيدة عن مظاهر لها كافة

شرحت لقرائي في الفصول السابقة كل ماحدث لي على أبسط صورة ولست أرمي من وراء ذلك الى توليد الاهتمام والشعور بالخطر فى قلوب المهتمين بالاسارى الاوربيين فى السودان فحسب ولكني قصدت أكثر من ذلك أن تكون لتفاصيلي أهمية كبرى عند ما يجد وقت العمل وعند ما يبحث العاملون بحثاً جديا في خلاص المغلوبين على أمرهم وعند ما يسمح الله باستخدام معلوماتي ومجهوداتى في سبيل إبادة الظلم الدرويشي وإزالة حكم سيدى الجائر وعدوى عبدالله الذي سيظل ألد أعدائى طول الحياة التى أحياها في الدنيا

بعد أن يزول ذلك العهد الجائر أدعو الى تأسيس الحكومة العادلة التى تمنيت كثيراً ظهورها في السودان فبذلك يزول الظلم ويحل العدل والهدوء فى اقليم كبير محتاج الى المدنية الهادئة

﴿ تم الكتاب ﴾